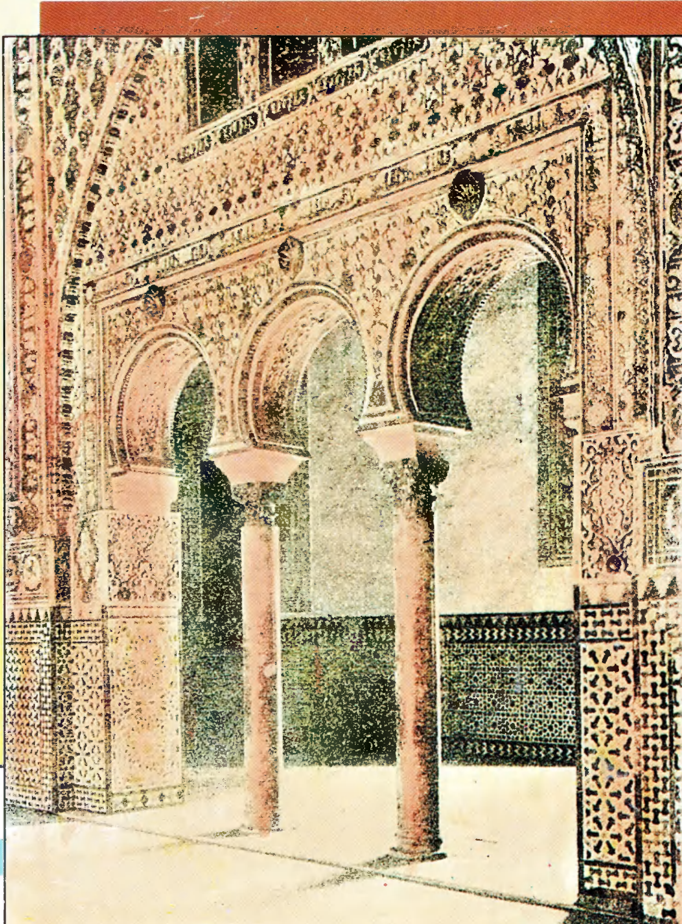
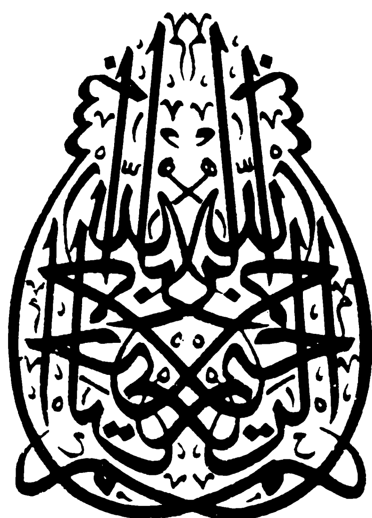
د. يوسف بن أحمد حواله

بنو عبَّاد في إشبيلية

٤١٤ - ٤٨٤ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٩١م

دراسة سياسيَّة وحضاريَّة





بنو عبّاد في اشبيلية

٤١٤ - ٤٨٤ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٩١م

دراسة سياسيّة وحضاريّة

د. يوسف بن أحمد حوالة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

قدم هذا البحث كرسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز «شطر مكة المكرمة» عام ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م. وقد اشترك في مناقشتها كل من:

- الأستاذ الدكتور أحمد السيد دراج **مشرفا**
- الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود **عضوا**
- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمي محمد **عضوا**

وحصل بها مؤلفها على الدرجة بتقدير ممتاز.

« بسـم اللـه الرحمـن الرحـيم »

(مـقدمـة)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده . .

وبعد/

فقد كنت وما أزال ذا كلف شديد بالدراسات الأندلسية والشغف بها، ومن وحى هذه الرغبة الذاتية جاء اختيارى لهذه الدراسات الأندلسية مجالا رحبا لرسالتى فى الماجستير. والدراسات الأندلسية مازالت ميدانا فسيحاً لم تستطع الدراسات التاريخية والأدبية التى تمت حتى هذه اللحظة أن تستوعبه وتحتويه وتكشف عن أهم دقائقه وتفاصيله، ذلك لأن الدراسات الأندلسية لم تبدأ على يد المستشرقين إلا منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، كما أنها لم تبدأ على يد الكتاب والمؤرخين العرب مشارقة أو مغاربة إلا فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى.

ومن المستشرقين الذين كان لهم دور ملحوظ فى الكشف عن خبايا الروائع الأندلسية المؤرخ الهولندى راينهرت دوزى، وخليان ربيرا، وفرانسسكوا كوديره، وآسين بلاجيوس، وجاينجوس، ثم المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال الذى كان ذا حظ عظيم فى اكتشاف كثير من المخطوطات الأندلسية القيمة، ثم معاصريه من أمثال (رامون) مننندث بيدال وأمبروسى هويسى ميرانده، وأميليو غرسيه غومس وآنخل جنثالت بالنثيا وغيرهم.

وقد دفعت هذه الجهود العلمية كثيرا من الباحثين العرب المشتغلين بالأدب والتاريخ مشارقة بدرجة أوسع ومغاربة على نطاق أقل إلى الاهتمام بالدراسات الأندلسية وغوص ميدانها الرحب. وكان ذلك ابتداء من مطلع القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى أمثال أحمد زكى، وشكيب أرسلان، وعبد الحميد العبادى، ثم جاء جيل آخر من المشارقة ليدفع بالدراسات الأندلسية شوطا بعيدا.

ومن هؤلاء حسين مؤنس، أحمد مختار العبادى، السيد محمود عبد العزيز سالم، حسن أحمد محمود، عبد العزيز الأهوانى، لطفى عبد البديع، محمود على مكى وغيرهم، وكان لجهود محمد عبد الله عنان التى قام ومازال يواصلها دورٌ كبير في تقدم الدراسات الاندلسية والكشف عن مكنوناتها.

ومع هذا فيتراءى لى بحكم ما توافر لى من خبرة متواضعة فى هذا المجال أن الدراسات الاندلسية بشقيها التاريخى والحضارى مازالت بحاجة إلى البحث والتنقيب والدراسة والتحليل. ويتراءى لي أيضا أن هناك صفحات من التاريخ الأندلسى لم تنشر بعد بفعل الظروف الدقيقة التى عاشتها المصنفات الأندلسية، وخاصة بعد إجلاء المسلمين عن أسبانيا، ومحاكم التفتيش وطمس آثارهم.

وبوحى من هذا المفهوم، وتحقيقا لرغبة ذاتية محضة عنّ لى أن أشارك فى مسيرة الدراسات الأندلسية التى نشطت فى النصف الثانى من القرن العشرين نشاطا كبيرا ومؤثراعلنى قد أتمكن من نشر صفحة مطوية، أو تصحيح فكرة، أو مفهوم خاطىء.. إلى غير ذلك.

ولقد اجتزأت من ذلك السجل، وذلك التاريخ الإسلامي المشرق في أحيان، والقاتم فى أحايين أخرى موضوعا جعلته عنوانا لرسالتي فى الماجستير هو: بنو عباد فى إشبيلية دراسة سياسية وحضارية (٤١٤ ـ ٤٨٤هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٩١م).

ولقد كان هذا الاختيار فى واقع الأمر نابعا عن رغبة دفينة فى النفس تطمح إلى تحسس الأسباب التى أدت إلى زوال الوجود الإسلامى فى الأندلس من جهة، وتطمح فى الوقت نفسه إلى الغوص بعيدا فى تلمس الإسهامات الحضارية التى أهداها الأجداد بالأندلس لمسيرة البشرية العلمية والحضارية ارتواء من معين المجد التالد أولا، وحفزاً للهمم والعقول الإسلامية والعربية ثانيا.

ولعلى أزعم أن هذا الموضوع الذى انتقيته من التاريخ الأندلسى ذو أهمية بالغة فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى الأندلس. فدولة بنى عباد ظهرت فى التاريخ الأندلسى بعد إنتثار وحدة الدولة الأموية وبعد سقوط الخلافة لا بل فى سنوات إحتضارها الأخيرة. بل يمكن أن نقرر أنها كانت هى وغيرها من ممالك الطوائف الأخرى نتيجة مباشرة لذلك السقوط، كما كانت دولة بنى عباد هى

وغيرها من ممالك الطوائف سببا أساسيا فى تصدع الوجود الإسلامى فى الأندلس كلية. وكـان ظهور تلك الممالك وما مارسته من ثم من سياسة، وما ارتكبته من أخـطاء اسـتراتيجية فادحـة إيذانـا بضياع الأندلس، ذلك لأن القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كان مسرحا لمنعطف تاريخى بارز ومهم فى تاريخ أسبانيا الإسلامية والنصرانية على السواء إذ شهدت أسبانيا الإسلامية في هذا القرن انهيار الخلافة الأموية ومن ثم تصـدع وحـدتها وما تلا ذلك من تفتت وتمـزق سياسي شهدت فيه الاندلس نشوء حكم دويلات المدن أو ممالك الطوائف كما سماها معظم المؤرخين أو دول الفرق[1] والتى بلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة، وقد مارست هذه الدول سياسة إقليمية ضيقة الأفق ودخلت فى منازعات ضد بعضها البعض وكادت هذه الممارسات الخاطئة أن تعجل فى إنهاء الـوجـود الإسـلامى لو لم يقيض الله للأنـدلس قوة فتية مدت فى عمـر الوجود الإسلامى أربعة قرون أخرى، أعنى بذلك المرابطين، وفى نفس الوقت شهد ذلك القـرن صحـوة أسبانية نصرانية انتقلت بأسبانيا المسيحية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. ونمت وترعرعت خلال سنوات ذلك القرن خمس دول نصرانية، استقـرت أحوالها فى الأغلب الأعم واستغلظ عودها وانتهجت مستغلة الأوضاع الحرجة للمسلمين آنذاك، سياسة تهدف إلى انتزاع أراضى الآباء والأجداد كما كانـوا يصرحـون دائـما. هذه السياسة هى التى عرفت تاريخيا بحركة الاسترداد الأسبانية. ولقد اضطلعت مملكة قشتاله الأسبانية آنذاك بالدور الرئيسى فيها، وكـان لملوكهـا ابتـداء من عهـد الملك فردنـانـد الأول الدور الأساسى فى تلك السياسة، إذ كان فردناند هو أول من بلور حركة الاسترداد وأعطاها الشكل الذى سارت عليه وقتذاك، كما سيتضح لنا فى ثنايا الرسالة.

وفى ظل هذه الأوضاع فى أسبانيا الإسلامية والنصرانية معا واجهت الكثير من المصـاعب، إذ لا يمكن فصل تاريخ دولة بنى عباد عن تاريخ ممالك الطوائف الأخـرى. وكيف يمكن أن يحدث ذلـك وهم القـوة السياسية الكبيرة المؤثرة فى

---

(١): وردت هذه التسمية على لسان ابن الكردبوس فى كتابه الاكتفاء، ص ٧٨.

التـاريخ الأنـدلسى فى القـرن الخامس الهجرى بحكم ما توافر لهذه الدولة من مقومات قوية؟؟. إذ أنه ليس خافياً أن نؤكد بأن مملكة بنى عباد كانت وقتها قطب رحى ممالك الطوائف وواسطة عقدها. وكانت معظم أحداث الأندلس وقتذاك قد ارتبطت بهذه الدولة قليلا أو كثيرا وكان بنو عباد القوة السياسية المؤثرة سلبا وإيجابا فى مجريات الأمور السياسية والأدبية أيضا فى الأندلس فى تلك الفترة موضوع بحثنا.

ومن هنا كان لابد لى لمعرفة تاريخ بنى عباد، ومن ثم التحدث عنه من الإلمام بتاريخ الممالك الإسلامية والنصرانية معا. ذلك أن تسلسل الأحداث ومقتضيات الأشياء تدفع إلى معرفة القوى السياسية الأخرى التى كانت تموج بها أرض أسبانيا بشقيها المسلمة والمسيحية آنذاك.

ولعل من المسلمات التاريخية التى كثيرا ما تصدق فى كل زمان ومكان أن نجد فى مقابل الانحلال والتمزق السياسى الذى تشهده منطقة ما نجد فى المقابل تطورا وازدهـارا حضـاريا مميزا. فالقـرن الخـامس الهجـرى بقدر ما يعتبر قرن تدهور وانحـلال وتمـزق سياسى بقدر ما كان نقطة مضيئة فى تاريخ التمدن والحضارة الأندلسية. إذ شهدت الأندلس أدبا رفيعا وتمدنا ثقافيا وعلميا كبيرا. كما شهدت الحياة الاجتماعية والمعاشية ترفا حضاريا راقيا.

ذلك شىء مسلم به، فالشرق الإسلامى شهد ما يماثل هذا الوضع فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

بقى أن أشير إلى إن هذه الدراسة المتخصصة عن بنى عباد لم تكن الأولى من نوعها، فقد سبقنى إلى الولوج فى هذا الموضوع بعض من الباحثين المحدثين. وكان منهم من انصب اهتمامه على الحياة السياسية للدولة كعبد السلام الطود، وكان هناك من انصرف اهتمامه إلى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فى دولة بنى عباد كمحمد بركات البيلى الذى أعد رسالته للماجستير بهذا العنوان، وكصلاح خالص الـذى كتب مؤلفا بهذا العنوان، وهناك من تناول شخصية ملك من ملوك بنى عباد، وهو المعتمد بالذات فتناولوا بالحديث شخصيته بدرجة أساسية وركزوا على الجانب الأدبى فيها، ومن هؤلاء صلاح خالص نفسه، وعلى أدهم، وعبد الوهاب عزام، ورضـا الحبيب السويسى، وأحمد أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد. وأما

دراستى هذه فتتناول التاريخ السياسى لدولة بنى عباد مذ كانت حلما راود مؤسسها القاضى أبى القاسم محمد بن عباد حتى سقوطها بيد المرابطين أخيرا، فضلا عن أبرز مظاهر التطور الحضارى بها وبمعنى أننى تابعت الأحداث السياسية لهذه الدولة طوال مدة حكمها التى ناهزت بضعا وسبعين سنة برؤية جديدة وطرح جديد بحكم ما زخرت به الدراسات الأندلسية أخيرا أى فى الثلث الأخير من القرن الميلادى الحالى. اذ شهدت الدراسات الاندلسية حديثا نشاطا تاريخيا وأدبيا مهما واضطلع بعض الباحثين من العرب والأجانب بكشف الستار عن كثير من المصادر النفيسة وأخرجوها إخراجا منهجيا دقيقا أتاح الفرصة للكشف عن مزيد من تفاصيل الحياة السياسية والحضارية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى مثل كتاب ابن حيان: المقتبس، وكتاب ابن الكردبوس: الاكتفاء، وكتاب ابن الأبار: الحلة السيراء الذى حققه حسين مؤنس أخيرا تحقيقا تاريخيا وأدبيا، ثم المصدر المعاصر والمهم جدا وهو مذكرات الملك عبد الله بن زيرى ملك غرناطة إحدى دول الطوائف آنذاك والذى عثر عليها المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال كما شهد القرن العشرين الميلادى اهتماما ملحوظا من جانب المؤرخين العرب المشارقة والمغاربة. فظهرت مصنفات جديدة ساعدت الباحثين كثيرا فى فهم الحياة السياسية والاجتماعة والاقتصادية فى الأندلس كما سيتضح بعد قليل.

ومن هنا أحسب أنى قد شاكلت الصواب، كما أحسب أنى قد استطعت رسم صورة تكاد تكون موضوعية للحياة السياسية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى على وجه التخصيص فى الإلماع بشيء من أهم مظاهر التطور الحضاري فى إشبيلية خاصة وفى الأندلس عامة كما يومىء الى ذلك عنوان رسالتنا.

وفيما يتعلق بخطة الموضوع بدا لى أن تكون على النحو التالى:

تمهيد وخمسة أبواب ثم الخاتمة ثم الملاحق. فقد رأيت اقتضاء لمنهجية البحث العلمى أن يسبق حديثى عن دولة بنى عباد باسبيلية تمهيد تاريخى يوضح الظروف التى نشأت فى ظلها مملكة بنى عباد. ولذلك فقد عنونت التمهيد بالعنوان التالى: حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وقسمته إلى فقرتين هما الفقرة الأولى بعنوان: سقوط الدولة الأموية وعرضنا فى هذه الفقرة الأحداث والحقائق التاريخية

التى شهدتها الأندلس منذ قيام دولة بنى أمية بصورة مقتضبة، وتوسعنا فى الحديث عن الأحداث التاريخية التى شهدتها الأندلس منذ وفاة الخليفة الحكم المستنصر وتولى ابنه الخليفة هشام السلطة من بعده وما تلا بعد ذلك من وقائع أدت إلى قيام دولة بنى عامر التى أسسها المنصور بن أبى عامر أحد رجالات الدولة البارزين فى قلب الخلافة الأموية ثم إنتهاء الدولة العامرية وبداية الفتنة التى عرفت اصطلاحا بالفتنة البربرية وما تبع ذلك من ظهور خلفاء ضعاف فى الدولة الأموية ثم ظهور دولة بنى حمود التى أسسها على بن حمود أحد رجالات الدولة الأموية آنذاك فى قلب الخلافة الأموية ثم سقوط الدولة أخيرا عام **٤٢٢** هـ ثم عقبنا بعدُ بتحليل الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوط الدولة وعرضنا فى ثنايا ذلك لنشوء ممالك النصارى.

أما الفقرة الثانية من التمهيد فقد عنوناها بالعنوان التالى: قيام ممالك الطوائف وأشهرها. تحدثنا فيها عن كل دولة فى اقتضاب من حيث موقعها ومؤسسها ونهايتها، وعقبنا من بعد بنبذة وافية عن العناصر التى كونت هذه الممالك والظروف التى هيأت لها ذلك.

أما الباب الأول فقد اخترنا له العنوان التالى: قيام دولة بنى عباد وقد قسمناه إلى أربع فقرات، الفقرة الأولى: أصل بنى عباد. وبسطنا الحديث فى هذه الفقرة عن أصل بنى عباد والأقوال التى قيلت فى ذلك ثم مساكنهم وبداية ظهور أمرهم. والفقرة الثانية تحدثنا فيها عن الموقف السياسى فى الأندلس قبيل قيام دولة بنى عباد. وعرضنا للموقف السياسى فى أقاليم الأندلس وعاصمة الخلافة قرطبة بالذات، والموقف مع خلفاء بنى حمود. ثم رسمنا صورة للموقف السياسى فى ممالك النصارى. وفى الفقرة الثالثة وعنوانها: إشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها. تعرضنا فيها للأسباب والظروف التى هيأت للقاضى أبى القاسم محمد ابن اسماعيل بن عباد الاستبداد بالأمر فى إشبيلية بحكم منصبه القضائى العالى الذى جعله الشخصية الإشبيلية البارزة فى ذلك الوقت، . وتحدثنا عن مقومات تكوين الدولة التى ستنشأ على التو.

والفقرة الأخيرة من الباب الأول خصصناها للحديث عن دولة القاضى أبى القاسم محمد (٤١٤ ـ ٤٣٣هـ/ ١٠٢٤ ـ ١٠٤٢م) وفرعناها إلى نقاط عدة مثل:

تكوين مجلس الرئاسة الذى اضطلع بحكم إشبيلية بعد تخلصها من نفوذ بنى حمود، ثم شرحنا أبعاد الموقف السياسى غداة استقلال إشبيلية فى الممالك الإسلامية والنصرانية معا ثم خطوات القاضى أبى القاسم فى الاستئثار شيئا فشيئا بالحكم لنفسه، والخطوات التى قام بها إلى أن استطاع أن يؤسس دولة بنى عباد ويصبح حاكمها المطلق ثم تحدثنا عن سياسته الداخلية والخارجية حتى وفاته.

أما الباب الثانى فقد خصصناه لثانى ملوك دولة بنى عباد واخترنا عنوانه على النحو التالى: الدولة العبادية فى عهد المعتضد بالله، وقسمناه بدوره إلى فقرات خمس:

الفقرة الأولى: تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه، حللنا فيها شخصية هذا الملك التى دمغت بكثير من صفات الذم والقدح. ثم تحدثنا فى الفقرة الثانية عن: الموقف السياسي فى أسبانيا الإسلامية والنصرانية غداة تولى المعتضد السلطة، والفقرة الثالثة خصصناها للحديث عن سياسة المعتضد الخارجية فيما عنوناهاب: التوسع العسكرى على حساب إمارات عربية غربية مجاورة لمملكة بنى عباد. ثم اقتضانا التسلسل المنطقى للأحداث أن نقطع حديثنا عن السياسة الخارجية، فنورد فقرة عن حدث داخلى مهم وقع فى الدولة وهو انشقاق إسماعيل بن المعتضد على أبيه وتمرده عليه وما أفضى ذلك من القضاء عليه ثم عدنا إلى التحدث عن السياسة الخارجية للدولة، فتعرضنا بالحديث عن التوسع العسكرى على حساب الإمارات البربرية فى جنوب الأندلس، وتحدثنا فى الفقرة ما قبل الأخيرة من الباب عن نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى عهد المعتضد بالله، وقد استفاض بنا الحديث فى هذه النقطة، ورسمنا صورة نزعم أنها دقيقة للأوضاع ولنشاط تلك الحركة التى استهدفت انتزاع أراضى الآباء والأجداد كما كانوا يصرحون ومواقف كل مملكة من ممالك الطوائف الكبرى من تلك الحركة كمملكة سرقسطة، وطليطلة، وبطليوس، وأشبيلية وغيرها من الممالك الأخرى.

وقد ختمنا الباب بفقرة خصصناها لحياة المعتضد العائلية والشخصية ثم وفاته واستأثرنا ثالث ملوك هذه الدولة بالباب الثالث وأطلقنا عليه العنوان التالى: الدولة العبادية فى عهد المعتمد بالله، وقسمناه إلى خمس فقرات، تحدثنا فى الفقرة الأولى

منه عن تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وأقوال المؤرخين فيه التى حملت طابع المدح والثناء دونما موضوعية فى كثير من الأحيان، ثم تعرضنا للموقف السياسى فى أسبانيا الإسلامية والنصرانية غداة تولى المعتمد السلطة، ثم تحدثنا عن السياسة الخارجية للمعتمد وظهور أمر الوزير محمد بن عمار الاشبيلى والدور الذى اضطلع به فى تلك السياسة وبعد ذلك أسهبنا فى فقرة مستقلة عن خروج الوزير ابن عمار على المعتمد وما جرى بعد ذلك من أحداث أدت فى النهاية إلى مقتله على يد المعتمد نفسه، وخصصنا الفقرة الأخيرة من الباب عن الحياة العائلية والسمات المميزة لشخصية المعتمد بكل ما لها وما عليها.

أما الباب الرابع فقد عنونته بالعنوان التالى: تطور الأوضاع السياسية فى الأندلس ونهاية دولة بنى عباد. وأحسب أنى قد بذلت جهدا شاقا فى هذا الباب، بل أستطيع أن أقرر بأنه لب الرسالة ومركز الثقل فيها. وقد قسمته إلى أربع فقرات:

الفقرة الأولى: تحدثت فيها عن اشتداد نشاط حركة الاسترداد المسيحى الذى قابل فى الممالك الإسلامية ضعفا وتمزقا وحروبا أهلية أتاحت لتلك الحركة أن تقوى وتشتد ثم ما أدى ذلك إلى أحداث خطيرة أهمها سقوط طليطلة، وتحول حركة الاسترداد من حركة أسبانية محلية إلى حركة صليبية نصرانية بعد تدخل البابوية وبعض الإمارات الأوربية.

وفى الفقرة الثانية تحدثت عن تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو بن فردناند ملك قشتاله الذى اضطلع بالدور الرئيسى بالاضافة الى الشخصية القشتالية الأخرى وهو السيد القمبيطور وبين المعتمد بن عباد. ثم بسطنا الحديث عن ردود فعل سقوط طليطلة عاصمة مملكة بنى هود وواسطة عقد ممالك الطوائف فى الأندلس. وفى العالم الإسلامى وما أدى ذلك من خطوات سياسية مهمة ونعنى بها قضية التفكير بالاستعانة بالمرابطين القوة الفتية التى بسطت سيطرتها على المغرب الأقصى والأوسط، والجهود الشعبية والرسمية التى تمت بشأن ذلك وجهود المعتمد بالذات، وما قيل حول هذا الموضوع. ثم تعرضنا بالحديث عن إقتناع المرابطين بضرورة التدخل فى الأندلس ومن ثم جوازهم إلى الأندلس ليساعدوا ملوك الطوائف ضد النصارى. وتحدثنا فى فقرة خاصة عن تسارع الأحداث فى

الأنـدلس، ومـا أدى ذلـك إلى اللقاء المباشر بين النصارى والمسلمين فى موقعة الزلاقة، وأسهبنا كثيرا فى النهاية فى الحديث عن الظروف والأسباب التى جعلت المرابطين يقررون خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد بن عباد، وما تم بعد ذلك فعلا من خطوات لتحقيق هذا الهدف.

أمـا الباب الخامس فقد خصصناه برمته للجانب الحضارى فى الدولة العبادية واخترنا عنوانه على النحو التالى: أهم مظاهر التطور الحضارى فى إشبيلية فى عهد بنى عباد. أما الفقرات فقد نسقناها على النحو التالى: الفقرة الاولى خصصناها للحديث عن نظم الحكم وفرعناها إلى نقاط عدة مثل نظام الحكم الرئاسى، وهو النظام الذى استحدثته بعض ممالك الطوائف فى نظم الحكم ثم نظام التفويض الخـلافى الـذى ميز الحياة السياسية فى إشبيلية عن مثيلاتهـا فى ممالك الطوائف الأخرى، وهو النظام الذى زعم العباديون أنهم يمثلون به الخلافة الأموية والخليفة هشام المؤيد بالذات. وفى هذه الفقرة أيضا شيء يسير عن بعض نظم الحكم فى إشبيلية كالنـظم الإدارية، والنـظام المـالى، والنـظام القضـائى ثم عن الجيش والبحرية الإشبيلية.

والفقـرة الثـانية من البـاب الخـامس فرعنـاهـا إلى فرعين: أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة، وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة وذلك داخل عنوان هذه الفقرة وهو: الحياة الاجتماعية. أما الفقرة الثالثة فقد تحدثنا فيها عن الحياة الاقتصادية فى الدولة، وعرضنا فى هذه الفقرة للحديث عن أهم النشاط الاقتصادى كالتجارة والزراعة ثم ألمعنا بشيء من الحديث عن النقود العبادية.

والفقرة الرابعة من الباب الخامس كانت عن الحياة العلمية والأدبية فى الدولة العبادية، وبسطنا الحديث فيها عن المجالات العلمية والأدبية فى الدولة بحكم أن الحركة العلمية والأدبية هى أهم مظاهر التطور الحضارى فى إشبيلية على عهد بنى عباد.

والفقرة الأخيرة من الباب خصصناها لأهم مظاهر العمران فى الدولة.

بحث في أهم مصادر ومراجع الرسالة

لعلى لا أضيف جديدا إذا ما قلت بأن أول مصدر تاريخي مهم لكل باحث فى الـدراسـات الأنـدلسية هو تاريخ ابن حيان المعـروف: بالمقتبس من أنباء أهل الأندلس. ومع ذلك فإن هذا السجل التاريخى العظيم بقطعه الخمس التى عثر عليهـا تبـاعـا، وتـولى نشرها وتحقيقها غير واحد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب ليس له صلة ببحثنا من قريب أو بعيد اللهم إلا نتفا بسيطا للغاية فى القطعة الخامسة. المتعلقة بعصر الحكم المستنصر والد الخليفة هشام المؤيد والتى حققها ونشرها عبد الرحمن على الحجي. ذلك لأن الكتاب بقطعه الخمس عبارة عن مدونة تاريخية على نظام الحوليات ويتناول الفترة من بداية الفتح العربى حتى بداية الدولة العامرية فى أواخر القرن الرابع الهجرى.

على أننا قد أفدنا جل الإفادة من نقولات المؤرخين القدامى الذين حفظوا فى كتبهم ذلك الأثر النفيس الذى كتبه ابن حيان عن سقوط الدولة العامرية وظهور الفتنة وقيام ممالك الطوائف، أعنى بذلك كتاب: المتين الذى فقد للأسف، بيد أنه من حسن الحظ أن المؤرخين القدامى نقلوا لنا فى كتبهم مادة مهمة جدا من هذا الكتاب وهى التى تتعلق بعصر الطوائف، وذلك فى كتب ابن بسام، وابن عذارى، وابن الخطيب، وابن الأبار، كما أن هناك كتبا أخرى غير المتين، منها الدولة العامرية، والبطشة الكبرى.

أما عن اهتمامات المؤرخ ابن حيان وطريقته فى الكتابة، ووزنه العلمى وأمانته العلمية فقد كفانا مؤنتها محمود على مكى فى مقدمته الطويلة الرصينة الدقيقة، غير أن ما يجب أن أوكده أن ابن حيان (ت ٤٦٩هـ) يعتبر أعظم مؤرخ أندلسى أنجبته الأندلس، لا بل يعتبر من المؤرخين الأفذاذ القلائل فى التاريخ الإسلامي كله قديما وحديثا، وهو بحق شيخ مؤرخى الأندلس بدون منازع كما أشار إلى ذلك معظم المؤرخين القدامى والمحدثين، كما يكفى أن نشير أخيرا إلى أنه بالنسبة لكتاب المتين

موضـوع بحثنا قد عاصر الأحداث معاصرة دقيقة يوما بعد يوم حتى وفاته بثقة المؤرخ وأمانته.

أما المصدر التاريخى الآخر الذى صاحبنا فى معظم أجزاء الرسالة فهو كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥ هـ) وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والأندلس من الفتح العربى حتى عصر (بنى مرين) حكـام المغـرب فى أعقـاب سقوط الدولة الموحدية. ويقع فى ثلاثة أجزاء، حقق الجزءان الأول والثانى منهما ونشرهما كلا من ج - س كولان وليفى بروفنســال وانفـرد بروفنســال بتحقيق الجـزء الثالث، وقام إحسان عباس أخيراً بتحقيق قطعة من كتاب البيان المغرب وتتعلق بعصر المرابطين ونشرها مع تعليقات موجزة عام ١٩٦٠م.

ومن حق النزاهة التاريخية علينا أن نشير إلى أنى قد استفدت استفادة عظيمة من هذا الكتاب وكان رفيقى الدائم فى معظم أبواب الرسالة بحكم ما توفر فيه من المادة التاريخية الغزيرة التى جمعها المؤرخ من الكتب التى كانت موجودة فى عصره، والتى فقدت بعد ذلك. ومن هنا جاءت قيمة كتاب البيان المغرب. ومن أمثلة الكتب التى نقل منها: المتين لابن حيان والمقباس لابن الوراق، وكتاب نظم الجمان لابن القطان. وابن عذارى مؤرخ ناقل وليس ناقدا، وقد سار فى كتابه على نظام الحوليات وقد أوقعه ذلك فى عدة أخطاء تاريخية.

ويعيب كتابه أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته، فتختلط تلك النقولات بكلامه هو ذاتـه، وعـلاوة على ذلـك كان ينتزى على المادة العلمية التى ينقلها عن بعض المؤرخين بالحذف والاضافة ابتغاء للاختصار. ولم تكن له تعليقات خاصة وآراء شخصية إلا فيما ندر.

بيد أنه رغم كل شىء فهو كتاب مهم للغاية بالمادة النفيسة التى جمعها المؤرخ فيه. أما المصدر الثالث الذى أفدنا منه جل الإفادة، فهو كتاب: الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى. وابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) مؤرخ أندلسى عاش فى مدينة بلنسية فى عصر المـوحـدين. وكتـابـه الحلة السـيراء يعتـبر من أحسن كتبه على الإطلاق، ويعتبر ولا سيما فى جزئه الثانى ذو أهمية كبيرة إذ هو رصد موجز فى بعض

الأحيان وموسع مفصل فى أحايين أخرى لِسِيَر وحياة أمراء ووزراء وعلماء كان لهم شأن فى تاريخ الفترة التى يدور حولها بحثى وهى فترة ملوك الطوائف وبالأخص مملكة بنى عباد والكتاب نسخة مطبوعة عن مخطوط وحيد وجده حسين مؤنس فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٥٤ مكتوبة بخط مغربى. وقد حققه فى جزئين منفصلين. والتحقيق ذاته تحفة تاريخية وأدبية وجغرافية رائعة استفدنا منها أعظم استفادة. وكان جهده فى مقابلة الأسماء العربية للمدن والقرى الأندلسية بالأسماء الأسبانية قديما وحديثا، كان جهده فى ذلك شائقا لاتفيه عبارات المدح والثناء، فجزاه الله خيرا.

أما عن المؤلف فبغض النظر عن حياته السياسية التى عاشها على مدار نصف قرن بين العزة القعساء مرة، وبين مرارة السجن وذل القيد مرات أخرى. وبغض النظر عن سلوكه الشخصى الذى أفضى إلى مقتله طعنا بالرماح عام ٦٥٨هـ على يد حاكم أفريقية أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى. نقول بغض النظر عن ذلك، فإن الكتاب مهم للغاية فى بحثنا لم نستغن عنه إطلاقا فى معظم أجزاء الرسالة. فقد قسم المؤلف كتابه إلى ستة قرون، وانضوى تحت كل قرن أشهر رجالات الأندلس والمغرب وأفريقية من خلفاء ووزراء وقواد وعلماء. وزاد من قيمة الكتاب أنه خلا - وهو شىء نادر فى ذلك الوقت - من السجع المتكلف الرخيص. فكان أسلوبه مشرقا قويا رصينا، فهو أقرب للكتب التاريخية الواقعية التى تعطى المترجم له حقه فى غير ما إطالة ولا إسفاف أو تكلف. على أنه يلاحظ أن هذا الأسلوب قد تغير عندما بدأ يتحدث عن سلاطين بنى حفص الذين استوطن دولتهم فى أفريقية، ثم مات على أيديهم كما ذكرنا.

وأخيرا لا يسعنا إذا ما شئنا معرفة وزن المؤلف العلمى إلا أن نشير إلى أنه يعتبر بحق كاتبا ومؤرخا واسع الاطلاع بتاريخ المسلمين العلمى والأدبى، وأنه كان ذا نظرة استشرافية للمستقبل، كما كان ناقدا تاريخيا ينقل بعقل متزن، وقلم يقظ(١)، رصين فى حكمه، وكل هذه المميزات علت به فى نظر الأدباء والمؤرخين الذين تلوا

---

(١): أنظر مثلا: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٤٨.

عصره، ونظر إليه الكتاب المحدثين الآن بنفس النظرة.

وأخيرا فقد كان للمؤرخ كتب أخرى مثل التكملة لكتاب الصلة، وكتاب أعتاب الكتاب وغيرهما.

أما المصدر الرابع حسب الأهمية لبحثى فهو كتاب الذخيرة لابن بسام (ت ٥٤٢هـ). وقد أطلق ابن بسام على كتابه ذلك: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة. وهو كتاب أدبى فى المقام الأول. وقد ألفه المؤلف للتأكيد على أن الأندلس لا تخلو من رجال رفعوا رايات الأدب والثقافة، واحتلوا مكانهم المخصص والمناسب فى الأدب العربى كله، وهو كتاب يضاهى به المؤلف كتاب الثعالبى: يتيمة الدهر، ويسير على منهجه ويترسم خطاه. والكتاب ينقسم إلى أربعة أقسام تناول فيه بالحديث الحياة الأدبية فى أقاليم الأندلس الثلاثة: الشرق والغرب والوسط. ثم قسم يتعلق بالطارئين على الأندلس ومن هاجر إليها من العراق والشام. وهو كتاب أدبى كما ذكرنا أساسا إلا أنه يعمد فى بعض المرات التى تتداخل فيها الأحداث الأدبية بالتاريخية إلى طرح الأحداث التاريخية باستفاضة فى كثير من الأحيان.

أما من حيث منهجه فإنه فيما يتعلق بالوقائع التاريخية يسير سيرا تاريخيا زمنيا منطقيا. أما عن أسلوبه فى الكتاب، فيميل إلى استخدام السجع بكثرة مملة وتصنع ملحوظ مع ولعه بالغريب والممجوج من الكلمات. وأما عن أمانته العلمية فهو يعتبر فى الحقيقة أديبا وليس مؤرخا ولذلك فإنه فيما يختص بالأحداث التى شهدها القرن الخامس الهجرى. نراه يعتمد على كتب ابن حيان وبالذات كتابه المتين اعتمادا كليا، ثم يضيف ملاحظاته وتسجيلاته التى تلت وفاة ابن حيان حتى وفاته هو أى ابن بسام.

ويعتبر ابن بسام كاتبا أديبا بمعنى الكلمة، وهو موسوعة أدبية تلتقط كل شىء وترصده فى ذاكرة قوية أفرزت ثقافة أدبية واسعة تناقلتها ذخيرته الثمينة. وتظهر شخصيته وثقافته الواسعة فى كل أجزاء كتابه فهو لا ينقل نقلا حرفيا عندما يتحدث عن كاتب أو أديب، بل ينقل نقطة أو عبارة أو كلمة من حديث هذا الأديب ثم يقف فجأة ويسرد أحداثا ومواقفا مشابهة استخدمت فيها هذه الكلمات من قبل أدباء آخرين. ولا يمر عليه بيت من الشعر دون أن يشرحه ويترجم لصاحبه. ونراه

فى أحيان كثيرة يخرج من القناة التى كان يصب فيها حديثه إلى قنوات أخرى تعود هى الأخرى الى قنوات أخرى تالية.

على أن هذا لا يشتت ذهن القارىء ويجمح به بل يعيده ابن بسام إلى الحديث الاصلى فى لطف ورقة(1).

والمصدر الخامس حسب أهميته لبحثنا هو مذكرات الأمير عبد الله بن زيرى، أو كتاب التبيان. وأهمية الكتاب جاءت من كونه عبارة عن مشاهدات وإسهامات وملاحظات ورصد وتسجيلات تكاد تكون يومية لسير الحوادث التى شهدتها الأندلس في القرن الخامس الهجرى. وأهمية الكتاب فوق هذا تكمن في أن مؤلفه أحد ملوك الطوائف المهمين آنذاك، والذى مارس دورا مهما فى سير الحوادث آنذاك. وقد ألفه المؤلف بعد خلعه ونفيه عن ملكه وتوجهه إلى مدينة أغمات القريبة من مراكش، وذلك فى عهد المرابطين وفى عهد يوسف بن تاشفين الذى قضى على استقلال ممالك الطوائف. وجاء هذا المصنف عبارة عن مذكرات كتبها المؤلف فى ساعات فراغه الكبير في المنفى، تطرق فيه إلى معظم الحوادث فى مملكته وغيرها من ممالك الطوائف حتى تَدَخَّل المرابطون، فموقعة الزلاقة، فالأحداث التى أعقبتها حتى قضاء يوسف على استقلال كل ممالك الطوائف.

هذه هى أهمية الكتاب، أما المنهج، أما الأسلوب، أما الطريقة فالمؤلف لم يكن مطبوعا على أن يكون مؤرخا أو أديبا، ولذلك جاء كتابه مفككا ليس فيه تركيب منطقى أو حتى ذوقى، أما أسلوبه فركيك للغاية، استخدم المؤلف فيه كثيرا من الكلمات العامية الأندلسية والبربرية.

أما عن أمانته العلمية، فلم يترك المؤلف موطنا يتعلق بشخصه أو أسرته أو جماعته البربر دون أن يؤكد على وجهة نظره ونظرهم، وإن كان قد حاول فى كثير من الأحيان أن ينفى عن نفسه التحيز والأثرة.

أما المصدر الرئيسى السادس لبحثنا هذا فهو كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول الاسم، اعتنى بنشره وتصحيحه ى. س. علوش.

---

(١): انظر للدلالة على ذلك: القسم الثانى ـ المجلد الاول، ص ١١٣ ـ ١٣٣.

مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ويعتقد أن المؤلف عاش فى القرن الثامن الهجرى.

وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة للبحث وخاصة فيما يتعلق بجواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس. ولقد تناول المؤلف موضوع جواز يوسف المتكرر إلى الأندلس فى شيء واسع ومفصل وبتقص كبير ثم تتبَّع ظهور الموحدين، وقضاءهم على المرابطين. وقد استفدت جل الاستفادة منه فى تتبع أخبار المرابطين فى الأندلس. والكتاب لا غنى عنه لكل باحث عن شؤون المغرب والأندلس فى عهدى المرابطين والموحدين، رغم ما يفهم من عنوانه من أنه خاص بذكر مراكش وأخبارها وتخطيطها. . الخ.

وأسلوب المؤلف سهل واضح لا غموض فيه، يسير فيه المؤلف على طريقة التذييل أى الأحداث المترتبة على بعضها.

وقد اختلف فى معرفة أو تحديد اسم مؤلفه، فقيل إن مؤلفه أديب مالقى اسمه أبو عبد الله بن أبى العالى بن السماك العامرى، غير أنه ليس هناك دليل على ذلك. وقد ظهرت فى تونس طبعة لهذا الكتاب نشرها سنة ١٩١٠م البشير الغزنى تحمل خطأً اسم لسان الدين بن الخطيب كمؤلف لهذا الكتاب، ثم صدر ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط طبعة حديثة سنة ١٩٣٦م، وكان الناشر لها الأستاذ ى. س. علوش.

هذه هى أهم المصادر التى صاحبت بحثى هذا. وهناك مصادر تاريخية أخرى مهمة لم تخل رسالتى من فائدتها ككتاب عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧هـ) وهو كتاب يتناول تاريخ دولة الموحدين، ولكنه على سبيل الاستطراد قدم لكتابه بمقدمة موجزة فى تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربى. والكتاب يعتبر رديفا بالنسبة للبحث بمعنى أنه ليس رئيسيا لبحثى، ولكنه لا يمكن الاستغناء عنه، وهو فى أجزائه الأولى يهتم بالحديث عن الأندلس منذ الفتح حتى بداية دولة الموحدين. وفى هذا الجزء يبدو المؤلف ناقلا ملخصا دونما تحقيق وتمحيص إلا فيما ندر، وأسلوبه سهل واضح خلا من السجع المتكلف والعبارات الغامضة الغريبة. أما فيما يتعلق بالتاريخ لدولة الموحدين فقد أسهب المؤلف فى ذكر دولتهم انطلاقا من كونه شاهد

عيان وكمتتبع للأحداث وذى صلة شخصية بأمراء الموحدين. وقد حقق الكتاب ونشره محمد سعيد العريان.

ومن المصادر التاريخية الرديفة الأخرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقرى (ت /١٠٤١هـ - ١٦٣١م)، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. وهو عبارة عن موسوعة تاريخية وأدبية واجتماعية للمجتمع الأندلسى منذ الفتح وحتى نهاية الوجود الإسلامى فى الأندلس. ولا يخلو من حادثة تاريخية مهمة، أو نبذة جغرافية، أو طرفة مستملحة، أو قصة طريفة خالف فيه المؤلف ما رسمه لنفسه فى العنوان فجاء حديثه عن الوزير الأندلسى ابن الخطيب كشىء مجتزأ من التاريخ الأندلسى. أى بمعنى آخر جاء كفرع من فروع اهتماماته وليس اهتماما أصيلا كما رسم لنفسه. ولا يمكن البتة لأى باحث فى الدراسات الأندلسية إلاَّ العودة إليه والنقل منه.

ومن المصادر الأخرى التى أنارت لنا الطريق فى بحثنا كتاب ابن الكردبوس (عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى): الاكتفاء فى أخبار الخلفاء. وقد حققه أحمد مختار العبادى ونشره فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٦٥/١٩٦٦م. وهو كتاب تاريخى نفيسساير فيه المؤلف منهج المؤرخين القدامى فى التسلسل التاريخى الزمنى للأحداث، فقد اهتم بالأحداث السياسية بالأندلس منذ الفتح العربى حتى عصر الموحدين. وهو كتاب لا غنى عنه لأى باحث فى الدراسات الأندلسية. وقد حققه كما ذكرنا أحمد مختار العبادى تحقيقا تاريخيا دقيقا. واستفدنا نحن من ذلك التحقيق فى تحقيقنا للأعلام والمدن والقرى وغير ذلك كثيرا.

ومن المصادر المهمة فى التاريخ العام: كتاب مشرقى هو الكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ويكاد ابن الأثير يكون من قلائل المؤرخين المشارقة الذى اهتم بالأندلس وتاريخها. وليس خافيا أنه كان يسير على نظام الحوليات، وكان يعرض فى كثير من السنوات إلى الأحداث المهمة التى شهدتها الأندلس آنذاك. ويجب أن نلاحظ أنه كان ينقل مادته التاريخية نقلا حرفيا من كتب المغاربة والأندلسيين حسبما كان يصل إلى سمعه من أخبار العدوتين.

وفيما يتعلق بكتب الأدب، ففضلا عن كتاب ابن بسام السالف الذكر فقد أفدنا من كتـابى: قلائـد العقيان، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان الإشبيلى (ت ٥٢٨هـ أو ٥٢٩هـ على الأرجح). وهما مصنفان مهمان لرصد الحياة الأدبية والعلمية والاجتماعية فى المجتمع الأندلسى، ويمكن اعتبارهما من كتب التراجم والطبقات ترجم فيهما المؤلف لعديد من الرؤساء والوزراء والقضاة والقواد فى الأندلس. ويهتم المؤلف بصفة أساسية بإيراد آثار مترجميه النثرية والشعرية فقط. ولـذلك جاء الكتابان خلوا من الناحية التاريخية والتسجيلية لتسلسل الأحداث وتتبع المواقع إلا ما استطعنا استخلاصه من بعض الإشارات الخاطفة. والمصنفان كتبا بأسلوب لحمته السجع والجناس، وسُداه المدح والملق حتى الإقذاع أو الحط حتى الاقذاع رصف فيهما المؤلف مكنونات حفظه للغريب من الكلام رصفا.
ولا يمكن بأى حال من الأحوال مقارنة ابن خاقان بابن بسام الذى يعتبر ناقدا متينا ومحللا أدبيا لامعا.

ومن كتب التراجم والطبقات التى عدنا لها: جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس للحميدى (ت ٤٨٨هـ)، ثم كتاب بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى (ت ٥٩٩هـ). ثم كتاب الصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ). وهى كتب تشكل حلقة فى سلسلة كتب التراجم والطبقات التى أخذت طابعا يكاد يكون متشـابهـا ابتـداء من كتـاب أبى الـوليد الفرضى (ت ٤٠٣ هـ): تاريخ علماء الأندلس، مرورا بالحميدى فى جذوة المقتبس والضبى فى بغية الملتمس، وانتهاء بكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، وكتاب الموصول والصلة لعبد الملك المـراكشى (ت ٧٠٣ هـ)، وكتـاب المـرقبـة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهى (عاش فى القرن التاسع الهجرى).
وتحتـوى هذه الكتب على معلومـات مقتضبـة لا بأس بها عن تراجم واسعـة لرجالات الأندلس فى شتى مناحي اهتماماتهم التى درجوا عليها ولا سيما الدينية منها.
أما كتب الجغرافية الإسلامية فقد اعتمدنا على كتب الجغرافيا الأندلسية المحضة ككتاب الحميرى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى): صفة جزيرة الأندلس منتخبة

من كتـاب الـروض المعـطار فى خبر الأقـطار، نشر وتصحيح وتعليق أ. ليفى بروفنسـال. وهو كتاب جغرافى تناول فيه المؤلف مدن وقرى الأندلس بالوصف والتعليق حسب الترتيب الأبجدى. على أنه من المهم أن نشير هنا إلى أن استفادتنا من هذا الكتاب إنما جاءت من المادة التاريخية التى احتواها وتضمنها، ذلك لأن المؤلف عندما بلغ فى حديثه لوصف مكان موقعة الزلاقة خالف منهجه فى الحديث عن النـواحى الجغـرافية وقدم لنا مادة تاريخية غزيرة عن الأحداث التى سبقت وصاحبت وتلت موقعة الزلاقة. والمفيد حقا أنه قد نقل معلوماته الوافرة تلك عن كتب أصبحت فى حكم المفقود. ومن هنا كان للمادة التاريخية التى أوردها أهميتها الفائقة.

ومن كتب الجغـرافيا الأنـدلسية اعتمـدنا على كتاب البكرى (ت ٤٨٧ هـ): المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. وقد حققه عبد الرحمن على الحجى. وأود أن أشير إلى أن معظم تحقيقات المدن والقرى والأنهار، وكذلك بعض تحقيقات الأعلام إنما استمديتها من التحقيقات التى حقق بها الباحثون المحدثون من أمثال حسين مؤنس، وأحمد مختار العبادى، وعبد الرحمن الحجى الكتب التى حققوها ونشروها سالفة الذكر.

أما المراجع العربية والمعربة فهى فى الواقع كثيرة أضاءت ولا شك الطريق أمام الباحثين لا سيما وإنها قد جاءت معتمدة على مصادر ووثائق أندلسية ومغربية عثر عليها على فترات متتالية فى الثلاثين سنة الأخيرة من هذا القرن. ومن هنا جاءت معظم تلك المراجع دقيقة موضوعية، وبمفهوم ورؤية شاملة غالبا. ولقد استفدت استفادة كبيرة من بعض تلك المراجع العربية والمعربة، وكان اعتمادى على بعضها شيئا أساسيا فى توضيح ما أشكل وصعب العثور عليه فى المصادر القديمة، أو فى الاستفادة مما كتب عن الممالك النصرانية فى أسبانيا وغيرها.

وتأتى موسوعة محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام فى الأندلس) على رأس تلك المـراجع العربية. ولا أكتم القارىء الحقيقة فى أن كتب محمد عبدالله عنان قد يسرت لى مهمة البحث. وكنت فى كثير من المواضع عالة عليه وخاصة فى كتابه: دول الطوائف. وهو كما يدل عليه عنوانه يختص بالحديث عن كل دولة من دول

الطوائف إذ بثَّ محمد عبد الله عنان فى كتابه هذا معلومات مهمة عن نشوء ممالك الطوائف، ونشوء حركة الاسترداد، وتحدث فى كتابه هذا عن التدخل المرابطى وموقعة الزلاقة. . إلخ. وكانت استفادتى من بقية مصنفاته الأخرى ككتاب: الخلافة الأموية والدولة العامرية، وتراجم إسلامية، ومواقف حاسمة، والآثار الأندلسية الباقية وغيرها أقول كانت استفادتى من تلك الكتب لاحقة لكتاب دول الطوائف.

على أن مما يجدر ذكره هو أن المؤلف أخذ على نفسه كتابة تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زوال الوجود الإسلامى. ومن هنا اضطر فى مرات عديدة إلى ضغط الوقائع والأحداث ضغطا أثر فيه البتر والاختصار. ولحق موسوعته شيئا من الهنَّات التى تصاحب كتب التاريخ العام عادة.

والمراجع الأخرى المهمة التى صاحبت بحثى وواكبته حتى النهاية مجموعة صلاح خالص المتخصصة فى استطلاع أحوال مملكة بنى عباد من الناحية الأدبية والعلمية والتاريخية، فقد كتب صلاح خالص ثلاثة كتب هى: إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، دراسة سياسية وحضارية لنشوء دولة بنى عباد بإشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها ٤١٤ هـ - ٤٨٤ هـ. والكتاب الثانى بعنوان: محمد بن عمار الأندلسى، حياته وشعره. والكتاب الثالث بعنوان: المعتمد بن عباد الإشبيلي، دراسة أدبية وتاريخية.

وكلها كتب أفدت منها حقا، وحتى وان كانت تركز على النواحى الأدبية فى الدولة، إلا أنى قد استطعت استخلاص العديد من النقاط. أما فيما يتعلق بالناحية الادبية، فكان اعتمادى عليها رئيسيا. والحق أن المؤلف عالج الحياة الأدبية فى إشبيلية من خلال كتبه الثلاثة معالجة موضوعية أدبية شائقة على عكس معالجته للنواحى التاريخية التى جانبت فى بعضها جادة الصواب. وقد أشرنا فى تضاعيف الرسالة لتلك المآخذ، كما أن من الملاحظ أن المؤلف يبدى تعاطفا ملحوظا مع المعتمد بن عباد ويتغاضى عن سيئاته، كما أشرنا فى ثنايا الرسالة.

والمرجع المهم الرئيسى الآخر فى بحثنا هو كتاب على أدهم: المعتمد بن عباد. وهو كتاب صغير الحجم جم الفائدة، إلا أنه يصنف فى قائمة الكتب الأدبية. ومع

هذا فقد خلصنا منه بنقاط عديدة لم يتح لنا العثور عليها فى مظانها الأصلية.

وأفادنا كتاب خالد الصوفى: تاريخ العرب فى أسبانيا (جمهورية بنى جهور) فى توضيح بعض الأحداث وإن لم يفتنا أن نسجل ملاحظاتنا على بعض النقاط كما سيلاحظه القارىء فى ثنايا الرسالة.

ومن المراجع المهمة التى اعتمدنا عليها فى فهم أحداث الأندلس بعد تدخل المرابطين كتاب حسن محمود: قيام دولة المرابطين. وهو كما يدل عليه عنوانه مختص بقيام دولة المرابطين، وقد شمل بالضرورة التدخل المرابطى فى الأندلس وجواز يوسف المتكرر لها حتى إقصائه لملوك الطوائف جملة. وهو كتاب تاريخى مهم مدعم بالمصادر الأصيلة، والمراجع العربيـة والأوروبيـة ذات الصلة بمادته العلمية وكانت استفادتنا من هذا الكتاب كبيرة فى شرح أبعاد التدخل المرابطى فى الأندلس وغير ذلك.

وأفـدت من كتاب عبد الحق حموش: ابن تاشفين، وخاصة فيما يتعلق بشرح الـدوافـع العسكـرية التى حتمت على الفـريقين المتقاتلين فى الأندلس آنذاك: المسلمين والنصارى اختيار بطحاء الزلاقة مكانا مناسبا للمعركة، كما أفدت من تحليله العسكرى لقوات الفريقين المتقاتلين وخططهما الحربية فى القتال مما عزز شكاً وَقَرَ فى ذهنى من أن المؤلف ربما كان رجلا عسكريا.

وهناك مراجع أخرى تأتى فى المرتبة التالية من الأهمية بالنسبة لموضوع رسالتى، وأهمها كتاب: أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، وكتاب حسين مؤنس: شيوخ العصر، وكتاب أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقـوط الخـلافـة وكتـاب مصطفى الشكعة الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، وكتاب محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، وكتاب إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسى، إلى غير ذلك.

وأفدت كثيرا من الرسائل الجامعية التى أعدت لنيل درجة الماجستير فى فهم طبيعة تركيب المجتمع الأندلسى، كرسالة عبادة كحيلة: المولدون فى التاريخ الأندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الإمارة، المقدمة إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨م. كما استفدت من رسالة رجب محمد عبد الحليم: دولة بنى حمود فى

مالقه بالأندلس، وخاصة أنها رسالة تختص بشرح وقائع قيام الأسرة العلوية فى قلب الخلافة الأموية. وهذه الرسالة مقدمة إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٦م. وأفدت أيضا من رسالة محمد بركات البيلى فى فهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة العبادية المقدمة إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨م. وأخيرا استفدت من رسالة هشام سليم أبو رميلة: رسالة عن نظم الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة المقدمة أيضا إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

أما بالنسبة للكتب المعربة فعلى رأسها كتب ليفى بروفنسال. وأهم هذه الكتب لبحثى: الإسلام فى المغرب والأندلس، وقد استفدت منه فيما يتعلق بقضية زايدة (ابنة المعتمد) التى تقول الروايات النصرانية إن المعتمد قدمها لألفونسو السادس ملك قشتاله ليساعده فى حربه ضد مناوئيه. فقد توصل المستشرق الفرنسى إلى خلاصة تاريخية منطقية تنفى نفيا قاطعا حدوث ذلك، كما استفدت أيضا من كتاب ليفى بروفنسال هذا فيما يتعلق بسقوط طليطلة والتاريخ الصحيح لذلك السقوط.

وأفدت من كتاب راينهارت دوزى: ملوك الطوائف، وهذا الكتاب هو الجزء الرابع المعرب والمترجم بقلم كامل كيلانى عن كتابه: تاريخ مسلمى أسبانيا SPANISH ISLAM . ويتعلق بأحوال معظم ممالك الطوائف. على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكتاب فيه شيء من المغالطات والتفسيرات غير المقبولة كما أشرنا إلى ذلك فى الرسالة.

ومن الكتب المعربة الأخرى التى أفادتنا فى فهم الحياة السياسية فى أسبانيا المسلمة والنصرانية معا كتاب يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، تحقيق محمد عبد الله عنان.

أما بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد استفدنا من كتاب:

- J, B, BURY, M.A., F.B.A :THE CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY. VOLUME VI CAMBRIDGE 1929.

وكتاب:

- JAN READ: THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL, LONDON. 1974.

ومن الدوريات الأجنبية اعتمدنا على :

- ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BENABOUD:
AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE ., AL IMBRATUR
DHU -L- MILLATAYN, in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDIN-
BURGH.

-MUHAMMAD BENABOUD YANGUS MACKAY:
THE AUTHENTICITY OF ALFONṢO VI,s LETTER TO YUSUF
B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC,I.

أما الدوريات العربية والمعربة، فقد استفدت عظيم الاستفادة من البحث الذى نشره حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٥٠م، بعنوان: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، واستطعت من خلال هذا المقال فهم طبيعة هذه الشخصية القشتالية النصرانية التى علت بها الأساطير والملاحم الأسبانية إلى مرتبة القديسين رغم ما أثبته البحث العلمى من تفنيد لذلك الادعاء.

واستفـدت أيضا من البحوث التى كتبت فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، كالبحث الذى نشره حسين مؤنس أيضا بعنوان: سبع وثائق جديدة عن عصر المرابطين، وكذلك البحث الذي كتبه محمود على مكي وذلك فى المجلدات: الثانى، والسابع، والثامن، سنة ١٩٥٤، ١٩٥٩، ١٩٦٠م على التوالى.

كما استفدت أيضا من الأبحاث التى كتبت فى مجلة تطوان المغربية مثل البحث الذى نشره أحمد مختار العبادى بعنوان: دراسة حول كتاب الحلل الموشية، وكذلك البحث الذى كتبه محمد الفاسى بعنوان: المؤرخان ابن أبى زرع وابن عبد الحليم. وذلك فى العدد الخامس، سنة ١٩٦٠م.

كما استفـدت من البحث الذى كتبه مصطفى القصرى فى مجلة مركز البحث العلمى المغربى بعنوان: الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ، العدد الأول، السنة ١٩٣٤م. وغير ذلك.

بقى أخيرا أن أتقدم بالشكر الجزيل الخالص لأستاذى الدكتور أحمد السيد دراج ، الـذى ما كنت لأضـع قدمى فى مضمار الدراسات العليا المتخصصة لولا دعمه وتشجيعه وتأييده. ومن حق النزاهة والأمانة على أن أشير إلى أنه لم يأل جهداً فى مساعدتى ولم يبخل على بالمساعدة والملاحظة والمتابعة فيما عظم ودق وفيما كثر وقل.
فله خاصة ولجميع من مدّ يد العون لي الشكر والثناء والعرفان بالجميل.
والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل.

* * * *

« تمهـــيد »

حـالة الأندلـس بعـد سـقوط الدولـة الأمـوية

- سـقوط الدولة الأمـوية.
- قيام ممالك الطـوائف وأشـهرها.

سقوط الدولة الأموية :-

تأسست الدولة الأموية فى الأندلس عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م عندما فرّ أحد أبناء الأمويين من الشام، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى المغرب فالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية على يد العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وقد ظل يحكمها حتى وفاته. ثم تعاقب على حكم هذه الدولة أو الإمارة الأموية أبناؤه وأجفاده: هشام، الحكم، عبد الرحمن (الأوسط)، ومحمد بن عبد الرحمن، والمنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد حتى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢م.

ثم تولى الإمارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل). وذلك فى عام ٣٠٠هـ ثم أعلن الخلافة بعد ذلك فى عام ٣١٦ هـ/ ٩٢٨م، وتلقب بالناصر. وقد ظل يحكم الدولة الأموية حتى وفاته عام ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م بعد أن ارتقى بها إلى درجة بلغت فيها الأندلس الأوج قوة وحضارة وازدهارا، حتى أطلق على عصره العصر الذهبى دلالة على ذلك التقدم(١).

---

(١): عن الدولة الأموية فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل وحتى عهد عبد الرحمن الناصر انظر،

ابن حيان: قطعة من كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق وتقديم وتعليق محمود على مكى. - ابن عذارى: البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب، ٣ أجزاء، ج ٢ كاملا تحقيق ج. س كولان، وإ. ليفى بروفنسال.- ابن الأبار: الحلة السيراء، جزآن تحقيق وتعليق حسين مؤنس، ط ١، ج١، ص ٣٥ - ٤٣، وص ١١٣ - ١٣١، وص ١٩٧ - ٢٠٠. - ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ مجلدات، المجلد الرابع، القسم الأول، ص ٢٥٢ - ٣١٢.- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ تحقيق نخبة من العلماء، ٩ أجزاء، ج ٥ - ٩، فى صفحات متفرقة. - المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط ١، ج ١، ص ٣٠٦ - ٤٠٠.- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس: من الفتح إلى بداية عهد الناصر، العصر الأول - القسم الأول، ط ٤، .- والخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول - القسم الثانى، ط ٤، ص ٣٧٢ - ٣٨٢.

وهناك مؤلفات أخرى تناولت نشأة وحياة الدولة الأموية، وقد رأينا أن نكتفى بهذا القدر فقط.

وبعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر، خلفه في الحكم ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، فقام بالأمر خير قيام حتى توفى عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م. ثم خلفه ابنه القاصر هشام الذى ولاه عهده قبل موته، وهو لما يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد، وتلقب بالمؤيد بالله.

غير أن السلطة الفعلية أصبحت بيد محمد بن أبى عامر المعافرى. وهو رجل من عامة الناس كتب له أن يتصل بمحض الصدفة بالبلاط الأموى فى عهد الخليفة الحكم المستنصر. ثم قاده ذكاؤه وأطماعه وطموحاته إلى تأليف القلوب حوله، فلم يلبث كثيرا حتى سطع نجمه وعلا شأنه داخل القصر وخارجه. وقد غدا غداة وفاة الحكم ثانى أبـرز شخصيتـين قويتـين فى الدولة الأموية بعد جعفر المصحفى. واستطاع بعد لأى أن يتخلص من خصومه ومنافسيه شيئا فشيئا حتى تمكن من الاستئثار بالسلطان كله داخل دولة الخليفة القاصر هشام المؤيد، فاستبد بالأمر دونه مبقيا له على السلطة الاسمية فقط، وقد تلقب بالمنصور بالله. واستمر يحكم الدولة حتى توفى عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م بعد أن وضع نواة الدولة التى عرفت فى التاريخ الأندلسى بالدولة العامرية نسبة له، فخلفه ابنه عبد الملك الذى قام بالأمر خير قيام حتى وفاته عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م[1].

---

(١) : عن الدولة الأموية فى الأندلس فى عهد الحكم المستنصر وابنه هشام، ثم الدولة العامرية انظر:

- ابن حيان: قطعة من المقتبس فى أدباء أهل الاندلس، وتتناول السنوات الأخيرة من عصر الحكم المستنصر. نشر عبد الرحمن على الحجى. - ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٦ - آخر الكتاب، وج ٣، ص ١ - ٣٧. - ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول - المجلد الأول، عنى بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من طلبة وأساتذة جامعة القاهرة، قدم له طه حسين. - ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠٥، و ص ٢٦٨ - ٢٧٧. - الحميدى: جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، قسمان: القسم الأول ص ١٣ - ١٨، وص ٧٨ - ٧٩. - عبـد الواحد المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص ٥٩ - ٨٥. - ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (ناريخ أسبانيا الإسلامية) تحقيق وتعليق ١. ليفى بروفنسال، ص ٤١ - ٨٣. - المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٠ - ٤٠٠. - وغير ذلك من المؤلفات الأخرى.

ونستطيع أن نحدد بداية سقوط الدولة الأموية وتفكك وحدتها بالفترة التى خلف فيها عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر أخاه الحاجب عبد الملك الملقب بالمظفر. فلم يك عبد الرحمن فى حقيقة الأمر رجل الموقف أو أهلا لتولى الحكم، إذ افتتح حكمه بإكراه الخليفة هشام على أن يوليه عهده ويسند له الخلافة من بعده. وهو أمر خطير لم يقدم عليه أخوه ولا أبوه من قبله، الأمر الذى أثار عليه نفوس العامة والخاصة من بنى أمية الذين عظم لديهم أن يخرج إرثهم من بين أيديهم.

وقد تصادف أن تلاقى حقد بنى أمية مع حقد والدة أخيه عبد الملك التى وقر عندها أنه قد سم ابنها، فلوحت لبنى أمية عن رغبتها فى الانتقام من عبد الرحمن، فدلوها على محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر. فعرضت عليه المساعدة إذا ما ثار على عبد الرحمن، ولاقى هذا العرض هوى فى نفس محمد ليثأر لأبيه قتيل بنى عامر من جهة، وليثأر لحق وتراث بنى أبيه المروانية من جهة ثانية الذى سلبهم إياه آل المنصور[١]. فعمل على الثورة بعد أن جمع حوله قلوب بنى أمية الموتورين، كما جند الكثير من المرتزقة من البربر والصقالبة[٢] وعامة أهل قرطبة.

واستطاع محمد بن هشام بعد خطوب كثيرة أن يستولى على قرطبة فى نفس العام الذى تولى فيه عبد الرحمن الحُكم، وهو عام ٣٩٩هـ، مستغلا خروج عبد الرحمن إلى جليقية[٣] غازيا. وقد عمل فور دخوله القصر على استدعاء الخليفة المحجور عليه هشام وتقريعه لموافقته على إخراج الأمر من آل بيته إلى ذلك الدعى، ثم طلب

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٥٩ .ـ
ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) : عن الصقالبة انظر فيما بعد، ج ٣، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) : جليقية منطقة فى الأندلس (تمتد من نهر دويره Duero جنوبا حتى الساحل الشمالى لشبه الجزيرة الأيبيرية، ومن الساحل الغربى لها حتى قشتاله Castilla .
انظر، أبو عبيد البكرى: المسالك والممالك (جغرافية الأندلس وأوربا)
تحقيق عبد الرحمن على الحجى، حاشية رقم ١ ص ٧١.

منه خلع نفسه والاعتراف به هو خليفة. وغدا محمد بن هشام من يومها الخليفة الشرعى، وتلقب بالمهدى[1].

أما عبد الرحمن فما إن بلغته تلك الأخبار المزعجة حتى انفض من حوله الأنصار، ولم يصل إلى أبواب قرطبة إلا بعدد ضئيل جدا من الأنصار والجند. وأخيرا قبض عليه وذبح ذبح النعاج، وحمل رأسه إلى المهدى.

وانتهى بذلك حكم آل بنى عامر الذى أقامه المنصور بالكد والجد، والحيلة والجبروت[2]. وقد عمل المهدى بعد أن تخلص من العامريين على أن يرتب تمثيلية طريفة زعم فيها أن الخليفة المعزول هشام بن الحكم توفى، وأثبت ذلك فى محضر رسمى عقد فى القصر[3].

بيد أن الخليفة المهدى لم يكن رجل تلك المرحلة المناسب، فهو وإن استطاع أن يقضى على نفوذ بنى عامر بتلك السهولة، إلا أنه لم يكن يملك بعد هذا رؤية سياسية أو خطة مدروسة. فكل ما كان يملكه هو التصميم على القضاء على آل بنى عامر، وعندما تمكن من ذلك تبين إنه لم يكن رجل تلك المرحلة الخطرة. واتضح ذلك بسرعة عندما بدأ يتخبط فى أخطاء سياسية متعددة: كعداوته المكشوفة للبربر الذين ساعدوه، وخلعه لولى عهده سليمان بن هشام، وتمثيلية موت الخليفة هشام. . إلخ[4].

كل هذه الأمور جعلت النفوس تغلى حقدا عليه وتعمل على الثورة ضده، فثار والد ولى العهد المخلوع سليمان، إلا أنه قتل هو وابنه وهزم البربر. وقام بعد ذلك ابن أخيه أى ابن أخ والد ولى العهد، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٥٩ ـ ٦٠ .ـ عبد الواحد المراكشى: المعجب، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٧١ ـ ٧٣.

(٣) : ابن عذارى: نفس المصدر والجزء، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) : ابن عذارى: نفس المصدر الجزء، ص ٧٥ ـ ٨٣.

ودعا لنفسه وتلقب بالمستعين. واستعان بالبربر الحاقدين على المهدى، وبالنصارى. وسنتبين بعدئذ خطورة الاستعانة بهذين العنصرين على الدولة الأموية، بل وعلى الوجود الإسلامى فى الأندلس.

وكان من جراء ذلك أن وقعت معركة «قنتش».

فى ربيع الأول ٤٠٠هـ/ نوفمبر ١٠٠٩م. وقتل فيها من أهل قرطبة نحو عشرين ألف رجل، ودخل سليمان على إثرها قرطبة بعدما فرّ منها المهدى الذى لحق بمدينة طليطلة التى كانت لا تزال تقع تحت طاعته. ومن هناك اتصل بالنصارى طالبا مساعدتهم، وقادهم نحو قرطبة حيث دارت بينه وبين سليمان معركة «عقبة البقر» فى ١٦ شوال ٤٠٠ هـ/ ٢ يونيو ١٠١٠م. وهزم فيها سليمان وجنوده[1].

وعاد المهدى ثانية لقرطبة لتتجدد بيعته، غير أن البربر استطاعوا بعد ذلك بقليل خذلانه وهزيمته فى مكان يدعى «وادى آره» فانصرف مخذولا إلى قرطبة. وأظهر هشام المؤيد مدعيا أنه قائم دونه، ولكن الأمر قوبل بالازدراء والاستهجان من البربر وغيرهم. فلم تفده تلك اللعبة، وما لبث أن قتل على يد واضح الفتى العامرى أحد فتيان الخليفة هشام فى ذى الحجة ٤٠٠هـ/ يولية ١٠١٠م[2].

وعادت الخلافة مرة أخرى لهشام الذى تجددت بيعته، إلا أن البربر وسليمان رفضوا هذا الأمر، وادعى المستعين أنه أحق بالخلافة من هشام وحدثت وقتها خطوب كثيرة[3] من غداة مقتل المهدى حتى دخول المستعين قرطبة فى شوال سنة٤٠٣هـ/ مايو١٠١٣م منها: مقتل واضح. الفتى المدبر الحقيقى لدولة هشام

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٧٩ ـ ٩٥.

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٩٥ ـ ١٠٠.

(٣) : انظر، ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٠٠ ـ ١١٢ ـ
ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٢٤ ـ ٢٥.
ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٦ ـ ١٢٧. ـ المقرى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧.

الثانية[1]، ومنها تنازل المؤيد عن كثير من الحصون لأمير قشتاله سانشو غارسيا لقاء مساعدته له ضد البربر[2]، ومنها المراسلات الفاشلة بين هشام وسليمان[3]. . . إلخ .

وأخيرا دخل المستعين القصر واستدعى المؤيد هشام فأنبه على ما حدث منه، وطلب اليه أن يخلع له نفسه، ففعل ذلك وأقر له بالخلافة (وتلقب من أول وقته بالألقاب السلطانية)[4]. وابتداء من تلك اللحظة بدأت أسطورة هشام المؤيد كما سنرى لاحقا، وقد بدأت هذه الأسطورة عندما اختلفت الآراء حول مصيره بعد دخول سليمان القصر، فبعضها يقول إن سليمان قد أخفاه والبعض الآخر من تلك الروايات يقول بل فر من حبسه وتوجه نحو مدينة ألمرية[5]، حيث عاش فى فاقة وبؤس وخمول[6]. وسنرى أنه سيظهر بعد ذلك مرة أخرى كما زعم ابن عباد.

على أن سليمان بعد أن استتبت له الأمور فى قرطبة لم يفطن إلى تفادى خطأ المهدى الذى عجز عن التوفيق بين عناصر الشعب المختلفة الأجناس، رغم محاباته للبربر وتوزيعه الأقاليم عليهم، مما أثار حفيظة الصقالبة الذين ينتمون بالولاء والطاعة للعامريين، اذ كان معظم رؤسائهم من اتباع المنصور ابن ابى عامر وفتيانه، فعمد هؤلاء إلى تكوين إمارات خاصة بهم يمارسون فيها سياستهم المستقلة[7] وسنتبين

---

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق، ص ٨٨ ـ ٩٩ .ـ الحميدى : المصدر السابق، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : الخلافة الأموية والدولة العامرية، القسم الثانى، ص ٦٥١ .

(٣) انظر، ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٤) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٥) : (ألمرية Almeria ميناء هام على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى جنوب شرق أسبانيا بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م وكانت فى العصر الوسيط إحدى القواعد البحرية الهامة للأسطول الإسلامى) انظر، ابن الكردبوس : الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادى، منشورات مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الثالث عشر، سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م، ج ٣، ص ٨٩ .

(٦) : على أدهم : المعتمد بن عباد، ص ٢٣ .

(٧) : على أدهم : المعتمد بن عباد، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

بعدئذ الدور الذى قاموا به فى الأندلس.

كما أن سليمان لم يفطن أيضا إلى خطورة إسناد حكم مقاطعات طنجة وآصيلا وسبته التابعة للدولة الأموية آنذاك، إلى اثنين من الأدارسة العلويين الذين ينتسبون إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، لم يفطن وهو الأموى إلى خطورة إسناد بعض أعماله إلى علوى طالبى، وهو مالامه عليه أحد قادته البربر[1]. وكانت النتيجة أن سقطت دولته على يد أحدهما وهو على ابن حمود الذى ولاه حكم مدينة سبته، فقد رأى هذا بثاقب بصره أن الخلافة يمكن انتزاعها من يد الامويين وتسييرها لبنى عصبته العلويين بقليل من الحنكة والذكاء. فادعى أن الخليفة هشام عهد إليه بولاية عهده وأخذ ثأره له من خالعه المستعين، وتحين الفرص للوثوب على سليمان شاهرا هذا السلاح[2]. والتقت كلمته مع خيران العامرى أحد الصقالبة من الفتيان العامريين البارزين الذى استقل بمدينة المرية، ونسق جهوده مع على بن حمود. وتبنى دعوته وخاض معه معركته ضد سليمان المستعين[3] الذى قامت عليه ثورة أخرى بقيادة مجاهد العامرى أحد الصقالبة البارزين أيضا، والذى استقل بمدينة دانية[4]، وتبنى هناك دعوة أحد الأشراف

(١) : انظر ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) : انظر فى هذا:
رجب عبد الحليم: دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس (رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة) ١٩٧٦م، ص ٥٣ - ٥٤.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١١٤ - ١١٦.-
ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول - المجلد الأول، ص ٢٤ - ٢٥.
عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ٩٠ - ٩١. - ابن الأثير: الكامل، مجلد ٩، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٤) : (دانية Denia تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبى بلنسية فى شرقى أسبانيا، وهى الآن مركز إدارى فى مديرية لقنت Alicante واسمها العربى والأسبانى مشتق من اسمها الرومانى القديم دانيوم Dunium ولقد لعبت دانية فى العصر الإسلامى دورا هاما خصوصا بعد أن استقل بها القائد الصقلبى، أبو الجيش مجاهد العامرى الذى تسميه المصادر الأوربية (Mugeto).
انظر، ابن الكردبوس: الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، ج ٢، ص ٩٦.

القرشيين فى دانية ولقبه المعيطى، ودعا له بالخلافة[1].

واستطاع على بن حمود أن يضيق الدائرة على سليمان، وأن يدخل قرطبة ظافرا. وقد حاول أن يلقى تهمة قتل هشام على المستعين، لكى يمهد الطريق نحو مطامعه. وعلى الرغم من أن سليمان وأباه الحكم نفيا ذلك نفيا قاطعا، إلّا أن عليا عجل بقتلهم[2].

وهكذا تولى على بن حمود الخلافة، وهو العلوى فى قلب الخلافة الأموية. وقد أمل أن تصفو الأمور له، إلا أن خيران العامرى رفيقه فى الكفاح ضد المستعين خاب أمله عندما لم يجد الخليفة هشام حيا، فسارع إلى ألمرية فى شرقى الأندلس، ومن هناك تبنى أحد بنى أمية ودعا له هو وغيره من الأندلسيين، وتلقب بالمرتضى. وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر.

وتقابل هؤلاء مع البربر فى غرناطة قبل أن يتوجهوا إلى ملاقاة على بن حمود. غير أنهم هزموا شر هزيمة وقتل المرتضى المذكور، وتفرق شمل جيشه وانكسرت شوكة الأندلسيين، وكان على بن حمود قد توفى قبل قليل من المعركة فى ذى القعدة ٤٠٨ هـ/ مارس ١٠١٨م[3].

خلافة القاسم بن حمود ونزاعه مع ابن أخيه يحيى بن على:

وتولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود الذى لم تصف له الأمور هو الآخر، بسبب سياسته التفريقية بين عناصر جيشه. فثار عليه البربر وثار عليه ابن اخيه يحيى بن على حاكم العدوة المغربية[4] بمساعدة البربر. ولم يجد القاسم بدا من الفرار عن قرطبة إلى إشبيلية فى ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ/ أغسطس ١٠٢٢م.

---

(١) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١١٤ ـ ١١٦.
ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٢٤ ـ ٢٥. .

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٢٠ ـ ١٢٧ ـ عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ٩٨ ـ الضبى: بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، ص ٢٧.

(٤) : المقصود بها ثغر سبته المطل على البحر المتوسط فى المغرب الأقصى.

ودخل يحيى قرطبة فبايعه البربر والسودان فى صدر جمادى الآخرة من نفس العام، وتلقب بالمعتلى. أما عمه القاسم فقد ذهب إلى إشبيلية داعيا لنفسه بالخلافة ومنتظرا الفرصة السانحة للوثوب على ابن أخيه يحيى. وقد وهبه يحيى تلك الفرصة عندما اسهم بسوء سياسته مع السودان رجال عمه القاسم الموالين له، ومع بربره الذين أهمل شأنهم، فاختلفت عليه الحال ولم يجد مفرا هو الآخر من مغادرة قرطبة، وعاد القاسم بسرعة إلى قرطبة مرة أخرى فخطب له فى أواخر عام ٤١٣هـ/ ١٠٢٣م.

غير أنه لم يتمتع طويلا بخلافته الثانية، فثار عليه أهل قرطبة وأجمعوا على خلعه، وحاصروه فى القصر مدة شهرين حتى هزم. وخرج مرة أخرى إلى إشبيلية فسدت أبوابها فى وجهه بتدبير القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد. وقد كانوا قد احتفظوا بابنيه أى ابنى القاسم بن حمود رهينة لديهم.

وقد اقتنع القاسم أخيرا أن لا جدوى من حصاره للمدينة، فوافق على رفع الحصار عنها بعدما تعهد الإشبيليون بإخراج ابنيه له. وبالفعل تم ذلك وانصرف القاسم وجماعته عن المدينة(١).

عودة الأمر ثانية لبنى أمية:

أما بالنسبة لأهل قرطبة، فقد قر رأيهم على عودة الأمر لبنى أمية مرة أخرى، علهم يكونون أهلا لذلك، فتصدر لهذا الأمر ثلاثة منهم، ووقع الاتفاق فى النهاية

---

(١) عن هذه الأحداث المتعلقة بخلافة القاسم ويحيى الحموديين يراجع: - ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٣٥ - ١٣٩. ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول - المجلد الأول، ص ٧٨ - ٨٣. والقسم الأول - المجلد الثانى، عنى بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من أساتذة وطلبة جامعة القاهرة، وقدم له عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادى، ص ١٣ - ١٤. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٠ - ١٣٤. عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ٩٩ - ١٠٠. المقرى: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٧ - ٤٠٨، ج ٢، ص ٢٩ - ٣١. رجب عبد الحليم: دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس، ص ٦١ - ٦٥.

على تأمير عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار شقيق المهدى المذكور سابقا، وتلقب بالمستظهر.

وكان فى الواقع شابا قويا سديد الرأى، غير أنه كان الرجل المناسب فى غير الوقت المناسب، فلم تتح له الفرصة لإظهار مواهبه. فثار عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر، وقتل عبد الرحمن المستظهر ولما يتجاوز سبعة وأربعين يوما من حكمه بعد[1].

وتولى الخلافة بعده هذا الثائر، وتلقب بالمستكفى[2] إلا أن أمره انتهى بعد ذلك بالخلع والنفى، ثم الاغتيال وذلك فى عام ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥م[3].

أما يحيى بن على الحمودى فإن أشياعه فى قرطبة تبنوا دعوته مرة أخرى فى نفس العام الذى خلع فيه المستكفى الأموى، إلا أنه لم يدخل قرطبة، بل اكتفى بتولية أحد رجاله أمرها. وبقى هو بمدينة «قرمونة[4]»، ثم خلعت طاعته عن قرطبة ثانية

---

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ . ـ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٢ .

(٢) : ارتبط اسمه أيضا باسم ابنته الأديبة ولادة، صاحبة الشاعر الأندلسى المشهور الوزير بن زيدون الذى صاغ فيها اجمل قصائده.

(٣) : عن المستظهر والمستكفى يراجع :
ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٠ ـ ١٤٣ . ـ ابن بسام : المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٣ . ـ عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، ابن سعيد المغربى : وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس، جزءان، وهذان الجزءان خاصان بالأندلس ضمن كتابه الأوفى المعنون بعنوان: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقى ضيف، ج ١، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٤) : قرمونة: فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت عبارة عن كورة كبيرة واسعة، تضم عددا من المدن والحصون، وقاعدتها تسمى بنفس الاسم أى قرمونة. واسمها لاتينى الأصل Carmo . وقد دخلت قرمونة فى حوزة المسلمين عام ٩٢هـ/ ٧١٢م وسقطت بيد الأسبان نهائيا عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م، وهى الآن Carmona . وهى مركز إدارى تابع لمديرية إشبيلية، على بعد ٣٥ كيلو مترا شمالى شرق إشبيلية.
انظر، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٤، ص ١٨٣ .

فى العام التالى، فتوجه إلى مدينة مالقة التى كان يتولاها قبل قيامه على عمه القاسم.

عودة الأمر ثالثة لبنى أمية، ثم خلعهم نهائيا:-

ورأى أهل قرطبة أن يعطوا بنى أمية الفرصة الأخيرة لإثبات وجودهم واستعادة عرشهم النافر. فأجمعوا إثر خلع يحيى بن على فى عام ٤١٧هـ كما قلنا على رد الأمر لهم. وتولى ذلك كبير قرطبة وشخصيتها النافذة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الذى راسل غيره من الرؤساء المنتزين على الثغور والمدن فى ذلك. فتمَّ رأيهم على تقديم أبى بكر بن هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر الذى كان يقيم عند آل قاسم الفهرى المتغلبين على حصن «البنت[1]». فبايعوه فى عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م.

وتلقب بالمعتد بالله، وأخذ يتأهب للوصول إلى قرطبة حتى دخلها فى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩م.

على أن الخليفة الجديد لم يك على مستوى ذلك التطلع الشعبى الكبير كما لم يك جديرا بعقد الآمال عليه طيلة مدة انتظاره التى بلغت عامين إذ تكشف عن شخصية ضعيفة متهالكة خيبت الآمال. فقد تخبط فى كثير من الأخطاء السياسية التى أفقدته صفة رجل الدولة المطلوبة فى تلك المرحلة العصيبة من تاريخ دولة بنى أمية، مما جعل أهل الرأى والمشورة فى قرطبة وعلى رأسهم ابن جهور يقطعون كل أمل فى صلاحية بنى أمية للأمر، فخلع فى ذى الحجة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١م.

---

(١) : البنت أو البنُت Alpuente ، كما ينقل شكيب أرسلان عن ياقوت الحموى (قال ياقوت: حصن: «البنت» بالضم والواو والنون ساكنان، والتاء فوقها نقطتان، حصن بالأندلس، وربما قالوا البنت.
انظر، شكيب أرسلان: الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، ٣ أجزاء الجزء الأول ح ٤، ص ١٨٠.

كما استقر رأى أهل قرطبة على خلع بنى أمية أجمعين، وطرد المعتد من المدينة، وتولية الأمر للوزراء وأهل الحل والعقد فى قرطبة(١).

أسباب سقوط الدولة الأموية :ـ

هكذا سقطت الدولة الأموية على هذه الصورة المؤسية المحزنة. وقد رسم سقوطها أكثر من علامة استفهام كبيرة فى مخيلة المؤرخين والمفكرين قديما وحديثا، وعلى درجات متفاوتة فى التحليل والتفسير والتعليل والاستنتاج.

ومما يؤسف له أن هذا السقوط المريع بما كان له من انعكاسات وأبعاد خطيرة لم يلق من بعض المؤرخين القدامى تفسيرا وتحليلا دقيقين، يكشف لنا الستار عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوطها.

فقد اكتفوا بالأسباب الظاهرة المباشرة(٢) والتى مهما بلغت من القوة فلن تستطيع أن تقضى على دولة بلغت أوج مجدها وعظمتها حتى عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م. وهو العام الذى بدأت نذر السقوط تظهر تباعا فيه.

إنه لأمر مثير حقا أن تسقط دولة عاشت مجدها الذهبى فى عهود: عبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر، والحاجب المنصور بن أبي عامر، وولده عبد الملك المظفر. دولة أمَّ بلاطاتها ملوك النصارى ورسل الدولة البيزنطية طلبا للمساعدة

---

(١) : يراجع فى انتهاء الدولة الأموية وانقطاعها:
- ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٥ ـ ٢٥٢.
- عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
- الضبى: المصدر السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
- ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) : كجعلهم سبب قيام محمد بن هشام المهدى هو رغبة والدة عبد الملك المظفر الانتقام من ابن زوجها عبد الرحمن لشكها من أنه قد قتل ابنها بالسم. وهو فى رأينا سبب ظاهرى لم يكن إلا الوسيلة التى تذرع بها محمد بن هشام، بل واستفاد منها للخروج على الدولة العامرية التى سلبت بنى أمية خلافتهم وإرثهم المشروع.
انظر فى هذا ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٥٢.

ضد منافسيهم ولتبادل العلاقات وتحسينها مع هذه الدولة المتعاظمة القوة[1]. دولة غشى بلاطاتها العلماء والأدباء رغبة فى المجد والصيت الذائع الذى كانت تسبغه على كل من يؤمها. دولة استطاعت الحد من هجمات ممالك النصارى التى لم تنقطع أبدا، بل وجعلت لفرط استقرار الأمور فيها الجهاد ضد ممالك النصارى فى عهد أولئك الحكام العظام شغلها الشاغل.

ومهما يكن من أمر فإننا نعتقد أنه كان لسقوط هذه الدولة أسباب مباشرة، وأخرى غير مباشرة، نتناول شرحها على التو.

الأسباب المباشرة لسقوط الدولة :-

١ - ولعل أول ما نستطيع إيضاحه من تلك الأسباب المباشرة، هو ما أقدم عليه الخليفة الحكم المستنصر عندما عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه القاصر هشام والبالغ من العمر احد عشر عاما كما مر بنا سابقا[2]. وقد كان هذا أمراً خطيرا، وسابقة خطيرة فى بلاد الأندلس، إذ لم يحدث أن تولى الحكم فى عصر الولاة[3]. ثم الإمارة ثم الخلافة صبى لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد كما حدث هنا، . وكان من الممكن بعد ذلك وبسهولة التكهن بخطل رأى الحكم المستنصر وافتقاره

---

(١) : عن العلاقات الدبلوماسية التى نشأت بين الدولة الأموية والممالك النصرانية فى الأندلس وأوربا انظر، ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمى، مراجعة لطفى عبد البديع، ص ٩١ - ١١٨ .
- أحمد إبراهيم الشعراوى: الأمويون أمراء الأندلس الأول، من ص ٣٢٤ - ٣٢٧ . - عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ٧٢ - ٨٢ :- محمد عبد الله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٤٩٠ - ٤٩١، وص ٥٨٣ - ٥٨٤ .

(٢) : انظر قبل، ص ٣٢ .

: المقصود بعصر الولاة هى الفترة التى تولى حكم الأندلس فيها أمراء من العرب بالتعيين من خلفاء بنى أمية فى دمشق حتى سقوط دولتهم عام ١٣٢هـ. وأول هؤلاء الولاة العرب هو عبد العزيز بن موسى بن نصير، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، الذى قتله عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل، وأسس فى الأندلس إمارة أموية مستقلة.

إلى الحنكة السياسية والحكمة، فكل المؤشرات كانت تؤكد أن الأمور سوف لن تصفو لطفل قاصر تحيط به أطماع رجال دولته وفتيان قصره لاحتوائه وجعله دمية فى أيديهم. وهذا ما حدث بالفعل بعد وفاة الحكم المستنصر، إذ انقسم رجال الدولة إلى جناحين، جناحٌ يدعو لخلع هشام وتولية عمه المغيرة الأكبر سنا للتأثير عليه، والتطلع إلى تولى المناصب الكبيرة فى الدولة لقاء إيصاله إلى الحكم وعلى رأس هؤلاء فتيان القصر من الصقالبة، وجناح آخر يدعو إلى تنفيذ رغبة الحكم المستنصر بتولية ابنه هشام الخلافة، ومن ثم الاستفادة من هذا التعيين. وكانت الغلبة لهذا الجناح[1].

ولقد قوبل إسناد الحكم المستنصر العهد لابنه هشام من بعده بانتقاد المؤرخين والمفكرين قدامى ومحدثين على السواء[2]. وكان نتيجة ذلك هو ما أصاب الخلافة على يد المنصـور بن أبى عامر وأبنائه من بعده، من استبداد بالأمر وزوال هيبة الخلافة (عندما اعتدى «أى المنصور بن أبى عامر» على الصفة الشرعية للخلافة وأضعف شعور رجالات الأندلس بالولاء لها، ونصب لهم القدوة وضرب لهم مثلا شرودا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها[3]).

على أن أخطر ما ترتب على ذلك ـ علاوة على زوال هيبة الخلافة ـ هو ما حدث من اختلال فى نظام الحكم نفسه من فصل بين السلطتين السياسية والروحية. فالحقيقة أن الأندلس لم تشهد منذ فتحها فصلا بين السلطتين سواء أكان ذلك فى عصر الولاة، أم فى عصر الإمارة، أم فى بداية عصر الخلافة وحتى أيام الخليفة

---

(١) : محمد عبد الله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٥١٧ ـ ٥١٨.

(٢) : محمـد عبـد الله عنـان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٥١٠ (نقلا عن ابن حيان). ـ حسين مؤنس: شيوخ العصر فى الأندلس. ص ٧٤ ـ ٨٠. ـ على أدهم: المرجع السابق، ص ٨٢٣

(٣) : على أدهم : نفس المرجع السابق، ص ٢٣.

الحكم المستنصر. كان الوالى ومن ثم الأمير فالخليفة يقبض بكلتا يديه على السلطتين السياسية والروحية وكان الناس ينظرون إلى هذا بعين الرضا والقبول، إذ لا فرق عند المسلمين بين السلطتين أبدا، فالحاكم أميرا كان أو خليفة هو فى نفس الوقت الإمام فعندما يجيء الحاجب المنصور فيغطى بكل ما أوتى من جبروت على الخليفة الشرعى الذى تعودت النفوس على إجلاله، ويحجبه عن رعيته ويستأثر بالحكم لنفسه مبقيا على المظهر الشكلى للخلافة، فإن الناس ستصاب بصدمة نفسية كبيرة.

فلم يكن المجتمع فى الأندلس يرتاح إلا لخليفة قرشى أموى يحكم علنا، ويخرج للناس ويقابلهم ويصلى بهم. وعلى هذا فإننا نستطيع تفسير شوق الناس الشديد إلى رؤية الخليفة الشرعى المحتجب قسرا، بل وتلفيقهم الشائعات المختلقة المبنية على الوهم والتضليل حول خليفتهم[١].

ومن هنا أيضا نفهم خضوع الحاجب المنصور لهذا التطلع الشعبى الكبير عندما أظهر الخليفة هشاما، وخرج معه فى موكب هائل من قصره إلى الزاهرة. قصر الحاجب[٢]. بل ان هذا الموقف الشعبى إزاء الخليفة المحجور عليه جعل المنصور يتراجع عما طاف بمخيلته فى وقت من الأوقات من الرغبة فى التسمى بالخلافة، بل ويتراجع نهائيا عن ذلك بعد أن نصحه الفقهاء بالإبقاء على الخلافة الأموية[٣].

---

(١) : من الشائعات التى ترددت فى الأندلس، ما صيغ على لسان الخليفة هشام نفسه من شعر يشرح فيه حاله مع حاجبه، ويقال إنه ينسب للمقتدر العباسى:

أليس من العجائب أن مثلى . . يرى ما قل ممتنعا عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعا . . وما من ذاك شيء فى يديه

انظر، محمد عبد الله عنان: الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، الجزء الثالث من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس ط ١، ص ٥٠.

(٢) : محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، ص ٦٧.

(٣) : انظر، ابن حزم: نقط العروس فى تواريخ الخلفاء، مجلة كلية الآداب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٥١م، ص ٧٦ ـ ٧٧.

وهـذا هو الذى جعله يشدد فى وصيته لابنه عبد الملك على أن يراعى الخليفة ويحافظ على الخلافة وقدرها، ولا يحاول الانفراد بالتدبير دونه ولو مظهريا[1].

وعلى هذا فإننا نستطيع القول بإن إسناد الخليفة الحكم المستنصر ولاية العهد لابنه، واستئثار المنصور بن أبى عامر وولده من بعده بالسلطة كان أحد أسباب سقوط الدولة الأموية وزوال هيبتها، إذ بزوال هيبة الخلافة زالت هيبة الدولة.

٢ ـ وثانى الأسباب المباشرة لسقوط الدولة هو إكراه عبد الرحمن بن المنصور الخليفة هشـام على توليته عهده وإسناد الخلافة له من بعده. وكان هذا الأمر شيئاً بالغ الخطورة، إذ هو الذى عجل بسقوط الدولة سراعاً، وترتب عليه جميع النتائج بعد ذلـك إبتداءً بماحدث من وثـوب محمد بن هشام المهدى، وتولى الخلافة خلفاء ضعاف، وقيام ممالك الطوائف.... الخ.

فقـد ادعى عبـد الرحمن بن المنصور أن الخليفة هشاما لم يجد أفضل منه لتولى الخلافة من بعده[2]. وهو شىء خطير كما قلنا، فحتى ذلك التاريخ لم يجرؤ أحد من المتغلبـين على الخلافة الإسلامية على الدعوة لنفسه بالخلافة. فلا البويهيون

---

(١) : أوصى المنصور ابنه عبد الملك بوصية سياسية وعائلية جامعة. وأهم ما ورد فيها هى وصيته له بمراعاة الخلافة والخليفة معا، إذ يقول:

(... وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه. فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء الظن، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة، مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه. فليس لك ولا لأوليائك شىء يقيكم الحنث فى يمين بيعته إلا بما تقيمه لوليها من النفقة. وأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة.)

كما جاء فى هذه الوصية أيضا (وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك فإنى أعرف ذنبى إليهم).

انظر، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٤٣ وما بعدها ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٨٤ ـ ٨٥.

فعلوا ذلك، ولا السلاجقة أيضا من بعدهم، ولا أسرة بدر الجمالى التى كانت تمثل نفس الدور مع الخلافة الفاطمية التى كان قد ضعف أمرها(١).

وقد حرك هذا الأمر الشعور لدى بنى أمية خاصة والمسلمين عامة فى الأندلس. فخروج الخلافة عن قريش ممثلة فى بنى أمية يعتبر مخالفة لشروط الأمامة، ومناهضة لشعورهم الدينى نحو الخلافة الأموية. فليس الأمر بتلك السهولة التى تصورها عبد الرحمن بن المنصور بقلة تبصره ورعونته عندما استغل ضعف الخليفة هشام أبشع استغلال. فقد جرّ بهذا التصرف الأرعن على نفسه وعلى دولته من المصائب والمشكلات ما عجل بسقوطها.

ولقد كان فى إمكاننا أن نتكهن بأن الوضع كان سيستمر كما كان فى أيام المنصور وابنه عبد الملك مع الخليفة هشام ومن يأتى بعده، تماما مثل وضع بنى العباس فى بغداد مع البويهيين والسلاجقة، وأن يصبح ذلك أمرا مألوفا لو لم يقم عبد الرحمن بتلك الخطوة. أما أن يأتى هو فينسف كل الجسور مع بنى أمية وأتباعهم فى الأندلس، فتلك الداهمة التى ليس بعدها داهمة.

وأما ما فسر به الأمر بعد ذلك من أن انتقال الخلافة من بنى أمية إلى بنى عامر إنما هو انتقال لها من القيسية إلى اليمنية، فإنه فى رأينا قد بولغ فيه كثيرا، فالقضية تتصل بما أجمع عليه فقهاء السنة من أن الخلافة فى قريش(٢)، وليست قضية قيسية ويمنية(٣).

---

(١) : من الواضح أننا نقصد فى هذه النقطة بالذات الإشارة إلى إصرار المتغلبين على تلك الخلافات المذكورة على مراعاة هيبة الخلافة، والمحافظة على سلطانها الروحى، سواء أكانت عباسية أو فاطمية.

(٢) : من بين شروط الإمامة التى انعقدت عليها كلمة الفقهاء أن يكون الخليفة قرشيا لما ورد فى ذلك من الأحاديث.

انظر فى ذلك، حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) : من القدامى الذين يرون هذا الرأى ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

ومن المحدثين أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب بالأندلس، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

ومرة أخرى نستطيع أن نؤكد أن ما حدث بعد ذلك من أحداث سياسية إنما هو نتيجة لهذا السبب سواء أكانت قضية الانتقام التى تحدثنا عنها فيما يتعلق بوالدة عبد الملك المظفر، أم خروج محمد بن هشام على الدولة العامرية، أم الفتنة البربرية كما كان يطلق عليها، وما تبع ذلك من تولى خلفاء ضعاف، ثم سقوط الدولة أخيرا وقيام ممالك الطوائف فى الأندلس.

الأسباب غير المباشرة لسقوط الدولة :-

أما الأسباب الأخرى التى أسهمت فى سقوط الدولة، فقد كانت أسبابا غير منظورة أثرت ببطء فى هدم بناء الدولة منذ تكوين الدولة الإسلامية فى الأندلس، وأثرت أيضا فى تشكيل تحركات الأحداث التاريخية فى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية، وهو ما نحاول الآن إيضاحه فى شيء من الإيجاز.

كانت التركيبة أو البنية الاجتماعية للمجتمع عاملا رئيسيا فى تصدع أركان الدولة. فالمجتمع الأندلسى كان مزيجا من عناصر عرقية ودينية شتى يسود علاقاتها التشاحن والتصادم أبدا، فقوام المجتمع الأندلسى عناصر رئيسية خمسة[1] هى :-

- العرب : على اختلاف قبائلها القيسية (المضرية)، واليمنية.

- البربر: وهم الذين لم تنقطع هجرتهم مذ وطئت أقدام المسلمين بلاد الأندلس، والذين ازدادت اعدادهم في الجيش على يد العامريين بصفة خاصة.

---

(١) : عن المجتمع الأندلسى وعناصره العرقية والدينية راجع :
أحمد هيكل: فى الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط ٢، ص ٣١ - ٤٧.- لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا، ص ١٧ - ٣٦. - عبادة كحيلة: المولدون فى التاريخ الأندلسى، ص ٦١ - ١٠٧. - جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى، ص ٣٤ - ٤٢. - صلاح خالص: إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى «دراسة أدبية وتاريخية لنشوء دولة بنى عباد فى أشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها ٤٦٤/٥١٤هـ» ص ٣١ - ٣٣.

- المسالمة[(١)]: وهم الذين اعتنقوا الإسلام، وأصبح لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وتسمى هذه العناصر المسلمة بالإضافة إلى المسالمة، بالمولدين. فأطلق على الأسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام المسالمة، وأطلق اسم المولدين على نسلهم. فنشأ هؤلاء فى ظل الإسلام وتربوا بتربيته وقد أصبحوا كثرة كاثرة مهمة فى الأندلس وقتها.

- المستعربون: (موزاراب Mozarab) . وهم الأسبان الذين بقوا على دينهم المسيحى وكان لهم الحق فى ممارسة شعائرهم والتقاضى فيما بينهم أمام قضاة منهم، وإدارة شئونهم. وكان يطلق عليهم فى الأندلس أيضا اسم العجم.

- الصقالبة: الذين بدأوا يتلمسون طريقهم نحو القوة منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى.

- اليهود: ويكونون هم الآخرون قسما مهما من سكان المدن، وكان لهم نشاطهم الإدارى والتجارى فى الأندلس.

تلك هى عناصر المجتمع الأندلسى الذى لم تكن تجمعه لا وحدة عرقية، ولا وحدة دينية، وتسيطر على فئاته التنافسات والخلافات ومع هذا فقد كانت هذه العناصر المتناحرة تشكل فى مجموعها - ماعدا الطارئين كالبربر الذين استقدمهم المنصور بن أبي عامر إلى الأندلس - مايمكن أن نطلق عليه المجتمع الأندلسي بكل خصائصه ومميزاته. ويلاحظ هنا أن هذا المجتمع لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا ينقسم إلى ثلاث طبقات جنسية أو أكثر، بمعنى أنه لم يكن هناك طبقة عربية أرستقراطية، ووسطى، ودنيا، وطبقة بربرية، ومستعربة، ومولّدة بذات الانقسام، بل يمكن أن نقول إنه كان هناك طبقة أندلسية أرستقراطية، وأخرى

---

(١) : عقد عبادة كحيلة فى رسالته المذكورة سابقا فقرة واسعة حلل فيها مصطلح المولدين، كما تطرق فى الحديث إلى معنى المسالمة أو الأسالمة.
انظر، ص ١١٣ - ١٢٠.

وسـطى ، وثـالثة دنيا ، وإن كان هذا لا يغفل مكانة العرب كنعصر أشاد صرح حضارة جعلت من قرطبة المركز الثانى للحضارة الإسلامية بعد بغداد(١) .

أما العرب فقد تناسوا عصبيتهم القبلية بين قيسية ويمنية ، لا لأنها قد استلت من نفـوسهم ، وإنـما أجلت ونحت ليحل محلها فى المرتبة الأولى الخوف المشترك من المصير المشترك .

بعد أن دأب أمراء ثم خلفاء بنى أمية ثم المنصور بن أبى عامر على إضعاف العصبية العربية بقسميها ، وتحجيم وجودها فى الجيش(٢)، ولذلك فقد انكفأت على نفسها . ولم تعد تلك القوة المهيمنة التى كانت عليها فى عهد الولاة وبداية عهد بنى أمية . ومـالت ـ كأختها فى المشرق ـ إلى الاهتمام بمصادرة دخلها وتنويعها وتوزيعها لتتبلغ به للصرف على متطلباتها الحياتية، وأصبح وجودها فى بلاطات بنى أمية ذا بعـد تشريفى كتـولى الوزارة أو القضاء وغير ذلك ، وغدا نفوذهم (أى العرب) اقتصادى وثقافى بعد أن اضمحل نفوذهم السياسى . ومن هذا المنطلق فرضوا أهميتهم على حياة المجتمع الأندلسى اليومية ، وخلدت كثير من الأسر العربية أسماءها فى حياة المجتمع الأندلسى ، وانصبت جهود هؤلاء العرب فى محاربة نفوذ الطارئين على البلاد كالبربر الذين استقدمهم المنصور بأعداد كبيرة .

أما البربر وهم العنصر الثانى من عناصر المجتمع الأندلسى ، فقد كانوا يشكلون كثـافة سكانية كبيرة جدا ، ولم تنقطع هجرتهم منذ الفتح وتدفقت أعدادهم من المغرب نحو الأندلس من القرن الأول وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى لأسبـاب عديدة منهـا : تشـابه المناخ والأحوال الزراعية والجغرافية بين العـدوتـين المغربية والأندلسية ، ومنها أسباب أمنية انتهجها بعض أمراء وخلفاء الدولة الأموية تهدف إلى استقدام أعداد كبيرة منهم لمقاومة العناصر العربية وغيرها من المناوئين للدولة .

---

(١) : صلاح خالص : إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) : السيد عبـد العـزيز سالم : تاريخ المسلمـين وآثارهم فى الأندلس من الفتح حتى نهاية الخلافة، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

بيد أنه يجب أن نذكر أن البربر الذين قدموا إلى الأندلس إبان الفتح ما لبثوا أن اندمجوا مع غيرهم من العناصر الأخرى كالعرب والمسالمة وغيرهم. وشكلوا جميعا المجتمع الأندلسى أو القومية الأندلسية بكل خصائصها ومميزاتها المعروفة فى كتب التاريخ والأدب.

وفى عهد المنصور بن أبى عامر قدمت أعداد كبيرة من البربر إلى الأندلس وكانت هذه العناصر الطارئة تثير استياء الأندلسيين بسبب سلوكها المعوج، إذ كانوا كفرق مرتزقة لا يهمها إلا مصالحها الخاصة لا تتورع عن نقل ولائها لمن يدفع لها أكثر. واتضح هذا الدور السيء لهم عندما بدأت الخلافة تتهاوى إذ ظهر مدى فسادهم وانعدام أى شعور بالصلاح لديهم، حتى لقد سميت الفترة التى أعقبت سقوط الدولة بالفتنة البربرية(١).

أما المولدون فعلى الرغم من انتمائهم الى الإسلام، وعلى الرغم من أنهم ولدوا فى ظل الإسلام وتثقفوا بثقافته. إلا أنهم أرضعوا فى معظمهم الحقد والبغضاء للعرب منذ نشأتهم. وكانوا يفعلون ذلك للتعبير عن شعورهم بالغبن والإجحاف، فقد كانوا يشعرون بأنهم يتحملون وحدهم المغارم المتمثلة فى الضرائب دون أن يكون لهم الحق فى المغانم والمناصب الرئيسية التى كانت وقفا على فئات من المجتمع بعينها(٢). ومن ثم فقد عمدوا إلى الثورة على الدولة الأموية كلما أمكنتهم الفرصة وسنح لهم السانح. وقد تسموا إمعانا فى الاعتداد بأصولهم الأسبانية بأسماء قوطية كابن القوطية، وابن غارسيا ونحوهما(٣). وكانوا يقومون منذ عهد الامير الحكم بن هشام المعروف بالربضي وحتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بثورات متعددة فى معظم الأندلس، وقد استطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على خطرهم عندما أخمد

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٧٦ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٣٦٦ - ٣٧٠.

(٢) : أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣٨ - ٣٣٩. وانظر كذلك عبادة كحيلة: المولدون فى التاريخ الأندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الإمارة. (رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة) ١٩٧٨م، ص ٩٠ - ٩٤.

(٣) : أحمد مختار العبادى: نفس المرجع أعلاه، ص ٣٣٨.

الثورة الكبرى التى قام بها عمر بن حفصون[1] أحد زعماء المولدين الذى استقل بجماعته بالمرتفعات الجنوبية الأسبانية الممتدة بين مدينتى : رندة غربا، ومالقة شرقا، وكانت قاعدتهم قلعة ببشتر[2].

ولم يخل المجتمع الأندلسى من مضايقات المستعربين أو المستعربة فقد ظلت هذه الطائفة محافظة على مسيحيتها فلم يعترضها معترض، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية ويتحاكمون فيما بينهم إلى قضاة منهم، ويدبرون شؤونهم بأنفسهم. إلا أنه عزّ على هذه الفئة وخاصة رجال الدين والقساوسة انصراف أبناء جلدتهم إلى الاهتمام باللغة العربية لغة الثقافة العالمية آنذاك وعزوفهم عن لغتهم اللاتينية لغة كتابهم المقدس[3]، فعملوا جاهدين على تعبئة الشعور القومى والدينى لديهم وحقنهم بالحقد والكراهية، والانتقاص من الإسلام والاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم. وكانوا، أى المستعربين عنصر شغب منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) وحتى بداية الفتنة[4].

---

(١) : عن عمر بن حفصون وثورته التى شغلت الفترة من إمارة الأمير الأموى المنذر بن محمد، وحتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر انظر، ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٠٤ ـ ١٩٧ على صفحات متفرقة. ـ عبادة كحيلة: المولدون فى التاريخ الأندلسى، ص ١٩٦ ـ ٢٥٠.

(٢) : حصن ببشتر هو كما يقول ابن غالب الأندلسى، فى كتابه قطعة من كتاب فرحة الأنفس ـ تحقيق لطفى عبد البديع (الحصن المنفرد بالامتناع والواحد فى الحصانة والانقطاع، صخرة صماء من جميع النواحى، وإذا توصل المتوصل الى أعلاه ألفاه منفسحا ورحبا منبسطا).

انظر ابن غالب الأندلسى: فرحة الأنفس، ص ٢٦.

(٣) : انظر فى هذا كامل كيلانى. نظرت فى تاريخ الأدب الأندلسى، ص ٦٣٦ ـ ٣٤٠.

(٤) : أحمد مختار العبادى: المرجع السابق، ص ١٥٥ ـ ١٥٨. ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٣.

أما العنصر الرابع من عناصر المجتمع ، فهم الصقالبة[1] الذين كتب عنهم الكثير قديما وحديثا ، وقد لعبوا دورا هاما فى حياة المجتمع الأندلسى السياسية والاجتماعية

---

(١) : الصقالبة شعب كتب عنهم الكثير قديما وحديثا ، وسنجتزىء من كتاب : فى تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادى ما يعنينا فى شىء من الأيجاز على معرفة ما تعنيه هذه الكلمة : الصقالبة (أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الأدرياتى . وهى البلاد التى كانت تسمى فى العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى . ولقد دأبت بعض القبائل الجرمانية على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب أسبانيا ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة. ثم توسع العرب فى استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية . واستخدموهم فى القصر الخليفى ، ويذكر أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضا من سواحل البحر الأسود ومن لمبارديه وكلابريا فى إيطاليا ، ومن قطالونيا وجليقية فى شمال أسبانيا كما يقول ابن حوقل فى كتابه : صورة الأرض الذى ينقل عنه العبادى. وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالا إلى أسبانيا الإسلامية حيث ربوا تربية إسلامية ، ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش . واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية فى المجتمع القرطبى ، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة ويبدو أن بدء استخدام الصقالبة فى الأندلس كان منذ أيام الأمير الحكم الربضى ، ثم أخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حوالى ٣٧٥٠ من الرجال ، ٦٥٠ من النساء . وهذه الأرقام مختلف فى تقديرها ، ولكنها تدل عموما على وجود طبقة جديدة فى المجتمع الأندلسى مثل المماليك الأتراك فى المشرق الإسلامى .

ويرى بعض المؤرخين أن اعتماد الأمويين فى الأندلس على هؤلاء الصقالبة فى الجيش والحكومة ، كان هدفه الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية فى الحكم وإضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر) .

انظر ، ص ٢١١ ـ ٢١٣ .

كما كتب أحمد مختار العبادى أيضا فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٥٣م . بحثا مطولا عن الصقالبة فى اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية .

كما كتب سعيد عاشور فى كتابه : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٩٦ ـ ٦٠٢ بحثا عن السلاف أو الصقالبة وحركتهم التوسعية .

أما من القدامى فقد كتب أبو عبيد البكرى فى كتابه المذكور سابقا فقرة واسعة عن الصقالبة من ص ١٥٤ ـ ١٩١ .

والثقافية. ومارسوا دورا مماثلا للدور الذى لعبه الأتراك فى عهد الدولة العباسية فى عصرهـا الثـانى، ومماثل للدور الذى لعبته الانكشارية فى الدولة العثمانية، بل جاءت الانكشارية على صورة ماثلت إلى حد ما أسلوب حياة الصقالبة المميز داخل القصـور سواء أكان ذلك من ناحية الأسلوب التربوى، أم من ناحية الأسلوب العسكرى الذى خضع له أولئك الصقالبة فى قصور الدولة الأموية وخارجها. وقد تعاظم نفوذ هؤلاء الصقالبة فى عهد عبد الرحمن الناصر، ثم المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الملك، حتى لقد عرفوا بالعامريين.

وبجـانب هذه العناصر كان اليهود يشكلون كما ذكرنا قسما مهما من السكان، اضطلعوا بالتجارة والمبادلات المالية فى معظم الأحيان.

هذا المجتمع بكل عناصره الرئيسية المكونة له كان من المستحيل توحيد صفوفه، بل قل توحيد قلوب سكانه نحو شعور قومى موحد، وذلك لأن كلاً منهم كان يهتم اهتماما مباشراً بعصبيته الدينية والعرقية قبل أى شيىء آخر، فإذا دهمه داهم انشغل فى الدفاع عن مصالحه الشخصية أولا، ثم عصبيته الجنسية ثانيا.

على أن من المهم أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من ذلك التناحر السياسى، إلا أن هذه العناصر العرقية والدينية المكونة للمجتمع الأندلسى لم تتحرج عن الأخذ عن بعضها البعض فى باقى مناحي الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والأدبية.

٢ ـ ولعل ثانى الأسباب غير المباشرة لسقوط الدولة الأموية هو جغرافية أسبانيا وما لعبته من دور فى عدم استقرار البلاد تحت وحدة سياسية منذ أيام القوط إلى الآن دون مبالغة، فشبه جزيرة ايبريا تغلب عليها الطبيعة الجبلية الوعرة، وحبتها العناية الإلهية بأودية وهضاب وسلاسل جبلية منيعة، وأماكن نائية كانت ملاذا للثائرين والخارجين على النظام(١). وانعكست هذه الطبيعة القاسية على الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الأيبيرية. فلم تستطع أية حكومة مركزية سواء أكان ذلك فى عهد ملوك القوط الأسبان، أم فى عصر ولاة الأندلس، أم فى عهد أمراء وخلفاء بنى أمية ومن خلفهم إلى وقت قريب من العصـور الحـديثـة. نقول لم تستطع تلك

---

(١) : على أدهم: المرجع السابق، ص ١٩.

الحكومات أن تحقق وحدة سياسية تضم شبه الجزيرة كلها أو معظمها إلا بالقوة المسلحة الشديدة، وبفضل مميزات ذاتية فريدة لملوك أقوياء غير عاديين. فإذا ضعفت هذه الحكومة المركزية أو تولى أمرها ملوك ضعاف عادت عوامل التفكك الجغرافى تلعب دورها.

وهكذا فإن التاريخ السياسى لأسبانيا القوطية ثم المسلمة فالنصرانية كان يتأثر دائما بهذا الواقع الجغرافى الطبيعى. فإذا تيسرت السلطة المركزية القوية فى يد أى حاكم مسلم أو مسيحى، استطاع أن يفرض الوحدة السياسية والعكس بالعكس. رأينا ذلك فى عهد الولاة، وفى عهد عبد الرحمن الداخل وخلفائه: هشام، الحكم، عبد الرحمن الأوسط، وفى عهد عبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبى عامر، وسانشو غارسيا الكبير، وابنه فرديناند الأول، والفونسو السادس، والفونسو المحارب، والفونسو السابع وغيرهم من الملوك الأقوياء الذين وحدوا معظم شبه الجزيرة بقوتهم الشخصية والعسكرية.

٣ - وأخيرا فإننا لا نستطيع أن نغفل سببا مهما غير مباشر كان له دور ليس فى سقوط الدولة الأموية فقط، بل والدولة الإسلامية فى الأندلس كلية. هذا السبب هو: نمو ممالك الطوائف واشتداد حركة الاسترداد الأسبانية (Reconquista) التى بلغت ذروتها فى عهدي ملكي قشتاله وأرغونه فرديناند وإيزابيلا، عندما انتهى الوجود الإسلامى فى الأندلس عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٩٢م.

والحقيقة أن أسبانيا كانت من الأمصار التى لم يكتمل افتتاحها. فقامت فيها بالتالى مقاومة نصرانية مسلحة ضد المسلمين منذ عهد الولاة وتطورت إلى قيام ممالك النصارى.

فقد تكونت بذور هذه الممالك عندما عجز المسلمون الفاتحون عن استكمال فتح أسبانيا كلها بفعل ظروف جغرافية قاسية وهى التى أشرنا إليها سابقا، وبفعل ظروف سياسية وعرقية أخرى ساعدت كلها فى تكوين إمارتين صغيرتين إحداهما بقيادة القائد القوطى بلاجيوس أو بلاى عند المؤرخين المسلمين، وهى التى قامت فى منطقة استوريش (استورية) فى ولاية جليقية القديمة فى شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية. وثانيهما هى إمارة كانتا بريا فى شمال

البلاد فى مقاطعة بسكونيه أو البشكنش قرب منطقة نبره (نافار) بقيادة قائد يدعى بتروس أحد أبناء ملوك القوط القدامى. فقد اعتصم هذان القائدان بمقاطعتيهما بعـد معركة (شريش) فى عام ٩٢ هـ/ ٧١٠م، وكونا هاتين الإمارتين مستغلين طبيعـة المنـطقـة الجبلية، وخـلافـات المسلمـين ومنازعاتهم. ثم توحدت هاتان الإمارتان فى مملكة واحدة هى مملكة جليقية او استوريش بعد زواج ابن الدوق بتروس من ابنة بلا جيوس.

ولا يهمنا فى هذا المجال ظروف تكوين ممالك النصارى إلا بالقدر الذى يفيدنا فى إلقاء الضوء على ممالك النصارى فى بداية القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. الذى رافق سقوط الدولة الأموية. فقد أطل هذا القرن على أربع ممالك نصرانية هى مملكة نبره (نافار) وعاصمتها مدينة بنبلونه، وتمتد من بلاد البشكنش حتى حدود مملكة ليون أو جليقية أو استوريش كما كان يطلق عليها، وظهرت إمارة نبرة كإمارة مستقلة فى عهد الأمير غارسيا إينجيز أنجو أريستا. وقد غدت بعد ذلك ذات أهمية فائقـة في عهد أحد أحفاده سانشو غارسيا الملقب بالكبير الذى كان يعاصر سقوط الدولة الأموية.

ثم مملكة جليقية أو اشتوريش أو ليون وقد سبق أن مر بنا أنها كانت تقوم فى المنـاطق الشـمالية الغـربية من أسبـانيا. وقـد استمر خلفاء بلاجيوس وبتروس يحكمونها حتى سقوطها نهائياً فى يد ملك قشتاله فرديناند بن سانشو غارسيا الكبير، وأنتهى بذلك وجودها كدولة مستقلة حيث انضوت تحت حكم ملك قشتاله.(١)

أمـا المملكـة الثالثة فهى مملكة قشتاله التى تكونت فى المناطق التى تعرف فى

---

(١) : عن مملكتى جليقية ونبرة انظر،

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر، ص ٢٠٨ ـ ٢١٢، ص ٢١٣، ص ٣٥٣ ـ ٣٦١.ـ الخـلافة الأموية والدولة العامرية ص ٤٠١، ص ٥٩٦ ـ ٦١٠.

الجغرافيا الإسلامية بولاية أنبه أو ألبه، والقلاع(1)، وفى الجغرافيا الأسبانية كانت تندرج ضمن منطقة برودوليا، ثم سميت قشتاله بعد ذلك لكثرة الحصون فيها، ثم غدت بعد ذلك دولة مستقلة مارست دورا أساسيا فى حياة أسبانيا وحتى زوال الوجود الإسلامى بها، وتمتد هذه المملكة شرقا حتى هضاب، (نافار)، وغربا حتى مملكة ليون أو جليقية، وجنوبا حتى أريوخا ونهر دويرة، وقد أسسها زعيم من زعمائها البشكنش وهو (فرنان كونثالت) فاستقل بها. ثم دخلت ضمن أملاك سانشو غارسيا الكبير بالوراثة والمصاهرة، فولى عليها ابنه فرديناند.

أما الأمارة الرابعة فهى إمارة برشلونة (قطالونيا) فى الشمال الشرقى من أسبانيا والتى خضعت لحكم أسرتين قوطيتين هما آل بوريل، ثم آل برنجير المعاصرين أيضا لسقوط الدولة الأموية، ولم تظهر إمارة أرغونة (أراجون) التى كانت تقوم فى منطقة شيزروا« Shezroi» والتى ضمت لها منطقة سوبرابى القريبة منها إلا عند وفاة سانشو غارسيا الكبير الذى عهد بحكمها إلى ابنه راميرو، ثم مالبثت بعد ذلك أن أصبحت أقوى الممالك النصرانية، وذابت بينها وبين مملكة قشتالة مملكة نبرة المستقلة(2).

هذه الممالك النصرانية مارست كل واحدة منها سياسة الإسترداد، . ولم تتوقف للحظة عن التفكير فى إنهاء الوجود الإسلامى، وساعدتها فى ذلك الظروف

---

(1) : ألبة والقلاع علمان جغرافيان يستعملان عادة معا فى النصوص العربية.

أما ألبه: Alava ، فهى الإقليم الواقع عند منابع نهر أبرو على الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر، وأصل الاسم غير معروف. أما القلاع فيراد بها المنطقة التى تعرف اليوم بقشتاله القديمة (Castillaia viejo) سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم (Castellae) .

وألبة اليوم إحدى المديريات الثلاث التى يتكون منها إقليم (Vascongadas) وقاعدتها سان سباستيان وبسكاية (Viscaya) وقاعدتها بالباو Alava, Bilbao وهى أكبرها مساحة وعاصمتها Vizcaya

انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ١، ح ٢، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(2) : محمد عبد الله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٥٩٠ - ٥٩٢ .- دول الطوائف، ص ٣٧٧ - ٣٧٨، ص ٤٠٥ - ٤٠٦، ص ٤٠٩ - ٤١٠.

الجغـرافية، كما واتتها أيضا فرص الخلافات والمنازعات بين المسلمين منذ الفتح وحتى نهاية الدولة الإسلامية فى الأندلس. وإزداد الأمر خطورة عندما بدأ الثائرون على الـدولـة الإسـلامية يطلبـون مساعدة هذه الممالك ضد إخوانهم المسلمين، فاستغل هؤلاء العرض أبشع استغلال حتى لقد باتت المساعدات الورقة الرابحة فى أيديهم يلوحون بها بل يبتزون بها حكام المسلمين.

على أن أخـطر ما فى القضية هو طلب الخـلافة الأموية فى أثناء تولى خلفائها الضعاف السلطة، المساعدة العسكرية من هذه الممالك النصرانية ضد بعضهم البعض وهى سابقة خطيرة انجرفت فيها الخلافة وهوت معها كرامتها وهيبتها إلى الحضيض فلا يجب أن نفاجأ إذا ما رأينا الخليفة سليمان المستعين يطلب مساعدة سانشو غارسيا أمير قشتالة(١) ضد ابن عمه الخليفة محمد المهدى. ولا نعجب إذا ما رأينا المهدى يقوم بدوره بطلب مساعدة أمير برشلونة الكونت رامون بوريل وأمير أورقله الكـونت آرمينجـو(٢). وكل هذه المساعدات كانت مقابل ثمن باهظ هو التخلى عن كثير من الأراضى والحصون لأمراء هذه الإمارات الأسبانية. بل رأينا للأسف الشديد الخليفة الشرعى هشام المؤيد يتهالك ويستجدى فى طلب مساعدة سانشو غارسيا. وتأكد ما قلناه من أن أمراء وملوك النصارى كانوا يلعبون بورقة المساعدة ليبتزوا بها من يدفع لهم أكثر أو بمعنى آخر من يتنازل لهم عن الكثير من أراضيه وحصـونه، وفى نفس الوقت كرامته وعزته. فقد رأى سانشو غارسيا أن مصلحته تقتضى رفض طلب سليمان المستعين الذى رفض خلافة هشام المؤيد الثـانية، ومسـاعدة هشام الخليفة الشرعى لقاء تنازل ضخم عن عدد كبير من الأراضى والحصون(٣).

وهكذا فقد أصبحت عملية الاستعانة بالنصارى خطة أساسية فى سياسة ملوك

---

(١) : حدث ذلك عند لقاء سليمان المستعين مع المهدى فى معركة قنتش المذكورة سابقا انظر محمد عبد الله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٦٤٦.

(٢) : حدث ذلك عند لقاء المهدى مع المستعين فى معركة عقبة البقر المذكورة سابقا.

(٣) : محمد عبد الله عنان: نفس المرجع السابق، ص ٦٥٠ - ٦٥١.

الفتنة بعد ذلك. وهذا ما أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس كلها.

وهكذا سقطت الدولة الأموية صريعة أخطائها السياسية الآنية، وصريعة ظروفها وأوضاعها الاجتماعية والجغرافية والسياسية أيضا.

قيام ممالك الطوائف

أدى سقوط الدولة الأموية إلى نتائج فورية مباشرة، وهى افتراق كلمة الأندلس وتفرقها شيعا وأحزابا ودولا. واستأثر كل من لمس فى نفسه القدرة والجرأة فى أحايين كثيرة، والكفاءة والجدارة فى أحيان قليلة بمنطقة من المناطق التى كان يعيش فيها أو بالقرب منها. وتكونت من هؤلاء المنتزين دويلات المدن والتى عرفت بممالك الطوائف والتى بلغ تعدادها بضعا وعشرين دولة. ودامت مدة حكم هذه الدويلات بضعا وسبعين عاما، وإن كان بعضها قد استمر بعد ذلك حتى بداية الثلث الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى كدولة آل هود حكام سرقسطه. ونعرض الآن فى إيجاز بالغ لكل دولة من هذه الدول أو معظمها بالأحرى، من حيث الموقع وتوسعها ونهايتها، على أن نفصل بعد ذلك علاقات هذه الدول مع دولة بنى عباد موضوع بحثنا هنا.

١ - مملكة إشبيلية :-

لن نمضى طويلا فى الحديث عن مملكة إشبيلية وذلك لأنها بداهة هى موضوع بحثنا هذا، ولكن ما نستطيع إيجازه فى هذا المقام هو الإشارة إلى أن هذه المملكة تكونت فى مدينة إشبيلية إحدى الحاضرات الأندلسية الكبرى آنذاك. وقد تأسست على يد القاضى محمد بن إسماعيل بن محمد بن عباد أحد أبرز البيوتات الإشبيلية العريقة وقتذاك. الذى ينتسب إلى قبيلة لخم اليمنية المشهورة - وقد تأسست هذه المملكة فى إشبيلية عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، واستمرت حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م عندما سقطت على يد المرابطين كما سنعرف لاحقا. وقد شهدت هذه المملكة حكم ثلاثة ملوك من بنى عباد هم: القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل مؤسس الدولة، ثم ابنه المعتضد عباد الذى وسع رقعة الدولة، ثم المعتمد أبن المعتضد الذى بلغت الدولة فى عهده ذروة قوتها وحضارتها ورقيها، إلى أن سقطت على يد المرابطين كما سنرى بعد إن شاء الله.

٢ - مـمـلكة قرطبـة :-

الموقـع :-

تقع هذه المدينة فى الجزء الأوسط الجنوبى من الأندلس، وتضم عاصمة الخلافة القديمة وما إليها من الأراضى المتوسطة.

مؤسسـها :-

بعد إلغاء الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، قر رأى سراة قرطبة ووجهائها على أن يعهدوا بحكمها إلى الوزير أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور الذى كان ينتسب إلى بيت رئاسة ووزارة طوال عهود الدولة الأموية. وقد قاد الدولة بنظام رئاسى شبيه بمجلس الرئاسة المعاصر، وإن كانت السلطة العليا قد ظلت فى يده. واستمر يحكم الدولة حتى وفاته. ثم تولى ابنه أبو الوليد الحكم بعده.

نهايتهـا :-

سقطت هذه المملكة نهائيا فى يد المعتمد بن عباد عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م وقد غدت من يومها جزءا من مملكة إشبيلية، وذلك على أثر الانشقاق العائلى الذى مكن للعباديين هذه الفرصة[١]. وهو ما سنتناوله بالشرح والتفصيل فى فقرة قادمة إن شاء الله.

٣ - مـمـلكة سـرقسـطة :-

المـوقـع :-

كان يطلق عليها أيضا الثغر الأعلى[٢]، وتضم هذه الولاية سرقسطة وأعمالها

---

(١) : يراجع فى ظروف قيام دولة بنى جهور وموقعها ومؤسسها وسقوطها المصادر والمراجع التالية :- ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٨٥ - ١٨٧ وص ٢٠٩ - ٢١٠، ص ٢٥٩ - ٢٦١. - ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول - المجلد الثانى، ص ١١٤ - ١١٦. - ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، ص ١٦ - ١٧.- ابن بشكوال: الصلة فى تاريخ علماء الأندلس قسمان، القسم الأول، ص ١٣١ - ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣١ - ٣٣.- ابن سعيد المغربى: وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس، ج ١، ص ٥٥.- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٢٧ - ١٥١.- خالد الصوفى: تاريخ العرب فى أسبانيا (جمهورية بنى جهور).

(٢) : عن الثغر الأعلى وغيره من الثغور أنظر فيما بعد. ح ٢، ص ٣٧.

(تطيلة، ووشقة، وبربشتر، ولاردة، وأفراغة، والطركونة، وطرطوشة[1]) .

أهميتــها :-

كانت مملكـة سرقسطة أعظم ممالك الطوائف وأهمها، إذ كانت تجاور ممالك النصارى الأسبانية الشمالية . وتقع بين برشلونة من الشرق ونبرة من الشمال الغربى وقشتالة من الجنوب والغرب[2].

مؤسســها :-

شهـدت هذه الممالك منذ بداية الفتنة حكم أسرتين عربيتين هما: بنو تجيب الذين كانوا يلونها من قبل المنصور بن أبى عامر، ثم انتهت هذه الأسرة بمقتل منذر بن يحيى الذى ولاه سليمان المستعين أحد خلفاء الفتنة سرقسطة . ثم أسرة بنى هود الجـذاميين الذين ينتسبون إلى روح بن زنباع الجذامى أحد مستشارى الدولة الأموية فى المشرق . وقد تولى أول هؤلاء الجذاميين وهو سليمان بن هود حكم سرقسطة بعد فرار قاتل منذر بن يحيى التجيبي عنها، فضبطها أحسن ضبط حتى توفى .

نهايتهــا :-

استمرت هذه الدولة منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها نهائيا فى عام **٥٣٤ هـ/ ١١٣٩م**[3].

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٦٥ .

(٢) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٦٤ .

(٣) : يراجع فى أخبار قيام دولة بنى هود فى سرقسطة وسقوطها والأحداث التى مرت بها ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٧٥ ـ ١٧٦، وص ١٧٨ ـ ١٧٩، وص ١٧٩ ـ ١٨٠، ص ٢٢١ ـ ٢٢٩ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الثانى، ص ١٥٢ ـ ١٥٣، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .ـ ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان, ٣ مجلدات، مجلد ٣، ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ . وأعمال الأعلام، ص ١٧٠ ـ ١٧٦، وص ١٩٦ ـ ٢٠١ .

٤ ـ مملكة بلنسية :ـ

الموقع :ـ

تقع فى منطقة شرقى الأندلس وتتبعها مدينة شاطبة[(١)]

مؤسسها :ـ

كان يلى هذه المدينة من قبل الدولة الأموية الوزير عبد الرحمن بن يسار، ثم ما لبث أن غلب عليها اثنان من الفتيان الصقالبة.

وهما مبارك ومظفر اللذان توليا أمرها. ثم تولاها لبيب الصقلبى بعد مبارك وعندما سعى الفتيان العامريون وعلى رأسهم خيران ومجاهد فى تقديم ابن مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور، أسندوا إليه أى لعبد العزيز أمر المدينة بعد أن ثار أهلها بلبيب الصقلبى، وتلقب بالمؤتمن والمنصور.

نهايتها :ـ

استمر عبد العزيز فى حكم مدينة بلنسية حتى وفاته عام ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠م، فخلفه ابنه عبد الملك إلى أن خلعه عنها المأمون بن ذى النون فى عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤م. وانتهى بذلك وجود تلك المملكة[(٢)]. وتولى حكمها فعليا نيابة عن المأمون، آل عبد العزيز من أعيانها، ثم آل جحاف، حتى سقطت فى يد القمبيطور عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م[(٣)].

---

(١) : مدينة شاطبة Jativa مأخوذ اسمها من الاسم الرومانى Suetabis ، وهى مدينة تقع فى شرقى أسبانيا من أعمال بلنسية على بعد ٥٦ كم فى الجنوب الغربى منها. وكانت دائما تتبع إداريا مدينة بلنسية.
انظر، ابن الكردبوس: المصدر السابق ح٣ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) : يراجع فى أخبار دولة بلنسية المصادر التالية :ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٥٨ـ ١٦٧، وص ٣٠٣ .ـ عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٥ـ ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ـ ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة، مجلد ٣، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٧، وأعمال الأعلام، ص ١٦٣ ـ ١٦٦، و ص ٢٢٢ ـ ٢٣٦ .ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٤٨.

(٣) : عن القمبيطور انظر بعد الباب الرابع، ص ٣١٦ ـ ٣٢١.

٥ ـ مملكة بطليوس :ـ

الموقع :ـ

تقع إلى الشمال من مملكة إشبيلية، وتمتد من غرب طليطلة عند مثلث نهر وادى يانة غربا حتى المحيط الأطلنطى، وتشمل أراضى البرتغال الحالية كلها تقريبا حتى مدينة باجه فى الجنوب. والعاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة، ويتبعها مدن هامة مثل: ماردة، يابرة، أشبونة، شنترين، شنترة، قلمورية، بازو، وغيرها[1].

مؤسسها :ـ

كان يلى هذه المنطقة رجل يدعى سابور الفارسى العامرى، أحد أتباع فائق الخادم مولى الخليفة الحكم المستنصر. وقد استقل بها سابور استقلالا تاما بعد إنتثار سلك الخلافة، وكان يساعده فى حكم الدولة رجل يدعى أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، وهو من أصل بربرى من مكناسة بالغرب. غير أن نفوذ ابن مسلمة ما لبث أن استطال حتى على سابور نفسه، وعندما توفى سابور استبد بالأمر دون ابنيه اللذين طردهما.

نهايتها :ـ

استمر بن مسلمة هذا فى حكم بطليوس وتلقب بالمنصور حتى توفى عام ٤٣٧ هـ/ ١٠٤٥م. فخلفه ابنه محمد بن عبد الله وتلقب بالمظفر، وفى عهده بلغت الدولة أوج عظمتها. ثم توفى عام ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨م، فخلفه ابنه عمر الذى تلقب بالمتوكل والذى سقطت الدولة فى عهده فى أيدى المرابطين عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م[2]

---

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٨١.

(٢) : يراجع فى أخبار مملكة بطليوس المصادر التالية :

ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢١ ـ ٢٢٥، وص ٢٥٠ ـ ٣٠٢ تقريبا ابن سعيد المغربى : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧. ـ ابن الخطيب أعمال الأعلام. ص ١٧٠ ـ ١٧٦. ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢.

٦ ـ مملكة طليطلة :ـ

الموقع :ـ

تحتل مكانا استراتيجيا على مشارف الأندلس الشمالية وتعرف بالثغر[(١)] الأوسط وتشمل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس، وتمتد شرقي بطليوس من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقى حتى قلعة ايوب، وشنتمرية الشرق، وجنوب غربي مملكة بنى هود فى الثغر الأعلى. وتمتد شمالا فيما وراء نهر التاجة، متاخمة لقشتالة القديمة، وجنوبا حتى حدود مملكة قرطبة عند مدينتي المعدن والمدور، وتتوسطها عاصمتها طليطلة. ومن أعمالها مدينة سالم، ووادى الحجارة، وقونقة، ووبذة، وإقليش، ومورة، وطلبيرة، ترجالة وغيرها.

مؤسسها :ـ

أسسها بنو ذى النون البربر، وهم من قبيلة هوارة على اختلاف نسبهم بين المؤرخين ولم يكونوا ذوى شأن ونباهة الا فى دولة المنصور بن أبى عامر عندما بدأ نجمهم يسطع. وتولوا حكم (شنت برية[(٢)]).

---

(١) : الثغر وجمعها ثغور هو فى الواقع اصطلاح أطلق على كل موضع قريب من أرض الأعداء فيقال له ثغر. وقد استعمل الأندلسيون هذا الاصطلاح للدلالة على حدودهم المجاورة للممالك النصرانية، فكان هناك ثلاثة ثغور هى :

١ ـ الثغر الأعلى: ويضم مدينة سرقسطة وأعمالها: تطيلة ولاردة وطرشوشة ووشقة وغير ذلك. وهو يواجه إمارة برشلونة، ومملكة نبرة (نافار) كذلك، ويمثل هذا القطاع الآن منطقة أراغون.

٢ ـ الثغر الأوسط: ويضم مدينة طليطلة وأعمالها: كمدينة سالم ووادى الحجارة وقونقه وغيرها. وهو يواجه مملكتى ليون وقشتالة.

٣ ـ الثغر الأدنى: ويشمل المنطقة التى تقع بين نهر دويرة، ونهر التاجة ويضم مدن قورية وماردة وقلمورية وغيرها.

أنظر، أبو عبيد البكرى: المصدر السابق، ح ٤، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) : شنتبرية أو (شنت برية) Santaver بلدة تقع إلى شمال شرقي طليطة. وكانت كورة كبيرة فى أيام الإمارة والخلافة الأموية بل كانت قاعدة هذه الكورة المسماة باسمها.

انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٢، ص ١٠٩.

أما طليطلة فقد كان يليها القاضى أبو بكر بن يعيش الأسدى الذى استقل بها وكان يعاونه مجموعة من الرؤساء. ثم عزل وتولى مكانه عبد الرحمن بن متيوه ثم قام عليه أهل طليطة، وبعثوا لابن ذى النون حاكم (شنتبرية) فأرسل لهم ابنه اسماعيل ابن عبد الرحمن.

نهايتهـــا:-

استمر اسماعيل يحكم طليطلة حتى توفى، فخلفه ابنه يحيى وتلقب بالمأمون. وقد بلغت الدولة فى عهده أوج مجدها، ثم توفى المأمون وخلفه إثر ذلك حفيده القادر إلى أن سقطت طليطة فى عهده بيد الفونسو السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م[١].

٧ ـ مملــكة غرناطــة:-

الموقــع:-

تقع فى الجنوب الشرقى من مملكة إشبيلية، وتضم مدن جيان، وريه. وكان يطلق عليها ولاية ألبيرة.

مؤسســـها:-

عرفنا فيما سبق أن المنصور استقدم عدداً كبيراً من البربر إلى الأندلس وأدخلهم فى جيشـه. ومن هؤلاء البربر الذين استقدمهم المنصور عشيرة بربرية من قبيلة صنهـاجة يعرفون ببنى زيرى. وعندما بدأ تفكك الدولة الأموية، أقطع سليمان المستعين المذكور سابقا، بنى زيرى الصنهاجيين هؤلاء ولاية ألبيرة، ثم ما لبثوا أن استبدوا بحكمها تحت زعامة رجل منهم يدعى زاوى بن زيرى وخاض هؤلاء البربر أحداث تلك الفتنة التى سميت باسمهم وعندما هزم الأندلسيون فى لقائهم مع

---

(١) : يراجع فى أخبار دولة بنى ذى النون المصادر والمراجع التالي:

أبن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٣ ـ ٣٥٢ فى صفحات متفرقة. ـ ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١١ ـ ١٣. ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ١٤٧ ـ ١٤٨. ـ ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد٩، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩. ـ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٩٥.

البربر فى خلافة القاسم بن حمود كما مر بنا وقتل خليفتهم المرتضى المذكور، آثر زاوى العودة الى أفريقية بعدما رأى استحالة التوفيق بين البربر والأندلسيين، غير أن أهل ألبيرة طلبوا منه البقاء، فرفض فاتجهوا إلى ابن أخيه حبوس بن ماكسن حيث تولى أمرهم وقد ظل حبوس يحكمهم حتى عام ٤٢٨ هـ. وهو الذى مصرت فى عهده مدينة غرناطة، ثم خلفه ابنه باديس فى الحكم طويلا إلى أن توفى، فخلفه حفيده عبد الله بن بلقين.

نهايتــها :ـ

استمـر عبد الله بن بلقين يحكم غرناطة حتى قدوم المرابطين إلى الأندلس، حيث أنزلوه هو وأخاه تميماً ملك مالقة من جملة ما أنزلوا من ملوك الطوائف عن حكمهم[1].

٨ ـ مملـكة مالقـة والجـزيرة الخضـراء :ـ

الموقــع :ـ

تقع مالقة إلى الجنوب من أسبانيا وتطل على البحر المتوسط، وتقع فى أحواز إشبيلية. أما مدينة الجزيرة الخضراء[2] فتقع على البحر المتوسط مقابل ثغر طنجة

---

(١) : يراجع فى أخبار دولة بنى زيرى المصادر التالية:
ـ عبد الله بن بلقين بن زيرى: التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغـرنـاطـة، تحقيق ونشر. ليفى بروفنسال، ص ١ ـ ١٠٣ على صفحات متفرقة.ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٢٨، وص ٢٢٢ ـ ٢٧٦ ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣. ـ ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٦ ـ ١٠٨.ـ مجهول نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، اعتنى بنشرها وتصحيحها إ. ليفى بروفنسال، ص ٤٣.ـ ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة، مجلد ٢، ص ٤٣١ ـ ٤٤٢.

(٢) :(تسمى اليوم Algeciras ، وهى مينـاء فى أقصى جنـوب أسبانيا بجوار جبل طارق، وتسمى أيضا فى المراجع العربية بجزيرة أم حكيم، وهى جارية لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند غزوه لأسبانيا، ثم تركها فى هذه البلد، فنسبت إليها).
انظر، ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ٢، ص ٤٥.

المغربى على البحر نفسه وقريبة من مدينة جبل طارق.

مؤسســـها:-

تقلص نفوذ دولة بنى حمود بعد خلع طاعتهم فى قرطبة كما مر بنا سابقا[1]، ثم تقلص نفوذها أيضا بعد مقتل يحيى بن على واقتصر فقط على مدينتى مالقة والجزيرة الخضراء، بالإضافة إلى مدينة سبتة المغربية. وقد نشبت بين الإخوة من آل حمود وأبناء العم كذلك الخلافات التى لم تنقطع أبدا حتى سقوط دولتهم.

نهايتهـــا:-

انتهت إمارة مالقة على يد باديس الصنهاجى أمير غرناطة فى عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٥٧م. وانتهت إمارة الجزيرة الخضراء على يد المعتمد بن عباد عام ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م[2].

مملكة مرسية:

الموقع :

تقع مدينة مرسية في شرقي الأندلس، وهي مدينة إسلامية بحتة بنيت حديثا بالقرب من مدينة تدمير التي كانت تنسب إلى تدمير أو تيودمير حاكم هذه الناحية القوطى فى أيام فتح العرب لأسبانيا . وقد حول عبد الرحمن الداخل كورة[3] تدمير الى كورة عادية، وكانت قاعدتها بلدة أوريولة وفى عام

---

(١) : أنظر قبل، ص ٣٧ ـ ٤٢.

(٢) : يراجع فى أخبار الدولة الحمودية المصادر والمراجع التالية:
ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٠ـ ٢٤٣.ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، من ٢٣٠ ـ ٢٣٦ .ـ ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد ٩، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .ـ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج ٥، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .ـ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ١٧٤ .ـ رجب عبد الحليم: دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس، ص ٧٠ ـ ١٠٠.

(٣) : الكور مفردها كورة: مصطلح يطلق على الأقسام الإدارية فى الأندلس (ربما أشبه باللواء، او المديرية، المحافظة). وكان هذا التقسيم الإدارى متبعا فى الأندلس عدا الثغور).
انظر، أبو عبيد البكرى: المصدر السابق، ح ٤، ص ١٠٤.

٢١٦هـ/ ٨٣١م أُخْتُطَّت في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) مدينة مرسية، ثم نقلت إليها القاعدة، وسميت الكورة كلها بكورة مرسية[١].

مؤسســها :-

توجه خيران العامرى أحد الفتيان العامرين كما مر بنا إلى شرق الأندلس بعد نزاعه مع على بن حمود، فاستولى على مدينة مرسية عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وقد ولى عليها من قبله زهير العامرى أحد رفاقه، ولما حدثت الوحشة بين خيران العامرى ومحمد بن عبد الملك بن المنصور حاكم مرسية بعد زهير أنزله عنها، وعهد بها إلى زميله زهير مرة أخرى. وعندما توفى خيران، خلفه زهير على ألمرية أيضا بالإضافة إلى مرسية، ولكنه عهد بحكمها إلى أبي بكر بن طاهر أحد وجهائها نائبا عنه، ثم لما توفى زهير خلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور على ألمرية، فأقر ابن طاهر على مرسية واكتفى بالسلطة الاسمية عليها.

نهايتهـا :-

استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا حتى توفى عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م، فخلفه عليها ابنه أبو عبد الرحمن بن طاهر، واستمر يحكمها حتى تطلع محمد بن عمار وزير المعتمد بن عباد إلى ضمها لبنى عباد كما سيمر بنا، فأنزل ابن طاهر عنها، ولكن نائب ابن عمار فيها ما لبث أن غدر به واستقل بالمدينة حتى أنزله عنها المرابطون عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠م[٢].

١٠ - مملكة ألمرية :-

الموقـع :-

تقع في جنوب شرق أسبانيا. وكانت إمارة ألمرية تضم مدينة جيان وبسطه

---

(١) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ١، ح ١، ص ٦٢. وج ٢، ح ٢، ص ١١٦.

(٢) : يراجع في أخبار مملكة مرسية المصادر التالية:

- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٢٣ - ١٢٤، وص ١٣٢ - ١٣٨ وص ١٤٠ - ١٤٨. - ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابى، ص ٦٨ - ٦٩، وص ٧٢، وص ١٠١ - ١٠٣. - عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٨٠ - ١٨٢.

وأوريوله، وتحتل المنطقة الممتدة من ساحل أسبانيا الشرقي الجنوبي حتى وادى آش، وحدود مملكة غرناطة، وشمالا حتى بسطة وجيان[1].

مؤسســـها :ـ

عنـدمـا أظلم الأفق بين الصقالبة والبربر بعد استيلاء سليمان المستعين على الخـلافـة، ومـا حدث بعـد ذلك من تولى علي بن حمود الخلافة، توجه الفتيان العامريون إلى شرقي الأندلس، وتوجه خيران أحد زعمائهم إلى مدينة ألمرية فاستبد بها وأنزل واليها عنها. وعندما توفى عام ٤١٩ هـ/ ١٠٣٨م خلفه في حكمها نائبه زهير. واستمر يحكمها حتى عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م عندما قتل على يد باديس بن حبوس أمير غرناطة، فعهد أهلها إلى كبيرهم أبى بكر الرميمى الذى ضبطها. وراسـل أهـل ألمـرية بعد ذلك عبد العزيز بن أبى عامر ملك بلنسية، فقدمها واستولى عليها، ثم عين عليها صهره أبا الأحوص معن بن صمادح نائبا عنه. وقد استقل بها بعد ذلك استقلالا تاما عن ابن أبى عامر، ثم لما توفى، خلفه ابنه محمد ابن معن وتلقب بالمعتصم.

نهايتــها :ـ

استمـر محمـد بن معن بن صمادح المعتصم الـواثق يحكم ألمـرية حتى قدوم المرابطين الذين أنزلوا خلفاءه عنها عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م[2].

١١ ـ ممـلكة دانيـة والجـزر :ـ

الموقــع :ـ

تقع مدينة دانية فى شرقي الأندلس كما ذكرنا وهى تقع فى شمال اللسان المثلث

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ١٦١.

(٢) : يراجع فى أخبار مملكة ألمرية المصادر التالية :ـ

ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٢٦ ـ ١٦٨. ـ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٧٨ ـ ٨١، وص ٨٢ ـ ٨٤. ـ ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٦. ـ عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق: ص ١٢٧. ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٨٩ ـ ١٩٢، وص ٢١٠ ـ ٢١٧.

الممتد من ولاية القنت على البحر المتوسط ويتبعها الجزر الشرقية: ميورقة، منورقة، يابسة المعروفة بجزر البليار.(1)

مؤسسها: -

مجاهد العامرى أحد الفتيان العامريين البارزين كما مر بنا، والذى كان يتولى حكم الجزر الشرقية من قبل المنصور بن أبى عامر، ثم استبد بحكمها واستقل بها استقلالاً تاماً. ومن أهم أعماله غزوته لجزيرة سردانية وتغلبه على جزء كبير منها.

نهايتها: -

بعد خطوب كثيرة فى عهد مجاهد وابنه على الملقب بإقبال الدولة، سقطت دانية نهائيا فى يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦م(2).

* * * * * * * *

تلك هى أهم ممالك الطوائف، وهناك كثير غيرها نعرض لها عند الحديث عن علاقة بنى عباد بملوك الطوائف، وهى إمارات: شنتمرية الغرب، ولبلة، وولبة وجزيرة شلطيش، وقرمونة، ورندة، ومورور، وأركش وغيرها.

وفى الحقيقة أن هذه الممالك لم تتألف الا من تلك العناصر المتنازعة التى ذكرناها سابقا، والتى أثرت فى حياة البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية. هذه العناصر التى تكونت منها ممالك الطوائف هى: العرب، البربر، الصقالبة.

---

(١) : ميورقه Mallorca ، ومنورقه Menorca ، وجزيرة يابسة Ibiza تعرف بالجزائر الشرقية فى الجغرافيا الأندلسية Islas Bateares (BalearicIslands) ، وتقع فى شرقي أسبانيا فى البحر الأبيض المتوسط، وتتبع أسبانيا اليوم.
انظر، أبو عبيد البكرى: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٦.

(٢) : يراجع فى أخبار مملكة دانية المصادر التالية: -
- ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٥٣ - ١٥٨. - الحميدى: المصدر السابق، ص ٣٣١، وص ٣٥٢ - ٣٥٤. - عبد الواحد المراكشى المصدر السابق، ص ١٢٣. - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١٧ - ٢٢٢. - ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٥٣ - ٣٥٦.

أمـا العـرب أو الأرستقـراطية العربية بالأحرى، فقد كان لبعضها من المكانة الاجتـماعية والمـالية ما هيأ لها الاستئثار بالزعامة والتفرد بالرئاسة كبنى جهور فى قرطبـة. أو كان للبعض الآخـر علاوة على ذلك مكانة دينية مرموقة هيأ لها هى الأخـرى التفـرد بالـرئاسة كبنى عباد بإشبيلية، في حين كان للبعض الآخر مكانة عسكرية أو سياسية فى بعض النواحى أيام الدولة الأموية وخلال الفتنة فاستغلت سقوط الدولة وأعلنت استقلالها بما كانت تقيم فيه أو تحكمه من بلاد. ثم سعت فى توسيع رقعتهـا بعد ذلك كدولة بنى هود فى سرقسطة. وهناك من وجد نفسه بمحض الصدفة نائبا فى حكم مدينة أو ناحية كآل طاهر فى مرسية أو نائبا لبعض أقربائه فى ناحية من النواحى، فاهتبل الغرة واستقل بتلك الناحية كبنى صمادح فى ألمرية إلى غير أولئك من المنتزين على الثغور والمدن.

أما البربر فقد استقلوا بحكم النواحى التى ولاهم عليها المنصور بن أبى عامر. ثم الخليفـة سليمان المستعـين وفاء لمساعدتهم له، وفى نفس الوقت إبعادا لهم. فاستقلوا بتلك النواحى مبقين على السلطة الاسمية للدولة، ومن هذه الإمارات والممـالـك التى تأسست غرنـاطـة، مالقة، الجزيرة الخضراء، ورندة، وقرمونة، ومورور، وأركش،

أما الصقالبة الذين بلغوا مبلغا عظيما من القوة، فعندما شعروا برياح الانتزاء والاستقلال التى هبت فى سماء البلاد بعد انتثار سلك الدولة، وشعروا فى نفس الوقت بأن دولة هشام الخليفة الشرعى الثانية لن يستقر لها قرار كما أسلفنا، وأنهم بالتالى لن يستطيعوا تحقيق مآربهم، فقد فكروا بالانتزاء على ما تحت أيديهم من مقاطعات أو على ما يمكنهم الانتزاء عليه، فاستقلوا بالجانب الشرقي من البلاد، وكونوا تلك الممالك التى ذكرناها وهى: ألمرية، ثم دانية. واستمر بعضها حتى قدوم المرابطين، وذاب البعض الآخر أو انضوى تحت سلطة دويلة أخرى ناشئة كما حدث فى مملكة ألمرية.

هذه الدويلات التى تأسست اختلفت الواحدة منها عن الأخرى قوة وضعفا، وأهمية وهوان شأن، وثراء وفقرا حسب شخصيات قادتها ومواردها الطبيعية. وقد أنفقت الدويلات القوية الغنية منها الكثير من مواردها للتوسع وبسط السيطرة على

الدويلات الأقل منها شأنا، وأنفقت أيضا الكثير من الجهد والوقت والمال فى حبك المؤامرات والفتن ضد بعضها البعض. وشاهدنا بكل أسف انقلاب الحليف على حليفه، ومصادقة عدو الأمس دونما وازع من ضمير إلا ضمير المصلحة البحتة.

على أن أخطر ما وقعت فيه دول الطوائف هو استمرارها فى اتباع سياسة خلفاء الفتنة الهادفة إلى الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض وتناسوا قضية الصراع بينهم وبين النصارى على الوجود الإسلامى فى البلاد واهتموا بمشكلاتهم وخلافاتهم الشخصية فقط كما سيتضح لنا لاحقا(١).

بيد أنه على الرغم من هذا التفكك والانحلال السياسى للأندلس فى عصر ملوك الطوائف، إلا أنه يعتبر فى المقابل وكما سيتضح لنا لاحقا أيضا(٢)، أزهى العصور الإسلامية فى الأندلس فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية والأدبية. بمعنى أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها وأوجها بفضل هؤلاء الملوك الذين تنافسوا للارتقاء بممالكهم، والمباهاة بها أمام الممالك الأخرى.

---

(١) : انظر بعد الباب الرابع. ص ٣٦٤ - ٣٦٩.

(٢) : انظر بعد الباب الخامس.

الباب الأول

« قيام دولة بني عباد »

- أصل بنى عباد.
- الموقف السياسى فى الأندلس قبل قيام دولة بنى عباد.
- إشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها.
- دولة القاضى أبى القاسم محمد (٤١٤ ـ ٤٣٣هـ / ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢م).

أصل بني عباد

ينتسب العباديون إلى قبيلة لخم[1] اليمنية المشهورة التى فخرت وعزت بانتساب المناذرة ملوك الحيرة لها قبل الإسلام، ثم فخرت وعزت بانتساب بنى عباد إليها مرة أخرى، ويقول ابن الخطيب فيما ينقله عن ابن حيان مؤرخ تلك الفترة ومعاصرها فى نفس الوقت (جاز إلى الأندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا فى أقطارها، وانحاز منهم إلى غربيها أخوان نعيم وعطاف. ونزل أحدهما بقرية يَؤمِينَ[2]؛ وتناسل ولده بها مدة من الزمان، ثم انتقلوا إلى إشبيلية، فنموا وتصدروا للوجاهة

---

(١) : ينتسب العباديون إلى قبيلة لخم بن عدى (وهو بطن عظيم ينتسب إلى لخم. واسمه مالك ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية. كانت مساكنهم متفرقة وأكثرها ما بين الرملة ومصر فى الجفار، ومنها فى الجولان، ومنها فى حوران والبثنية ومدينة نوى، ومن بلادهم في فلسطين رفح وحدس بالشام، وقد نزل قوم منهم بمنطقة بيت المقدس، فدعيت باسمهم، وتسميها العامة اليوم بيت لحم. ومنهم آل المنذر ملوك العراق، وبنوعباد ملوك إشبيلية، ومنهم بطون كثيرة بالديار المصرية).

انظر، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المجلد ٣، ص ١٠١١ - ١٠١٢.

(٢) يؤمين: يقول حسين مؤنس إن دوزى صاحب كتاب تاريخ مسلمى أسبانيا حقق اسمها خلال تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنص الذى يتناول يومين فقال ان يومين قرية كان العرب يسمونها Torconina ، غير الملك الفونسو اسمها إلى مولينا Molina . وقد رجح دوزي أن الأسم مصحف وأن صحته Toriomina وهو بالعربية طوريومين أي جبل يومين.

وعلى أية حال فيومين قرية بقطر إشبيلية كانت أولية بنى عباد منها، وقد ضبطها حسين مؤنس على نحو مخالف لما ورد فى المتن، وقال إن رسمها يُومِين أضبط.

انظر، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ١، ص ٣٥، وح ١، ص ٦٣، وح ٣، ص ١٥٧.

والنباهة فى دولة الحكم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور. وقد كان نشأ فيهم صدر بيتهم ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عباد، فقدمه المنصور على خطة القضاء بها، فاتصل استعماله إلى زمن انقراض الإمامة الأموية)[1].

على أن هناك من يقول إن عطافا هو ابن نعيم وليس أخاه وأنه أول من دخل الأندلس فى طالعة بلج بن بشر القشيرى، وأنه (كان من أهل حمص من صقع الشام، لخمى النسب صريحا وموضعه فى حمص العريش، والعريش فى آخر الجفار بين مصر والشام. ونزل بالأندلس بقرية يومين من إقليم طشانة[2] من أرض إشبيلية)[3].

وتسلسل نسب إسماعيل الذى أشار إليه ابن حيان هو: إسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عمرو بن أسلم بن عطاف، على خلاف بين المؤرخين أيضا.

ولعل أول إشارة إلى ظهور أمر بنى عباد هى، عندما تولى والد إسماعيل هذا: محمد بن إسماعيل بن قريش الصلاة بطشانة[4].

بيد أن انتشار صيتهم وبعد ذكرهم بدأ يظهر منذ أن تولى إسماعيل بن محمد هذا خطة القضاء للمنصور بن أبى عامر. وقد ظل القاضى إسماعيل محط الإعجاب والثناء طيلة مدة حكم المنصور وحتى سقوط الدولة الأموية. وكانت مكانته الدينية والاجتماعية تتزايد يوما بعد يوم، فتولى بجانب خطة القضاء الإمامة فى جامع قرطبة. وكان كما يقول ابن عذارى (آية من آيات الله علما ومعرفة وأدبا وحكمة، فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح، والرأى

---

(١) : أعمال الأعلام، ص ١٥٢.

(٢) : طشانة هى Tocina فى مديرية إشبيلية حاليا. انظر، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ١، ص ٣٥.

(٣) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٦ ـ ٧ (نقلا عن أبى رافع الفضل بن على بن حزم صاحب كتاب الهادى إلى معرفة النسب العبادى).

(٤) : ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الرجيح، والنظر فى الأمور السلطانية إلى أن أتاه أجله سنة أربع وعشرة وأربعمائة)[١].

أما ابن بسام وابن الأبار فقد نقلا عن ابن حيان، ما يتضمن الإشادة به والثناء عليه[٢]. وان كنا لا نفهم تناقض ابن حيان مع نفسه عندما أشار إلى أن إسماعيل (لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا من خدمة)، فى حين أنه قال قبل ذلك إن المنصور قد ولاه خطة القضاء واستعمله عليها.

وتبقى أخيراً قضية انتساب بنى عباد إلى ملوك الحيرة، فهى قضية أشار إليها ابن الأبار عندما قال «وقال غير أبى رافع[٣]: إنهم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء. وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون، وهذا ابن اللبانة[٤] يقول:

من بنى المنذرين هو انتساب . . . زاد فى فخره بنو عباد

فتية لم تلد سواها المعالى . . . والمعالى قليلة الأولاد »[٥]

وليت ابن الأبار كشف لنا عن المصدر الآخر الذى نقل عنه بجانب ما نقله عن أبى رافع، لكفانا مؤونة هذه البلبلة. وإن كانت ليست بالقضية المهمة فى تكوين ونشأة دولة بنى عباد، غير أننا لا يمكن أن نمر عليها دون تعليق، خاصة وأن هناك من أنكرها. ويتراءى لنا أن راينهرت دوزى[٦] الذى أنكرها ورأى أنها ضرب من

---

(١) : المصدر السابق والجزء، ص ١٩٤.

(٢) : الذخيرة، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٧. ـ الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٥ ـ ٣٦،

(٣) : أبو رافع الفضل بن على بن أحمد بن حزم: هو كما يتضح هنا ابن المفكر والفقيه الأندلسى المشهور ابن حزم. وقد ألف عن بنى عباد كتابا سماه: الهادى إلى معرفة النسب العبادى، وهو كتاب مفقود اعتمد عليه بعض المؤرخين القدامى.

(٤) : سنعرض له قادما إن شاء الله.

(٥) : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥.

(٦) : ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام، ص ٢٠.

وهذا الكتاب أى ملوك الطوائف وضع عنوانه كامل كيلانى الذى ترجم جزءا من كتاب راينهرت دوزى المعروف Spanish Islam ، وهذا الجزء الذى ترجمه كامل كيلانى يتضمن الجزء الرابع أو القسم الرابع من كتاب دوزى هذا.

ويقابل الفصول من ١ ـ ١٣، أى من ص ٥٩٥ ـ ٧١٢ من طبعة لندن عام ١٩٧٢ وسنعمد منذ الآن إلى الاعتماد على ترجمة كامل كيلانى لكتاب دوزى والمعنونة بملوك الطوائف كما أسلفنا.

الزعم يحتاج إلى دليل لنفيه. فدوزى يعيب على هذا الإنتساب افتقاره للدليل، ولكن فاته هو نفسه أن يقيم الدليل على نفى ذلك.

وعلى أية حال فهو يقول (ولكن فرع أسرة آل عباد الذى تسلسل منه آباؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتا، بل كانوا يقيمون أخيراً قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى ناحية حمص)[1].

ويخيل إلينا أن هذا ليس هو الدليل المقنع. فمتى كان استقرار جماعة ما فى مكان ما غير موطنهم أو مكانهم الأصلى دليلاً على عدم إنتمائهم لذلك المكان أو الموطن؟؟.

ومهما يكن من أمر فإن عدم إشارة ابن حيان معاصر بنى عباد ومؤرخ الأندلس فى ذلك العصر إلى قضية انتساب بنى عباد للمناذرة، يلقى ظلالا من الشك، نعم.. ولكن لا يرقى إلى مستوى الإنكار الكلى دونها دليل واضح مقنع.

(١) : ملوك الطوائف، ص ٣٥.

الموقف السياسي في الأندلس قبيل قيام دولة بنى عباد

كانت إشبيلية بحكم موقعها فى غربي الأندلس وبسبب قربها من قرطبة عاصمة الخلافة تتأثر شديد التأثر بكل ما يحدث فى تلك المدينة التى كانت بحكم كونها العاصمة مركز الاستقطاب وملتقى التيارات السياسية السائدة آنذاك. ولقد زادت أهمية إشبيلية أيضاً عندما أصبحت ملاذا لأطراف النزاع فى ذلك الوقت، وهو ما هيأ لها بعدئذ ممارسة أكبر قدر فى حياة الأندلس السياسية والعسكرية والثقافية.

وعندما توفى الخليفة العلوى علي بن حمود فى عام ٤٠٨هـ / ١٠١٨م، خلفه نائبه على مدينة إشبيلية أخوه القاسم بن حمود بعد قليل من مقتله، وقد استمر القاسم يحكم قرطبة حتى خلع لأول مرة فى سنة ٤١٢هـ / ١٠٢٢م[١]. ومن ثم فقد أضحت الخلافة بعد ذلك نهبا لخلافات آل حمود وصراعاتهم، إذ إنه عندما خلع القاسم تولى مكانه ابن أخيه يحيى الذى ثار عليه، أما هو فقد توجه إلى إشبيلية حيث دعى له فيها بالخلافة، وظل هناك متحينا الفرصة للعودة إلى قرطبة[٢].

أما يحيى فقد تولى الخلافة إثر فرار عمه القاسم، واستمرت خلافته سنة ونصف تقريباً، حيث خلع بعدها. وعاد عمه القاسم مرة أخرى مسرعا ليلى الخلافة فى أواخر عام ٤١٣ هـ/ ١٠٢٣م، بعد أن ترك فى إشبيلية ولده القاسم واليا عليها مع أخيه وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيرى بن دوناس اليفرنى، وبعد أن ولىّ

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٢٢ ـ ١٢٥. ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٨٢ ـ ٨٣. ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

على القضاء القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد خلفا لأبيه الذى نزل الماء فى عينيه.

غير أن دولته لم تطل طويلا، فخلع بعد سبعة شهور من عودته تلك أى فى منتصف عام ٤١٤هـ / ١٠٢٤م[١]، فتوجه إلى إشبيلية غير أن أهلها أغلقوا أبوابها فى وجهه، ورضى أخيرا أن يرفع الحصار عنها شريطة إخراج ولديه له. وانقطعت بذلك دولة بنى حمود فى قرطبة، إلى أن أعيدت الخلافة ليحيى ثانية عام ٤١٦ هـ/ ١٠٢٦م، إلى أن خلعت طاعته مرة أخرى فى العام التالى مباشرة لتعاد الخلافة ثانية لبنى أمية حتى خلعوا نهائيا فى عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٣م[٢].

وهكذا فإننا لا نستطيع فى حقيقة الأمر أن نصف مقدار الشعور باليأس والخيبة فى عاصمة الخلافة وما يجاورها من المدن الكبيرة كإشبيلية وغيرها. فهم منذ أن بدأت نذر الفتنة تطل فى عهد عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر، لم يهنأوا بالاستقرار والهدوء كلية، فقد جربوا حكم الأمويين بعد فترة تسلط وفى عهد العامريين أى فى عهد المنصور وابنه عبد الملك وبداية حكم عبد الرحمن هذا؛ فلم يجد ذلك فتيلا، وأسهم أولئك الخلفاء الضعاف فى توسيع الهوة فى أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية، وأسهم سليمان المستعين بصفة خاصة فى عظم ذلك بتقريبه للبربر وإفساح المجال لهم لتولى المقاطعات والتحكم فى مصائر السكان. وعندما نقول البربر نعنى بذلك بنى حمود العلويين أيضا، فلقد تبربروا - إن صح هذا التعبير - وأصبحت لغتهم وعاداتهم لا تختلف عن لغة البربر وحياتهم.

وبدا كما لو أن الفريقين المتنازعين: الأندلسيون والبربر الذين استقدمهم المنصور ابن أبى عامر قد دخلا معركة إثبات الوجود. وظهر رد فعل الأندلسيين على تولى على بن حمود الخلافة سريعا، عندما نادوا بالمرتضى المذكور سابقاً خليفة، وخاضوا به معركتهم الفاشلة ضد البربر، أو عند طردهم للبربر وبنى حمود فى عهدي القاسم وابن أخيه يحيى.

---

(١) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٣ ، وص ١٤٥ - ١٤٦.

ولم يجد فتيلا عودة الأمر لبنى أمية كما ذكرنا، كما أن خلافة بنى حمود لم تستطع أن تستل من نفوس السكان الكراهية والحقد على البربر للاعتبارات التى ذكرناها سابقا، كما أن قصر نظرة بنى حمود السياسية وسوء تفكيرهم من جهة، وقصر مدة حكمهم من جهة ثانية لم تسهم بطبيعة الحال فى بناء جدار الثقة بينهم وبين سكان العاصمة وما حولها. ونستطيع أن نلمس حقيقة اليأس الشديد، وحقيقة الشعور بالقلق المقترن بالتفاؤل فى نفس الوقت عندما نرى أن أهل قرطبة وما يحيط بها يحاولون خلع بنى حمود، وإعادة بنى أمية، ثم خلعهم، وإعادة بنى حمود ثانية، ثم خلعهم أيضا، ثم إعادة الأمر لبنى أمية لآخر مرة. وكم كانت تحزنهم تلك المحاولات الفاشلة التى لم تسفر إلا عن مزيد من القلاقل والتفكك والانحلال.

إشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها

رأينا القاضى إسماعيل بن محمد بن اسماعيل يتولى خطة القضاء والإمامة بإشبيلية فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس. وكان القاضى فضلا عن مكانته الدينية تلك، ذا مكانة مالية فى المدينة، اذ كان يعهد بأراضيه الكبيرة إلى فلاحى إشبيلية ليزرعوها له ثم يقاسمونه المحصول، وهو ما يعرف بنظام المشاركة(١). ومن الطبيعى أن يكون والحالة كذلك عين أعيان المدينة وكبير وجهائها وعندما عجز عن القيام بمهام القضاء لنزول الماء فى عينيه اقتصر على مشيخة البلد وتدبير الرأى(٢).

ويبدو لنا أن ذلك قد تم فى عام ٤١٣هـ أو منتصف عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م أثناء خلافة القاسم بن حمود الثانية، إذ يذكر المؤرخون أن الخليفة القاسم عهد إلى ابن القاضى إسماعيل: أبى القاسم محمد بتولى خطة القضاء، ولم يكن هذا التقليد فى الحقيقة مستغربا أو مستكثرا، فقد كان لمحمد فضلا عن مكانة أبيه الدينية والمالية والاجتماعية، رصيد من العلم والفقه والأدب والمعرفة(٣) ما يجعل من تقليده أمرا متوقعاً، بل هو تحصيل حاصل. وبدأ من تلك اللحظة ارتباط قدر إشبيلية بآل عباد حتى عام: ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

أشرنا فيما سبق إلى معاناة قرطبة مع حكامها من العامريين فالأمويين فالحموديين لأكثر من مرة وتحملها هى كل تلك الظروف، وإشبيلية وغيرها من المدن بدرجة أقل. وإذا كان لم يتح للأرستقراطية العربية ذات المكانة النافذة فى قرطبة أن تحزم

---

(١) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ١، ص ٣٦.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٤.

(٣) : الحميدى: المصدر السابق، ص ٨٠ - ٨١. - ابن بشكوال: المصدر السابق، القسم الثانى، ص ٥٢٣. - النباهى: قضاة الأندلس المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص ٩٤.

رأيها وأمرها نهائيا الا فى عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، فإن الأرستقراطية الإشبيلية فعلت ذلك فى عام ٤١٤هـ الذى نستطيع أن نعتبره نقطة تحول مضيئة فى تاريخ إشبيلية وبنى عباد على السواء.

وفى واقع الأمر فإن مقومات الدولة أو المملكة المستقلة، بمعنى أدق وجدت فى إشبيلية فى تلك الفترة. فإشبيلية أولا ليست حلبة الصراع الرئيسية بين بنى أمية وبنى حمود، كما أنها فى الدرجة الثانية كانت تحت تدبير وإدارة (قاضيها القديم الولاية، وبطل الغرب قاطبة المتصل الرياسة فى الجماعة والفتنة)[1] والذى استطاع أن يحكم سيطرته ونفوذه على إشبيلية منذ أن غادرها واليها القاسم بن حمود عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٨م ليتولى الخلافة فى قرطبة بعد مقتل أخيه كما أشرنا.

ولم تذكر المصادر الأندلسية وغيرها من تولى حكم المدينة بعد خروج القاسم منها عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٨م ليتولى الخلافة فى قرطبة حتى عام ٤١٢ هـ/ ١٠٢٢م، وهى السنة التى خلع فيها القاسم لأول مرة، وتوجهه إلى إشبيلية ليدعو لنفسه فيها بالخلافة. غير أن هذه المصادر ذكرت أن القاسم ولى عليها بعد عوته إلى قرطبة ثانية عام ٤١٣ هـ/ ١٠٢٣م ابنه محمد، ويساعده أخوه الحسن وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيرى.

وإذا كانت المصادر لم تذكر من تولاها من عام ٤٠٨هـ حتى عام ٤١٢ هـ/ ١٠١٨ - ١٠٢٢م، فإنه يبدو أن السلطة الفعلية على الأقل كانت فى يد القاضى إسماعيل بن عباد الذى ضبطها أحسن ضبط (وحمى مدينة إشبيلية من سطوة البربر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأى الرجيح والنظر فى الأمور السلطانية إلى أن أتاه أجله سنة أربع عشرة وأربعمائة)[2].

وإذا كان القاسم بن حمود قد ولى أبا القاسم بن القاضى إسماعيل القضاء فى إشبيلية بعد مرض أبيه، فإنه قد قدر له كفايته ومكانته، وهى الأمور التى مكنت له فى النهاية من تأسيس دولته فى وسط ذلك الكم الكبير من الزخم السياسى فى

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ٧ (نقلا عن ابن حيان).

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٤ (نقلا عن ابن حيان).

الأندلس. ولقد رأى القاضى بنظرة السياسيى المحنك أن سلطان بنى حمود لن يصمد أمام الأعاصير الضاغطة آنذاك، كما رأى أيضا توثب أهل عاصمة الخلافة للانقضاض على بنى حمود المرة تلو المرة، فشعر أن فى ذلك فرصته السانحة.

وإذا كان قد تعذر على والده الاستقلال بإشبيلية فى الفترة من عام ٤٠٨ هـ حتى ٤١٢ هـ/ ١٠١٨ ـ ١٠٢٢م وهى فترة خلافة القاسم الأولى فربما كان ذلك لأسباب شخصية، أو ربما لأن الأمر قد استقر بعض الشيء للخليفة القاسم خلال تلك السنوات الأربع. نقول إذا كان ذلك لم يتم، فإن الوضع كان على عكس ذلك في عهد القاضي محمد. فبالإضافة إلى الانشقاق العائلى فى أسرة آل حمود بظهور يحيى بن علي منافسا لعمه ومطالبا بالخلافة دونه، فإن خلال القاضى وصفاته تختلف عن صفات أبيه فلقد (كان القاضى كما وصف زاخر العباب، متألق الشباب، أذكى من قاش وقلد، وأدهى من اتهم وأنجد، يأخذ وكأنه يدع ويطير فيحسب أنه وقع)(١). فمن الطبيعى أن يعمل القاضى على الاستقلال بإشبيلية، فهو لم يكن أقل المنتزين المتغلبين على المدن شأنا من جهة، كما أن تعطيل ازدهار المدينة وإنهاك مواردها التى تذهب استعدادا للحرب والحصار، لا تسمح بالتراخى والتغاضى من جهة ثانية. فلعل القاضى فكر أنه قد يستطيع أن يحقق لمدينته ما تصبو إليه من استقلال وازدهار وثراء يبز به مدينة قرطبة، وهو ما استطاع تحقيقه فعلا هو وابنه المعتضد وحفيده المعتمد بعد ذلك.

القضاء على نفوذ بني حمود فى المدينة:ـ

بعد أن سئم أهل قرطبة من حكم القاسم بن حمود عملوا على خلع طاعته، واستطاعوا تحقيق ذلك فى سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٤م كما ذكرنا سابقا. ولذا فقد توجه القاسم إلى إشبيلية للمرة الثانية عله يستطيع من هناك معاودة الكرة كما فعل فى المرة الأولى مطمئنا هذه المرة من أنه قد ترك ابنه واليا عليها تحت حماية البربر الذين تركهم هناك. وطلب من أهل المدينة أن يخلوا له ألف وخمسمائة داراً ليقطنها هو ومؤيدوه من البربر.

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٩ ـ ١٠ (نقلا عن ابن حيان).

وكـان القـاضى محمد قد أثار مشاعر قائد الحامية البربرية فى المدينة محمد بن زيرى، عنـدما مناه بأن يكون له الأمر فيها إذا ما ساعد أهلها على خلع طاعة القاسم وطرده هو وأولاده من المدينة. وكان القاضى فى كل محاولاته هذه قد نسق جهوده مع أهل المدينة وخاصة ذوى الرأى والمشورة فيها. ولذلك فعندما ضمن الإشبيليون موقف قائد الحامية، حاصروا محمد بن القاسم وأخاه وجماعتهما من البربر فى دارة الإمارة. ووقع القتل فى صفوفهم، ولم يستطع القاسم فعل أى شىء سوى ضربه الحصار على المدينة، وأخيراً اقتنع بأن يرفع حصاره عنها مقابل أن يسلموا له أولاده وأموالهم، فتم ذلك، وتوجه القاسم وأولاده إلى مدينة شريش(١).

وهكـذا استـطاع الإشبيليون رفـع نير الحموديين عن مدينتهم والاستقلال بها بفضل سياسة زعمائهم وعلى رأسهم القاضى محمد بن إسماعيل. ولسنا نرى فى الحقيقـة فى مسـألـة استقـلال القـاضى بالمدينة أى أثر للخيانة التى أشار إليها المؤرخون القدامى كابن بسام مثلا الذى يقول (وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة، وحصل منه بمنزلة الثقة فخانه بخون الأيام عند إدبارها إيثارا للحزم وطلبا للعافية)(٢).

فكونه أدرك مصلحة بلاده وأنه لا يمكن لها التمتع بالاستقرار والهدوء والازدهار طالما ظلت فى حكم الحموديين المضطرب والمكروه فى نفس الوقت. فإن ذلك ليس دليل خيانة بل هو دليل ينم عن شعور محمود منه صحيح أننا لا نستطيع أن نغفل المطامع الشخصية للقاضى، إلا أننا نستطيع أن نعتبر موقفه ضربا من الوطنية لعب ورقتها لتصب فى قناته هو أخيرا، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن القاضى لم يكن يصـدر فى موقفـه عن فردية مطلقة، اتضح لنا أن كل وصف يمكن أن يلصق بالقاضى إلا الخيانة التى لا تخامر إلا أذهان الحموديين فقط.

وسنرى بعدئذ أن القاضى ومن معه كانوا محقين فى خلع طاعة الحموديين ليقودوا المدينة إلى الطريق المشرق الذى خطه لها هو وعائلته من بعده.

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٦ ـ ١٧. ـ رجب عبد الحليم: الرسالة السابقة، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

(٢) : ابن بسام نفس المصدر السابق والقسم والمجلد أعلاه، ص ٧.

دولة القاضى أبى القاسم محمد ٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ/ ١٠٢٤ ـ ١٠٤٢م

مجلس الرئاسة فى إشبيلية :ـ

تخلص الإشبيليون كما رأينا من القاسم وأبنائه وجماعته بعد تلك المشقة التى عرضنا لها، وبدأت المدينة تتحسس طريقها إلى الهدوء والاستقرار. وكان لابد من وجود قيادة تدير شئون المدينة وتعيد لها ما أفسدته الحرب والحصار، وكان أن عرض أهل المدينة على القاضي محمد بن إسماعيل كبير وجهائها وأغنى أغنيائها الذى كان يملك وحده ثلث أراضى إشبيلية وصاحب الفضل الأول فى تخليص المدينة من بنى حمود أن يتولى حكمها.

ولم يفاجأ القاضى فى حقيقة الأمر بهذا المطلب البتة ، فقد كان ذلك شيئا طبيعيا . ولكن القاضى كسياسى محنك يتقن من أحابيل السياسة وألاعيبها الكثير أظهر التعفف والإباء، غير أن القوم ألحوا فى ذلك، فوافق شريطة أن يشترك معه فى حكم المدينة جماعة من أهل الرأى والمشورة والعلم، وهولاء الرجال هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى مؤدب هشام المؤيد وصاحب كتاب العين فى النحو، ومحمد بن يريم الألهانى، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى على خلاف بين المؤرخين فى عددهم[1].

وتولى هذا المجلس حكم إشبيلية، وكان القاضى يتولى كما يبدو لنا رئاسة السلطة التنفيذية

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٥٥ ـ ١٦٠. (نقلا غن ابن حيان).ـ مجهول: ذيل مضاف إلى البيان المغرب ويتعلق بأخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.ـ عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٧٧.

ويقول صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب (فسار أمر أهل إشبيلية إلى ثلاثة من أهلها أحدهم القاضي محمد بن عباد، والثانى الفقيه أبو عبد الله الزبيدى، والثالث الوزير أبو محمد عبد الله بن مريم، فكانوا يحكمون فى النهار فى القصر، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم، وينصرفون آخر النهار)(١).

وكانت تلك تجربة فريدة فى حقيقة الأمر فى بلاد الأندلس لم يعتد أهلها على مثلها. والواقع أننا لا نستطيع أن نصف هذا الشكل من الحكم وصفا دقيقا، فلا نعلم هل يمكن وصفه بالنظام الرئاسى الديمقراطى أم أنه كان مجلس مشورة ينفرد فيه القاضى ابن عباد بالسلطة التنفيذية؟. نكاد نتبين أنه أقرب إلى هذا النوع من الحكم الذى يتولى فيه القاضى السلطة التنفيذية دون زملائه من الأعضاء فى المجلس، ثم ما لبث أن استبد بالأمر وحده(٢). كما لا نعلم التاريخ المحدد الذى تولى فيه هذا المجلس الرئاسى الجماعى حكم المدينة؟؟ ولكننا نحدس أنه قد تم عقب إخراج الحموديين عن المدينة، كما أننا لا نعلم متى انتهت أعماله أيضا؟؟.

ويصعب علينا بالمناسبة قبول وجهة نظر دوزى، ونشعر إزاءها بالتعجب من ضآلة تفسيره لطلب أهل إشبيلية إلى القاضى أن يتولى حكم المدينة. فهو يرى بأن (عامة إشبيلية) اتفقوا على أن يلقوا عبء مسئولية الحكم على القاضى وحده مستشعرين شعورا خفيا بدنو الساعة التى تصادر فيها ثروة القاضى الطائلة. وأن القاضى أدرك الغاية التى رمى إليها (نبلاء إشبيلية وأصحاب الرأى فيها). ونلاحظ أنه قال قبل قليل (عامة إشبيلية) هم الذين طلبوا منه ذلك، وأن القاضى أظهر أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الأمر إلا إذا تولى معه الحكم هيئة شورية(٣).

ونحن نستبعد هذا فالقاضى خرج من معركته ومعركة مدينته كأقوى ما يكون، إذ التفت حوله قلوب سكان المدينة لموقفه الوطنى ذلك. هذا من جهة ومن جهة

---

(١) : مجهول: ذيل مضاف إلى البيان المغرب، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) :-J.B.Bury, M.A.F.B.A The CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, CAMBRIDGE-1929- VOLUME V I , P393

(٣) : ملوك الطوائف، ص ١٩، ص ٢٢ - ٢٥.

أخـرى لم نتبين بوادر حقد طبقى تسعى فيه طبقة العامة للانتقام من بنى عباد وغـيرهم من الأرستقـراطيين، ومن جهـة ثالثة نتساءل: ممن تصادر تلك الثروة الطائلة؟؟. ومع هذا فيجوز أن يكون دوزى قد قصد أنه نظرا لما سبق أن ذكر عن ثراء القاضى محمد بن إسماعيل، فمن المحتمل أن أهالى إشبيلية تطلعوا إليه لما يمثله من حيث المكانة والثراء ليتولى أمورهم، وينفق على شؤون المدينة فى هذه الفـترة المضـطربة من أمواله الخاصة حتى تستقر الأحوال فى مدينتهم. وهذا ما لاحظه فى الواقع .J.B.BURY (١)، عندما أشار إلى إنه بالنظر إلى الثروة والجاه اللذين كان يتمتع بهما القاضى، فقد استطاع أن يحكم سيطرته على المدينة.

الموقف السياسى غداة الاستقلال:

لم يطرأ على الموقف السياسى فى الأندلس غداة الاستقلال، أى غداة استقلال إشبيلية تغيير كبير، فالقوى السياسية التى كانت موجودة قبيل قيام دولة بنى عباد كانت تمارس دورها ونفوذها فيها عدا القاسم بن حمود، فقد طوته الأحداث تحت سيطرة ابن أخيه، وانتهى وجوده السياسى بالسجن لديه ثم قتله أخيرا. أما يحيى نفسه فقد ارتد قبل خلع أهل قرطبة لعمه القاسم إلى مدينة مالقة التى كان يتولاها عند وفاة أبيه، بيد أنه أخذ يثير القلاقل والمضايقات من هناك.

أمـا قرطبـة فقـد أعـاد أهلها الأمر لبنى أمية ثانية. وأما بقية القوى السياسية الأخـرى، فقد كانت لا تزال تواصل تحقيق تطلعاتها الإقليمية ومن هؤلاء بنى الأفطس أصحاب بطليوس الذين انتظم أمرهم بمؤسس دولتهم عبد الله بن محمد ابن الأفـطس المعروف بابن مسلمة، إذ وطد دعائم مملكته بعد تخلصه من أبناء سابور المذكور سابقا، فتلقب بالمنصور وعمل من ثم على توسيع رقعة دولته، وغدا ابن الأفطس خصما عنيدا قويا لرؤساء الجزء الغربى من الجزيرة.

أما القوة التى كنا قد آثرنا التحدث عنها في حينها(٢) فهى امارة قرمونة البربرية المجاورة لمملكة إشبيلية. وتقع هذه الإمارة بين إمارة قرطبة شرقا، ومملكة إشبيلية

---

(١) : OP. Cit, Vol 1V, P 344

(٢) : انظر قبل التمهيد، ص٥٠ ومابعدها.

غربا فى منحنى [1] الوادى الكبير أو نهر الوادى الكبير[2]. وتشمل بالإضافة إلى قرمونة العاصمة مدينة أستجه[3] الواقعة شرقها، ومدينة أو حصن المدور الواقع فى غربى قرطبة على نهر الوادى الكبير. وقد أسس هذه الإمارة الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى زعيم بنى برزال الزناتيين، فلقد قدم هؤلاء البربر الزناتيون من المغرب إلى الأندلس فى عهد الخليفة الحكم. وقد تولى الحاجب محمد بن عبد الله هذا حكم قرمونة منذ أيام الخليفة هشام المؤيد وحتى وقوع الفتنة [4].

وعندما استأثر كل واحد من حكام الأقاليم والمغامرين بمقاطعاتهم، استأثر هو الآخر نقصد الحاجب البرزالى بالمدينة. وكان له دور كبير فى إحداث تلك الفتن وحتى وفـاته. وقد وصف ابن البرزالى بالانتهازية والوصولية وتزعزع الولاء بين القوى السياسية حسب المكان الذى تكمن فيه مصلحته الخاصة[5]. وسنتبين بعد الدور الذى مارسه فى تلك الأحداث.

ولا شك ان هذه الموقف السياسى الشائك يستلزم قدراً كبيراً من الدهاء والحنكة من القاضى، وهو ما نجح فيه فعلا.

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ١٤٨.

(٢) : الـوادى الكبـير أو نهر الـوادى الكبير: Guadalquivir هو النهر الذى تطل عليه قرطبة وإشبيلية ويصب فى المحيط الأطلسى، ويعرف أيضا بنهر قرطبة، وكان يعرف بنهر بيطى وطوله إلى المحيط ثلاثمائة وعشرة أميال. انظر، أبو عبيد البكرى، المصدر السابق، ح ٢، ص ٥٨: ابن غالب الأندلسى المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) : (استجة Ecija واسمها القديم Astiggi ، وتقع على نهر شنيل وهى الآن مركز إدارى فى محافظة إشبيلية).

انظر ابن الشباط التوزري : وصف الأندلس قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط، وهى قطعـة فى وصف الأندلس وصقلية، تحقيق أحمد مختار العبادى نشر فى مجلد معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الرابع عشر - ١٩٦٦ - ١٩٦٧، ح ٣، ص ١١٢.

(٤) : يراجع فى أخبار دولة بنى برزال بقرمونة:

- مجهول: نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، ص ٤٤ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٥) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ١٢ (نقلا عن ابن حيان).

تكوين الجيش الرسمى للدولة :

لسنا على يقين واضح متى بدأ القاضى يفكر فى تأسيس جيش لدولته الفتية الوليدة حديثا غير أن مقتضى الأشياء ومنطق الأحداث يجعلنا نعتقد أن أول خطوة يجب أن يصنعها القاضى لتثبيت سلطته هى : تكوين الجيش ولا سيما وأن الظرف السياسى الدقيق آنذاك يدعو لذلك وبسرعة . ولذا فإننا نتفهم دواعى القاضى وهو يشكل جيشه غاضا النظر عن الفئات المتعددة التى تكون منها ذلك الجيش، إذ يبدو أن الأهم أمامه هو تكوين جيش ـ كضرورة ملحة ـ يدافع عن الدولة، أما تلك الفئات فقد كانت خليطا من البربر والنصارى والعرب[١] .

وعندما نقول إن القاضى هو الذى أسس الجيش فإننا لا نملك الدليل لمعرفة ما إذا كان ذلك قد تم بمشاركة المجلس؟؟ أم أنه قد تم فى عهده بعد أن تخلص من أعضاء المجلس وانفرد بالرئاسة؟؟

الاعتراف بالسلطة الاسمية للخليفة يحيى بن على بن حمود :ـ

ما من شك فى أن السنوات الأولى لاستقلال إشبيلية كانت حرجة ودقيقة تستوجب قدرا من الحيطة والحذر من القاضى محمد بن إسماعيل باعتباره رأس السلطة التنفيذية بالمدينة، فكل دواعى المخاطر كانت تحيط بالدولة الناشئة، فقد كانت هناك حامية البربر بقيادة محمد بن زيرى الذى كان القاضى قد منَّاه بحكم المدينة كما ذكرنا سابقا، وكان هناك الخليفة القاسم بن حمود الذى لم ينته خطره بعد. ثم خطر الخليفة يحيى بن على الماثل. ونعتقد أن القاضى لم يلق كبير عناء بصدد التخلص من محمد بن زيرى فما لبث أن تخلص منه، فخرج (وصفت إشبيلية من البرابرة)[٢] .

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

وهذا هو ما جرى عليه العرف منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف عند تكوين الجيوش فى الأندلس.

(٢) : هذا هو تعبير المؤرخين القدامى دائما.

انظر ابن بسام، المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الثانى، ص ١٦ ـ ١٧ .

أمـا المـأزق الآخر فقد كان مع الخليفة المطرود القاسم بن حمود، فعندما رفع القاسم حصاره عن المدينة توجه إلى مدينة قرمونة حيث كانت طاعته لا تزال قائمة مؤملا تنظيم صفوفه وجمع قواه لمعاودة الكرة ربما مع القرطبين أو الإشبيلين، بيد أن القاضى الذى يتقن من فن الإقناع والإغراء الكثير أوحى لحاكمها الحاجب محمد ابن عبد الله البرزالى المذكور سابقا بأن يخلع طاعة القاسم ويستأثر بحكمها لنفسه. ووافق الحـاجب اقتناعا منه بخطر القاسم على سلطته، وطمعا فى الاستئثار بها وحده كما كان الأمر قبل قدوم القاسم إلى المدينة. ومازال البرزالى حتى أقنع الخليفة القاسم بالخروج إلى مدينة شريش[١].

ونستطيع أن نقدر فرحة القاضى وغبطته من زوال خطر القاسم إذا ما عرفنا أن المسافة بين إشبيلية وقرمونة لا تزيد عن ثلاثين كيلو مترا فقط كما أشرنا، وإذا ما عرفنا أيضا أنه ليس من السهل الاستخفاف بقوة القاسم العسكرية والمعنوية، فاذا كان القاسم قد قبل مرغما رفع حصاره عن إشبيلية، فإنه قد أقدم على ذلك لأسباب عائلية فقط، أما الآن فله حرية الحركة والتصرف مدعما من الحاجب البرزالي واليه على قرمـونة. ولذا فقد كانت ضربة ناجحة من القاضي عندما استمال الحاجب البرزالى ودفعه للثورة على خليفته وإخراجه من المدينة.

على أن مأزقه الخطير كان مع الخليفة يحيى بن على الذى استطاع أن يقبض على عمـه القـاسم ويلقى به فى السجن، فقد غدا بعدها الزعيم السياسى للبربر، والخليفة الشرعى الذى تحيط به صفوفهم فى وجه الأندلسيين. فلقد توجه يحيى بعد خلع طاعته عن قرطبة لأول مرة عام ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢م إلى مدينة مالقة التى كان يتولى حكمها قبل قيامه على عمه، فاستقر بها.. وعندما ساء موقف القاسم بن حمود فى قرطبة، خلعت طاعته ثانية، وتوجه منها إلى إشبيلية، فصد عنها، ثم انتهى

---

(١) : شريش هى قاعدة أو عاصمة كورة شذونه، وهى على مقربة من البحر، ومدينة شذونة كانت تعـرف بمـدينـة ابن السليم أيضـا، وشذونة مركز إدارى حاليا فى مديرية قادس (الأسبانية) على نحو ٤٠ ك. م إلى شرقها.

نظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٤، ص ٣٣٣، ح ٢ ص ٢٩٧.

الأمر باعتقاله لدى ابن أخيه يحيى، وأعاد أهل قرطبة الأمر ثانية لبنى أمية كما ذكرنا سابقا[1]. ولكن طاعته خلعت فى عام ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥م وأعيدت طاعة يحيى بن علي إلى قرطبة ثانية دون أن يدخلها، ثم خلعت طاعته ثانية فى عام ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م فتوجه إلى قرمونة معتزما التوجه إلى قاعدته مالقة.

ولقد أدرك القاضى مغبة نزول يحيى بجواره وتحالف الحاجب البرزالى المتقلب الولاء معه، وخشى منهما على استقلال مدينته الهش. وقد ظهر ما خشى منه القاضى فعلا عندما ضربا حصارهما حول عاصمته ولم يكن أمام القاضى إلا أن يساوم يحيى إذ لم تكن له القدرة على مواجهته فاتفق رأيه ورأى أهل المدينة على أن يعترفوا بخلافة يحيى وبسلطته الاسمية شريطة عدم دخول البربر إلى المدينة. وقنع يحيى بذلك، غير أنه اشترط أن يعطوه رهائن من أبناء النافذين فى المدينة ضمانا لوفائهم بالشروط (فضنّ كل بولده، وبادر القاضى فراهنه ابنه عباد فانفرد بالتدبير واستولى على الأمور)[2].

وهكذا فلم يتردد القاضى بالمغامرة بابنه، وأثبت أنه خير من يعرف من أين تؤكل الكتف، كما أن الخليفة يحيى قنع بهذا ورضى به فهو رهن عظيم، ومن الطبيعى أن يعظم قدر القاضى فى نفوس أهل المدينة، وأن يكبروا فيه وطنيته الفائقة، ونستبعد أن يكون أهل اشبيلية عرضوا على يحيى تبعيتهم الاسمية خوفا من هجوم القاسم عليهم كما جاء فى كتاب (إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى)[3]، وذلك لأن يحيى كان فى ذلك الوقت فى مدينة مالقة، وأن الاعتراف بسلطته فى إشبيلية لم يتم إلا فى أثناء توليه الخلافة فى قرطبة للمرة الثانية عام ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥م، أو بعد خلع طاعته عنها التى تمت فى عام ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م. إذ يقول ابن بسام عن القاضى محمد (ولا سلم لأحد بعد لوائها إلى أن استوسق الأمر ليحيى بن على

(١) : أنظر قبل التمهيد، ص ٣٩.

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ١٠ - ١١.

(٣) : صلاح خالص : (نقلا عن مخطوط أدباء مالقة لابن خميس)، ص ١١٤ - ١١٥.

الحمـودى حسبما تقدم، فاضطر أهل إشبيلية إلى الإذعان لطاعته والدخول فيما دخل فيه الناس من جماعته[1]).

وكيفما كان الأمر فإن إشبيلية رضيت مؤقتا بسلطة الحموديين الاسمية على مضض.

التخلص من مجلس الرئاسة :ـ

يصعب علينـا معـرفة كم من الوقت والجهد احتاجهما القاضى لتثبيت سلطته منفردا. وإذا كان قد استطاع أن يؤسس جيش المدينة، ثم يعترف بالسلطة للخليفة يحيى فانه قد كان يصدر فى ذلك عن موافقة جماعية لخطوته. أما الآن فقد صفا له الأمر وليس أسهل عليه من التخلص من نفوذ أعضاء هذا المجلس. ويبدو أن ذلك قد تم بصورة تدريجية، وبمعنى آخر يبدو أنه قد بدأ بأقلهم شأنا حتى انتهى بأخطرهم دون أن يلقى كبير عناء (حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته، وأجمع أهل عمله على طاعته، فدانوا له. وسلك سيرة أصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته، وقام بأيقظ جد وأصح عزم، واخترع فى الرياسة وجوها تقدم فيها كثير منهم[2]).

ويأخذ عليه ابن حيان كما ينقل عنه المؤرخون هذه السياسة الانتهازية بأسلوب يمتزج فيه الانتقاد بالإعجاب المبطن[3] وقد شرع القاضى فور تفرده بالسلطة فى تولية الوزارة لرجل من عامة الناس لم يذكر لنا المؤرخون عنه شيئا سوى أن اسمه حبيب ـ وسنعرض قادما لما يعنيه منصب الوزارة ومايمثله من أهمية ـ ، فتولى حبيب مساعدة القاضي ـ الملك ـ في تدبير شؤون الدولة وتصريف أمورها، ولم يسلم هو الآخر من ذم المؤرخين ومؤاخذاتهم [4].

---

(١) : ابن بسام: نفس المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٠ ـ ١١ .ـ رجب عبد الحليم: الرسالة السابقة، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٧ ـ ١١ .ـ ابن الأبار: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٣٦ ـ ٣٨.

(٤) : كابن بسام: المصدر السابق، والقسم والمجلد أعلاه، ص ١٠ ـ ١١ .

محـاولة توسيـع رقعة الدولة:

صفت الأمـور للقـاضى الداهية وأصبح خالي البال من مضايقات الحموديين وإزعاج مجلس الرئاسة. وزادت غبطته كثيرا عندما تحالف مع محمد بن عبد الله البرزالى حاكم قرمونة القريبة من إشبيلية كما أوضحنا. الأمر الذى أعطاه حرية الحـركـة والتصرف، ولم يكن هذا التحـالف أو هذا التحول فى موقف الحاجب مستغـربا. فقد كان يخشى على ملكه من الخليفة يحيى بن على الذى نزل عليه بقـرمـونة، ويبدو أنه قد شعر بالراحة عندما غادر يحيى قرمونة إلى مالقة قاعدته الاولى. ولذا فقد تحالف مع القاضى الذى كانت تجمعه وإياه مصلحة واحدة هى إبعاد الحموديين عن مدينتيهما.

ولـذا فقـد سعى القاضى من فوره إلى توسيع رقعة مملكته، وتوجه ببصره إلى النواحى الغربية من الأندلس، إذ كانت مملكته تعتبر من الناحية الجغرافية امتدادا لهذا الغرب، كما أن هذه المنطقة كانت تقع تحت حوزة أمراء ضعاف، ولذا فقد سعى إلى احتلال مدينة باجه[1] التى كانت تتجاذبها الأهواء والإحن العرقية بين البربر والعرب، فسارع إلى إرسال الجيش لاحتلالها بقيادة ابنه اسماعيل الذى ولاه قيادة الجيش وبمساعدة حليفه محمد بن عبد الله البرزالى. غير أن عبد الله بن محمد ابن مسلمة المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس والذى أشرنا سابقا إلى أنه كان خصما عنيدا وندا قويا لأمراء الجانب الغربى من الجزيرة، لم يشأ أن تقترب حدود القاضى ابن عباد منه لما يشكل ذلك من خطر على مملكته، فسارع وبمساعدة حاكم مدينة مردلة إلى تكوين جيش بقيادة ابنه محمد ـ الملقب بالمظفر فيما بعد، وشقيق حاكم مردلة - الى احتلال مدينة باجة، وتم لهما ذلك بالفعل.

---

(١) : باجة فى البرتغال الحالية وتسمى اليوم: بيجا Beja وهى قاعدة مديرية أليتيجو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلو مترا جنوب شرقى الاشبونة (لشبونة، ليسبو). وكانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى كورة واسعة تشمل مديرية أليتيجو السفلى الحالية فى البرتغال، وجزءا من مديرية بطليوس وولبه Huelva فى أسبانيا الحالية.
انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ١، ح ١، ص ٦٢.

وعندما قدم اسماعيل وحليفه ضربا الحصار على المدينة، واشتبكا مع جيش ابن الأفطس، وتم لهما أخيرا تفريق شمل هذا الجيش والقبض على محمد بن المنصور ابن الأفطس، وكذلك قبض على شقيق حاكم مردلة. وقد احتفظ الحاجب بابن الأفطس أسيرا لديه فى قرمونة، ثم أطلق سراحه بعد عقد الهدنة بين القاضى وابن الأفطس. أما شقيق حاكم مردلة فقد سيق إلى إشبيلية حيث قتل هناك(١). ويبدو أن هذه المعركة قد حصلت عام ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م، إذ يشير ابن بسام إلى هذا عند حديثه عن إطلاق سراح ابن الأفطس على يد الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى(٢).

وقد استولى القاضى على مدينة باجة أخيراً عندما تنازل له عنها أميرها عميد الدولة محمد بن عيسى. وكان والده الحاجب عيسى يلى حكم مدينة شلب وباجة منذ الفتنة، وعندما توفى عام ٤٣٢ هـ/ ١٠٤١م خلفه ابنه محمد هذا الذى تنازل كما قلنا للقاضى عن المدينة.(٣). ودخلت باجة فى عداد مدن المملكة الإشبيلية بعد ذلك حيث ولد فيها المعتمد بالله حفيد القاضى فى حياة جده عام ٤٣٢ هـ/ ١٠٤١م(٤).

ولقد أعطت هذه الحملة نتائجها الفورية، فقد علت مكانة القاضى وازدادت هيبته. وركن ابن الأفطس إلى الدعة والسكون مهيض الجناح واهن الطرف.

مغامرة الهجوم على مملكة ليون النصرانية(٥) :-

هدأ روع القاضى بعد عقد اتفاقية الهدنة مع ابن الأفطس، وكان قد ارتاح قبل ذلك بتحالفه مع الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى أمير قرمونة واعترافه بالسلطة

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٢.- ابن بسام: المصدر السابق القسم الثانى - المجلد الأول، ص ١١ - ١٢.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٣.- ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ١٢ - ١٣.

(٣) : ابن عذارى: نفس المصدر والجزء، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٥٩. (نقلا عن ابن اللبانه وابن زيدون).

(٥) : انظر قبل التمهيد، ص ٥٦.

الاسمية للخليفة الحمودى يحيى بن على. وغدا مطلق اليد فى مواصلة البناء الداخلى لدولته، ولسنا على يقين من معرفة خطوات البناء الداخلى التى تمت، ولكننا نفاجأ فى عام ٤٢٥ هـ/ ١٠٣٤م بمغـامـرة عسكـرية موجهـة لأراضى مملكـة ليون النصرانية، فقد فكر القاضى فى مهاجمة مملكة ليون فى ذلك العام. ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد آخر ملوكها من نسل بلاجيوس وبيتروس القوط، وهو الملك برمودو الثالث ابن ألفونسو الخامس[١].

على أن هذه الحملة لم يكتب لها أن تحقق أغراض القاضى، فالطريق إلى مملكة ليون لابد أن يمر بأراضى مملكة بطليوس. ولم يخامر القاضى شك فى أن ينقض ابن الأفـطس هدنتـه معه، ولذلك فقد جهز جيشاً بقيادة ابنه إسماعيل وعبر به أراضى إبن الأفطس إلى تخوم مملكة ليون وأوغل فيها.

ويبدو أن هذه الحملة كانت ذات هدف عسكرى محدود هو المناوشة فقط وإظهار مدى ما تحقق للقاضى ابن عباد من قوة فى مملكته الحديثة العهد.

غير أن ابن الأفطس نكث بعهده مع القاضى، وكمن لجيش ابنه إسماعيل بشعب ضيق، ثم هاجمـه. فوقع الاضطراب في صفوف جيشه، واضطر إلى الفرار إلى مدينة لشبونة المطلة على المحيط الأطلسى والتابعة لمملكة ابيه، وأوقع ابن الأفطس ونصارى ليون القتل فى صفوف جيش إسماعيل. ولكن إسماعيل استطاع أن ينجو بجلده[٢].

فهل فكر القاضى فى مواصلة سياسة المنصور ابن أبى عامر الرامية إلى مهاجمة ممالك النصارى والانتقال بالدولة الإسلامية من خطة الدفاع إلى الهجوم؟؟. إذا افترضنا حسن الظن فإننا نقول إن شيئاً من هذا قد فكر فيه القاضى، ومع هذا فأننا ننظر إلى هذه المغامرة على أنها تنطوى على قصر نظر سياسى. فإذا كان الغرض هو مهاجمة ممالك النصارى فهو تفكير ساذج، فكيف يتسنى له أن يخاطر بجيشه المكـون حديثاً إلى أرض العدو البعيدة عنه والمتاخمة لحدود عدوه ملك بطليوس

---

(١) : محمد عبد الله عنان: نفس المرجع أعلاه ص ٣٧٤ ـ ٣٨٥.

(٢) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٢٤ ـ ٢٥.

والذى لا تربطه به سوى هدنة مؤقته؟؟. وعلى افتراض أنه استطاع أن يحتل بعضاً من أراضيها، فهل كان يقدر على تأمين حمايتها بعدئذ؟؟. وخلاصة الأمر أن هذه المغامرة كانت فاشلة، وكان من الممكن توفير الجهد الكبير الذى تم فى إعدادها للبناء الداخلى. ومع هذا فربما كان القاضى يقصد بذلك مجرد الإشعار بقوته وللمناوشة فقط كما سبق أن أوضحنا.

خلع طاعة الحموديين وظهور الخليفة هشام من جديد:ـ

خلع القاضى محمد بن إسماعيل طاعة الخليفة يحيى بن على الاسمية ولا نعرف على التحقيق متى وقع ذلك؟؟. ويبدو أن ذلك قد حدث فى أواخر عام ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥م بعد أن استطاع يحيى الاستيلاء على مدينة قرمونة من يد صاحبها محمد ابن عبد الله البرزالى الذى فر إلى إشبيلية مستجيراً بالقاضى.

وفى بداية عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م ودفعا لمضايقات يحيى بن حمود وأملا فى زعزعة الخلافة الحمودية وضربها فى أساس تكوينها ووجودها، ادعى القاضى محمد بن إسماعيل أنه قد سقط لديه خبر هشام الخليفة المختفى الذى اختلف فى موته. فاستقدم من قلعة رباح(١) رجلا يدعى خلف الحصرى يشبه هشام المؤيد تماما، وكان يعمل فى صنع الحصر والخيزران. فطلب منه التوجه معه إلى إشبيلية فى موقف مسرحى طريف للغاية(٢)، ودعى له هناك بالخلافة. وتقول رواية أخرى إنه استقدمه من قرية تابعة لإشبيلية ودعى الناس إلى طاعته وأنه هو الخليفة هشام بعينه، وطلب من أهل إشبيلية أن يشكروا الله تعالى على ما أكرم به مدينتهم واستأثرها وحدها بفضيلة ظهور الخليفة الشرعى فيها. وأوقف شهودا على باب خلف الحصرى فشهدوا بأن الخليفة عهد بحجابة بابه إلى إسماعيل بن القاضى

---

(١) : قلعة رباح (من عمل جيان، وهى بين قرطبة وطليطلة، وهى مدينة حسنة ولها حصون حصينة، وهى مدينة محدثة فى أيام بنى أميه).
الحميرى: الروض المعطار تحقيق أ. لافى بروفنسال، ص ١٦٣.

(٢) : أنظر أبن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ (نقلا عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان المفقود).

محمد. وعلى أثر ذلك طلب القاضى من الرؤساء والأمراء في الأندلس قبول دعوة الخليفة هشام والدخول فى طاعته[1].

تلك هى خلاصة هذه القضية السياسية التى شغلت الفترة الزمنية الممتدة من عام ٤٢٧ هـ حتى عام ٤٣١هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٣٩م، ونشأت عنها ذيول سياسية أخذت تتفاعل فى نطاق الصراع بين القوى السياسية المتناحرة فى الأندلس. وأدت إلى مقتل الخليفة يحيى بن على، ثم تكوين حلف بربرى صقلبى ضد القاضى، ثم مهاجمة مملكة قرطبة ومقتل إسماعيل بن عباد قائد جيش إشبيلية.

وفى الحقيقة أن موضوع وفاة الخليفة هشام المتكررة من الموضوعات الغامضة فى التاريخ الإسلامى كله، وهى قضية تركت معلقة تتجاذبها التفسيرات والتعليلات حتى الوقت الحاضر. ولقد رأينا فيما مر بنا أن ادعاء الخليفة محمد بن هشام المهدى بصدد وفاة هشام فى عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨م هو محض اختلاق وتلفيق. وظهر ذلك واضحا عندما أعاد الخليفة هشام إلى الظهور وادعى أنه قائم دونه. وعندما قتل المهدى تولى الخلافة ثانية هشام المؤيد نفسه. وهو ما تأكد للجميع فى ذلك الوقت، ومر بنا موقف سليمان المستعين بعد ما دخل قرطبة من الخليفة هشام وكيف طلب منه أن يخلع نفسه له وأوردنا الأقوال التى تناولت هذا الموضوع، وأشرنا إلى أن هناك من يقول إن سليمان المستعين أخفاه حينا ثم قتله، وهناك من يقول بل فر من محبسه وقصد مدينة ألمرية وعاش هناك فى بؤس وخمول حتى توفى[2].

وعندما استطاع علي بن حمود دخول قرطبة والقبض على سليمان المستعين بحجة أنه ولى عهد هشام وولى دمه أيضا، لم يجد الخليفة حياً، فدلوه على قبره فأخرجه منه، وشهد أمامه بأنه الخليفة هشام. وقد أوردنا نفى سليمان هو وأبوه أن هشاما قد قتل، وأنهما أنكرا ذلك بشدة، رغم أن عليا لم ير أثرا لسلاح فى جسد الرجل الذى أخرج من القبر فتوهم فيه الخنق، ورأينا أيضاً أن علياً عجل بقتلهم خوفا من

---

(١) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء ونفس الصفحات ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٩ ـ ١٠.

(٢) : انظر قبل، التمهيد، ص ٣٦

تبلبل الأفكار حول هشام ووجوده حيا، لأن ذلك ليس من مصلحته بتاتا[1].

ويبدو أن ابن الأثير يميل إلى هذه الرواية، فينفرد برواية تؤكد أن هشاما لم يقتل، بل هو حى يرزق، إذ يقول بأن علي بن حمود وخيران العامرى عندما نبشا قبر الرجل المدفون على أنه الخليفة هشام، أحضرا أحد فتيان المؤيد، وعرضاه عليه. ففتشه هذا الفتى، وفتش أسنانه، لأنه كان له سن سوداء كان يعرفها ذلك الفتى، فأجمع هو وغيره على أنه المؤيد خوفا على أنفسهم من على بن حمود. فأخبرهما أى الفتى بأنه هو المؤيد نفسه. وكان ذلك الفتى يعلم أن المؤيد حى، فأخذ على بن حمود سليمان فقتله[2]. على أن هناك من يقول بأن سليمان اعترف لعلى بن حمود بأن ابنه محمدا قد قتل هشاما المؤيد فعلا[3].

فمهما يكن فإن من المحقق أن هشاما قد قتل على يد الخليفة سليمان المستعين، فالمستعين له مصلحة فى إخفاء المؤيد عن المسرح السياسى. ذلك أن وجوده سيثير أنصاره من الصقالبة والعرب. ويدفعهم إلى مناصرته، لا لشيىء إلا لمقاومة البربر وكسر شوكتهم، كما أن وجوده والخليفة الشرعى الذى توالت عليه وعلى شخصه الرسمى الإهانات من العامريين ومحمد المهدى. نقول إن وجوده يؤثر على مركز سليمان ويجعله فى نظر سكان الأندلس بمثابة مغتصب للعرش. وقد رأى ما حدث عندما ترك المهدى الخليفة هشام حياً فقد اضطر بعدها بشىء يسير إلى تكذيب نفسه. وكانت النتيجة أن قتل المهدى وأعيد هشام إلى الخلافة ثانية، فنحن نميل إلى القول بأن سليمان المستعين قد قتله تخلصا من تأثيره الروحى كخليفة شرعى، أو على الأقل نصدق الشق الثانى من تلك الروايات التى تقول بأنه قد فر من محبسه وقصد مدينة ألمرية أو غيرها حيث عاش فى بؤس وخمول حتى توفى.

* * * * * * *

---

(١) : أبن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١١٧ ـ ١١٩، ص ١٢١ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٢٨ ـ ٢٩، ص ٧٨ ـ ٧٩ .ـ ابن الخطيب: تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٠٦.

(٢) : الكامل فى التاريخ، مجلد ٩، ص ٢٧١.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء ص ١١٧.

وكأنما كتب على هذا الخليفة أن يكون رمزا غامضا فى حياته ومماته أيضاً. فلقد عاش الفترة من عام ٣٦٦هـ، وهو العام الذى تولى فيه الخلافة حتى عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨م وهو العام الذى أجبره فيه عبد الرحمن بن المنصور بتوليته إياه عهده، عاش رمزا يحيطه الغموض وتلفه التخرصات والأقاويل. ومن الطبيعى أن تلفق حولـه وحـول شخصيته المحتجبة قسراً تلك الشائعات. ولم يكن حظه مع بنى عمومته بأحسن حال من العامريين، فقد زادوا وضعه غموضا وتخرصا. ولذا فقد شاعت وذاعت حوله الروايات والأساطير، فمن قائل أنه قتل، ومن قائل أنه فر وتوجه إلى الشرق وعاش فيه مدة من الزمن. ثم عاد إلى الأندلس فأثر فى قلوب الناس، ومن روايات ينسجها نساء وخصيان فى قصر الخلافة عنه، وأنه حى، ومن قائل أنه أخذ يعمل فترة من الزمن فى قرطبة متخفيا. ثم رحل إلى المشرق وحج وعمـل هنـاك ليكسب قوته، ثم عاد إلى الأندلس ودخل مدينة ألمرية فى أيام حاكمها زهير العامرى. وذلك فى عام ٤٢٦ هـ فتخوف منه هذا فطرده، إلى قائل (ان زهيراً ذهب مذهبه فى رجل سقاء شديد الشبه بهشام فسموه زمنا من سنة ٤٢٦هـ، ثم طرده زهـير) إلى قائل آخر بأنه اختفى مدة فى مدينة مالقة وقت خلافة علي بن حمود، ثم فر إلى ألمرية فطرده زهير، فتوجه الى قرية رباح التابعة لابن ذى النون، إلى أن استقدمه القاضى ابن عباد(١).

كل هذه الروايات على الرغم من عدم الاعتداد بها إلا أنها ترمز إلى أهمية الخلافة فى قلوب المعاصرين، رغم أنها ممثلة فى شخص هشام الرجل الضعيف والخليفة المغلوب على أمره. ومع هذا فقد كانت هذه الأقاويل والشائعات مركبا مستباحا تلوكه الألسن وتلهج به القلوب. غير أن من الراجح أن شيئا من هذا لم يحدث، فهل يعقل أن يكون هناك أربعة أشخاص يشبهون هشاما تمام الشبه، وزعم فى حالة كل واحد منهم أنه الخليفة هشام بعينه ثم يتضح أنه ليس هو؟؟ فالمهدى أظهر رجلا يهوديا أو نصرانيا شبيها بهشام تماما، وادعى أنه هو الخليفة، وأنه قد مات ميتة طبيعية(٢)، والفتى الذى كان يخدم عند هشام المؤيد كما تقول رواية ابن الأثير

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٠، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٧٧ - ٧٨، وص ٨٣ وص ٨٩، وص ١٠١، وص ١٠٥.

السابقة أكد لعلي بن حمود أن الرجل الذى نبش قبره هو هشام بعينه وذلك خوفا من على كما يزعم[1]، وزهير العامرى كما تقول رواية ابن الخطيب أظهر رجلا شديد الشبه بهشام فدعى[2] له ثم طرده، وأخيرا القاضى ابن عباد الذى جاء بخلف الحصرى وكان هو الآخر شديد الشبه بهشام. فدعى له بالخلافة وأكد للجميع بأنه الخليفة هشام بعينه.

إننا نرجح بأن هشاما قد قتل على يد، سليمان المستعين، أو أنه قد فر كما تقول الروايات وانتهى دوره تماما. وما زعمه ابن عباد وأظهره فى صورة مسرحية طريفة لا تستحق أن يقف عندها الإنسان طويلا. ولكن ما ينبغي أن نقف عنده طويلا هو عدد من الأسئلة المهمة التى تفرض نفسها فرضا منها: لماذا أظهر القاضى ابن عباد الدعوة للخليفة هشام المؤيد فى ذلك الوقت بالذات؟؟. ولماذا انتظر طيلة تلك الفترة ابتداء من قيام المملكة حتى ذلك العام أى عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م؟؟. وما هى الفائدة التى جناها القاضى من تلك الدعوة؟؟.

ما من شك أن السبب الجوهرى الذى حدا بالقاضى إلى إظهار دعوة الخليفة هشام هو رغبته فى دفع مضايقات يحيى بن علي عنه، وخاصة بعد أن استقر يحيى فى قرمونة القريبة جدا من إشبيلية، وما علله بعض المؤرخين القدامى لأسباب تلك الدعوة كان حقيقة لامراء فيها[3]، وإن كنا نجد رواية لعبد الواحد المراكشي[4]تعلل سبب دعوة ابن عباد تلك. وهى رواية لا يعتد بها، بل إنه يقول

---

(١) : الكامل، مجلد ٩، ص ٢٧١.

(٢) : أعمال الأعلام، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٠، وص ١٩٧ ـ ١٩٨. ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٨ ـ ١٠. ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٥٣ ـ ١٥٤. ـ مجهول: ذيل مضاف إلى البيان المغرب، ص ٣١٥. ـ الضبى: المصدر السابق، ص ٣٦.

(٤) : المصدر السابق، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

بأن الذى أظهر دعوة هشام هو المعتضد وليس والده القاضى محمد بن إسماعيل(١).

ومهما يكن فان يحيى غدا فى ذلك الوقت زعيم البربر، غير منازع، والتقت حوله كلمتهم ضد الأندلسيين خاصة بعدما صفا له الجو بعد أن قبض على عمه القاسم وسجنه واستتب الأمر له هو وأخوه إدريس فى جنوبي الأندلس.

أما لماذا انتظر ابن عباد طيلة تلك الفترة؟ فلربما أن الظرف لم يكن يسمح له، أو أنه لم يخطر له وقتذاك فكرة الدعوة لهشام المؤيد، أو لأن الألسن لم تلهج بهشام وتتناقل شائعاته إلا فى ذلك الوقت أى قبل عام ٤٢٧ هـ. وهو العام الذى أشرنا إلى أن ابن عباد دعى فيه لهشام المؤيد.

أما ما جناه ابن عباد من تلك الدعوة فهو كثير حقا، فبادىء ذى بدء ستحرج هذه الدعوة الحموديين بالذات، وستزعزع شرعية وجودهم كما قلنا، فهم لم يتولوا الخلافة إلا لأنهم أولياء عهد هشام وأولياء دمه أيضا. فإذا ظهر هشام حقيقة فإن مبرر خلافاتهم يكون قد انتهى، وهو نقض لكل دعواهم فى الخلافة، فهى فعلا ضربة ناجحة جدا من القاضى هزت كيان الحموديين. ولسنا نتفق مع خالد الصوفى فيما ذهب إليه عندما أشار إلى أن القاضى ابن عباد عمل (على الدعوة لأحد الأمويين لاضعاف دعوة يحيى بن حمود في الخلافة)(٢). لسنا نتفق معه فقط في عدم دقته عندما لم يفرق بين تبنى دعوة هشام بالذات، وبين تبنى دعوة أحد الأمويين. فتبنى دعوة أحد الأمويين لا يضير الخلافة الحمودية، فلقد تبنى أهل قرطبة من قبل دعوة هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية ولم يضر ذلك الخلافة الحمودية، ولكن ما يهدد كيانها هو ظهور هشام نفسه صاحب الحق الشرعى من

---

(١) : يقول عبد الواحد المراكشى. إن المعتضد خاف من اضطراب الأمور فى إشبيلية، واضطراب أهلها عندما سمعوا بظهور خلفاء أمويين فى قرطبة. فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة، وأنه قد بلغه أن أهل إشبيلية طلبوا من أولاد بنى أمية أن يقيموا أحدهم عندهم فادعى ما ادعاه.

(٢) : تاريخ العرب فى أسبانيا أو جمهورية بنى جهو، ص ٧٠.

جديد الذى بلغ الحموديين إلى ما بلغوا إليه بحجة أنهم ولاة عهده وطالبوا ثأره.
كما أننا بهذه المناسبة أيضا لا نتفق مع خالد الصوفى عندما خمن بأنه (عند موت هشام المزعوم لن يكون له وريث يحل محله، ويكون أحق الناس بذلك حاجبه، فيصبح ابن عباد خليفة مكانه وينقل الخلافة إلى مركزها الأساسى قرطبة)(١).
لا نتفق معه إذ هل انقطع نسل بنى أمية حتى يحل محله ابن عباد؟؟. ذلك من جهة، ومن جهة أخرى ألا يتذكر القاضى درس عبد الرحمن بن المنصور القريب؟؟. نعتقد أن خالد الصوفى لو أنه قد استنتج أن القاضى سيستغل وفاة هشام، ويعلن نفسه أميراً على الأندلس لكان قد حالفه الصواب.

وبعد هذا نحن نتفق مع خالد الصوفى وغيره في أن القاضى كانت تحدوه آمال وأمان دفعته إلى إظهار دعوة هشام وأهمها على الإطلاق تأليب كتلة العرب والصقالبة ضد البربر والحموديين، ودفع مكروه يحيى بالذات، ثم رغبته فى أن يكون صاحب النفوذ العريض فى الأندلس كلها التى توخى أن تستجيب لدعوته، وبالتالى تدفع عنه صفة التسلط والديكتاتورية وتجعله حاجبا للخليفة يأتمر بأمره وينفذ تعاليمه(٢).

موقف رؤساء وأمراء الأندلس من دعوة الخليفة هشام:-

تباينت مواقف رؤساء الأندلس حسب انتماءاتهم العرقية والسياسية من دعوة الخليفة هشام، فمن الطبيعى أن يقبل هذه الدعوة الأمراء العرب والأمراء الصقالبة المجاورون لمملكة إشبيلية. كعبد العزيز ابن أبى عامر صاحب بلنسية، ومجاهد العامرى صاحب دانية، ومقاتل الصقلبى صاحب طرطوشة، ومحمد بن عبد الله البرزالى أمير قرمونة المطرود والمستجير بالقاضى وغيرهم(٣).
أما المعارضون فمن الطبيعى أن يكون أغلبهم من البربر وعلى رأسهم يحيى بن

---

(١) : نفس المرجع: ونفس الصفحة.
(٢) : خالد الصوفى: المرجع السابق، ص ٧٠، - على أدهم: المعتمد ابن عباد، ص ٤٨ - ٥٠ .- صلاح خالص: إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، ص ١٢١ - ١٢٢.
(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٩٠.

علي، ثم حبوس بن ماكسن بن زيرى صاحب غرناطة على عكس ما يراه ابن خميس صاحب مخطوطة أدباء مالقة[1]. أما ما يلفت النظر حقا فهو موقف زهير العامرى الصقلبى المؤيد لفريق البربر الذى يبدو أن معارضته نابعة ربما من عداء وحسد شخصى للقاضى[2].

أما بالنسبة للممالك الأخرى الكبيرة كمملكة سرقسطة وطليطلة وبطليوس فإن المؤرخين القدامى لم يعنوا بإيضاح موقفهم وإن كنا نلمس أن موقف ابن ذى النون صاحب طليطلة كان غامضا فلا ندرى أن كان قد قبلها أم لا؟؟. أما ابن الأفطس صاحب بطليوس فمن الطبيعى أن يعارض هذه الدعوة خاصة وأن العلاقات بينه وبين القاضى كانت سيئة للغاية منذ إلغائه للهدنة وموقفه من غزو بلاد النصارى. أما موقف الرئيس أبي الحزم بن جهور صاحب قرطبة فيحتاج إلى وقفة معه، فعندما ظهرت هذه الدعوة وبدأت مضاعفاتها تتفاعل فى الجزء الجنوبي من الأندلس رأى ابن جهور فيها خطة ماكرة محمكة من القاضى لبسط سيطرته على الأندلس كلها، ولذا فقد أنكرها فى قرارة نفسه، بيد أنه أمام الحماس الشعبى الذى عم الأندلس كلها وقرطبة بصفة خاصة بقبول مسألة ظهور الخليفة هشام من جديد، نظرا لما سبقها من شائعات وأقاويل لاكتها الألسن. رأى أن يقبل هذه الدعوة، وفى نفس الوقت رآها مجدية لموقفه (لما رآه من دفع ابن حمود الفاغر فاه على قرطبة)[3] ولذا فقد قبل هذه الدعوة وجدد البيعة لهشام بقرطبة وكتب خطاب البيعة له، وأرسله إلى الخليفة وحاجبه إسماعيل بن عباد بإشبيلية. بل جرى احتفال رسمى فى جامع قرطبة بمناسبة الدعوة للخليفة الشرعى[4].

---

(١) : صلاح خالص: نفس المرجع، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢١٩، وص ١٩٨ ـ ١٩٩. ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٠.

(٤) : صلاح خالص: إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، ص ١٢٢. ـ خالد الصوفى: المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

غير أن ما حدث بعد ذلك بقليل، أعنى به مقتل الخليفة يحيى بن على فى محرم عام ٤٢٧ هـ/ نوفمبر ١٠٣٥م والذى سنعرض له بعد هذه السطور بقليل، جعل ابن جهور يتحلل من تلك الدعوة ويسب صاحبها ومن دعى له. وسنتبين بعد قليل رد فعل القاضى تجاه ابن جهور وما حدث بعد ذلك من أحداث.

مقتل الخليفة يحيى بن علي الحمودى :ـ

نميل بادىء ذى بدء إلى القول بأن طرد محمد بن عبد الله البرزالى عن قرمونة قد حدث قبل ٤٢٧ هـ، وهو العام الذى دعا فيه القاضى لهشام كما ذكرنا. إذ يشير تسلسل الأحداث إلى أن يحيى بن حمود قد استولى على مدينة قرمونة قبل ذلك العام ربما لكى يكون قريباً من إشبيلية وقرطبة، ففر منها وإليها محمد بن عبد الله البرزالى هذا الى إشبيلية مستجيرا بالقاضى.

ولا نعرف بالضبط متى حدث ذلك؟؟. ولكن عندما أظهر القاضى دعوة هشام فى أواخر عام ٤٢٦ هـ أو فى أوائل محرم ٤٢٧ هـ/ نوفمبر ١٠٣٥م قبل البرزالى دعوته. وكان ذلك شيئاً طبيعياً على عكس ما ذهب إليه صلاح خالص من أن يحيى ابن على استولى على قرمونة بعد اعتراف صاحبها بدعوة هشام[١]. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو ما نقله ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان إذ قالا: (قال حيان بن خلف حكى لى الفتح البرزالى قال لما كان عيد أضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة، وانغمس يحيى فى شربه ولهوه، سرت ومعى أحد من بنى عمي إلى اللحاق بإشبيلية للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبد الله البرزالى، والقاضى ابن عباد، فوصلنا وأنبأناهما من خبر يحيى بن حمود ولهوه، فرأيا أن يوجها إليه بجيش لقتاله، فخرج إسماعيل بن عباد مع أبن عمنا فى المحرم من سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وهما فى بيعة هشام بن الحكم المنصوب عندها بإشبيلية تلك الأيام. فجئنا إلى باب قرمونة بالجيش.. إلخ)[٢].

---

(١) : إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، ص ١٢٣.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٨٦ ـ ١٨٧. ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

وقد تلاحقت الأحداث سراعا، فقد جاء إسماعيل بجيشه مع البرزالى أمير قرمونة المطرود وقتها، واستطاعا بفضل الخدعة العسكرية القديمة الجديدة وهى طريقة الكمائن أن يقتلا يحيى بن على. وحمل رأسه الى القاضى فى إشبيلية، وعاد محمد البرزالى إلى مدينة قرمونة مرة ثانية(١).

تكوين الحلف البربرى الصقلبى ضد القاضى :ـ

وفى شعبان من نفس عام ٤٢٧ هـ تكون حلف بربرى صقلبى بقيادة حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى، وعضوية كل من زهير الصقلبى حاكم ألمرية، ومحمد بن عبد الله البرزالى الذى نقض بيعة هشام بعد استتباب الأمر له فى قرمونة. وشن هذا الحلف سلسلة من الغارات والحملات غير المجدية على أراضى القاضى، وقد اعترف هؤلاء الرؤساء بخلافة إدريس بن على بن حمود شقيق يحيى الذى خلفه فى تولى الخلافة فى قاعدته مالقة(٢). على أن هذا الحلف لم يترك كبير أثر على مملكة إشبيلية كما ذكرنا.

نقض ابن جهور دعوة هشام المؤيد :ـ

أشرنا إلى أن ابن جهور تحلل من بيعة هشام المزعوم بعد أن أزاح مقتل يحيى عن كاهله حملا ثقيلا. وبعد أن جاءت شهادات الشهود الذين ذهبوا من قرطبة للتثبت من هشام المزعوم تؤكد على أن ذلك المنصوب بإشبيلية هو رجل دعى، وليس هو المؤيد هشاما على الإطلاق، ولذلك فقد تبرأ منه ومن بيعته.

وعندما بعث إسماعيل بن عباد حاجب الخليفة هشام المزعوم برسله إلى ابن جهور يدعوه إلى طاعته على أن يبقيه على ما هو عليه من حكم قرطبة، استغل ابن جهور

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .ـ رجب عبد الحليم: الرسالة السابقة، ص ١٠٩ ـ ١١٥ .

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٩٠ .

ذلك فأعلن تبرأه من ذلك الرجل وسبه وسب من دعى له[1]. ومن الطبيعى أن يكون رد فعل القاضى عنيفا، إذ كان يهمه قبل أى شىء آخر قبول قرطبة عاصمة الخلافة القديمة والمركز الروحى الذى تهفو إليه القلوب تلك الدعوة. ولذا فقد جهـز جيشـا بقيادة ابنه إسماعيل ومعه هشام المزعوم ليدخل به قرطبة، وضرب إسماعيل حصاره حول المدينة وضايقها مضايقة شديدة. وقد حرك هذا الأمر شعور باديس بن حبوس الصنهاجى الذى تولى حكم غرناطة مكان أبيه حبوس، فأرسل جيشا ضخما قابل به إسماعيل. وكان جيش إسماعيل يحوى عددا كبيرا من البربر الـذين سرعـان ما ظهـر تضـامنهم مع بنى عصبتهم. وقـد فت ذلك فى عضد إسماعيل، ولم يبق معه إلا عدد يسير من عبيده وفتيانه، ووقع السيف فى صفوف جيشه وانتهت الموقعة بمقتل إسماعيل بن عباد بعد أن كبا به فرسه داخل هوة، وحمل رأسه إلى باديس بن حبوس. وقد وقع هذا الخبر من القاضى موقع الصاعقة، فولى ابنه الثانى أبا عمرو عباد حجابة باب الخليفة هشام[2].

وهناك رواية أخرى لعبد الواحد المراكشى فيما يتعلق بمقتل إسماعيل تنص على أن مقتله كان نتيجة لتحالف زعماء البربر عليه، وهم محمد بن عبد الله البرزالى، وباديس بن حبوس، وإدريس بن على بن حمود. وذلك بعد أن هاجم إسماعيل أراضى البرزالى[3]. لكن يبدو أن الرواية الأولى أصح وأصوب.

وفاة القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل :ـ

وفى عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٢م[4] توفى القاضى محمد بن إسماعيل بعد أن وضع

---

(١) : ابن عذارى: المصـدر السابق والجزء، ص ١٩٨ ـ ١٩٩، وص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول ـ ص ١٠ .ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٤٣.

(٢) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٠١ ٢٠٢.

(٣) : المصدر السابق، ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ مجهول: ذيل مضاف إلى البيان المغرب، ص ٢١٦ . ـ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٨. ـ ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٣٧.

لبنـات بناء الدولة. وكان بحق مؤسس المملكة العبادية وبانى مجدها السياسى والعسكرى والأدبى أيضا. وإذا كانت الظروف السياسية لم تسعفه بالالتفات إلى بناء الدولة الحضارى، فقد تولى ابنه المعتضد وحفيده المعتمد فعل ذلك، وقد ترك القـاضى من بعـده دولـة راسخة الاستقلال قوية البنيان لا ينقصها إلا المسحة الحضارية، وهو ما وفره لها خلفاؤه بعد ذلك كما ذكرنا.

= والغريب أن ابن عذارى ناقض نفسه، فهو يقول فى ص ٢٠٣ إن القاضى توفى عام ٤٣١ هـ، بينما يقول فى ص ٢٠٤ أنه توفى عام ٤٣٣هـ. أما صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب فيقول إنه توفى عام ٤٣١ هـ أيضاً. غير أن ابن الأبار وابن عذارى نفسه وابن خلدون يتفقون على أنه توفى عام ٤٣٣ هـ.

الباب الثانى

الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله

- تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه.
- الموقف السياسى غداة تولى المعتضد السلطة.
- التوسع العسكرى على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة.
- انشقاق إسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه.
- توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموى المزعوم.
- التوسع العسكرى على حساب إمارات البربر فى الجنوب.
- نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى عهد المعتضد بالله.
- حياة المعتضد الخاصة ووفاته.

تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه

توفى القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٢م كما ذكرنا سابقا، فخلفه ابنه عباد الذى تولى حجابة باب الخليفة هشام المزعوم بعد مقتل أخيه إسماعيل فى عهد أبيه. وقد بدأت ولايته منذ اليوم الذى توفى فيه أبوه فى نهاية جمادى الأولى من نفس العام الذى ذكرناه. وكان سنه لما تولى الحكم لا يتجاوز السادسة والعشرين بعد. وقد تلقب فى بادىء الأمر بفخر الدولة ثم تلقب بالمعتضد بالله.

ولقد دمغت شخصيته بكثير من الأوصاف والنعوت. ولم يحظ ملك من ملوك الطوائف بمثل ما حظى به المعتضد من انتقادات المؤرخين، وإشاداتهم وثنائهم عليه فى نفس الوقت، فمعظم هؤلاء المؤرخين كالوا للمعتضد من مر الذم والنقد مثلما كالوا له من حلو الإشادة والثناء. فهم من جهة يستفظعون قسوته وشدته وجبروته حتى لنكاد نشكك فى إنسانيته، وهم من جهة أخرى يشيدون به ويثنون عليه لدرجة الإعجاب به. فيصفه ابن حيان فيما نقل عنه[1] (شهاب الفتنة صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة، والوقائع المبيرة)، ويذم سياسته فيقول(وجاء منها عبولات تذعر من سمع بها، فضلا عمن عاينها).

على أن ابن حيان بإحساس المؤرخ الموضوعى النزيه لا ينساق فى تصديق ما أشيع عن المعتضد. إذ يبدى شكه فى ذلك مالم يقم عليه الدليل، ثم يشخص الحالة بدقة، فيقول عنه فيما ينقله ابن الأبار فلقد(حمل عنه على مر الأيام فى باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والإبلاغ فى المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة حكايات شنيعة لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها. فالقول ينشاع فى ذكرها،

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٦.

ومهما برىء من مغبتها، فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلته لم يحاش فيهن ذوى رحم، ولا غلبهن بحيلة[1]).

والحجارى صاحب كتاب المسهب كما ينقل عنه صاحب كتاب فوات الوفيات[2] يقول (وهذا الرؤوف العطوف الدمث الأخلاق الألوف، ما مات حتى قبض أرواح ندمائه وخواصه بيده ولم يكلهم إلى غيره ولم يحوجهم إلى أحد بعده. فجزى عنهم بما هو أهله. وقد عرف منه ذلك واشتهر. فصار الأدباء يتحاشونه. ومن شنيع ما روى عنه أن غلاما دون البلوغ دخل عليه من غير استئذان، فقطع رأسه. فسمع جارية تقول: والله القبر أحسن من سكنى هذا القصر فقال: والله لأبلغنك ما طلبته. فأمر بها فدفنت حية).

وابن اللبانة المذكور سابقا وشاعر ابنه المعتمد فيما بعد يقول عنه فيما ينقله المقرى: (ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى أن تصان عنه الأسماع ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع[3].).

---

(1) : الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤١.

(٢) : ابن شاكر الكتبى، ج ٢، ترجمة رقم ١٧٤ (كما ينقل عن الحجارى). والحجارى هو: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحجارى. وهو أديب أندلسى عاش فى القرن السادس الهجرى، ووفد فى عام ٥٣٠ هـ على عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد القريبة من غرناطة والتى كان يليها من قبل المرابطين. فأكرمه وقربه. ثم صنف له كتاب (المسهب فى غرائب المغرب). وقد أعجب ابن سعيد بهذا الكتاب كثيرا، ثم عن له أن يضيف للكتاب ما أغفله الحجارى، وأن يحذف ويختصر مالم يوافق غرضه. وكان هذا الخاطر هو بداية ذلك الجهد الرائع الذى بذله أبناء ابن سعيد الذين تناولوا تصنيف المسهب بالإضافة والزيادة وراثة على مدى ١٥٠ عاما. وجاء آخر هؤلاء: وهو على بن موسى بن سعيد فوضع الشكل النهائى لذلك الكتاب بعنوان المغرب فى حلى المغرب. وهو على ثلاثة أقسام، يتعلق القسم الأول منه بمصر والثانى بالمغرب والثالث بالأندلس. وهذا القسم الأخير هو المعروف بكتاب وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس. وللإطلاع على معلومات وافرة عن هذا الكتاب ومؤلفيه انظر:

المغرب فى حلى المغرب (وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس)، ج ١، ص ١ - ٩.

(٣) : المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

أما ابن بسام فقد ذم المعتضد بقسوة بالغة عندما قال (قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة من رجل لم يثبت له من قائم ولا حصيد، ولا سلم له قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر وهو متناقض، وأسد فرس الطلى[1] وهو رابض، مشهور تتحاماه الدهاة ولا تأمنه الكماة. متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى، ثار والناس حرب وكل شيء عليه ألب فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده وعدده. افتتح أمره بمقتل وزير أبيه حبيب طعنةً فى ثغر الأيام ملك بها كفه، وجبار من جبابرة الأنام شرد بها من خلفه، فاستمر يفرى ويخلق[2]، له فى كل ناحية ميدان وعلى كل رابية خوان[3]، حربه سم لا يبطىء وسهم لا يخطىء، سلمه شر غير مأمون ومتاع إلى أدنى حين)[4].

أما الحادثة التى استفظعها المؤرخون كثيرا ـ وحق لهم ذلك ـ فهى حادثة حديقة الرؤوس، فقد وضع على باب قصره (حديقة لا تثمر إلا رؤوسا ولا تنبت إلا رئيسا ومرؤوسا، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفى التلفت إليها استعمل جلّ بكره وروحاته)[5].

وإضافة إلى هذا الولع الغريب فقد كان يحتفظ بخزانة أودع جوفها فى قصره رؤوس أعدائه المناوئين له الذين استطاع قتلهم فى صراعه معهم. وهم محمد بن عبد الله البرزالى، وابن خزرون، وابن نوح، وابن أبى قرة وغيرهم. ـ وسوف نعرض لظروف مقتل هؤلاء بالتفصيل بعد إن شاء الله. وقد أضاف هذه الرؤوس

---

(١) : الطّلى : الأعناق. ومفردها الطّل بالضم العنق.
انظر، الفيروزابادى: القاموس المحيط، أربعة أجزاء، ج ٤. ص ٨.

(٢) : (هذا مثل معناه ينفذ ما يعزم عليه، وهو من قول زهير بن أبى سلمى:
ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفرى)
انظر، ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ج ٢، ص ١٥.

(٣) : خوان (ككتاب ما يؤكل عليه الطعام).
انظر، الفيروزابادى: القاموس المحيط، ج ٤، ص ٢٢٢.

(٤) : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٥.

(٥) : المقرى: المصدر السابق، المجلد ٥، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

الى رأس الخليفة يحيى بن على الذى قتل فى عهد أبيه القاضى . فقد استشعر لذة عظيمة عندما جمع رؤوس هؤلاء وأودعها تلك الخزانة فى قصره (فخص رؤوسهم بالصون وبالغ فى تطييبها وتنظيفها للثواء لا للكرامة ، وأودعها المعادن الحافظة لها . فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتبارا)[1] .

وكـان إذا ما أعـوزتـه القسوة والبطش يستعين بالحيلة والخداع فى تنفيذ مآربه وأهدافه، وقد أورد عبد الواحد المراكشى قصتين تدلان على شديد دهائه وذكائه[2] .

وإذا كانت القصة الأولى ليست جديدة فى عالم التصفية والاغتيال[3] . فإن القصة الاخرى تمت على صورة تحوى الجدة والطرافة معا . فلقد أراد أن يبعث برسالة مهمة جدا لأحد جواسيسه فى مدينة قرمونة . ولما كان يخاف أن تقع فى يد أعدائه ، رأى أن يبعثها مع رجل بدوى من بادية إشبيلية . فدس الرسالة داخل ثوب وخاط عليها ، ثم كسى البدوى وأمره أن يذهب إلى قرمونة وزوده بكومة من الحطب، أكد عليه أن يبيعها لمن يشتريها منه بخمسة دراهم فقط . وكان قد نسق ذلك مع تابع له فى قرمونة ، وعندما جاء البدوى إلى قرمونة ليبيع حطبه ، جاءه عين ابن عباد فاشـترى منه حزمة الحطب بنفس المبلغ المتفق عليه ، ثم أخذ البدوى إلى منزله وهناك أشار عليه بخلع ثيابه للتهيؤ للنوم ، وعندما حصل عنده الثوب أخرج رسالة ابن عبـاد ووضـع مكانها رده عليه بنفس الطريقة السابقة . وعند الصباح غادر البدوى قرمونة متجها إلى إشبيلية . وقصد المعتضد من فوره وأبلغه ما حدث . فأمره

---

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) : المصدر السابق، ص ١٥٣ ، وص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

(٣) : هذه القصة تدور حول رجل من أهل إشبيلية فرّ إلى مكة المكرمة بعدما صادر المعتضد أمـوالـه . وظـل هنـاك يدعو عليه . وحين بلغه ذلك أرسل له مع رجل أراد الحج نقودا مسمومه . وبالرغم من أن الرجل توجس خيفة من ذلك فقد تسلم النقود . وما لبث أن سرى السم فى جسمه فمات . وتخلص من مناوىء آخر له كذلك بنفس الطريقة ، فعمل على قتله حتى تمكن من ذلك وحمل رأسه إليه من مكان منفاه .
انظر، المعجب، ص ١٥٣ .

بخلع ثيابه فأخرج منها الكتاب وعلم ما فيه، ثم خلع على البدوى ثيابا حسنة وصرفه بعد أن أوهمه بأن ذلك الخلع هو تكريما له. ويعلق عبد الواحد المراكشى على ذلك بقوله: (وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه، ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء.)[1].

على أنه حظى بكثير من الإشادة والثناء والإعجاب، فينقل ابن بسام عن ابن حيان وصفه له بالشهم صاحب الهمم العلية والسطوة الأبية[2]. وفى موضع آخر يشيد ابن حيان بسياسته فيقول فيما ينقله عنه ابن بسام أيضا[3] (واتخذ الرجال الذادة تنقاهم من كل فرقة، فساس طبقاتهم ما بين إدرار الأعطية وضمان الزيادة على صدق الصّيال. والوفاء بالوعيد على النكول عن العدو. سياسة أعيت على أنداده من أملاك الأندلس، فخرج منها رجالا مساعير حروب أباد بهم أقتاله[4].)

ويعود ابن حيان فيما ينقله ابن بسام فيشيد بسياسته ويقول: [5] (ومن نادر أخباره المتناهية فى الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك الأمم العاتية وإنه لغائب عن مشاهدتها مترفه عن مكابدتها مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين، ثم لزم عرّيسته[6]، يدبر داخلها أموره، جرّد نهاره للإبرام والتدبير وأخلص ليله لتملى السرور، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ويحيا عليها بقبض الأرواح التى لأنابيبها[7] من أعدائه).

---

(١) : نفس المصدر، ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

(٢) : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٦.

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد، ص ١٧.

(٤) : أقتاله، جمع قتل بالكسر. وهو العدو المقاتل.
انظر، الفيروزابادى: القاموس المحيط، ج ٤، ص ٣٦.

(٥) : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٧.

(٦) : (العريسة: مأوى الأسد).
انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ج ٤، ص ١٧.

(٧) : هكذا وردت فى الذخيرة غير أن الأصح هو ما نقله ابن عذارى فى كتابه المذكور سابقاً ج ٣، ص ٢٠٥: وهى كالآتى: «ويحيا عليها بقبض الأرواح التى لا تناسيه «كذا!!» من اعدائه.

وينقل ابن بسام عن ابن حيان أيضاً مزيدا من إعجابه به فيصفه بسباطة البنان أو البنيان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر(١). ولا يمل ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسـام كذلك من الإشادة والاعجاب بالمعتضد إذ يعود فيقول (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحـاب)(٢).

وابن بسام على تحامله عليه لا ينكر عليه دهاءه وذكاءه فيقول عنه (ثار والناس حرب وكل شىء عليه ألب فكفى أقرانه وهم غير واحد وضبط شأنهم بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده، وكثر عديده وعدده)(٣).

وينقـل ابن عذارى عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان(٤) ما يتضمن

---

(١) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد، ص ١٩.

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ١٥.

(٣) : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة.

(٤) : ابن القطان: هو أبو على أو أبو محمد كما فى بعض الروايات الحسن أو الحسين بن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى. ويعتبر أبوه من أكبر دعاة الموحدين وأبرز رجال دولتهم. وقـد اتصل ابن القطان الابن ببلاط الخليفة الموحدى المرتضى وعاش في كنفه وألف له كتاب نظم الجمان الذى يعتبر من أهم المراجع التاريخية للمغرب والأندلس وإن كان يعتبر تاريخا بلاطيا توجه فيه كثيراً إلى الإشادة بالدولة الموحدية بالمغرب والأندلس. وعنـوان هذا الكتاب بالكامل على الأرجح هو: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان على اختلاف فى الشطر الثانى من العنوان. وهذا الكتاب موسوعة ضخمة فى تاريخ المغرب والأندلس وقد استفاد منه كثير من مؤرخى المغرب والأندلس كابن عذارى وابن الخـطيب وغيرهما. فقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب كما يظن، المغرب من الفتح حتى عصره أى فى أواخر أيام الدولة الموحدية فى الثلث الأخير من القرن السابع الهجرى. وقد نشر ليفى بروفنسال جزءا من هذا الكتاب وهى ست قطع منه فى مقاله (ست قطع مخطوطة من تاريخ مجهول لظهور الدولة الموحدية.) كما نشرت منه أجزاء ضمن نقول ابن عذارى عنه فى كتابه البيان المغرب. ثم عكف محمود على مكى على تحقيق الجزء السادس من هذه الموسوعة الضخمة التى تمكن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد من الحصول عليها. وقد نشر هذا الجـزء بتحقيقـه وتـولت نشره كلية الآداب والعلوم الإنسـانية، جامعـة محمـد الخامس، الرباط. للاطلاع على مزيد من المعلومات الوافرة عن الكتاب ومؤلفه انظر: ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق محمود على مكى، المقدمة وبقية الكتاب.

الإشـادة به والثنـاء عليه[1]. وكذلك فعل الحميدى[2]، وعلى نفس النهج سار الضبى[3]. ومدحه أيضا الفتح ابن خاقان بأسلوبه المتكلف المسجوع[4].

وأخيرا نقول مع عبد الواحد المراكشى (وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصراحة وشجاعة قلب وجدة نفس. وكانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس، وكان قد استوى فى مخافته ومهابته القريب والبعيد.[5]).

ويتراءى لنا بعد هذا كله أن قسوة المعتضد وشدته وطباعه السيئة التي وصفه بها المؤرخون لم تكن تنم عن طبع وسجية غريزية بقدر ما هى طباع مقصودة ومصطنعة ألزم بها نفسه وأخذها على فعل ذلك حتى يصل إلى غاياته وأهدافه. فالإنسان يميل طبعا وسجية إلى الخير، ولكنه قد يجنح إلى الشر لإرضاء نزوات أو تحقيق أهداف شخصية. ويبدو أن هذا هو بعض واقع المعتضد بالله. وبالإضافة إلى هذا يجب ألا ننسى مدى تأثـير روح العصر وبخاصة فى عصر ملوك الطوائف الذى تفككت فيه وحدة الأندلس وتعدّد فيه الملوك الذين كانوا يتنافسون ويتبارون فى توسيع رقعة ممالكهم على حساب الممالك المجاورة. فروح العصر في حقل السياسة آنذاك كانت نادرا ما تلتزم بخلق أو مبادىء.

ولقد قضى المعتضد الفترة من توليه الحكم حتى وفاته وهو فى صراعات سياسية وعسكرية ونفسية مضطربة. وكان بحق مالىء دنيا الأندلس وشاغل الناس، فضلا عن الحكام. فمعظم أحداث الأندلس الإسلامية ارتبطت بشخصه قليلا أو كثيرا باعتبار أن مملكته أقوى ممالك الطوائف فى ذلك الوقت وأبرزها وأفسحها مساحة وثراء. ولذا فقد غدا المعتضد هاجسا مخيفا مرعبا لأمراء الأندلس حتى لمن كان يدانيه همة وشجاعة وإقداما وحكمة.

---

(١) : المصدر السابق والجزء، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٢) : المصدر السابق، ص ٢٩٦.

(٣) : بغية الملتمس، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٤) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس، ص ١١.

(٥) : المصدر السابق، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

الموقف السياسي غداة تولي المعتضد السلطة

لم يكن هناك تغير كبير فى الموقف السياسى لممالك الطوائف غداة تولى المعتضد السلطة. فالقوى السياسية التى كانت موجودة فى عهد والده القاضى لم تتغير كثيرا. فمملكة قرطبة وبطليوس وسرقسطة وطليطلة وغرناطة وألمرية ومرسية وبلنسية ودانية والإمارات الأخرى الصغيرة، كانت كلها لا تزال تحت سيطرة من استبد بها إبان الفتنة أو من خلفهم من المنتزين. أو كانت تقع تحت يدى أبنائهم الذين تولوا السلطة فى عهد القاضي محمد بن إسماعيل.

والتغير الوحيد فى ميزان القوى هو ما صار إليه أمر الحموديين، فعندما قتل يحيى ابن على عام ٤٢٧ هـ كما ذكرنا خلفه أخوه إدريس بن على بن حمود. واستمر يحكم دولة الحموديين فى مالقة والجزيرة الخضراء، وبايعه البربر فى ذلك الوقت حتى توفى عام ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠م.

وبوفاة إدريس بن علي نشب الانشقاق والصراع العائلى بين الحموديين. وفقدت دولتهم فى مالقة والجزيرة الخضراء وما حولها وحدتها السياسية. واستمر النزاع بين أبناء إدريس ويحيى ابني على بن حمود طويلا. وتقلب على عرش الخلافة فى مالقة غير واحد منهم. والغريب فى الأمر أن كل واحد من أبناء العم هؤلاء ما إن كان يخلع حتى ينتقل إلى موضع آخر من أحواز مالقة ويدعو لنفسه به[1]. أما الجزيرة الخضراء فقد وقعت بعد خطوب كثيرة تحت سلطة محمد بن القاسم بن حمود الذى دعا لنفسه هناك وتلقب بالمعتصم[2]. وعندما تولى المعتضد السلطة كانت هيبة الخلافة (الحمودية) ووقارها قد مرغت فى التراب، فكان الوضع أشبه بالفضيحة

---

(١) :عن بنى حمود فى مالقة انظر قبل، التمهيد، ص ٦٨.

(٢) :عن هذا الانشقاق العائلى انظر:

رجب عبد الحليم: الرسالة السابقة، ص ٧٧ ـ ١٠٠.

كما يقول ابن حزم منه بنظام حكم شرعي . ويصف ابن حزم الامر فيقول (فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين، ويخطب لهم بها فى زمن واحد وهم : خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم، ومحمد ابن القاسم بن حمود بالجزيرة، ومحمد ابن إدريس بن على بن حمود بمالقة ،وإدريس بن يحيى بن على بن حمود ببشتر[(١)]) .

وفى عام **٤٣٥** هـ/ **١٠٤٤**م انقسمت الأندلس إلى معسكرين، معسكر ينادى بهشام المزعوم باشبيلية، ويضم العرب وبعضا من البربر كإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى وأبى نور بن أبى قرة صاحب رنده وتاكرنا . ومعسكر يضم البربر بزعامة باديس بن حبوس. وينادى بمحمد بن القاسم بن حمود على الأرجح . وكان كل معسكر من هذين المعسكرين يناصب الآخر العداء والبغضاء. وبعد ذلك التاريخ بعام أى عام **٤٣٦** هـ اعترف المأمون بن ذى النون بدعوة هشام بعد أن استنكرها أبوه نكاية بسليمان بن هود صاحب سرقسطة مقابل مساعدة المعتضد له[(٢)].

****

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى فى أسبانيا النصرانية فى الشمال، فلم يكن أحسن حالاً من الممالك الإسلامية. فكما مر بنا سابقا استطاع سانشو غارسيا الثالث الملقب بالكبير والعظيم الذى حكم من عام **١٠٠٠** حتى عام **١٠٣٥**م أن يوحد ممالك النصارى تحت إمرته. ولم يك خارجا عن هذه المملكة التى تضم نبرة وأرغونة وقشتاله وليون وجليقية سوى إمارة قطالونية (برشلونة) فى الشمال الشرقى من أسبانيا فقط.

على أنه ما إن طواه الموت حتى نشبت الخلافات بين أبنائه الأربعة، وطحنت الخلافات العائلية ممالك النصارى ومزقت وحدتها. وذلك لأن سانشو العظيم هذا فرق مملكته على أولاده الأربعة، فعهد إلى ابنه الأكبر فرناندو الأول، فريناند Fer-nandi أو فرذلند كما يعرف فى المصادر الإسلامية ايضا حكم قشتالة . واستطاع هو

---

(١) : نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ـ فصلة من مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، المجلد الثالث عشر، الجزء الثانى، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، . ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

فى عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧م أن يستولى على مملكة جليقية وليون بعد مقتل برمودو الثالث آخر ملوك القوط من نسل بلاجيوس وبتروس. وأعطى ابنه الثانى غارسيا Garcia نبره. وأعـطى ابنـه الثالث راميرو الأول Ramiro 1 أرغونة .وأعطى ابنه الرابع جنزالو أو كنزالو ولاية سوبرابى وريا جرسيا فى أواسط جبال البرتات.

وقد وقع الخلاف والشقاق بين الإخوة. واستمر حتى استطاع فرناندو السيطرة على ممالك إخوته. على أنه تنازل بعد ذلك عن مملكتى نبره وأرغونة لابني أخويه غارسيا وراميرو، وعادت إلى أسبانيا النصرانية فى عهده بعض وحدتها(١).

على أن المهم هنا هو أنه فى غداة تولى المعتضد السلطة كانت الشخصية القوية المؤثرة فى ممالك النصارى هو فرديناند الأول ملك قشتالة وجليقية وليون وغيرها. فهـو الـذى خاض مع المسلمـين بدءا من العـام الذى انتهى فيه بسحق الفتن الداخلية حرب الاسترداد الأسبانية المنظمة.

(١) :عن هذه الأحداث السياسية فى الممالك النصرانية انظر:

-J.B.B U R Y, M.A.,ÒP. Cit., P394-395

-Jan Read. The Moors in Spain and Portuqal, Londan, 1974. P 101-102.

- محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٣٧٦ - ٣٨٢.

- ابن الكردبوس: الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، ص ٦٩ - ٧١ الحواشى.

التوسع العسكرى على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة

لم يهنأ المعتضد براحة بال منذ ساقت إليه الأقدار الحكم بعد وفاة أبيه القاضى، ففضلا عن الموقف السياسى فى الأندلس كلها فإن ما يتميز به من حدة نفس وجرأة وشجاعة وإقدام، أضافة إلى شرخ صبا متأجج جعله لا يرضى أن يستبد بالأمور فى دولته وزير أبيه حبيب المذكور سابقا[1]. ومملكة بنى عباد من ممالك الطوائف القلائل التى لم يتمتع بها وزير أو حاجب بسلطان حقيقى وصيت ومجد ذائعين. فكان بنو عباد يستبدون بالأمر وحدهم، وكان وزراؤهم وزراء تنفيذ وليسوا وزراء تفويض[2] كما حدث فى بعض الممالك الأخرى. وسنفتقد من الآن فطالعا أى ذكر لوزير من وزرائه، وكلما يمر بنا اسم وزير من الوزراء فى عهدي المعتضد وابنه المعتمد فهو لا يزيد عن كونه مستشارا فى البلاط العبادى أو شخصا يعهد إليه فقط بمهام محدودة.

تخلص المعتضد من وزيره حبيب، ثم تخلص من آخر نفوذ لزميلي أبيه فى المجلس الرئاسى. فاضطهدهما وصادر أموالهما وتفرغ لتحقيق مشروعه الضخم. وكان فى الحقيقة مشروعا ضخما يتوجب السير إليه بحذر شديد، فالأندلس كانت تتنازعها كما ذكرنا دائما ثلاث قوى رئيسية هى العرب والبربر ثم الصقالبة. وكل قوة من هذه القوى كانت تناصب الأخرى العداء. وقد تملي الضرورة على مملكة أن تتحالف مع مملكة أخرى ضد مملكة ثالثة حتى وإن كانت من غير عصبتها العنصرية. وكان الباعث إلى ذلك كله هو المصلحة الشخصية فى المقام الأول، والمعتضد كان يشعر بأن مملكته لا تحظى بالحب والمودة من ممالك الطوائف الأخرى. فالكل كان يخشى

---

(١) : انظر قبل الباب الأول، ص ٩٥.

(٢) : انظر بعد الباب الخامس، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥.

من مملكة بنى عباد ومن خطورة رفعها شعار الدعوة للدخول فى طاعة الخليفة هشام المزعوم، حتى ولو كان ذلك اسميا. غير أن المعتضد ما كان بالذى يقنع بالسلطة الاسمية أبدا، فرأى أن يوجه اهتمامه للممالك العربية الصغيرة الواقعة إلى الغرب من إشبيلية وأن يكون توسيع مملكته على حسابها هى السياسة التى يتعين عليه اتباعها الآن وقبل أى شىء آخر، حتى إذا ما تم ذلك وشعر بالقوة والثبات، وجه همه إلى الإمارات البربرية الأخرى ليصفى معها الحساب.

ولسنا نزعم هنا أن المعتضد قد وضع لنفسه خطة دقيقة مرتبة منظمة للقضاء على الممالك العربية بالغرب، وإنما نقول بإنه قد وضع تصورا واضحا لنفسه فى وجوب القضاء عليها. وسنرى أن الصدف الحسنة كثيرا ما كانت تقف بجانبه.

الاستيلاء على إمارة مردلة:

من هذه الإمارات الصغيرة التى التهمها المعتضد إمارة مردلة وسبق لنا أن رأينا أمير مردلة يمد يد العون والمساعدة لابن الأفطس فى حربه ضد القاضى وابنه إسماعيل عندما أرادا الاستيلاء على مدينة باجة، وكيف أن القاضى استطاع القبض على ابن الأفطس وحليفه شقيق أمير مردلة الذى قتل فيما بعد. على أن المعتضد لم يكن بحاجة إلى التذرع بسبب ما لمهاجمة أى مملكة أو إمارة، ولذا فقد وجه جيوشه إلى مهاجمة هذه الإمارة وانتزاعها من يد صاحبها. وقد تم له ذلك فعلا عام ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٥م[١].

النزاع بين المعتضد وابن الأفطس واستيلاء المعتضد على إمارة لبلة:

نشب النزاع بين ملكي إشبيلية وبطليوس القويين حول قضية أمير لبلة. وإمارة لبلة Niebla تقع إلى الشمال من كورة اكشونبه Ocsonoba وتسمى لبلة الحمراء، وتقع أيضا إلى الغرب من إشبيلية على بعد خمسين كيلو متراً على الضفة الغربية للنهر الاحمر Riotinlo .[٢] وقد آثرنا الحديث عنها هنا لارتباطها بالأحداث التى جرت فى هذا الوقت. وقد ثار بها فى إبان الفتنة أبو العباس أحمد بن يحيى اليحصبى ثم

---

(١) : ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٥، ص ١٨٠.

الليلى فى سنة أربع عشر وأربعمائة، وبايعه أهل تلك المنطقة. وعندما توفى خلفه فى الحكم على الأرجح أخوه أبو عبد الله عز الدولة محمد بن يحيى اليحصبى عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٢م وان كانت هناك رواية أخرى تقول إنه ابنه وليس أخاه. وقد سما للمعتضد أمل فى التغلب على لبلة، وبدأ يستعد لمهاجمتها، فسارع ابن يحيى إلى طلب معاونة المظفر بن الأفطس[١]. ويبدو أن ذلك قد حدث عام ٤٣٧ هـ/ ١٠٤٧م. أو بعدها بقليل، إذ توفى المنصور بن الأفطس مؤسس دولة بنى الأفطس فى ذلك العام، وخلفه ابنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة وتلقب بالمظفر[٢]. وقد لبى المظفر طلب يحيى، غير أن المعتضد هاجم على عجل أراضى ابن الأفطس نفسه فى حركة مباغتة لشغل باله عن حليفه. فضرب أراضيه وأضر بها وأوقع بها خسائر فادحة، ولم تجد نداءات الرئيس أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد الذى خلف أباه فى عام ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٤م[٣] لم تجد فتيلا نداءاته بضبط النفس مع المتحاربين[٤]. ثم هاجم المعتضد مدينة لبلة بنفسه، واشتبك مع جيش ابن الأفطس. وكانت الغلبة له عليه، غير أنه هزم منه بعد ذلك فى اشتباك آخر. ولم تسفر تلك الاشتباكات عن شيء ذى قيمة[٥].

وفى عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٨م تكون حلف من أمراء البربر: باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى الذى خلف أباه الحاجب عام ٤٣٤ هـ/١٠٤٣م. - وسنتناول إمارة قرمونة بالحديث بعد إن شاء الله - ،ومن محمد بن نوح الدمرى صاحب إمارة مورور، وعبدون بن خزرون صاحب إمارة أركش - وسنعرض لهما بعد أيضاً - وبايع هؤلاء لمحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .- ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ٢٣ - ٢٤ .- مجهول: ذيل مضاف الى البيان المغرب، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) : ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) : خالد الصوفى: المرجع السابق، ص ٧٢.

(٤) : ابن بسام المصدر السابق، القسم الثانى المجلد الأول، ص ٢٣ - ٢٤.

(٥) : نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ٢٤ - ٢٥.

الخضراء الـذى تلقب بالمهـدى، وانضم إليهم المـظفر بن الأفطس. وكان هذا الحلف موجهاً فى المقام الأول ضد المعتضد بصفة خاصة. ويذكر بن عذارى أن هؤلاء جاءوا إلى أراضى إشبيلية، فعاثوا فى (نظر إشبيلية، وانقطعت السبل جملة، وكثر القتل والهرج والسلب، وأمسى الناس فى مثل عصر الجاهلية)، ثم يضيف قائلا (ثم انصرفوا مع خليفتهم، ولم يقض الله لهم أرباً، فلم يكن بعد ذلك إجتماع ولا إتفاق)[١].

وفجأة حصل تحول في موقف ابن يحيى أمير لبلة، وتأكد ما سبق أن رددناه دائماً من أن ملوك الـطوائف لم يكن يحكم تحالفـاتهم وعداواتهم إلا المصلحة الخاصة فقط. وقد يكون هذا هو منطق الحياة، ولكن ليس على حساب المبادىء بداهة ولكننا نستطيع تفهم موقف ابن يحيى عندما رجع عن تحالفه مع ابن الأفطس، إذ رأى مصلحته الخاصة تقتضى أن يتحالف مع المعتضد، يقول ابن عذارى عنه (ثم والى ابن يحيى المعتضد بعد ذلك لضرورة دعته)[٢]، ولا نحتاج إلى كبير جهد لمعرفة هذه الضرورة. فالمعتضـد الـداهية كان إذا ما أعوزته القوة والبطش كما ذكرنا، استعـان بالمكـر والخـداع والدهاء، فأقنع ابن يحيى بخطورة وضعه مع البربر. ويكفى أن يحذره من مغبة انتصار البربر حتى يجعله يترك حليفه ابن الأفطس وبقية حلفائه البربر.

وهذا ما حدث بالضبط، وبدهى أن يكون رد فعل المظفر بن الأفطس عنيفا لهذا التنكر والتقلب. فكان أن وضع يده بادىء ذى بدء على ما كان قد تركه عنده ابن يحيى من أموال. ولا نعرف متى تم ذلك التحول بالضبط، غير أن المناوشات بين العـدوين اللدودين: المعتضد والمظفر كانت تدور رحاها بينهما آنذاك. فقد اشتد ضغط المعتضـد عليه عام ٤٤٢ هـ/ ١٠٥١م فهاجم مملكته وأراضيه وأوقع بها خسائر فادحة. ولم يستطع المظفر أن يفعل شيئا. ويفهم من سياق هذه الرواية أنه فقد زهرة فرسانه فى تلك الاشتباكات[٣]. ورغم أن هذه الاشتباكات قد ألحقت

---

(١) : ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٢) : المصدر السابق والجزء، ص ٢١٠ ـ ٢١٢ (نقلا عن ابن حيان).

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات.

الكثير من الخسائر بالمظفر وأنهكت قواه إلا أنه أبى أن يظهر بمظهر الضعيف أو المهتم بما حدث. فبعث وهو فى عز محنته إلى قرطبة رسولا (فورد قرطبة إثر هذه الوقائع عليه يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، نافيا بذلك الشماتة عن نفسه، ولم تكن له عادة بمثلها)(1). وأثار طلبه وهو الأديب البليغ الرصين(2) إعجاب ودهشة المؤرخين، وعزوا ذلك إلى كبر نفس المظفر وقوة شكيمته.(3)

على ان الخلاف ما لبث أن نشب مرة أخرى بين الخصمين، فقد جهز المعتضد جيشاً بقيادة ابنه إسماعيل ووزيره الجديد ابن سلام، وخرج هذا الجيش إلى مدينة يابرة(4)، وجهز ابن الأفطس جيشاً بقيادة ابنه وقيادة حليفه إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى، والتقى الفريقان عند يابرة. وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة شنيعة لابن الأفطس قتل فيها من جيشه حوالى ثلاثة آلاف، وقتل ابن حليفه العزيز إسحاق، وحز رأسه وحمل مع رأس لأبن عم المظفر إلى إشبيلية، وقد استطاع الرئيس ابن جهور أخيراً أن يصلح بين الخصمين اللدودين فى أوائل عام **٤٤٣ هـ/ ١٠٥١م** وما كاد المعتضد يعقد هذا الصلح مع المظفر حتى انقلب على حليفه ابن يحيى، وأخذ يضايقه ويبدو أن ابن يحيى رأى أن من الصعب طلب

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني ـ المجلد الأول، ص ٢٦.

(٢) : كان المظفر بن الأفطس أديبا مؤرخا عالما شاعرا لم يصرفه الحكم عن الاهتمام بالعلم والشعر والأدب. ويكفى أن نشير إلى عظم منزلته الأدبية أنه ألف كتاب (المظفري). وهو كتاب تاريخى جديد، حلاه ووشاه كما يقول ابن عذارى (بالطرف المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية، واللغات الغريبة، ويقع فى نحو ٥٠ مجلدا، فتصرف به تصرفا بديعا، ولكبره لم يتمكن كل الناس من اكتسابه، فإنه لا يصلح إلا للخزائن الملوكية).
انظر: المصدر السابق والجزء، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ مصطفى الشكعة الأدب الأندلسى ـ موضوعاته وفنونه ـ ص ٢، ض ١٠٣.

(٣) : ابن بسام: نفس المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٢٦.

(٤) : (يابرة Evora بلدة فى جنوب البرتغال الحالية، وهى عاصمة مديرية الميتيجو Almetejo على بعد ١١٧ كيلو متراً بالسكة الحديدية من ألاشبونة.
انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٣، ص ١٧

مساعدة المظفر الذى سيرفض ذلك حتماً، نكاية فيه وجزاءاً على خيانته له. وبدأ المعتضد يضيق الخناق على ابن يحيى فى لبلة وأخيراً رأى أن لا مناص من مغادرة لبلة والتوجه إلى قرطبة لاجئاً لدى ابن جهور ويجب أن نلاحظ هنا أن بني جهور كانوا دائماً ملاذا للأمراء المطرودين والمنفين عن إماراتهم. وكان موقفاً طريفاً عندما شارك المعتضد بقوة من جيشه لتشييع ابن يحيى إلى قرطبة(١). وعندما خرج ابن يحيى عن لبلة تولى حكمها من بعده ناصر الدولة أبى نصر فتح بن خلف بن محمد اليحصبى. وقد رأى هذا أن يكتفى شر المعتضد ويصالحه على ما يؤديه إليه سنويا وأن يعترف له بالسيادة الاسمية. ووافق المعتضد مؤقتاً، ولكن ما كان هذا ليرضيه أو يقنعه، فحاصره فيها وضيق عليه. وعاث فى أراضيه فساداً. ولم يعدم ابن يحيى روح الأنفة والعزة فبادل المعتضد بغارات شديدة إلى أن ضاق به الحال وعجز عن مقاومة المعتضد، فخرج عنها والتجأ إلى قرطبة أيضاً عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م، وسلم المدينة للمعتضد.(٢)

الاستيلاء على إمارة ولبة وشلطيش :-

تقع ولبة أو ألبة، وشلطيش فى كورة اكشونبة Ocsonoba وكانت تشمل الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة مما يلى كورة إشبيلية غرباً. وولبة Huelva وشلطيش Saltes داخلتان اليوم فى زمام مديرية ولبة الحالية(٣). وهى من الإمارات التى آثرنا الحديث عنها أيضا حتى حينه، وقد استبد بها أحد وجهائها وهو محمد بن أيوب بن عمر إبان الفتنة، ثم لما توفى خلفه على الأرجح أبو زيد عبد العزيز على عكس ما جاء فى رواية ابن الأبار(٤).

---

(١) : ابن بسام المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول، ص ٣٦٢. والقسم الثانى - المجلد الأول، ص ٢٦.

(٢) : مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٣٠١.

(٣) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٤، ص ١٨٠.

(٤) : روى ابن الأبار نقلا عن غير ابن حيان ـ ولم يسمه ـ أن أبا زيد هو محمد بن أيوب، وأنه والد عبد العزيز، غير أن رواية ابن حيان تبدو أصدق وأوضح. فأبو زيد هو عبد العزيز وليس محمدا، ومما يذكر أن أبا زيد هذا هو والد أبى عبيد البكرى الجغرافى المشهور، وصاحب كتاب المسالك والممالك.
انظر، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٨٠، وص ١٨٣ ـ ١٨٥.

ولقد غدا سقوط لبلة فى يد المعتضد هاجسا يخيف أمراء الإمارات العربية الغربية. إذ أخذت كل واحدة منها تشعر بالخطر الحقيقى على كيانها وتحاول جاهدة التقرب من المعتضد والتودد إليه. وكان هذا حال أمير ولبة وشلطيش عبد العزيز البكرى، فعندما رأى لبلة تسقط فى يد المعتضد بادر إليه يهنئه بما تهيأ له، وذكر المعتضد بما كان يجمع بين جديهما من مودة وألفة. ثم اعترف له بالسيادة بل وتخلى له عن مدينة ولبة طائعا مختارا مقابل أن يبقيه على حكم جزيرة شلطيش، ووافق المعتضد مبتهجا، ولكن لأمد محدود فقط[1].

أما البكرى فقد توجه إلى شلطيش وبقى فيها هناك، وما لبث أن ضايقه المعتضد فى عام ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١م، فنكث بعهده له وحاصره فى جزيرته. ورأى البكرى أن ينسحب بشرف طالما ليست له القدرة على مواجهة قوة المعتضد الكاسحة. ففاوضه على تسليمها له مقابل شروط، فباعه سفنه بعشرة آلاف مثقال ذهب. وغادر البكرى شلطيش متجها إلى قرطبة لدى ابن جهور، شأنه شأن ابن يحيى حاكم لبله السابق، وفي رواية أخرى إلى إشسبيلية، على أنها ضعيفة[2].

وأراد المعتضد مع هذا أن يقبض عليه وعلى أمواله، وهو فى طريقه إلى قرطبة. غير أن البكرى فطن إلى ذلك، فقدم على صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالى. والواقع أن هذه الرواية فيها خلط كبير، فإن محمد بن عبد الله كان قد قتل عام ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣م كما سنعرف بعد قليل. ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد ابنه إسحاق. وقد ساعده البرزالى بالفعل فى التوجه إلى قرطبة سالما بأمواله، ونجا من حبائل المعتضد[3].

الاستيلاء على إمارة شنتمرية الغرب «شنت برية»:-

قامت هذه الإمارة فى منطقة شنت برية، - معربة من الأسبانية -، وهى عبارة عن بلدة حصينة تقع فى شمال غرب قونقة وجنوبى شرقى مدينة وادى الحجارة بالقرب

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٨١ - ١٨٣.

(٣) : ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٨٣ - ١٨٥.

من منابع نهر التاجة. وهى قاعدة كورة شنت بريه فى التقسيم الإدارى الأندلسى الواقعة بين منطقة قونقة وأقليش حتى شرقي طليطلة. وتعرف بشنتمرية الغرب تميزا لها عن شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين، أو سهلة بنى رزين. وتعرف شنت برية اليوم بمدينة فارو فى البرتغال الحالية[1].

وهذه الإمارة أيضا من الإمارات الصغيرة التى استبد بحكمها إبان الفتنة أحد رؤسائها وهو سعيد بن هارون الذى تولى أمرها حتى عام **٤٣٣** هـ أو عام **٤٣٤** هـ/ **١٠٤٣**م على اختلاف بين المؤرخين. ثم توفى وخلفه ابنه محمد بن سعيد بن هارون وتلقب بالمعتصم[2].

ورأى المعتضد أن يواصل جهوده نحو تحقيق هدفه بسرعة بالغة مستغلا هدنته مع ابن الأفطس. وكما جاء استيلاؤه على لبلة وولبة وشلطيش مفاجئا وسريعا ـ وإن كان مكلفا ـ، جاء استيلاؤه على شنتمرية الغرب بنفس الصورة أيضا. فقد ضيق المعتضد الخناق على المعتصم وأوقع بأراضيه خسائر شديدة، فلما (رأى أنه لا يقاومه ولا له به طاقة، خطب سلمه على أن يخلع له نفسه، ويخرج بمن معه إلى إشبيلية فقبل منه، فتخلى له عن البلد فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة)[3].

على أن ابن عذارى يشير إلى أن ذلك قد حدث عام **٤٤٩** هـ/ **١٠٥٧**م، وهو أمر مستبعد كما يتراءى لنا. لأنه أى ابن عذارى فى تناوله لأحداث هذا العام على نظام الحوليات الذى أخذ به وبغيره لم يشر إلى هذا الحادث بتاتا. وحادث بمثل هذه الأهمية لا يمكن أن يحدث فى هذه الفترة دون أن يشير إليه.

الاستيلاء على إمارة شلب:ـ

قوام هذه الإمارة هى مدينة شلب Silves (وهى قاعدة كورة أكشونبه، وهى

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص **٤٣**، وج **١**، ص **٩٤**، وج **١**، ص **٢٥٣**.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص **٢١٥**.ـ مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص **٢٩٨** ـ **٢٩٩**.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص **٢١٥**.

مدينـة بقبلي مدينة باجة). وشلب الآن مدينة صغيرة فى جنوب البرتغال تابعة لمديرية «الغرب Algarve .[(١)].

رأينـا فى حديثنـا عن عهد القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل، الحاجب عيسى يستبد بحكمها فى إبان الفتنة. وقد استمر الحاجب عيسى يحكم شلب ونواحيها حتى توفى عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٢م، ورأينا كيف أن ابنه محمد بن عيسى قد خلفه فى حكم هذه الأمارة، وقد رأينا أيضا أنه تنازل عن مدينة باجة للقاضى ابن عباد، واكتفى محمد بن عيسى بحكم مدينة شلب حتى توفى عام ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م.[(٢)].

وهنا حدث تغير فى البيت الحاكم. فعندما توفى عميد الدولة محمد بن عيسى فى هذا العام، اضطربت الأمور فى المدينة، فثار بها القاضى أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن سعيد بن جميل بن سعيد المزينى، وذلك فى عام ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م، فبايعه أهلها وتلقب بالمظفر، وقد ساس البلاد أحسن سياسة. ورغم أنه قد هادن المعتضد وتودد إليه، وهو يرى أن الوقت وقته والمجد مجده، فإن المعتضد لم يقنع بهذا، بل أخذ يشن عليه الغارات. وعندما رأى المظفر ذلك، نازل المعتضد بكل قواه وبكل عزة وكرامة حتى قتل فى عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣هـ. وخلفه ابنه محمد وتلقب بالمظفر أيضا. وفى عهده سقطت دولته نهائيا فى يد المعتضد بعد أن ضايقه وشـدد عليه الحصار. ثم استطاع جنوده أن يدخلوا القصر ويقبضوا على المظفر ويقتلوه. واستولى المعتضد على المدينة عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م، ونحن لا نوافق صاحب الـذيل الـذي نقلنـا عنـه ماجرى لأمراء شلب مع المعتضد فيما يتعلق بالسنـوات. فإننـا نستبعـد ما ذهب إليه من تحديد لتاريخ سقوط المدينة في يد المعتضـد. إذ نستبعـد كثيراً أن يكون السقوط النهائي لشلب قد حدث في عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م[(٣)]، وذلـك لأننـا سنـرى بعـد قليل فى استعراضنا لا نشقاق

(١) : انظر الحميرى: المصدر السابق، ص ١٠٦ ـ وكذلك ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٢، ص ١٣١.

(٢) : مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) : مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

إسماعيل بن المعتضد وتمرده على أبيه الذى حدث فى عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م على الأرجح أن المعتضد قد استدعى ابنه الثانى ـ محمد الملقب بالمعتمد فيما بعد ـ من شلب التى كان واليا عليها[١]. بل إن هناك اشارة صريحة إلى أن محمد بن المعتمد كان واليا على شلب فى عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م[٢]. وعلى أبعد احتمال نراه، نعتقد أن ولاية شلب قد تولاها محمد بن المعتضد قبل عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، قبل مقتل أخيه بقليل استنادا إلى تلك الآراء والروايات التى أشرنا إليها.

وهكـذا صفا الجو للمعتضد، ولم يعد هناك من يخشى بأسه وبمعنى آخر من يسبب له إزعاجا، ولم يعد أمامه إلا تصفية حسابه مع إمارات البربر، وغيرها من مناوئيه.

الاستيلاء على إمارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء:

بعد أن استطاع المعتضد القضاء على استقلال الإمارات العربية الغربية وضمها إلى مملكته، لم يعد أمامه إلا الإمارات البربرية التى كانت تتركز فى الجزء الجنوبى من بلاد الأندلس. وهذه الإمارات هى: مالقة، والجزيرة الخضراء ، التابعتان لبنى حمود العلويين، وإمارة قرمونة، وإمارة رندة، وتاكرونا، وإمارة مورور، وإمارة آركش، وأخـيرا مملكـة غرناطة. فرأى بعد تلك السلسلة من الانتصارات التى حققها على تلك الإمارات أن يولى وجهه شطر الإمارة الحمودية بالجزيرة الخضراء التى كنا قد تركناها[٣] تستظل بخلافة محمد بن القاسم بن حمود الذى استقر فيها وتلقب بالمعتصم. فقد رأى المعتضد ولمس بحاسته السياسية النافذة أنها أضعف الإمارات البربرية شأنا، إذ توفى الخليفة محمد بن القاسم عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، فخلفه ابنه القاسم بن محمد بن القاسم إلا أنه كان ضعيف الشخصية متهالكا، فشرع المعتضـد يعـد العـدة للانقضاض عليه. وفى هذا الصدد جاء فى البيان المغرب[٤] ما نصه (ثم مد يده بعد إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٤.

(٢) : صلاح خالص: المعتمد ابن عباد الإشبيلى، دراسة أدبية وتاريخية، ط ١، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) : انظر قبل ص ١٢٠.

(٤) : ابن عذارى، ص ٢١٣، وص ٢٣١.

«وذلـك» أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله، أضعف أمراء البرابر شوكة صمد له وحصره).

كما جاء فى كتاب البيان المغرب أيضا ما نصه (فبدأ ابن عباد يتطلب العلات عليه حتى كاشفه بمعاملته، وتبدى اليه بحربه، وأطمعه فى الجزيرة قوته على ركوب البحـر بما اجتمـع عنـده من الأسـاطيل، واكتمل إليه العدة بتلك البلاد التى افتتحها[1]. فأرسل عند ذلك جيشه نحو الجزيرة الخضراء برا وبحرا، وأخرج على الجيش وزيره عبد الله بن سلام، فحاصرها ورحل القاسم فى سفينة مع أهل بيته إلى سبته، وكان صاحبها سراجات البرغواطى، وقيل اسمه سقوت، فاستولى ابن عباد على الخضراء فى سنة ست وأربعين وأربعمائة)[2].

وهكذا سقطت إمارة بنى حمود بالجزيرة، ولم يعد بالأندلس منهم سوى الموجودين بمدينة مالقة والذين سينتهى وجودهم السياسي أيضا كما سنرى بعد[3]. وأخيراً كان من المنظور أن نستبقى سقوط الجزيرة الخضراء إلى مكانها الملائم، وهى الفقرة المعنونة بالتوسع العسكرى على حساب إمارات البربر والجنوب. بيد أن التسلسل الـزمنى للأحداث اضطرنا إلى أن نتعرض إلى ذكر ذلك عقب سقوط الإمارات العربية المذكورة. ونزعم أننا قد شاكلنا الصواب، فإمارة بنى حمود ـ وإن كانت بربرية اللسان والعادات ـ فهى عربية قرشية علوية، ولا بأس من تصنيفها فى عذاذ الإمارات العربية أيضا.

---

(١) : المقصود بها لبله، وولبه وشلطيش.

(٢) : ابن عذارى، ج ٣، ص ٢٣١ .ـ رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة، ص ٩٧ ـ ١٠٠ .

(٣) : انظر بعد، ص ١٥٣ .

انشقاق إسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه

فى عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م على الأرجح حدثت جفوة بين المعتضد وابنه إسماعيل، وأفضت أخيرا إلى قتل إسماعيل على يدى أبيه. وكان مبدأ ذلك عندما فكر المعتضد بعد سلسلة الأنتصارات التى أحرزها ضد أمراء الإمارات العربية الغربية المجاورة، وبعد قضائه على استقلال إمارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء. فكر فى أن يهاجم مملكة قرطبة من نقطة ضعفها الأمنى أى من مدينة الزاهرة التى تطل عليها. وطلب المعتضد من ولده التهيؤ للقيام بتلك الحملة العسكرية، غير أن إسماعيل أبدى اعتراضه على هذا الهجوم، وعلل ذلك بأن هناك حلف يربط بين مملكتي قرطبة وغرناطة. وأن أية محاولة من المعتضد للتحرش بمملكة قرطبة تعنى اعتداء على مملكة غرناطة مما يجعلها تبادر إلى مساعدة حليفتها وهو أمر بالغ الخطورة على موقف العباديين، ويصعب بالتالى مهمته ويشتت قواه.

ورغم منطقية هذا المحظور السياسى والعسكرى، فقد رفض المعتضد اعتراض أو اقتراح ابنه. ورد عليه بغلظة وقسوة، ورماه بالجبن والخور. وطلب منه أن يسارع إلى تنفيذ تلك المهمة. ونقف قليلا هنا لنستجلى خلفيات ذلكم الحادث المؤلم الذى أودى بحياة إسماعيل، وكدر صفو سعادة المعتضد الفائقة وانتشائه بانتصاراته على إمارات لبلة، وولبة وشلطيش، وشنتمرية الغرب، والجزيرة الخضراء وظلل نفسه وعهده بسحابة قاتمة كما ذكرنا.

ولا نكاد نستبين خلفيات واضحة قبل خروج إسماعيل ومقتله للنفور والاستياء من قبله على أبيه إلا ما نقله لنا عبد الواحد المراكشى من أنه كانت تدور على الألسن أخبار وإشاعات عن إسماعيل منها ضيقه من استطالة عمر والده، وتمنيه موته السريع، حتى يخلص إليه الأمر. وكان المعتضد يتلقى تلك الإشاعات فكان

يغض الـطرف عنها ويتغافل عن ابنه تغافل الوالد[1]. تلك هى خلفيات تلك الموجة من النفور والاستياء اللذين أبداهما إسماعيل.

ويخيل إلينا أن هناك أسباباً أدت إلى تدهور العلاقات بين الأب وابنه وولى عهده وقـائد جيشه، فإسماعيل ربما كان يتبرم من عملية الاستنفار والمرابطة فلم يكن ليستقر فى مكان أو يفتح حصنا أو مدينة ما حتى كانت أوامر والده بالتحرك إلى مكان آخر أو حصار آخر تصدر إليه فى حركة لاهثة لا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال. ويبدو أن التعب والإجهاد قد أضنياه، وأن الاشتباكات الدائبة قد هدت ركنه. ونحن لا نستبعد أن يكون إسماعيل قد حدث نفسه وطاف بمخيلته خلوص الأمـر إليه وإستيلاؤه على أريكـة الملك، . كما أننا لا نستبعد أن تكون الحاشية المحيطة به قد زينت له الخروج على أبيه وانتهاز الفرصة للاقدام على ذلك. وقد يكون إسماعيل غير راض عن تصرفات والده، فلربما استشعر خطل وخطر سياسة والده وتهوره فى استعداء مناوئيه من العرب.

فالمعتضد بقضائه على تلك الإمارات العربية، قد أجج روح الانتقام والثورة فى نفوس العرب كما ألب خصومه عليه. وقد يكون إسماعيل قد استهجن انقلاب أبيه على حلفائه ورأى أن جوانب المخاطرة فى سياسة أبيه تفوق فوائدها. فهل كان البربر حلفاء أبيه حتى ذلك الوقت ليطمئنوا بعدما حدث إلى تحالفاتهم معه؟؟.

ومع أننا لم نطلع على تفاصيل السياسة الداخلية فى المملكة فإننا لا نستبعد أن يكون إسماعيل قد استهجن ما آلت إليه الأحوال الداخلية فى البلاد. فالمعتضد. كحـاكم مستبـد باطش لم يسمـح بسماع أصوات معارضيه، فقد كمم أفواههم وبطش بهم. وقد يكون للوحشة بينه وبين أبيه أسباباً عائلية بحتة لا نعرف كنهها.

وأياما كان الأمر فقد بدأت نفس إسماعيل تتغير على أبيه، فحصلت الجفوة بينهما وجاءت مسألة الهجوم على مملكة قرطبة كالقشة التي قصمت ظهر البعير فلا منطق الأحداث ولا العقلانية يسمحان للمعتضد بتنفيذ أغراضه بسبب هذه المحاذير التى ذكرناها.

---

(١) : المصدر السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣.

وعنـدمـا أغلظ عليه أبوه بالقول واستجبن فكرته وخوره، رأى إسماعيل أن لا تلاقى بينهما البتة. فبدأ يجهز الجيش للخروج إلى قرطبة، وكان من جملة رجال إسماعيل رجلا يدعى عبد الله البزلياني. وهو أحد العرب الهاربين القادمين من مالقة بعد سقوطها في يدى باديس بن حبوس ملك غرناطة، ثم اتصل سببه ببلاط المعتضد ومال إلى مصاحبة ولى العهد وقائد الجيش والإخلاص له. وكان البزلياني رجلا ذا أثرة ومطامع وأهداف بعيدة وكانت أقصى أمنياته أن يصبح حاجباً، وقد رأى في الفتور والجفوة بين المعتضد وابنه إسماعيل فرصته الذهبية لتحقيق مطامعه[١].

خرج إسـماعيل بجيشـه وبخـاصته وعلى رأسهم البزلياني إلى قرطبة. ونسمح لأنفسنا أن ننقل من كتاب ملوك الطوائف شرح ذلك. فقد رجع إسماعيل بعد يومين من خروجه إلى إشبيلية مع خاصته البالغ عددهم ثلاثون فارساً تاركاً الجيش هناك مدعياً أن أوامر عاجلة جاءته من أبيه. فجاء على عجل إلى قصر أبيه، ، واستولى على ما قدر عليه من مال وكنوز ثم أخذ والدته وأهله وخرج من إشبيلية في الوقت الذي كان والده يقبع في قصره على الضفة الأخرى لنهر الوادى الكبير. ولما تسرب الخـبر إلى المعتضد أمر بغلق المنافذ والحدود والحصون أمام ابنه. غير أن إسـماعيل استـطاع أن يصـل الى قلعـة القـائد أبى أيوب والتمس من صاحبها الدخول، ووافق صاحبها ان ينزل إسماعيل فى حمايته شريطة ان يظل عند سفح الجبل الذى تطل عليه القلعة[٢]. ثم أدخله القلعة بعد ذلك وعامله معاملة تليق به وبعث لأبيه يخبره بنزول ابنه عليه، وطلب منه أن يصفح عنه ووافق المعتضد على ذلك، وأرسل إلى صاحب القلعة يخبره أنه قد عفى عن ابنه وصفح عنه وطلب من ابنه أن يعود إلى إشبيلية، فعاد إليها فعلا.

وكان أول شيء فعله المعتضد هو قتله البزلياني ومن معه، ثم جرد ابنه من كافة منـاصبـه ولكن دون أن يقطع عنه رزقاً أو أعطيات، واكتفى بتأديبه بالإعراض

---

(١) : دوزى: ملوك الطوائف، ص ١٤٢.

(٢) : دوزى، ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

والهجران. وشعر إسماعيل بأن أباه قد استدرجه إلى شرك منصوب، ولذا فقد بدأ يجمع من حوله الأنصار والمؤيدين له للتخلص من أبيه. ولم يجد وسيلة إلى ذلك إلا باغتياله، وأعد الخطة لذلك فعلا. وكانت هذه الخطة تقتضى أن يتسلق مع أصحابه قصر أبيه ويطرقوه ليلا ويهجموا من هناك على المعتضد ويغتالوه فى فراشه.

بيد أن الأمور جاءت بغير ما يشتهى إسماعيل. فلم يرع هو وأصحابه إلا ووالده واقفاً شاهراً سيفه، فأذهلتهم المفاجأة ففروا من بين يديه وتطايحوا خائفين خائبين. إلا أنه قبض عليهم جميعاً. وفجر هذا العمل غضب المعتضد وأججه، فأمر بقتل رجال ابنه، ونكل بهم وقتل ابنه إسماعيل بيده من شدة الغيظ، واستصفى أمواله[(١)] وقد انتاب المعتضد إثر ذلك حزن شديد، وأسى مؤلم انعكس على نفسيته[(٢)]. وينقل لنا ابن عذارى عن ابن بسام صورة لهذه الحالة وذلك من خلال الكتاب الذى بعثه المعتضد إلى رؤساء الأندلس يشرح فيه ما حدث بالتفصيل. ويطلب منهم أن يعتبروا من ذلك[(٣)].

وهكذا فقد ضحى المعتضد بابنه وولى عهده، عندما أدرك أن ملكه مهدد، وأن ابنه يتآمر عليه، حتى يظفر بالملك من بعده كما وقر فى ذهنه[(٤)].

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥، (نقلا عن ابن بسام).

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.

(٤) : والواقع أن هناك أمثلة عديدة فى التاريخ، جعلت الأب لا يتردد أبدا فى أن يضحى بابنه إذا ما تآمر عليه وعلى عرشه. ومن هذه الأمثلة أحمد بن طولون حاكم مصر عندما قتل ابنه العباس، والمنصور بن أبى عامر الذى قتل ابنه عبد الله الذى حامت حوله الشكوك إلى آخر ذلك.

توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموي المزعوم

كانت مسألة إظهار الدعوة الهشامية ومن ثم قبولها عرضة للمتاجرة السياسية. فمعظم أمراء وملوك الطوائف يعلم أن ذلك اختلاق وأنه محض هراء وافتراء ومع هذا فنجد كثيراً من أمراء الطوائف يعترف بتلك الدعوة للوصول إلى غايته. وإلا فأى منطق يستجيز ويستسيغ الوثوق بأخبار موتاته المتكررة والغامضة؟؟. حتى وفاته أخيرا على يدى المعتضد كانت غامضة أيضاً. ذلك أن المعتضد أعلن فى عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م وفاة الخليفة هشام المؤيد، وقطع بذلك الدعوة له[1]. ونعجب لأننا لا نجد تفسيرا لهذا التوقيت، فقد جاء خالياً من أى مضمون سياسى أو عسكرى. صحيح أن المعتضد استطاع أن يثبت دعائم ملكه وأن يوطد سلطانه سواء أكان ذلك على الصعيد الداخلى أم الخارجى كما أنه استطاع أن يرهب مناوئيه. ذلك كله صحيح، ولكن الأمر الذى قامت الدعوة من أجله لم يزل ولم ينته وجوده بعد، ونعنى به الوجود الحمودى. فمازالت هناك خلافة حمودية فى مالقة، ولازال هناك من يدعو لها ويعترف بها، كمملكة غرناطة وإمارات قرمونة ورندة ومورور وآركش، وهى ممالك وإمارات بربرية ترفع تلك الدعوة نكاية بالعرب بصفة خاصة.

ويخيل إلينا أن تصرف المعتضد ذلك كان خاطئاً. فهو لم يتخلص بعد من نفوذ بني حمود البربر حتى يقطع تلك الدعوة التى قامت من أجل إرباك الحموديين وسحب البساط من تحت أرجلهم. فقطعُ تلك الدعوة فى ذلك الوقت سيضر بموقفه لا سيما وهو حامل لوائها ومتبنيها. ونحن لا نؤيد ما ذهب اليه على أدهم[2]

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٩.

(٢) : انظر المرجع السابق، ص ٧٤.

من أن المعتضد بعدما شعر بأن ملكه قد اتسع، وثبت له الأمر فى كثير من الإمارات التى فتحها، رأى أن لا حاجة به إلى الخليفة هشام الدعى، فأعلن وفاته. لا نرى ذلك للأسباب التى ذكرناها. وإذا أخذنا نقيّم هذه المسألة فإننا نجد أن تأثيرها كان ضئيلا. ففيما عدا الهزة أو الخضة التى أحدثتها هذه الدعوة وما ترتب عليها من إرباك وخلط للأوراق لدى ملوك الطوائف عامة وبنى حمود خاصة وذلك فى عهد القاضى محمد. فإننا لم نلمس لها أى تأثير على الساحة السياسية فى عهد المعتضد فيما عدا ما حدث فى عام ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م من انقسام سياسى لممالك الطوائف أدى إلى وجود فريقين من ملوك الطوائف. فريق يدعو لهشام المؤيد المنصوب فى إشبيلية، وفريق آخر وعلى رأسه البربر يدعو لمحمد بن القاسم بن حمود العلوى كما ذكرنا سابقا[1]، فيما عدا اعتراف يحيى بن ذى النون عام ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤م بالدعوة لهشام نكاية بعدوه ابن هود صاحب سرقسطة[2].

ومع ضآلة هذا التأثير فإن بقاء الدعوة لهشام كان أمراً مهما لبنى عباد، يكسب تصرفاتهم الشرعية ويضفى عليها واقعا روحيا. فهى إن لم تلحق بهم الأذى والضرر فإنها بالتأكيد قد نفعتهم وأفادتهم.

ومن هنا نقول بأن قطع هذه الدعوة فى ذلك الوقت الذى لم يصف فيه المعتضد حسابه مع أمراء البربر حاملي لواء الدعوة الحمودية، كان خطأ سياسيا يدل على قصر نظر سياسى أو تعجلاً لسير الأحداث.

ومهما يكن من أمر فقد أعلن المعتضد للملأ وفاة خليفتهم. وصرح بأنه قد توفى إثر علة أصيب بها. ولكنه ولمصلحة البلاد والمسلمين العليا لم يصرح قبلُ بذلك. فإن الظروف السياسية وقتها لم تكن ملائمة أو مناسبة للتصريح بذلك. والآن بعد أن استتبت له الأمور، وهدأت الأحوال رأى أن يعلن ذلك[3]، وبالفعل فقد (اتصلت الأنباء بالأندلس بصموت منابره فى جميع أعماله عن ذكر إمامة هشام بن

---

(١) : انظر قبل الباب الأول، ص ١٢١.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٠، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) : نفس المصدر والجزء، ص ٢٤٩.

الحكم صاحب الرجعة[1] الذى اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده إلى آخر هذه السنة وهى سنة إحدى وخمسين[2]) وقد احتفى المعتضد بدفن جثة خليفة هشام احتفاء مهيبا شارك فيه بنفسه ومشى راجلا فى جنازته، وخلع طيلسانه ومشى معه فى تشييع الجنازة أرباب الدولة ورجالاتها وقد أرسل إلى ملوك الطوائف وأمرائها ينعى الخليفة، وطلب إليهم اختيار خليفة مكانه يبايعونه. فلم يفعل أو يفكر أحد فى ذلك بطبيعة الحال. ومن ثم فقد انتهز المعتضد ذلك وأعلن أن الخليفة الراحل قد عهد إليه أن يكون أميرا على الأندلس كلها من بعده[3]. وإذا كنا قد تعودنا من بعض المؤرخين القدامى الوقوع فى كثير من الأخطاء التاريخية الفادحة. فإننا لا يمكن أن نجد تفسيرا لأن ينساق أحد المحدثين فى نقل تلك الأخطاء دونما روية أو تثبت، فابن خلكان يقول (ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفى المدعو هشاما، فاستبد القـاضى محمد بالأمر بعده، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول، ولم يزل ملكا مستقلا إلى أن توفى ليلة الأحد لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وقيل إنه عاش إلى قريب الخمسين والأربعمائة)[4]. وعبد الوهاب عزام يردد نفس ما قاله ابن خلكان من أنه عندما توفى هشام المزعوم استبد القاضى محمد بن إسماعيل بالملك[5].

ومن جانبنا نقول كيف يستبد القاضى محمد بن إسماعيل بالملك بعد وفاة هشام المزعوم، وهو أى القاضى قد توفى قبل ذلك أى قبل وفاة هشام التى وقعت كما يقول المؤرخون عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م؟. كيف يحدث هذا والقاضى قد توفى عام

---

(١) : من الواضح أن ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام لا يقصد بالرجعة تلك التى يؤمن بها الشيعة عند عودة إمامهم المنتظر. وإنما يقصد بصاحب الرجعة الخليفة هشام الذى تكرر ظهوره ورجعاته للخلافة كما زعم.

(٢) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى، المجلد الأول، ص ٢٧ ـ ٢٨. (نقلا عن ابن حيان).

(٣) : على أدهم: المرجع السابق، ص ٤٧ ـ ٧٥.

(٤) : وفيات الأعيان: مجلد ٥، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٥) : المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، ط ٢، ص ٧ ـ ٨.

٤٣٣هـ/ ١٠٤١م كما مر بنا سابقا وكما يقول ابن خلكان وعزام نفساهما؟؟. ومهما يكن فكم تعجبنا تلك (القفلة) فى مهزلة إظهار دعوة هشام ثم وفاته التى نقلها ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان وغيره، (صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة، وعساها تكون إن شاء الله الصادقة، وكم قتل، وكم مات، ثم انتفض عنه التراب وقال بعضهم فيه:

ذاك الـذى مات مـرارا ودفـن . . . فانتفـض التراب ومـزق الكفـن

فقد مات فى يد أول خالعيه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية، ثم نشر بيد واضح الفتى مولى محمد بن أبى عامر وملك مدة. ثم مات ثانية بيد خالعة الثانى سليمان بن حكم صاحب البرابرة ودفنه خفية، ثم أبرز صداه علي بن حمود الحسنى المنتزى بذكره الطالب بثأره على الدولة ودفنه الدفنة التى خلناها حقيقة إلى أن وقعت عليه هذه الميتة الثالثة.[١]).

وابن بسام بالذات ينقل عن ابن حيان كلاما هزلياً مؤلما مفاده: (فما نقول ونعتقد فى الفرق بين هذه الميتات المتواليات إذا كان ميتها واحدا. وليس إلا السيوف عليها أدلة. غير إخلاص الدعاء لكلمة المسلمين فى الائتلاف لما فيه الصلاح[٢].)

وهكذا انتهت هذه المهزلة التى جنى العباديون جناها فى عهد القاضى محمد بن إسماعيل بصفة أساسية وفى عهد المعتضد بالله بدرجة ثانية [٣].

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٩ (نقلا عن ابن حيان).

(٢) : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٢٨.

(٣) : ومما يؤكد الفائدة التى جناها المعتضد من مسألة موت الخليفة هشام المؤيد، هو أنه. ضرب ـ ليثبت أنه أمير الأندلس، من بعد الخليفة ـ دنانير باسم الخليفة هشام فى سنوات ٤٥٣، ٤٥٧، ٤٥٨ وهى محفوظة بمتحف جمعية النميّات الأمريكية بنيويورك.

انظر: - MIL Esccc: Cainage The Muluk of Jauaif. 2vals, (New Yorn 1948.):
Vol. 2, No:551-554,565.

وأنظر كذلك:

- HENRILAVOIX: CATALOGUE DE MONNAIES MUSULMANES DE LABIB-LIOTHEQUE NAT-
-IONALE. ESPAGNE ET AFRIQUE. PARIS.
EMPRIMERIE NATINALE, MDCCCXCI.
P: RS- 136.

التوسع العسكري على حساب إمارات البربر في الجنوب

قبل أن نشرع فى الحديث عن الأحداث التى وقعت بين المعتضد وإمارات البربر ثم استيلاؤه عليها بعدئذ يحسن بنا أن نلم فى إيجاز بجغرافية ونشأة بعض تلك الإمارات التى لم نقم بعد بالحديث عنها.

إمارة رندة وتاكرنا:

(رنده فى التقسيم الإدارى الأندلسي تابعة لإقليم تاكرنا وتقع كلتاهما داخل كورة استجه[1]، وهى مدينة Arunda الذى كانت تعرف به أيام الرومان والقوط، وتقع على حافة خانق يسميه صاحب الروض المعطار: طلوبرة ، وهو المعروف بجبال رندة Serraniade Ronda وتحت البلد يوجد الخانق المسمى باسم التاجة Eltajo عمقه ١٦٠ متراً يجري فيه نهر وادي اللبن Guadalevin الذى يتصل بعد ذلك بوادى آره Guadairo ، ورندة مشهورة فى التاريخ الأندلسى جدا فعلى مقربة منها تقع ببشتر Bobastro بين قمم جبال رندة، وهى اليوم تابعة لمديرية مالقة (الأسبانية).

أما تاكرنا فمنطقة جبلية هى التى تسمى اليوم باسم جبال رندة، ولفظ تاكرنا، بربرى يوجد فى نواحى كبيرة من المغرب وفى صور مختلفة بعض الشىء أشهرها تكرونة فى تونس)[2].

وهذه الإمارة كانت فى حوزة بنى يفرن الذين كانوا يعيشون فى المغرب وعندما قتل أميرهم على يد الخليفة الفاطمى المنصور بن القائم بن عبيد الله بن المهدى، لحق

---

(١) : أنظر قبل الباب الأول، ص ٩١ ح ١

(٢) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٣، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

بنو يفرن بالأندلس، واتصلوا هناك بخدمة المنصور بن أبى عامر. وعندما قامت الفتنة استبدوا بأراضى رية وتاكرنا وقاعدتها رندة[1]، وقد استقل بها أبو نور هلال ابن أبى قرة اليفرنى أحد زعماء قبيلة بنى يفرن تلك بهذه الأراضى وأسس بها إمارة مستقلة. ويصعب علينا الأخذ بما جاء فى رواية صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب من أن ذلك قد حدث فى عام ست وأربعمائة[2]، لأنه قد قال بأنه بويع لأبى نور فى تلك السنة التى توفى فيها إدريس بن على بن حمود وهى سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م وهو أمر مرفوض، فإدريس توفى عام ٤٢١هـ /١٠٣٩م كما نعلم[3].

وأيا ما كان الأمر فقد استبد بها هذا الثائر وأسس لنفسه ولقبيلته إمارة مستقلة سقطت أخيرا على يد المعتضد.

إمارة مورور:

فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت مورور كورة قاعدتها تحمل نفس الاسم، وكانت تقع جنوبي الوادى الكبير بين كورتي قرطبة وتاكرنا، وتقع بلدة مورور على سفح جبل يحمل نفس الاسم Sierrade Moron ولهذا فقد اشتهرت بحصانتها وهى اليوم مركز إدارى فى مدينة إشبيلية (الأسبانية) وتسمى : Moron [4]. وقد استقل بها إبان الفتنة أحد رؤساء البربر من قبيلة زناتة من بنى دمر إحدى فخوذها. وقد قدم نوح بن أبى زيد الدمرى إلى الأندلس شأنه شأن غيره من البربر الذين قدموا فى عهد المنصور بن أبى عامر. وقد استمر يحكمها مستقلا إبان الفتنة إلى أن توفى فخلفه ابنه محمد عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م[5]. وفى عهده غدت إمارة مورور إمارة كبيرة وقد اغتيل نوح بن أبى زيد فى حادثة الحمام التى رتبها المعتضد ضده وضد أمراء البربر الآخرين، وسنعرض بعد قليل لتلك الحادثة.

---

(١) : مجهول: نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، ص ٤٥.

(٢) : مجهول: ص ٣١٢ - ٣١٤.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٩٢.

(٤) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ١، ص ٣٧١.

(٥) : مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٢٩٦.

إمـارة آركش وشذونة:

آركش هى التى تعرف اليوم باسم: Arcos dela Frontera وهى مركز إدارى فى مديرية قادس (الأسبانية) على نحوى خمسين كيلو مترا شمال شرقي قادس (Cadiz) (١) وقد استقل بها أيضا بنو خزرون من قبيلة يرنيان الزناتية الذين قدموا شأنهم شأن غيرهم من أبنـاء عمومتهم الزناتيين الآخرين المذكورين قبل. وقد استقل أحد رؤساء بنى خزرون بكورة شذونة ونزلوا بقاعدتها مدينة قلشانة(٢) فى مبدأ الفتنة ثم نزلوا بآركش، وأسس فيها محمد بن خرزون الخزرى دويلة بربرية، ولما توفى عام ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م خلفه ابنه القائم عماد الدولة عبدون بن محمد بن خزرون، وبـايعتـه آركش والأراضى التـابعـة لها كمـدينـة شريش وقلسـانـة والجزيرة(٣). وهو الذى ذهب اغتيالا فى حادثة الحمام أيضا.

****

وقـد كانت علاقة المعتضد مع هذه الإمارات الثلاث رندة، ومورور، وآركش حسنة على وجه العموم. وكان المعتضد وهو فى أشد فترات انشغاله مع الإمارات العربية التى ذكرناها لا يستهين بوجود وقوة هذه الإمارات، ولذا فقد كان يتودد إلى أمـرائهـا ويتقرب إليهم ويهادنهم ويهاديهم فى نفس الوقت، كل ذلك دهاءً منه وخدعة يستميل بها قلوبهم ويأمن شرهم، بل إنه قام فى سبيل ذلك بمغامرة كادت أن تودى بحياته عندما قام بزيارة إمارتي رندة وموروز عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م. ومجمل تلك الحادثة أنه ذهب لزيارة أمير مورور محمد بن نوح الدمرى منفردا إلا من خادمين فقط. وقد فوجىء ابن نوح بهذه الزيارة ولكنه رحب بالمعتضد وأكرم وفـادتـه، وقـد استطاع المعتضد بعد هذه الزيارة الخاطفة أن يخرب ذمم بعض

---

(١) : ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ٢، ص ٢٩٧.

(٢) : قلشانة (بالسين والشين) كورة من كور شذونة، وهى قريبة من مدينة شذونة (أو مدينة ابن السليم كما كانت تعرف فى الجغرافية الإسلامية أيضا).
انظر الحميرى: المصدر السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٧١ - ٢٧٢. - مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٢٩٤.

النافذين من وجهاء البربر وأن يستميلهم إليه. وبعد ذلك قام بزيارة مماثلة لابن أبى قرة حليفه وصديقه الذى كانت تربطه وإياه علاقات تحالف سياسى وصداقة شخصية دون زميليه أميري مورور وآركش. وقد أكرم ابن أبى قرة وفادته أيضا واحتفى به كثيرا ولمس المعتضد بحسه السياسى المرهف مقدار الكم الكبير من التذمر والمقت والسخط فى صفوف عرب مدينة رندة على البربر. وعندما شعر المعتضد بشىء من التعب والإرهاق فى إحدى حفلات التكريم التى أقيمت له، رجا ابن أبى قرة أن يسمح له بأن يخلد إلى الراحة. فهيأ له ابن أبى قرة الفراش. ولحسن حظ المعتضد أنه لم يستغرق بسرعة فى المنام، مما أتاح له أن يستمع إلى ما دار حوله من تآمر. فقد رأى رؤساء البربر التخلص منه بقتله وهو الصيد الثمين الذى سيق إليهم سوقا. ويبدو أنهم كادوا يقدمون على ذلك، ولكن لحسن حظ المعتضد أيضا أنه عارضهم أحد أمراء البيت الحاكم فى رندة وهو معاذ بن أبى قرة. فسفه آراءهم وعاب عليهم الغدر بضيفهم. كل هذا الهمس كان يدور والمعتضد يظهر التناوم، وعندما لمس من القوم خضوعا لمنطق العقل والمبادىء اللذين أشار بهما معاذ نهض من فراشه وأتى القوم فهبوا لاستقباله. فهش فى وجههم وبش، وطلب أن يعطوه ورقة وقلما. فبدأ يكتب لهم أعطيات وأرزاقا وهدايا كى يقبضوها منه فى إشبيلية. ولم يشعر القوم أن المعتضد قد استمع إلى كل ما دار من حديث.

وبدأ كما لو أن المعتضد قد نسى الحادثة وكل ذلك خدعة منه وحتى يطمئن قلوبهم. ثم وهو فى أشد فترات انشغاله مع ابن يحيى أمير لبلة استغل حفل ختان أحد أولاده ـ وكانت تلك مناسبة اجتماعية تقام فيها الحفلات وتنحر فيها الذبائح ـ فأرسل إلى أمراء رندة، ومورور، وآركش يدعوهم إلى تلك الحفلة. ولبى هؤلاء دعوة القدر لهم، وأتوه بكامل زينتهم وأبهتهم فى عدد كبير من فرسانهم، فأنزلهم فى أحد قصوره، ثم دعاهم لمقابلته. وبدأ الحديث بينه وبينهم حسنا، غير أنه ما لبث أن تعكر صفو المجلس وبدأ المعتضد يقرعهم ويؤنبهم ويلومهم على تقصيرهم معه ضد أعدائه، بل واستدعى عبيده فأذلوهم داخل مجلسه بالضرب ونتف اللحى، ثم أمر بهم فسجنوا فى أماكن متفرقة لمدة طويلة.

على أنه ما لبث بعد ذلك أن أمر بإخراجهم من سجنهم وأعاد إليهم كرامتهم

وأموالهم وطيب نفوسهم، بل أمر زيادة فى إكرامهم بأن يجهز لهم الحمام للاغتسال. وبالفعل ذهبوا إلى الحمام. . وفى نفس الوقت أمر المعتضد البنائين بأن يبنوا جدارا على باب الحمام، فمات هؤلاء القوم اختناقا. ونجا من هذه الحادثة معاذ الشهم، وكان المعتضد قد استبقاه دون غيره من أمراء البربر. وقد تأثر معاذ بالمصير الذى سيق إليه أولئك الأمراء، ولكن المعتضد هون عليه الأمر وطيب خاطره واستبقاه فى إشبيلية حتى وفاته. فعاش فى كنف المعتمد بعد ذلك[1].

وفى الحقيقة أن هذه الحادثة كانت تعد مغامرة وتهورا من المعتضد أكثر مما تعد سياسة وحنكة. فقد حدثت هذه الحادثة فى عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م، وكان فى تلك الفترة لم ينته بعد من نزاعه مع أمير لبلة. فالمغامرة باستعداء تلك الإمارات الثلاث واستعداء حلفائهم الآخرين كبني برزال فى قرمونة وباديس بن حبوس بغرناطة أمر يحمل طابع المغامرة. وسنلمس رد الفعل لدى البربر فورا.

الاستيلاء على امارة رندة :ـ

رأينا أبا نور هلال بن أبى قرة بن دوناس اليفرنى يتولى إمارة رندة وتاكرنا ويؤسس بها إمارة مستقلة. وكانت تربطه والمعتضد صداقة وطيدة وتحالف وثيق، وعندما حدثت حادثة الحمام فى عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م كما رأينا تضاربت الأخبار حوله، فرواية تقول انه قضى مختنقا مع زميليه ابن نوح الدمرى، وابن خزرون، ورواية تقول إن المعتضد أطلق سراح ابن أبى قرة لما كان يربطه وإياه من أواصر الصداقة. أما أهل رندة فقد عينوا باديس بن أبى نور هلال حاكما عليهم، ويقول صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب إنه قام أثناء توليه الأمر بالكثير من المخازى وإنه كان فاسقا ماجنا، ولعلنا نأخذ برواية صاحب الذيل فيما يتعلق بقضية أبى نور لأننا لم نعثر على رواية أخرى تشير إلى هذه الأحداث. فيذكر أن المعتضد أطلق سراح أبى نور هلال بن أبى قرة فى عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧م. فسارع إلى إمارته وقبض

---

(١) : يراجع فى أخبار هذه الأحداث : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
ـ ابن بسام : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٢٩ ـ ٣٠. ـ على أدهم : المرجع السابق، ص ٦٧ ـ ٧١.

على ولده باديس وضرب عنقه . على أن أبا نور هلال بن أبى قرة ما لبث أن مات فى نفس السنة. وخلفه فى الحكم ابنه الآخر أبا نصر فتوح فاستمر يحكم البلاد حكما حسنا حتى عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥م عندما فقد إمارته. وخلاصة ذلك أن المعتضد ما لبث يحبك المؤامرات والدسائس على أبى نصر هذا حتى استطاع أحد أعوانه ويدعى أبو يعقوب (ولا نعرف أصله على وجه التحقيق وإن كان يعتقد أنه من العرب المتذمرين من البربر وحكمهم) أن يقوم مع جماعة من المساعدين برفع شعـار الدعوة العبادية. فلم يرع أبو نصر إلا والنداء بشعار المعتضد يصك الأسماع . فعظم عليه الأمر ورأى أن يقتل نفسه أنفة وعزة من أن يقع بيد المعتضد ورجاله. فألقى بنفسه من شرفة عالية فى قصره فوقع على صخرة فدقت عظامه وتكسرت ومات إثر ذلك[١]. واستتب الأمر لأبى يعقوب تابع المعتضد فى المدينة. وكان فرح المعتضد بسقوط إمارة رندة عظيما حتى لقد نظم قصيدة لهج بها، وألزم الناس باللهج بها لمدة طويلة[٢].

الاستيلاء على إمـارة مـورور:-

رأينا محمد بن نوح الدمرى يقضى اختناقا فى حادثة الحمام المذكورة، وعندما بلغ الخبر الإمارة بويع لابنه مناد بن محمد وتلقب بعماد الدولة، وقد توافد عليها الناس من المدن المجاورة لمورور فكثر جمعهم وساس البلاد سياسة حسنة، ورأى المعتضد أنه لابد من التثنية بمورور. فبدأ بسياسته التقليدية القاضية بشن الغارات المركزة على أعدائه. فشن حملاته على أراضى ابن نوح الذى لم تلن له قناة. وكان كما يقول صاحب الـذيل المـذكور (شجىً فى حلق المعتضد). بيد أن المعتضد ضيق عليه وحاصره محاصرة شديدة. فاضطر ابن نوح إلى التفاوض معه وعرض عليه أن يسلم إليه البلد مقـابـل تأمين سلامته والخروج إلى إشبيلية. ووافق المعتضد مبتهجا،

---

(١) : الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٣١٢ ـ ٣١٤.

(٢) : عن هذه القصيدة: أنظر:

ابن الأبـار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٩، وج ١ من نفس الجزء ص ٥٠ .ـ صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسى، ص ٣٠.

وغادر مناد بن محمد بن نوح إمارته متوجها إلى إشبيلية، فأكرمه المعتضد واحتفى به احتفاء بالغا.

وهكذا انضوت مورور ضمن مدن مملكة إشبيلية أخيرا. وكان ذلك فى عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦م[١].

وإذا كنا قد اعتمدنا فى شرح تفاصيل هذا السقوط على صاحب الذيل المذكور، فإننا لا نستطيع أن نوافقه فى كل ما يورده. فهو يذكر أن دولة مناد بن محمد بن نوح الدمرى من يوم ولادته إلى أن خلع ثلاثين عاما. فإذا كانت حادثة الحمام قد وقعت فى عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣م كما أشرنا[٢]، وإذا كان مناد قد تولى الحكم إثرها كما يذكر هو نفسه (بويع له بمورور يوم موت أبيه) فإن مدة حكمه لا تزيد عن أربعة عشر عاما.

الاستيلاء على إمارة قرمونة :-

كنا قد تناولنا شيئا من الحديث عن إمارة قرمونة من ناحية جغرافيتها وظروف تكوينها السياسى: ورأينا حاكمها الحاجب محمد بن عبد الله البرزالى يتولى أمرها مذ حدثت الفتنة حتى عام ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٢م أى بعد وفاة القاضي محمد بن إسماعيل. وهنا تضاربت الأقوال، فرواية تقول إنه مات ميتة طبيعية فى هذا العام الذى ذكرناه، ورواية أخرى تقول بل إنه قتل[٣]. وهو ما نذهب إليه نحن، فابن عذارى فى وصفه لحديقة الرؤوس التى أشرنا إليها آنفا[٤] يقول إنه كان من جملة تلك الرؤوس رأس محمد بن عبد الله البرزالى. وفى وصفنا لأحداث تلك الموقعة التى دارت بين المعتضد والمظفر بن الأفطس أشرنا إلى مقتل العز بن إسحاق بن

---

(١) : مجهول: الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٢٩٦.

(٢) : انظر قبل، ص ١٤٣ - ١٤٥.

(٣) : من الذين يميلون إلى الأخذ بتلك الرواية صاحب الذيل المضاف إلى البيان المغرب، ص ٣١٢. أما ابن عذارى فقد أخذ فى كتابه المذكور ص ٢٠٦ بالرواية الأخرى، وكذلك فعل ابن خلدون فى كتابه المذكور أيضا، مجلد ٤، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) : انظر قبل، ص ١١٥.

محمد بن عبد الله البرزالى[1]، ويقول ابن عذارى أيضا مشيرا إلى هذا الحادث بأن رأس العز حمل إلى إشبيلية، وأضيف إلى رأس جده محمد بن عبد الله البرزالى المختزن عنده[2].

ومع أن ابن خلدون يشير إلى مقتل محمد بن عبد الله البرزالى فى العام الذى ذكرناه وهو عام ٤٣٤هـ، إلا أنه يخلط كثيرا فى الأحداث والأسماء، فهو يقول فى حديثه عن خلاف محمد بن عبد الله البرزالى مع المعتضد (فاتصلت الفتنة بينهم إلى أن قتله ابنه إسماعيل، خرج إليه فى سرية فأغار على قرمونة، وأكمن الكمائن، فركب محمد البرزالى فى أصحابه واستطرد له إسماعيل إلى أن بلغ به الكمين، فخرج عليه فقتلوه وذلك فى سنة أربع وثلاثين)[3]. ونحن نستبعد أن يكون إسماعيل بن المعتضد هو الذى قتل محمد بن عبد الله البرزالى، وذلك لأن المعتضد تولى السلطة فى عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م. وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة كما مر بنا.
ومعنى هذا أنه كان يبلغ وقت مقتل ابن البرزالى سبعة وعشرين عاما. وإذا كان قد أنجب إسماعيل وهو لما يتجاوز السادسة أو السابعة عشرة من عمره، فإن عمر ابنه إسماعيل وقت مقتل ابن البرزالى يكون عشر أو إحدى عشر سنة، وهى سن لا تسمح لصاحبها بقيادة الجيوش وإكمان الكمائن. وإذا كان ابن خلدون يقصد إسماعيل بن القاضى محمد فإن ذلك يعتبر خلطا أيضا. فإسماعيل قتل عام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩م كما ذكرنا، وأبوه القاضى توفى عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م[4].

وأيا ما كان الأمر فإن محمد بن عبد الله البرزالى قتل على يد المعتضد بن عباد فى عام ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٢م. وتولى حكم قرمونة بعده ابنه إسحاق بن محمد، ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب المذكور سابقا: ان الذى تولى حكم

---

(١) : انظر قبل، ص ١٢٧.
(٢) : المصدر السابق والجزء، ص ٢٣٥.
(٣) : المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٣٣٨.
(٤) : انظر قبل الباب الأول، ص ١٠٩.

قرمونة هو المستظهر عزيز بن محمد عبد الله البرزالى، وأن أخاه إسحاق بايع له[1]، وابن عذارى يقول فى روايته لأحداث النزاع بين المعتضد والمظفر بن الأفطس إن إسحـاق هو ابن محمد بن عبد الله البرزالى[2]، على أنه يعود فيناقض نفسه مرة أخرى فيقول بأن الذى خلف أباه فى الحكم هو العز بن إسحاق بن عبد الله[3]. وفى الحقيقة إنه لأمر محير فعلا فكيف نستطيع تحديد من خلف محمد بن عبد الله البرزالى مع هذا التناقض فى أقوال مؤرخ واحد؟؟. ولكننا نميل إلى اعتبار إسحاق هو ابن محمد بن عبدالله البرزالي، وإلى أن العز هو ابنه. وهو الذي قتل وأضيف رأسه إلى رأس جده محمد بن عبدالله البزالي .وذلك لأنه عدا أن ابن عذارى أشار إلى هذا كما ذكرنا، فإن ابن الخطيب يقول بالحرف الواحد (فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق بعد هلاك إسحاق)[4] فمن المعقول أن إسحاق بعدما مات ابنه العز عين أخاه العزيز وليا لعهده، ثم توفى إسحاق فخلفه ابنه العزيز. ويجوز أيضا أنه قد حدث تحريف فى ذكر الأسماء، فبدلا من أن يقول العزيز قال العز. ومهما يكن فقد رأى المعتضد أن يتخلص من مضايقات إمارة قرمونة القريبة جدا من عاصمته. وإذا كان قد تركها طيلة تلك الفترة فإنه كان يخطط فى قرارة نفسه للاستيلاء عليها متى ما حانت الفرصة المناسبة.

ولذا فقد بدأ يضيق عليها اتباعا لسياسته التقليدية القائمة على انهاك قوى الخصم وإحـراق أراضيه والعيث فيهـا فسادا حتى يحكم قبضته على العاصمة نفسها. وطلب ابن إسحاق البرزالى مساعدة باديس بن حبوس ملك غرناطة وزعيم البربر قاطبة فى ذلك الوقت وعدو المعتضد الرئيسي. فلبى دعوته وخرج بجيشه لملاقاة جيش المعتضد بقيادة ابنه محمد ـ المعتمد والظافر فيما بعد ـ . وقد انتهى هذا اللقاء بهزيمة باديس هزيمة شنيعة وانتصار المعتضد انتصارا عظيما جعل الشاعر محمد بن

---

(١) : مجهول، ص ٣١٢.

(٢) : المصدر السابق والجزء، ص ٢٣٥.

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩، وص ٢٨٣.

(٤) : اعمال الاعلام، ٢٣٧ :

عمار الأندلسى(١) ينظم قصيدته الدالية التى يقول مطلعها:

ألا للمعالي ما تعيد وتبدى　　　وفى الله ما تخفيه عنا وما تبدى

وهى قصيدة مجيدة تفيض مدحا بالمعتضد ءابنه، كما تفيض بغضا وشماتة بالبربر وأمرائهم، جدد فيها ابن عمار الشعور المتحكم بالعداء بين الأندلسيين والبربر(٢).

ويبدو أن جولة ثانية قد حدثت بين المعتضد وأمير قرمونة ابن إسحاق البرزالى ضيق فيها المعتضد الخناق عليه كثيرا. وذلك فى عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧م فلما بلغ منه الغـاية ولم يعـد يقدر على تحمل مضايقاته وحصاره رأى أن يكتب إلى يحيى بن إسـماعيل بن ذى النون ملك طليطلة معنزما أن يتنازل له عن مدينة قرمونة وما حولها، على أن يعطيه ابن ذى النون أحد حصون مملكته ليخرج من جوار المعتضد ومضايقاته ويرتاح من ابن عباد. (فاتفقا على ذلك وخرج العز بن إسحاق «العزيز» عن قرمـونة إلى حصن المدور. وكان من جملة بلاد ابن ذى النون، فأخلاه له، وحصل بقرمونة رجال ابن ذى النون.)(٣).

وإذا لم يدرك الشىء لدى المعتضد بالقوة والبطش فالدهاء كفيل به. والمعتضد فى هذا لا يحتاج إلى الوسيلة. فقد قام بخدعة سياسية ذكية للغاية أزرى بها بعقلية ابن ذى النون. ولننظر الآن فى عجب لما حدث.

يقول ابن عذارى (ولما بلغ ذلك ابن عباد كتب إلى ابن ذى النون فى السر يقول له: إن قرمونة قريبة من بلدى وهى أليق بى لأنها بعيدة عن بلادك فاصرفها إلى وتكون يدى ويدك واحدة على مدينة قرطبة حتى تكون لك، وكانت مدينة قرطبة أمنية ابن ذى النون فأجابه ابن ذى النون فى ذلك وتوثق منه بالأيمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عباد فشحنها بالأطعمة وقواها بالرجال. وغدر ابن عباد بابن ذى النون ولم يف له بشىء، فاغتاظ ابن ذى النون ووجه إلى قرطبة عسكرا عظيما.)(٤).

---

(١) : الذى بدأ يتحسس طريقه نحو بلاط المعتضد والعباديين جميعا. وسنتين بعدئذ عظم الدور الذى لعبه فى البلاط العبادى وخاصة بلاط المعتمد.

(٢) : صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسى، ص ٤٠، وص٤٢ ـ ٤٣ (نص القصيدة.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩، وص ٢٨٣.

(٤) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٨٣.

وسنتابع قصة هجوم ابن ذى النون على مملكة قرطبة فى حديثنا عن المعتمد والعلاقات بين مملكتي طليطلة وقرطبة. وما يهمنا هنا هو ما صار إليه أمر قرمونة وسقوطها لقمة مستساغة فى فم المعتضد الداهية.

الاستيلاء على إمارة آركش وشذونة :-

لم يبق أمام المعتضد بعد قضائه على إمارة رنده ومورور وقرمونة سوى إمارة آركش، وكما أشرنا فإن آركش وشذونة قد استقل بها إبان الفتنة بنو يرينان الزناتيين. وقد ذكرنا آنذاك أن محمد بن عبدون بن خزرون الخزرى أسس فيها دويلة لأسرته وقبيلته، وعندما توفى خلفه ابنه عبدون بن محمد الذى مات مختنقا مع زميليه أميري رندة ومورور[1]. وعندما بلغ الخبر آركش تولى حكم الإمارة أخوه محمد. ولم يشأ المعتضد أن يجعل محمدا يهنأ براحة بال وهدوء خاطر، فحاصره وضيق عليه، بل واستحدث معه طريقة حربية للحصار وهى بناء حصن عسكرى قريب من عاصمته ووضع فيه الرجال والسلاح. وبذلك فقد وضعهم تحت رحمته. وضاق بنو خزرون ذرعا بهذا الحصار الرهيب فراسلوا باديس بن حبوس وفاوضوه على أن يخلو له آركش مقابل إعطائهم بلدا يسكنون فيه، وبالفعل حصل الاتفاق وجهز باديس جيشا ضخما لمساعدة ابن خزون.

على أن الأحداث لم تأت وفق ما يشتهى الحلفاء، فقد كمن المعتضد بجيشه لبنى خزرون الخارجين عن المدينة على بعد عشرين ميلا عنها. فتعرض لهم وحصلت بين الفريقين موقعة انتهت بهزيمة جيش باديس وبنى خزرون برئاسة زعيمهم محمد بن خزرون وقتل فيها قائد جيش باديس وابن خزرون أيضا[2]. (وملك ابن عباد قلعة آركش وسائر بلاد شذونه وخطب له فيها، واتصل نظره إلى أول بلاد شرق الأندلس، ولم يزل أمره يعلو ودولته تزداد نموا وظهورا إلى أن قطع دابر أمراء البرابرة، ولم يبق منهم سوى باديس بن حبوس.) (٣)

(١) : انظر قبل، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٧١ - ٢٧٣.

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

فشل المعتضد بالاحتفاظ بمدينة مالقة :-

كنا قد تركنا مدينة مالقة تحت خلافة بنى حمود من أبناء يحيى وادريس ابنى على ابن حمود، وقلنا وقتها إن الحروب الأهلية بين أبناء العم قد طحنت البلاد وأدخلتها فى دوامة من النزاع والقتال. وقد تولى حكمها قبل سقوطها فى يد باديس بن حبوس ملك غرناطة محمد بن إدريس بن يحيى بن على بن حمود وتلقب بالمستعلي.

وكان باديس يرقب باهتمام بالغ تطور الأحداث والأوضاع فى مالقة وعندما تولى الخلافة إدريس بن على خلفا لأخيه يحيى اعترف باديس بسيادته وخلافته. وكذلك فعل مع من خلفه فى الخلافة. غير أنه عندما احتدمت الخلافات والانشقاق العائلى فى خلافة بنى حمود بمالقة بدأ باديس يتدخل فى مناوءة فريق ضد فريق آخر. وكان يرى نفسه أحق منهم بتمثيل البربر فى الأندلس وأنه أولى وأجدر برئاستهم.

وعندما تولى محمد بن إدريس بن يحيى الخلافة وتلقب بالمستعلى رفض البربر فى العاصمة مبايعته. فقدم باديس مسرعا فى عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م ليضع حدا نهائياً لانفلات الأمور بالخلافة. واستولى بسرعة على المدينة وضمها إلى مملكته وغادرها أميرها طريدا. وانتهت بذلك دولة بنى حمود بمالقة نهائيا. (١)

ويعلل حفيد باديس عبد الله بن بلقين بن باديس بن زيرى(٢) أسباب استيلاء جده على المدينة بعدة أسباب من بينها أنه قد استولى على المدينة خوفا من أن تقع فى يد غيره فيعمل على مضايقته وإزعاجه، ويقول أيضا: إن باديس سارع إلى بناء قلعة حصينة شحنها بالعتاد والسلاح تحسبا لأى طارىء يحدث له ولأسرته فيما لو أخرجوا من غرناطة(٣).

وبـدهى أن ينظر المعتضد إلى هذا الاستيلاء بعين الحسد والحسرة، فلا يسره بطبيعة الحال أن تتزايد قوة عدوه وخصمه الرئيسى البربرى لما فى ذلك من خطر عليه، على أن تلاحق الأحداث وانشغاله بالحوادث الجسام التى مرت بدولته وعدم

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ١٣١.

(٢) : عبد الله بن زيرى: التبيان، ص ٤٣.

(٣) : نفس المصدر، ص ٤٣ - ٤٤.

تهيؤ الظروف الملائمة من جهة أخرى لم تتح له توجيه جهوده إلى مالقة والعمل على الاستيلاء عليها.

وواتته الفرصة الثمينة عندما بدأ تململ العرب فيها وتذمرهم من حكم البربر، ومن الطبيعي أن تتجه أنظارهم الى بنى عصبتهم العرب وأقوى ممالكهم وأعظمهم ذكرا وهى مملكة بنى عباد. ورغم أنهم كانوا يستفظعون أعمال المعتضد ويرهبون سطوته الا أنهم طمعوا فى الاستعانة به ضد البربر(١). بل وراسلوه سراً بأن يبعث لهم جيشه للاستيلاء على المدينة وإخراج البربر منها، وتعهدوا بنصرته وتأييده. وبالفعل جهز جيشا إلى مالقة بقيادة ابنه محمد الذى غدا منذ مقتل أخيه إسماعيل وليا لعهد أبيه. وقد شاركه في قيادة حملة مالقة أخوه جابر(٢).

حدث هذا فى عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٥٦م ولم يرع جيش باديس إلا والجيش العبادى يحاصر المدينة. وفى الوقت نفسه ثار العرب بالبربر كما اتفقوا مع المعتضد، ولم يمض وقت طويل إلا وقد استطاع الجيش العبادى بمساعدة أهل المدينة العرب أن يستولى عليها. وهكذا جاء استيلاؤه على مالقة أشبه بنزهة حربية عادية منها إلى حرب حقيقية.

على أن محمدا بن المعتضد لم يستطع أن يحسم الموقف مع الحامية البربرية التى كانت موجودة هناك. صحيح أنه قد استطاع أن يستولى على مالقة، ولكن بقى

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٣ - ٢٧٤. - ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ٣٩.

(٢) : يحمل حفيد باديس، عبد الله بن بلقين بن باديس بن زيرى فى كتابه المذكور سابقا، ص ٥٨ على أهل مالقة ويقول (وكان حصول ابن عباد عليها لمداخلة أهلها وميلهم إليه، اختيارا له علينا على إحسان المظفر رحمه الله «المقصود به باديس» وأنه وجدهم على أسوأ حاله. فأصلح من احوالهم كثيرا وحمل فقاءها ومقرئيها على المطايا وأنزلهم على أفضل المراتب، ما كان مشهورا عنه فى الأقطار، إذ كانوا قبل فى حال قلة وعلى غير رتبة، ثم كافؤه بما فعلوا).

ومن الطبيعى جدا أن يمتدح ابن زيرى جده ويمجد صفاته الخيره، وأن يضع الملامة على أهل مالقة ويتأسف على المعروف الذى أسداه جده لهم.

عليه أن يجهز على الحامية التى اعتصمت بالقلعة وصمدت أمام ضربات جيشه . ويظهر أنه قد استهان بأمرها وبدلا من التحوط والحذر اللذين نصح له بهما كبار أهل مالقة، بدلا من هذا ركن إلى الانغماس فى اللذات ولم يقم بما يجب على أى قائد عسكرى فعله. فإذا كان لم يستطع القضاء على الحامية فى الحصن، فإنه لم يدرك مدى خطورة بقاء هذا الحصن خارجا عن سلطته ولذا فقد ترك للحامية الفرصة لتجميع قواها وطلب المعونة من باديس.

وجاءت رسلهم باديس تستنهضه وتستنجد به، فلم يخيب لهم ظنا وبعث بجيشه إلى مالقة واستطاع بجيشه وبمساعدة الحامية الموجودة بالحصن النيل من العباديين. وأعمل السيف فى رقابهم، ونجا محمد وجابر ابني المعتضد بجلديهما من موت محقق، واعتصما بمدينة رنده مع عدد قليل من الجيش[١].

وأفاق محمد بن المعتضد من هول الفاجعة، فكيف يشرح الأمر لأبيه وكيف يعرف رد فعله لفقد تلك المدينة المهمة وما حولها؟؟. وبدأ هذا الخاطر يلح عليه ويؤرقه. وبالفعل كان رد فعل أبيه عنيفا، فقد فكر فى اعتقاله وسجنه. ولكن محمدا استطاع أخيرا أن يستميل قلب أبيه عندما نظم قصيدة رائية مكونة من أكثر من أربعين بيتا، فرفعها إلى أبيه مستجديا عطفه ورضاه. ولقد تمكنت تلك القصيدة بالفعل من أن تؤثر فى نفس المعتضد وتلين قلبه على ابنه. فقد كان المعتضد كما يقول على أدهم (ممن يهزمهم الشعر)[٢]، فدبج هذه القصيدة التى تفيض (شكوى وأسفا وحسرة وألما وهجاء واعتذارا وفخرا، وفيها فوق هذا وذاك فلسفة وآراء فى الحياة والناس.)[٣]

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .ـ ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٣٩.

(٢) : المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) : صلاح خالص: المعتمد ابن عباد الاشبيلى، ص ٣٨ ـ ٣٩.

ويقـول مطلع هذه القصــيدة :ـ [1]

سكن فـؤادك لا تذهـب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحـذر

(١) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع :ـ

ـ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٠ ـ ٢١ . ـ ابن الأبار: الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥٦ ـ ٥٨ .ـ صلاح خالص: المعتمد ابن عباد، ص ٣٨ ـ ٤٦ .ـ رضا الحبيب السويسى : ديوان المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية ، ط ١ ، ص ٩٩ ـ ١٠٤ .

نشــاط حركــة الاســترداد المسيحي فى عهد المعتضد بالله

قبل أن نمضى سويا فى تتبع نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى عهد المعتضد بالله ، يحسن بنا أن نشير إلى أن حركة الاسترداد هذه قد عمت جميع ممالك الطوائف وعلى الأخص الكبرى منها . ولم تسلم من هذه الممالك أى مملكة، حتى مملكة إشبيلية رغم أنها قد ثبتت أقدامها على حساب ممالك الطوائف المجاورة العربية والبربرية كما سبق أن رأينا، إلا أن ملكها رأى أنه لا طاقة له بالدخول فى معارك حاسمة مع ممالك النصارى . ولذلك فقد اضطر أن يدفع ضريبة للملك فرديناند ملك قشتاله اتقاء لشره كما سنرى بعد قليل .

ولكى نلم بنشاط حركة الاسترداد فى عهد المعتضد التى شملت معظم ممالك الطوائف يحسن بنا أن نلقى أضواءً على المناخين السياسي والعسكري السائدين فى ممالك الطوائف الكبيرة وفى ممالك النصارى وسياسة هؤلاء أى ملوك ممالك النصارى الحثيثة فى المضى قدما فى حركتهم الهادفة لاسترداد الأراضى الأسبانية شيئا فشيئا من يد المسلمين، وهو الهدف الواضح الذى ظهر كسياسة رسمية محددة لملوك النصارى ابتداء من عهد الملك فرديناند الأول(١) .

وفى هذا المجال نحن مضطرون إلى أن نعود إلى التذكير بالوضع الداخلى فى الممالك النصرانية فقد مر بنا أن الملك سانشو العظيم توفى عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٥م مخلفا أربعة أبناءٍ قسم بينهم مملكته الواسعة التى ضمت معظم أسبانيا النصرانية، ولم يكن يشذ عن ملكه سوى إمارة برشلونة فى الشمال الشرقى كما ذكرنا . وقد رأيناه يعطى حكم نبرة لابنه غارسيا، ويعطى حكم قشتالة لابنه فرديناند الذى استطاع

---

(١) : أنظر: Jan Read : Op Cit.,p 101-102-

بجهـوده وبفضل ظروف عائلية حتمتها الوراثة أن يضم إلى أملاكه مملكة ليون وجليقية بعد أن انتزعها من يد آخر ملوك القوط الأسبان بعد عامين من وفاة أبيه سانشـو العظيم، ويعطى ابنه الثالث راميرو أرغونة، ويعهد لابنه الرابع جنزالو (كونزالو) بحكم منطقة سوبرابى وسار جارسيا فى أواسط جبال البرتات.

وبـذلـك تصدعت الوحدة التى حققها هو نفسه لأسبانيا النصرانية بعد جهد جهيد، فقـد نشبت بين الإخوة الأربعة المطاحنات والحروب، وحاول كل منهم التوسع على حساب أراضي أخيه المجاورة بمساعدة حلفاء من المسلمين من الممالك الإسلامية المجاورة. وكانت الممالك الإسلامية التي تلامس حدودها حدود هذه الممالك النصرانية أو القريبة منها هي: مملكة سرقسطة فى الشمال الشرقي، ومملكة طليطلة فى وسط البلاد، ومملكة بطليوس فى الوسط الغربي، وأخيرا مملكة إشبيلية.

وقد اصطدمت هذه الممالك فى عهد المعتضد بالله بأبناء سانشو العظيم، واضطر بعضها إلى دفع الإتاوة لهم منفردين، وإلى فردنياند وحده أخيرا بعد لمه شمل بنى جلدته، وإعادة بعض الوحدة لهم.

مملكة سرقسطة وعلاقتها مع النصارى:-

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف أن مملكة سرقسطة شهدت حكم أسرتين عربيتـين هما بنى تجيب، وبني هود الجـذاميين. وقد اصطدمت كل من هاتين الأسرتين بالنصارى وكانت لهما معهم مواقف وأحداث.

فقد أسس يحيى بن عبد الرحمن التجيبي فى منطقة سرقسطة أو الثغر الأعلى في إبان سقوط الدولة الأموية، لنفسه ولأسرته مملكة مستقلة تماما. وعندما توفى خلفه ابنه المنذر بن يحيى الذى لعب دورا هاما إبان ضعف الخلافة الأموية وظهور بنى حمود. فقد وقف مع بني عصبته العرب الذين رشحوا للخلافة المرتْضى المذكور سابقا ضد البربر وخليفتهم علي بن حمود كما مر بنا سابقا. وقد استعان المنذر بفرقة من النصـارى بقيادة رامويل بوريل أمير برشلونة. ولكن تلك الأحداث انتهت بهزيمة الفريق الأندلسى على يد البربر فى عهد الخليفة القاسم بن حمود كما ذكرنا[1].

---

(١) : أنظر قبل الباب الأول، ص ٨٢.

وفى الواقع فإن حركة الاسترداد لم تكن قد تبلورت فى ذلك الوقت كحركة رسمية منظمة، إلا أنها كانت أمنية غالية عند ملوك النصارى لاسترجاع أراضيهم من يد المسلمين.

ومملكة سرقسطة ذات موقع استراتيجي مهم. فقد كانت تحيط بها إمارة برشلونة من الشمال الشرقي، ومملكة نبرة من الشمال، وكونتية قشتالة من الغرب. ولذا فقد كان على حاكمها أن يسير فى سياسته مع هذه الممالك بسياسة حذرة واقعية. ولقد استطاع المنذر بن يحيى بالفعل أن يحقق هذا. فقد عقد مع ريمند الجليقى (رامون بوريل) أمير برشلونة، وشانجه القشتلى (سانشو العظيم) ملك نبرة محالفة وموادعة جنى ثمارها رغم معارضة أهل سرقسطة لذلك. وقد أثبت المنذر بذلك أنه كان سياسيا محنكا حقا، إذ إن هذه المعاهدة كانت غير إلزامية له تفرض عليه تقديم أراضٍ أو حصون أو غير ذلك. فضلا عن أنه كان ذا نظرة واقعية، إذ لمس أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا إذا ما داهمته قوى النصارى ولا سيما وأن سانشو العظيم قد استطاع أن يوسع مملكته فى ذلك الوقت. وغدا الشخصية الرئيسية فى أسبانيا النصرانية، ويشاركه فى الزعامة رامون بوريل أمير برشلونة. ويحمد المؤرخون للمنذر سياسته هذه ويثنون عليه، إذ حققت له حفظ أطرافه، واستفاد أيضا هو نفسه منها. فقد أطلقت هذه المعاهدة يده فى مهاجمة بعض الكونتات (القومسات) الأسبان دون أن يخشى من ملكي المملكتين النصرانيتين القويتين اللتين مر ذكرهما. وقد عمل المنذر على أن يعقد فى بلاطه معاهدة بين البيتين المالكين فى أسبانيا[1]، وإن كان هذا قد أغضب مواطنيه فانطلقت ألسنتهم تعيب عليه ذلك وتقدحه. ولكنهم لم يتبينوا فائدة هذه المساعي الحميدة إلا عندما خيم الهدوء على المملكة. فالتفت الناس إلى البنيان الداخلى يشيدون ويبنون. وقد استمرت الهدنة بين الفريقفين إلى أن مات المنذر (وقد اعترف الناس برأيه، وأقروا لسياسته، ولم يأت بعد من يسد مسده.)[2] إذ خلفه ابنه يحيى فى عام **٤١٤ هـ/ ١٠٢٣م**، فتنكب سياسة والده مع النصارى، إلا أنه قد تراجع عنها بعد أن لمس خطورة

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الأول ـ ص **١٥٣ ـ ١٥٤**.
(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحات.

ذلك. ولم يفده عدوله عن سياسته الجديدة شيئا، فقد هاجم رامون بوريل حليف والده أراضيه، واضطر يحيى إلى أن يتنازل له عن بعض القلاع والحصون. على أن يحيى توفى بعد ست سنوات من حكمه(١)، فخلفه ابنه المنذر وهو الذى قتل على يد عبد الله بن حكيم كما مر بنا. غير أن أهالى سرقسطة لم يرضوا به، وأخيرا استقر رأى الأهالى على استدعاء سليمان بن هود حاكم مدينة لاردة التابعة لسرقسطة، وعهدوا إليه بحكم المملكة. وكان ذلك فى عام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩م(٢).

وباستيلاء سليمان على سرقسطة يبدأ عهد أسرة بنى هود الجذاميين. وفى عهده بدأت حركات الاسترداد تثقل كاهله وكاهل رفاقه من ملوك الطوائف. وأسهم هو نفسه بسبب رعونته السياسية وأهدافه الشخصية فى تلك الأحداث. وأتاح للنصارى تحقيق بعض أغراضهم. وقد خاض مع مملكة طليطلة حربا لمدة ثلاث سنوات جر فيها هو وملك طليطلة الكثير من المصائب على المسلمين، وهو ما سنراه فى حديثنا عن علاقة مملكة طليطلة بالنصارى. وقد توفى سليمان بن هود فى عام ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦م مخلفا خمسة أبناء قسم بينهم مملكته. وكان هذا خطأ سياسيا فى سلسلة أخطاء ملوك تلك العصور يستوى فى ذلك ملوك الطوائف المسلمين، وملوك النصارى على فداحته وخطورته وضآلة نتائجه.

فقد قسم سليمان أعمال مملكته بين أولاده الخمسة. ونشب بين الإخوة ما كان متوقعا أن يحصل من الحروب الدامية التى يقع السكان فى هذه المناطق فى مغبتها قتلا وتخريبا وتنكيلا. وقد استطالت الحروب الأهلية بين الإخوة وبالذات بين أحمد ابن سليمان حاكم سرقسطة، وأخيه يوسف(٣) حاكم لاردة(٤).

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٦٨.

(٢) : أنظر قبل، ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) : (لاردة Lerida : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادى شقر Seger شرقي سرقسطة، وفى منتصف الطريق بينها وبين برشلونة. ولاردة الآن مديرية قائمة بذاتها. أما فى العصر الإسلامى فكانت القاعدة الثانية بعد سرقسطة فى منطقة الثغر الأعلى.)
انظر، ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ١، ص ٩٨.

ويحمل المؤرخون القدامى على أحمد بن سليمان الملقب بالمقتدر كثيرا ـ وحق لهم ـ ويعيبون عليه انتهازيته ووصوليته. فقد اتهم بسوء سياسته وتغليبه المصلحة الذاتية على مصلحة الإسلام والمسلمين ويهمنا هنا أن نتناول بالحديث الأحداث التى وقعت بين المسلمين والنصارى، ومواقف ملوك الممالك الإسلامية منها كل فيما يخصه. فقد كان من جراء التنازع بين الشقيقين أن انضمت مدينة تطيلة وهى تابعة لمملكة سرقسطة إلى يوسف بن سليمان دون أخيه أحمد. وقد أوغر هذا نفس أحمد على أهالى المدينة. وصادف أن داهم الغلاء والمجاعة المدينة، فعمل يوسف على أن يرسل لها من قاعدته مدينة لاردة مؤونة غذائية عاجلة. وأرسل يوسف إلى ابن ريمند (غارسيا ملك نافار) يطلب منه أن يسمح للقوافل بعبور بلاده إلى مدينة تطليلة مقابل مبلغ من المال. ووافق ابن ريمند على ذلك. وكان السبب فى ذلك أن يوسف اضطر إلى هذا إضطرارا لصعوبة مرور القوافل فى أراضى أخيه للنزاع الناشب بينهما. غير أن أحقاد أحمد ومطامعه جعلته يتنكر حتى لأبسط المبادىء الإسلامية. فراسل غارسيا يطلب منه أن يسمح له بمهاجمة القوافل والفتك بها مقابل مضاعفة المبلغ الذى كان أخوه قد عاقده عليه.

ولسننا هنا فى حاجة إلى التذكير بما حدث، فهو وصمة عار فى تاريخ المقتدر ونقطة سوداء فى صفحته. رغم أنها حققت على المستوى المنظور ما طمع إليه من تفتيت قوى أخيه، واستعادة هيبته ومكانته. وقد أتاح أحمد بفعله هذا وبدخوله فى مشكلات وخلافات مع إخوته للنصارى التطلع إلى مهاجمتهم وهم عن وحدتهم لاهون، وفى أهوائهم سادرون(١).

فقد حدث فى عام ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م حادثة شنيعة ترددت أصداؤها فى كل الأندلس الإسلامية. ولم يخف أمرها عن أسبانية النصرانية أيضا فقد تكون جيش فى مقاطعة نورمانديا الفرنسية من الأردمانيين (النورمان) قدر عدده بعشرة آلاف

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

فارس بقيادة البيطبين[1] (جيوم دى مونترى) قائد جيوش البابوية والدولة الرومانية المقدسة. فقد تكون هذا الجيش بناء على دعوة صليبية رفعها البابا إسكندر الثانى لمهاجمة المسلمين. وتحركت هذه الحملة من فرنسا وعبرت إلى أسبانيا النصرانية عن طريق إمارة برشلونة واتجهوا إلى مهاجمة أعمال أول مملكة إسلامية فى طريقهم وهى مملكة سرقسطة فى هدف غير واضح. ولن ندخل فى تفاصيل ما حدث وما يعنينا هنا هو التذكير بما آل إليه أمر المسلمين فى ذلك الوقت، فقد جاء هذا الجيش الجرار الضخم، فحاصر مدينة وشقة التابعة لمملكة سرقسطة، غير أنه عدل عن محاصرتها بعد قليل لمناعتها. فساروا إلى مدينة بربشتر. وكانت تابعة ليوسف المظفر شقيق أحمد المذكور. وضرب هؤلاء الحصار على المدينة وضيقوا عليها الخناق. كل ذلك تحت سمع ونظر أحمد المقتدر بن سليمان الذى لم يحرك ساكنا، وقد كان فى استطاعته لو شاء أن يصد هذا الجيش، كما أن اخاه يوسف لم يفعل شيئا لعدم قدرته على المواجهة، فتركا المدينة لمصيرها.

---

(١) : البيطش كما يقول ابن عذارى، والبكرى أو البسطين كما يقول ابن الكردبوس، أو البيطبين كما يقول الحميرى من الكلمات الغامضة فى التاريخ الأندلسى. ولقد كتب أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس السالف الذكر، ح ٢، مادة تاريخية مهمة حول هذه الكلمة، وحول اسم قائدها. نسمح لأنفسنا هنا أن نجتزىء نقاطا مهمة منها.
فأحمد مختار العبادى يميل الى الأخذ بترجيح رأى المؤرخ الهولندى دوزى من أن البيطبين هو القائد النورماندى جيوم دى مونترى (Guitiaume de Mentreuil) الذى كان قائدا لفرسان البابا إسكندر الثانى فى روما Alexanfer II ١٠٦١ - ١٠٧٣م والذى قاد باسم البابا حملة عسكرية لإخضاع ثورة مونت كاسين فى إيطاليا. وقد نفى دوزى بهذا الترجيح أن يكون قائد حملة بربشتر هو القائد روبرت كارسبين Robert Crespin كما رددته بعض المصادر المسيحية. وقد نافش العبادى كذلك خطأ اعتقاد المؤرخ الأسبانى باسكوال دى جاينجوس من أن قائد تلك الحملة هو صاحب قشتاله، وأن البيطين هو تحريف لكلمة بطير أو البيطر أى بيدرو Pedro بالأسبانية. كما ناقش العبادى كذلك خطأ رأى المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال من أن المقصود بالبيطبين هو أسقف مدينة ليوم الأسبانية آنذاك والذى كان يسمى فى ذلك الوقت البيطس Alvitus
وعقب إيراده لكل هذه الآراء يعقب العبادى بقوله (أما الروايات المسيحية الأخرى، فهى =

وسقطت بريشتر(١) بالفعل فى أيديهم بفعل عدة ظروف كالخيانة والجوع والعطش وانتشار الأوبئة، ولقى أهلها مصيرا سيئا للغاية، وأعمل فيهم هؤلاء قتلا وفتكا وتنكيلا، وعـما حدث لهذه المدينة وأهلها نورد صورة تدل على ابتعاد هؤلاء عن الإنسـانية. فقـد أمر قائد هذا الجيش أهل المدينة بمغادرتها والخروج إلى خارج

= كلها تشير إلى أن هذه الحملة على بريشتر وإن كانت فرنسية نورماندية فى معظمها، إلا أنها صليبية مسيحية عامة بشر لها البابا اسكندر الثانى فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا. وكان الهدف منها هو الإسراع فى إنقاذ دولتي أراجون ونافارا فى شمال أسبانيا من الخطر الإسلامى بمنطقة الثغر الأعلى ولا سيما بعد كارثة جرادوس Grtaus أو Grados التى قتل فيها ملك اراجون راميروا الاول سنة ١٠٦٣م. على يد المقتدر بن هود ملك سرقسطة غير أن هذه المصادر المسيحية وإن كانت قد اتفقت حول هدف هذه الحملة الا أنها قد اختلفت فيما بينها حول اسم قائدها العام، فالبعض يرى أنه النبيل الفرنسى Elbes de rousy ، والبعض الاخر يرى أنه الكونت بلدوين دى فلاندس Elconde Balduino de الذى كان وصيا على فيليب الأول ملك فرنسا، وأن قواد الفرق التى عملت تحت قيادته فى هذه الحملة هم :ـ

١ ـ جيوم دى مونتروىGuillaume de Montreuilحامل شعار البابوية الذى أرسله البابا على رأس فرقة من الفرسان الإيطاليين.

٢ ـ سانشوراميرث Sancho Ramirez ملك أراجون الذي خلف أباه المقتول راميروا الأول.

٣ ـ الكونت أورخيل Conde Urgel ابن أخى ملك أراجون وقائد الجيوش القطلانية.

٤ ـ البـارون روبـرت كارسبـين Robert crespin قائد جيوش جنوب فرنسا مثل ولايتي نورمانديا واكتانيا.

٥ ـ جى جيو فروا Gui Geoffroi قائد جيوش بواتييه وبوردو وبقية تلك الجهات.

وسـواء أكـان قائد هذه الحملة الصليبية على بربشتر هو بلدوين أم خلافه، فالذى يثير التساؤل فى هذا الصدد هو أنه إذا كان اسم بلدوين قد اشتهر فى الحروب الصليبية فى المشرق العربى وحرفه المشارقة إلى بغدوين، أفلا يجوز أن يكون نفس هذا الاسم قد عرفه الاندلسيين أيضا فى المغرب العربى وحرفوه الى بيطين؟.)

أنظر ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ٢، ص ٦٩ ـ ٧١.

(١) : بربشتر Barbastro مدينة ومركز إدارى فى مديرية وشقة (الأسبانية) تقع على نهر Cinca أحد نهيرات الابرة النابعة من جبال ألبرت وتقع على ستين كيلو مترا فى شمال شرقى سرقسطة. =

أسـوارها، فتزاحم الناس على الخروج منها. وعندما خرجوا جميعا هالت كثرتهم جيوم دى مونترى وأفزعته، وخشى أن تثور فى نفوسهم ثائرة النخوة والكرامة، فأمر جنوده بإطلاق السيف فيهم.

وأخيرا أمر رجاله بمهاجمة الدور واستلابها واستلاب أهلها. ومن أبشع الأعمال التى بسـطتهـا كتب المؤرخـين القدامى هى حادثة انتهاك أعراض بنات ونساء المسلمـين فى وحشية مقـززة. يقول ابن عذارى فى روايته لأحداث هذه المدينة البائسة: (وكانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم إبلاغا فى نكايتهم ويعبثون فى الثيب ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو هذه موثق فى الحديد، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانه يعبثون فيهن. فبلغ الكفر يومئذ منهم مالا تلحقه الصفة والحول والقوة لله العظيم.)[1].

ويروى البكرى الجغرافى المشهور عند وصفه لجغرافية بربشتر صورة مؤسية لتلك الأعمال التى ارتكبها النورمان فيقول (وكان فى عسكره[2] نحو أربعين ألف فارس، فحصرها أربعين يوما حتى افتتحها وذلك فى سنة ست وخمسين وأربعمائة، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذرارى المسلمين ونسائهم مالا يحصى كثرة. ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية، وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه.)[3].

وينقل ابن عذارى عن ابن حيان ما بسطه فى نقد مرير لاذع لأحداث هذه المدينة ويسشف برؤية المؤرخ النابه ما سيحدث بعدها، فيلفت النظر إلى تدارك هذا.

= انظر ابن الكرديوس، المصدر السابق ح٦، ص٧٢.

(١): عن أحداث بربشتر يراجع:

- ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٤ - ٢٢٦. - محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٧٥ - ٢٧٩.

-Jan Read: Op. Cit., P 103- 104 -

(٢): يقصد البيطبين قائد الحملة.

(٣): جغرافية الأندلس وأوربا، من كتاب (المسالك والممالك) ص ٩٤.

ولكن صيحته هذه ذهبت ادراج الرياح. فيقول (وطرق الناعى بها قرطبة فى شهر رمضـان، فصـك الأسماع وأطار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصار للناس شغلا تسكعوا فى التحدث به والسؤال عنه، والتصور لحلول مثله أياما، ولم يفارقوا ذلك عادتهم من استبعاد الوجل والاغترار بالأمل والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل. ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا صنفين منهم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء، فلما تتنافر أشكالهم بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لاكفاء له ولا مخلص منه فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة وجريا إلى الفرقة. والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم فما القول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها. هل هى مشفية على بوارها واستئصالها، ولقد طمّ العجب لهؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء فى بريشتر إلا الفزع إلى حفر الخنادق وتعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم عن السوءة السوداء من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليهم أمور قبيحات الصور، مؤذنات الصدور، بأعجاز تحل الغير،

أمور لو تدبرها حـكيم   أذن لـنهى وسـبّ بها استـطاعه

فدهرنا هذا قد غربل أهله أشد غربله وسفسف أخلاقهم، وخبثّ أعراقهم، وسفه أحلامهم، واحتوى عليهم الجهل فلبثوا فى غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل وذلك من أدل الدلائل على فرط جهلهم، واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى ظل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم، يتبحبح عراص دورهم، ويستقرى بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم منهم طرفا ويبيد أمه، ومن لدينا وحوالينا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما أن يسمع بمثله بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أو داع لهم فضلا عن نافر اليهم أو مواس لهم حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن فتقهم ليس بمفض الينا،

قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعناء.)[1].

ولقد هزت هذه الحادثة ملوك الطوائف هزا وأيقظتهم من سباتهم، وكان أكثر هؤلاء هلعا وخوفا أحمد بن سليمان المقتدر، إذ رأى نذر الخطر تقترب منه وتحيطه. فسارع إلى رفع نداء الجهاد فى سائر بلاد المسلمين. وهب هؤلاء إلى إجابة دعوته، وتكون جيش كبير على وجه السرعة، وتشكل من ممالك الطوائف الأخرى وحدها ستة آلاف من الفرسان وبعث ملك إشبيلية المعتضد[2] بكتيبة من خمسمائة فارس. وتوجه هذا الجيش سراعا إلى بربشتر التى كانت تقوم بها حامية من الاردمانيين تقدر بخمسة آلاف مقاتل. وقد أصدق هؤلاء ربهم النية فحاصروا بربشتر وضيقوا عليها وانتهى الأمر بدخول المسلمين المدينة غرة، وانتصارهم إنتصاراً باهراً.

(فاستولى المسلمون على المدينة وغسلوها من رجس الشرك وجلوها من صدأ الإفك.)[3] وبذلك استطاع ابن هود أن يعيد الاعتبار لذاته، وأن يسترد هيبته ومكانته المفقودة.

ولم يقصر فرديناند من جهته فى مضايقة المقتدر أحمد بن سليمان وابتزازه. يقول ابن عذارى (ثم إن الروم دمرهم الله استطالت أيديهم فى مدة ابن هود على بلاد المسلمين بالثغر الأعلى فأخذ معهم ابن هود فى إعطاء (الجزية) وصالحهم. فأخذ الطاغية كالذى رتبه عليه وقسمه على رعيته وعلى أهل عسكره.)[4]

وعندما توفى الملك فرديناند عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة، فأعطى ابنه الأكبر سانشو قشتاله وحقوق الإتاوة على مملكة سرقسطة، وأعطى ابنه الثانى الفونسو، ليون واستوريش وحقوق أخذ الإتاوة من مملكة طليطلة، وأعطى ابنه الثالث غارسيا جليقية والبرتغال وحق الإتاوة على مملكتى

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) : ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٦٧، وكذلك ح رقم ٣، ٤، ٥ من نفس الصفحة.

(٣) : ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٤) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

إشبيلية وبطليوس، وإعطى ابنته اوراكا مدينة سمورة، واعطى ابنته الثانية البيرة مدينة تورو[1] وقد عمل سانشو على أخذ الإتاوة من أحمد بن سليمان المقتدر. ولم يجد هذا بدا من دفعها له بإنتظام.

مملكة طليطلة وعلاقتها مع النصـارى:ـ

كانت مملكة طليطلة تشكل هى وممالك سرقسطة وبطليوس وإشبيلية أكبر ممالك الـطوائف وأقـواهـا فى الأندلس كلها وكانت تخوض فى نفس الوقت مع بعضها البعض حروبا ومطاحنات عسكرية للتوسع على حساب بعضها البعض للاستئثار بأكبر قدر من الأراضى وضمها إليها، وكان ذلك يتم كثيرا على حساب الممالك والإمارات الأقل شأنا والأصغر حجما. ولم تكتف مملكة من هذه الممالك للوصول إلى غاياتها بالتحالف مع مملكة أخرى ضد الثالثة فحسب، بل وجهت انظارها للاستعانة بالنصارى، وأصبح شيئا مألوفا أن يعتضد كل فريق من المسلمين بفريق ومن النصـارى ضد منـاوئيه من خصومه والنصارى المتحالفين معهم. ورغم أن ممالك النصارى كانت تعانى فى ذلك الوقت من الحروب الأهلية بين أبناء سانشو العظيم، إلا أنها كانت تسارع إلى تقديم مساعداتها العسكرية إذا ما طلبت منها ذلـك إحـدى ممالـك الـطوائف لإنهاك قوى المسلمـين من جهـة، ولابتـزازهم والاستيلاء على ما بأيديهم من أموال وأراضٍ من جهة أخرى. ولم يتوقف هؤلاء النصارى عن العمل ضد المسلمين منفردين كل لحسابه الخاص، غزاة مرات، وطالبي إتاوة مرات أخرى. وبات غير مستغرب أن نجد فرديناند بن سانشو يقف مع فريق من المسلمين ضد فريق آخر يقف معه إخوه غارسيا. وكلاهما تحصل على ثمن باهظ لتقديم نصرته.

وكان ذلك الخرق الذى فتح فى الكرامة الإسلامية الذى حدث إبان سقوط الدولة

---

(١) : أنظر:

-J. B. BURy, Op. Cit, P 396.

-Jan Read, Op. Cit, P 101- 102.

ـ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٣٨٩.

الأموية وقت أن استعان خلفاء الدولة الأموية الضعاف بالنصارى وهو ما أشرنا إليه سابقا وأوضحنا مدى خطورته وفداحة ثمنه. هذا الخرق ازداد اتساعا وشيوعا فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء. اقتداء لا يحمل إلا سوء السياسة ووهن الإيمان والخلق. حتى لقد بات ذلك الإذلال المتمثل بالاستعانة بالنصارى، المحور الذى دارت عليه العلاقة بين المسلمين والنصارى طيلة فترة وجودهم فى الأندلس وحتى خروجهم النهائي فى عهدي فرديناند وايزابيلا.

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف إلى أن إسماعيل بن ذى النون استطاع أن يؤسس لنفسه ولأسرته ملكا مستقلا فى طليطلة وذواتها. وعندما توفى خلفه ابنه يحيى بن إسماعيل وتلقب بالمأمون وقد بلغت طليطلة فى عهده عصرها الزاهى، إلا أنه كان على علاقة سيئة مع جارية سليمان بن هود ملك سرقسطة والمعتضد بن عباد ملك إشبيلية، وكذلك مع مملكة بطليوس ولكن الخلاف الأشد وقعا والأكثر عداء كان مع جاره من الشمال الشرقى ابن هود. وكان الخلاف على الحدود بينهما أبرز مثار النزاع المسلح، بل هو لبه. فقد كان الخلاف على الحدود والمناطق التى تمتد بين سرقسطة وطليطلة، والمحصورة بين قلعة أيوب حتى مدينة وادى الحجارة[(١)] تمثل نقطة الاحتكاك بينهما، وكانت مدينة وادى الحجارة بالذات ترنو ببصرها إلى الانضواء تحت سيادة بنى هود رغم كونها تتبع جغرافيا لمملكة طليطلة[(٢)].

ومن هنا نشب النزاع المسلح بين يحيى بن إسماعيل بن ذى النون وبين سليمان بن هود. وهو النزاع الذى آثرنا التحدث عنه كما أشرنا سابقا هنا. وقد دارت رحى حرب قوية بينهما، وبدأ المأمون نكاية بسليمان بن هود بطلب المعونة العسكرية من فرديناند، على أن يقر له بالسيادة ويتعهد بدفع إتاوة سنوية له. ووافق فرديناند على دعمه وتأييده، فأرسل كتيبة من جيشه للاعتداء على أراضى ابن هود المتاخمة لأراضى قشتالة. ولم يعدم المأمون من جهته أى وسيلة لإنهاك قوى عدوه اللدود،

---

(١) : (وادى الحجارة Guadalajara فى شمال شرق مدريد، وكانت تعرف أيضا بمدينة الفرج). أنظر، ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ١، ص ٧٢.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

فبعـد أن استعـدى النصارى عليه، هاجم أراضى سليمان بن هود لإنهاك قواه وتشتيتها[١]. وفى نفس الوقت سعى إلى محالفة المعتضد بن عباد والاعتراف بدعوة خليفته هشام المزعوم نكاية أيضا فى عدوه اللدود[٢].

ولم يجد ابن هود هو الآخـر بدا من أن يستعـين بالنصـارى ضد عدوه فطلب العون. . ومِمن؟؟ من فرديناند نفسه، ووافق هذا على دعمه وتأييده ضدّ ابن ذى النون حليفه أى حليف فرديناند إلى وقت قريب. وقد رسخ هذا العمل المقولة القائلة بأنه ليس هناك فى السياسة عداوة دائمة، ولا صداقة دائمة بين الدول، بل هناك مصالح دائمة[٣]. فكان أن أغار فرديناند على أراضي ابن ذى النون، وأثار هذا بطبيعـة الحال غضب المأمون فطلب من غارسيا ملك نبرة وشقيق فرديناند المعونة، فتفضل هذا وهاجم أراضى ابن هود. واستطاع أن يضع يده على مدينة قلهـرة[٤] فى عام ٤٣٧ هـ/ ١٠٤٥م. غير أن غارسيا بدلا من أن يسلمهـا إلى المأمون. احتفظ بها لنفسه[٥].

وهكذا فقد لجأ كل واحد منها إلى طلب معونة النصارى ضد بعضهما البعض. وقـد لج سليمان فى عتـوه وظلمـه، فهاجم بمساعدة أعوانه من النصارى مدينة سالم[٦] التـابعة لمملكة طليطلة، وهاجم الأراضى التابعة لها. وقد أضرت هذه

---

(١) ابن عذارى: نفس المصدر السابق والجزء والصفحات.

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ايضا، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) : مقولة مشهورة للسياسى البريطاني المشهوزر دزرائلى.

(٤) : (قلهرة Calahorra) هى الآن مركز إدارى فى ولاية لكروى وتقع فى منتصف الطريق بين هذه المدينة الأخيرة وبين مدينة تطيلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة.)
أنظر ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ٦، ص ٧٤.

(٥) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٩٩.

(٦) : مدينة سالم Medinaceli تقع فى شمال مدريد بنحو ١٥٠ ك م فى الطريق الذى بين مدريد وسرقسطة، وهى الآن من أعمال مقاطعة سورية Soria. وقد كانت مدينة قديمة عرفت فى العصر الرومانى باسم Ocilis. وقد عمرها إبان الفتح الإسلامى لأسبانيا زعيم مغربى يعرف بسالم بن ورعمال المصموى. وقد عرفت منذ ذلك التاريخ باسمه. وقد خربت المدينة كما يعتقد فى عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى، غير أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أعاد تمصيرها فى عام ٣٣٥ هـ.
أنظر، ابن الكردبوس، المصدر السابق، ح ١، ص ٦٠.

الغارات الوحشية بأراضى ومزارع أهل طليطلة وألحقت بهم الخسائر. وقد تمنى أهـل طليطلة على فردينـانـد أن يكف عن أعماله ويشفق بهم كما سألوه الصلح والمهادنة. بيد أنه اشترط عليهم شروطا تعجيزية جعلت الأهالى يرفضونها، وقالوا لرسله إنه لو كانت لديهم الاموال التى طلبها لكانوا قد بعثوا إلى البربر من وراء العدوة يستمدون عونه. فكان رد فرديناند ردا قاسيا واقعيا، يحمل طابع السياسة التى حددها لاسترجاع ما يقدر عليه من أراضى أسبانيا. فقد جاء فى رده عليهم (وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتهددونا به، ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالى من أتانا منكم. فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم، وقد سكنتموها ما قضى لكم. وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتـركـوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم. ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم.)[1].

وما لبث المأمون أن عاد وحليفه غارسيا يهاجمان أراضى ابن هود ويعبثان فيها. وقد شغلت هذه الحروب المدمرة لأعصاب نفوس المسلمين فى المملكتين ردحا من الزمن ناهز ثلاث سنوات من عام ٤٣٥ حتى عام ٤٣٨ هـ. فلم تنقطع إلا بوفاة سليمان بن هود عام ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦م. وعندما توفى سليمان قسمت مملكته بين أبنائه الخمسة كما مر بنا، وركن المأمون إلى الدعة بعض الشىء.

وبعـد أن استتب الأمـر لفـرديناند إثر إنتهاء الحروب الأهلية بينه وبين أخويه غارسيا وراميرو، تطلع إلى العمل منفرداً لحسابه الخاص هذه المرة. فهاجم سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م أراضى مملكة طليطلة وألحق بها خسائر فادحة. واضطر المأمون الى طلب الهدنة ودفع الإتاوة صاغرا.

وكان المأمون رجلا أعمته الأهواء الشخصية والطمع فى توسيع رقعة دولته. ولذا فقد اختلق مع عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ملك بلنسية خلافا. وعمل من ثم على مهاجمة مملكته وضمها إلى مملكة طليطلة. ولا يهمنا هنا من تفاصيل ذلك إلا ما صنعه المأمون من طلب المساعدة والعون من الملك فرديناند المستعد فى

---

(١) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

كل الاوقات لتلبية طلبات العون والنصرة ينقل ابن عذارى عن ابن بسام شرحه لتفاصيل هذه المعونة فيقول: (وفى هذه السنة[1] كانت وقعة بطرنة من نظر بلنسية وذلك أن قطعة من الروم زلفت إلى بلنسية، فأناخت عليها وأهلها يومئذ جاهل غر أو مترف مغر قد خلوا بشهواتهم، وانخدعوا باغفاء الدهر عن عثراتهم، مقفلين للتدبير، غافلين عما يتعاور أطرافهم من التغيير، فطار بهم الذعر كل مطار، سارت عن زعمائهم فى ذلك أعجب أخبار. ثم كابدهم العدو بإظهار الاضطراب والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب استدراجا لهم واستطرادا. وجدا فى طلب مكروههم واجتهادا، فهاج رعاعهم وتنادى بالنفير مَهَنَتُهُم وصناعهم.)[2]

ثم يعود ابن عذارى فينقل عن ابن بسام ذمه لأمراء الأندلس فى ظل عبد الملك فيقول: (وساعد أولئك الرعاع الخائنين أميرهم يومئذ المترف عبد العزيز[3] بن أبى عامر فخرج بالعير والنفير، والجم الغفير يحسب الطعن كالقبل، وبطن السيوف كالمقل، ويتخيل صليل الحسام بين القصرتين والهام، ما كان اتسع له ذرعه ومرن عليه سمعه، من نغم الأوتار وترنم الأطيار فلم يرع العدو يومئذ إلا خروج أهل بلنسية الأغمار والأغفال، إلى تلك المصارع والأجبال يمشين مشي قطا البطاح تأود أهْيَف الخصور رواجح الأكفال، فظفر العدو يومئذ بهم، فأتاهم من ظهورهم فحكم السيف فى جمهورهم ولم يبق الا من أحرزهم أجله، وخفى على سهم المنية مقتلة.)[4] وينقل لنا المقرى[5] عن ابن بسام قول بعض الشعراء فى أهل بلنسية حين خرجوا فى ثياب الزينة والترفه فيقول:

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم ... حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا

---

(١) : أى سنة ٤٥٥ هـ.

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) : بل هو عبد الملك لأن أباه عبد العزيز توفى عام ٤٥٢ هـ والموقعة حدثت عام ٤٥٥ هـ. انظر، محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٢٣.

(٤) : المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥) : نفح الطيب، ج ٦، ص ١٩٠ - ١٩١.

مملكة بطليوس وعلاقاتها مع النصارى :ـ

بعـد أن استطاع فرديناند ترتيب بيته وحل مشكلاته مع أخويه، تفرغ لمهاجمة أراضى المسلمين تحقيقا لأهدافه فى استعادة أراضى الآباء والأجداد، فاصطدم بمملكة بطليوس التى تقع بين نهر التاجه ونهر دويرة وقد فضل مهاجمة منطقة بعيدة فى شمال غربى هذه المملكـة وهى منطقة لا مييجو الواقعة فى البرتغال الحالية، واستولى عليها بالفعل. ثم اتجه الى مدينة بازو Vizeu ، ولم تجد استماتة أهلها فى الدفاع شيئا، فسقطت بين يديه ولم يستطع ابن الأفطس فعل أى شيء.[١]

ورأى فرديناند أن ينتهز فرصة الخصومة المشتعلة بين ابن الأفطسى وخصمه ابن عباد فى الشرق، وابن ذى النون فى الشمال. فحاول ابتزازه بطلب الإتاوة، إلا أن ابن الأفـطس رفض طلبـه. فجهز فرديناند جيشا ضخما عين عليه أحد قادته، وقصد هذا الجيش مدينة شنترين، ولم يجد ابن الأفطس أمام هذه الهجمة النصرانية بُداً من أن يعقد هدنة مع فرديناند. وتعهد له بموجبها بدفع إتاوة سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار[٢].

وكانت أنظار فرديناند تذهب بعيداً نحو مدينة قلمرية الاستراتيجية أعظم مدن البرتغال التى فتحت فى عهد المنصور بن أبى عامر عام **٣٧٥ هـ/ ٩٨٥م** وكان يليها من قبل ابن الأفطس رجل يدعى رانده، فتوجه فرديناند نحوها فى عام **٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م** وحاصرها محاصرة شديدة استطالت إلى ستة شهور. وأخيرا استطاع فردينـاند أن يشترى ذمة رانده وأمانته. وجرى الاتفاق بينهما على أن يخرج رانده بأهله وأمواله سالما من المدينة مقابل تسليمها له. وبدهى أن بفت غيابه عن المدينة فى عضد أهلها، فعرضوا على فرديناند التسليم مقابل الأمان، إلا أنه رفض وضيق عليهم الخناق حتى استطاع بعدئذ أن يقتحم المدينة عنوة. وقد ارتكب جنوده من صنـوف البـذاءة والتنكيل بما يدرج فى مصنفـات الأعمال الوحشية[٣]. وقد ولى

---

(١) : انظر JB. Ba Ry. Op. Cit., P 395.-

(٢) : ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) : نفس المصدر السابق والجزء، والصفحات.

فرديناند على المدينة حاكما من قبله هو الأسقف سشندو الذى نشأ وظهرت المعيته كرجل من المتعربين فى بلاط المعتضد بالله. غير أنه ترك بلاط المعتضد فاراً بنفسه والتحق بفردنياند حيث دخل فى خدمته. وقد ولاه أخيراً حكم مدينة قلمرية ومنحه لقب الكونت أو الوزير(١).

وبعد ذلك شرع فرديناند من فوره فى الاستيلاء على الأراضى الواقعة بين نهر دوبرة ومينو (مندريجو) وذلك تنفيذا لخطته المذكورة الهادفة إلى إجلاء المسلمين عن حدود مملكته شيئا فشيئاً (٢).

مملكة إشبيلية وعلاقاتها مع النصارى :-

لم تسلم مملكة إشبيلية من هجمات الملك فرديناند الذى لسوء حظ المسلمين كان يفيض حماسة واندفاعا مسيحياً عظيما. ففى عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وهو العام الذى هاجم فيه مملكة بطليوس هاجم أراضي المعتضد وغزاها. واضطر المعتضد إلى التوجه لمعسكر الملك النصرانى، فقدم له الهدايا الثمينة ودفع له الإتاوة التى فرضها عليه بعد أن أخذ بمشورة الفقهاء فى مملكته.

ويقول دوزى: إن فرديناند عندما رأى رأس المعتضد وقد اشتعل شيبا وتجلله هاله من الوقار - رغم أنه لم يتعد السابعة والأربعين من عمره - أشفق عليه من تكدير خاطره بانتزاع شيىء من أراضيه. ولكنه طلب اليه أن يسلمه رفات القديسة (جوست) العذراء التى قتلت فى عصر الاضطهاد الرومانى. ووافق المعتضد على هذا، وقفل فرديناند عائدا إلى ليون، وبعث باثنين من الأساقفة لتسلم الإتاوة، وتسلم رفات القديسة. إلا أن الأسقف (ألفينوس) فشل فى العثور على رفات القديسة المذكورة، وقد نقل عوضا عن رفاتها، رفات القديس (أزيدور) مشيعا بإجلال المعتضد ورجاله(٣). واستمر المعتضد يدفع له الإتاوة السنوية وبانتظام. وبعد وفاة فرديناند وحتى وفاة المعتضد فى عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨م كانت الإتاوة

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٨٦.

(٢) : عن توسعات فرديناند على حساب الممالك الاسلامية انظر:
-J.B. Bu Ry. Op Cit., P. 395- 396.

(٣) : ملوك الطوائف، ص ١٧٢ - ١٧٥.

تدفع بانتظام إلى سانشو بن فرديناند ملك جليقية الذى عهد إليه والده أيضا بأخذ الإتاوة من مملكة إشبيلية[1].

وفى الحقيقة لقد كانت سنوات ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٦٥م سنوات صعبة فى تاريخ المسلمين عموما فى الأندلس. فقد شهدت هذه السنوات الهجمة النصرانية الشرسة على معاقل المسلمين. فانتزعت منهم ما قدرت عليه من المدن والحصون، وإن كان بعضها قد استرد بعد قليل مثل بربشتر.

وقد أصاب الهلع والجزع ملوك الطوائف، وغصوا بالهجوم المسيحى كثيرا. وعمت موجة من المرارة والتأسى المسلمين مما دفع بعض المفكرين والأدباء والشعراء إلى دعوة أمراء المسلمين إلى التكاتف والتعاضد ونبذ الفرقة والخلاف.[2]

واذا كانت لم تسلم مملكة من الممالك الثلاث وهى سرقسطة وطليطلة وبطليوس من فقد بعض أطرافها على يد ملوك النصارى، فإن مما يحمد للمعتضد أنه لم يحدث فى عهده النزول عن أى طرف من أطراف مملكته. كما أن مما يحمد له أنه لم ينسق كما انساق غيره من ملوك الطوائف إلى الاستعانة بالنصارى فى سبيل أهداف ذاتية. فيكاد يكون الوحيد من بينهم الذى لم يطلب معاونة النصارى ضد خصومه المسلمين. على أن هذا لا يجنبه المؤاخذة ويعفيه من المعرة، إذ لم يسلم شأنه شأن غيره من ملوك الطوائف من معرَّة دفع الإتاوات المالية لملوك الأسبان والنصارى، كما أن مما يعاب عليه أنه قد ترك إخوته من المسلمين يواجهون هجمات النصارى الشرسة دون أن يسارع إلى تقديم نصرته، وهو الذى كان فى ذلك الوقت أقوى ملوك الطوائف على الإطلاق، وكانت مملكته أقوى وأكبر ممالك الطوائف تلك. فقد كان فى وسعه أن يقدم نصرته إلى إخوته، وكان فى وسعهم كلهم أيضا الوقوف أمام هذه الهجمة النصرانية.

ولكن كيف يحدث هذا؟؟. وأحد هؤلاء يحارب اخوته، وثانيهم ينشغل بتوسيع مملكته على حساب جيرانه، وثالثهم منشغل بتشييد القصور والمجالس منصرفا إلى

---

(١) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٧٢.

(٢) عن دعوة الفقهاء والعلماء للتوحد، أنظر: خليل إبراهيم السامرائى: مقال بعنوان: الدعوة إلى التوحيد الأندلسى في أيام الطوائف، العدد الثالث ـ مجلة زانكو، نيسان، ١٩٧٧م.

تزويقها وتأنيقها عن كل خطب وحدث .

ولقد حفظ لنا ابن بسام عن المأمون بن يحيى ملك طليطلة صورة تدل على فرط الإهمال وعدم المبالاة والاكتراث، والانشغال بالمترفات والشهوات فى وقت كانت تهاجم فيه أراضى جيرانه سكان بطليوس على مسمع ومرأى منه . وكان جل اهتمامه منصبا حول انتهاء أعمال البناء والتزويق فى قصره الفخم المكرم الذى كان يشيده آنذاك[١] .

ولقد ندب كثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والمفكرين أنفسهم لتنبيه ملوك الطوائف وتحذيرهم ولفت أنظارهم للأخطار المحدقة والقادمة . وتطوع بعضهم إلى التجوال لدى ملوك الطوائف بهذا الخصوص. ومن هؤلاء الشاعر الأديب أبو حفص الهوزنى ـ الذى سنعرض له قادما عند الحديث عن الحياة الأدبية فى إشبيلية إن شاء الله . فقد كان صادق الإيمان والحس جريئا فى الحق، فبعث إلى المعتضد برسالة شرح له فيها حالة المسلمين السيئة مع النصارى، حتى لقد خشى على الإسلام والإيمان أن يصيبهما الاغتراب والانقضاض. وقال له إن الحكام فى غفلتهم سادرون، والناس ذهول وخنوع، كما طلب من المعتضد وتوسل إليه مؤملا إنقاذ الوضع واستدراك الأمر، كما طلب منه أن يقود الجيوش ويترأس الطلائع والجنود لتخليص المسلمين من النصارى. وهى رسالة طويلة تمثل معاناة الشعب فى ذلك الوقت. ولم يكن الوزير أبو حفص هو وغيره إلا ضمير تلك الأمة وصوتها المسلم الواعى الذى تعالى لإستدراك ما يمكن استداركه[٢] .

ونورد فيما يلى بعضا من تلك الأبيات التى نظمها[٣] الأديب الهوزنى مستحثا الحكام للجهاد وداعيا للاجتماع والوحدة ومتأسفا على وضع المسلمين المزرى :

أيا أسفا للدين إذ ظل نهبة بأعيننا والمسلمون شهود
أفى حرم الرحمن يلحد جهرة ويجعل إشراك الإله شهود
ويسلب بيت الله بين بيوتكم وقادره عن رد ذاك قعيد

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٧٠ ـ ٧٥ .

(٢) نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣) انظر، المصدر السابق، القسم الرابع ـ المجلد الأول، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

ويوضع للدجال بيت بمكة ... ويخفى عليكم منزع وقصود
أعيذكم أن تذهبوا فيمسّكم ... عقاب كما ذاق العذاب ثمود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم ... يؤم به أقصى البلاد وفود

وقال أيضا:

تبارك من تفرد بالبقاء ... وأسلك خلقه سبل الفناء
وشتت شملهم بعد انتظام ... وكدر وردهم أثر الصفاء

وقد أيقظت هذه التحركات من قبل العلماء والفقهاء بعض ملوك وأمراء الطوائف، ونبهتهم إلى ما يحدث. وقد بعث المعتضد برده إلى الوزير أبى حفص بما يؤكد احساس المعتضد بخطورة الحالة السياسية فى الأندلس. ومن فصول رسالته لأبى حفص: (.. ما سمعت بصحة دينك وبرد يقينك حتى نظرت إلى ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم، يجوسون البسيطة من ديارهم ويستبيحون المحوط من ذمارهم. ليس إلى الإنقياد عن أحكامهم دفاع، ولا سوى الانحياز من امامهم امتناع، قد تبين لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر، وتواكلنا مظاهر مؤازر، فلا يعدمون من يتخلى لهم عن بلد ويعطيهم الجزية عن يد ولو شاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض.)[1].

ثم يقول أيضا (وأما ما ندبت إليه، وحضضت عليه من إجهاد السعى فيما يقمع المشركين بددهم الله، ويجمع كلمة المسلمين. فيعلم الله أنى قد ناجيت بذلك وناديت، وراوحت وغاديت، وبثثت رسلى إلى ذلك داعين، ويصلون التفكرة، ويؤكدون التبصرة، ويتلون المواعظ، ويستثيرون الحفائظ، فصمت المسامع، واتفقت فى التثاقل المنازع، وخلج[2] بالخذلان، وتجاوزت الجمجمة فى ذلك إلى الإعلان، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى[3]). غير أننا فى الحقيقة لم نجد ما يؤكد كلام وجهد المعتضد هذا الذى أشار إليه.

---

(١) : ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ٩٩ ـ ١٠١.
(٢) خلج يخلج من انتزع ينتزع.
انظر الفيروزآبادى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٣.
(٣) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والمجلد أعلاه، ص ١٩٩ ـ ١٠١.

كما احتفظ لنا الفتح بن خاقان برسالة ابن طاهر صاحب مرسية إلى المعتصم بن صمادح أمير ألمرية يبدى فيها القلق والتأسى لأحوال المسلمين، وكيف ضيق عليهم أعداء الله الخناق؟؟، ومن فصول هذه الرسالة (. . .فليندب الإسلام نوادبه وليبك له شاهده وغائبه، فقد طفى مصباحه ووطىء ساحته وهيض عضده وغيض غده. إلى الله نفزع وإليه فى طارق الخطب ومنتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو فارج الكروب وناصر الحروب وعالم الغيوب، لا رب سواه، ذلك أن فرديناند وقمه الله نزل على قلعة أيوب محاصراً لمن فيها ومغيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء، وتتساقط لملاحقاتها الأعضاء، وأنه قد بنى على قصد جهاتنا ووطء جنباتنا، إلا أن يدرأ الله فى نحره، ويحمى من شره. وغرسيه دمره الله بسرقسطة، ورذمير أهلكه الله بوشقة وما والاها ينكى بها يبكى، والمسلمون بينهم سوام ترتع، وأموالهم نهب توزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطل الفكر فى هذا الحزم الداخل والبلاء الشامل، وأسبل العبر وأطل العبرة والله المرجو لتلافى الأمة، وكشف هذه الغمّة بمنّه.)[1].

أما الشاعر الأديب أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى المعروف بالسميسر، أحد شعراء عصر ملوك الطوائف آنذاك وأحد أبرز أصوات المعارضة لملوك الطوائف، فقد قال[2] فى نقد مرير لاذع:

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذى أحدثتم
أسلمتم الإسلام فى	أسر العدا وقعدتم
لا تنكروا شق العصا	فعصى النبى شققتم

وقال أيضاً:

رجوناكم فما أنصفتمونا	وأملناكم فخذلتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب	وأنتم بالإشارة تفهمونا

(١) قلائد العقيان، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الثانى، ص ٣٧٤.

كما انتدب القاضى أبو الوليد الباجى نفسه للدعوة للجهاد والحض عليه ـ وسنعرض له قادما إن شاء الله ـ فتطوف بممالك الطوائف يدعو إلى الوحدة والتآلف، غير أنه لم يوفق فى دعوته، فقد قابلها ملوك الطوائف بفتور وبرود شديدين.

وهكذا فقد شهد عهد المعتضد بالله اشتداد نشاط حركة الاسترداد بشكل لم تسلم منه أى مملكة من الممالك إطلاقاً، اللهم إلا مملكة إشبيلية التى سلمت لها أطرافها. ولكنها بالمقابل لم تسلم من دفع الإتاوة للنصارى كما ذكرنا.

حياة المعتضد الخاصة ووفاته

تناولنا فى حديثنا عن شخصية المعتضد بالله وآراء المؤرخين فيه جوانب سلوكية منفرة أشرنا إلى أنها قد حتمتها عليه خلال غريزية فى أحيان، وظروف اضطرارية فى أحيان أخرى، ونهج لا يخرج عن روح العصر فى معظم الأحايين.

ونحن هنا نعود لاستكمال الحديث عن شخصية المعتضد بكل جوانبها وبما لها أو عليها لنرسم صورة دقيقة لهذه الشخصية المميزة فى تاريخ الأندلس كله فى ذلك الوقت.

والجانب الآخر من شخصية المعتضد هو ذلك الذى يتعلق بالحياة الخاصة له فى بلاطه وخارجه. وسنقتصر فى حديثنا عن هذا الجانب على شىء من أعماله فى دولته إضافة إلى ما سنعرض له من وصف لحياته العائلية ولشيء من صفاته الشخصية.

ونحن لا نعلم بالضبط وصفا مفصلا واضحا عن أعماله الداخلية والمشاريع العمرانية والمدنية فى مملكته. إلا أننا لا نتصور بأن دولة كانت أعظم ممالك الطوائف على الإطلاق فى ذلك الوقت مساحة وثروة وجاها إلا ولابد أن تكون قد حققت الكثير الكثير بالنسبة للمرافق العامة فى البلاد في كافة المجالات بحيث غدت إشبيلية أزهى ممالك الطوائف وأوسعها ثراءاً وأعرقها حضارة ورقياً.

ويجمل ابن الأبار وابن بسام فيما ينقلان عن ابن حيان أعماله الداخلية تلك بقولهما (ولم يقصر عباد فى دولته التى مهدها فوق أطراف الأسنة، وصيّر أكثر شغله فيها، شبّ الحروب وكياد الملوك وإهراج البلاد وإحراز النداء، من توفر حظه الأوفر فى الأمور الملوكية والعدد السلطانية والآلات الرياسية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة وغالي الأعلاق السنية، وارتبط الخيول السابحة، واقتنى الغلمان الرّوقة، واتخذ الرجال الذاده، تنقاهم من كل فرقة. فساس طبقاتهم ما بين إدرار الأعطية وضمان الزيادة.)(١).

---

(١) الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٠ ـ ٤١. ـ الذخيرة، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٦.

تلك هى أهم أعماله الإنشائية. أما بالنسبة للسياسة الداخلية فيبدو أن المعتضد كان يتوجس خيفة من المحيطين به. وكان يعمد إلى إضعافهم وتشتيت قواهم ونفوذهم. وقد مر بنا أنه قد قتل حبيب[1] وزير أبيه ربما لأنه قد شعر بأن نفوذه أخذ يتعاظم. كما أنه شرع يعمل على قطع دابر وزرائه. فمنهم من قتله صبرا، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولا وفقرا[2]. وربما يعود هذا إلى أنه لم يكن يطيق سماع أصوات المعارضة بالإضافة إلى أنه كان يأخذ بالظنة. كما أنه لم يكن مأمون الطوية، فقد كان يوصف بالغدر والإخفار للذمة. وسنرى بعد فى حديثنا عن الحياة الأدبية القادمة أنه قضى على عدد من وزرائه وأدباء بلاطه. وأن البعض منهم قد استطاع أن يتحاشاه ويفر من وجهه[3].

على أنه كان يتمتع بصفات أخرى حسنة. فقد اتفق رأى المؤرخين على أنه كان يتميز بالسخاء والجود والكرم. فابن عذارى وابن الأبار ينقلان عن ابن حيان قوله (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب.)[4]، وابن القطان فيما ينقله عنه ابن عذارى يقول (وكان يغلب عليه الجود. فلا يعلم فى نظرائه أبذل منه بالمال.)[5].

وقد نظم هو نفسه فى مناسبات عدة جملة من الأشعار يفخر فيها بكرمه وجوده وسخائه. وسنعرض قادما إلى هذه الأشعار إن شاء الله. ولسنا هنا فى حاجة إلى كبير ذكاء لنستخلص من هذا الجود الفائق دوافع وأهدافاً سياسية واضحة بجانب ذلك الميل الغريزى. فالمعتضد يتقن من تلك الحكمة القائلة: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد، الكثير الكثير.

وكان ذا اهتمام بالأدب والشعر والمعرفة. وكانت سوق الأدب كما يقول المؤرخون

---

(١) انظر قبل، ص ١٢٣.

(٢) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣) انظر بعد الباب الخامس، ص ٣٧٧.

(٤) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٠٧. - الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٢.

(٥) البيان المغرب، ص ٢٨٣ - ٢٨٥.

عادة عنده نافقة[1]. وكان هو نفسه ينظم الشعر ويتذوقه ويعطى عليه الأعطيات، وسنعرض أيضاً إلى هذا عند حديثنا عن الحياة الأدبية.

وبالإضافة إلى تلك الخصال التى ذكرناها، فقد كان حازما قويا فى ممارسة أعماله وشئونه فقد (جرد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله لتملى السرور، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ويحيا عليها بقبض الأرواح التى لا تناسيه من أعدائه.)[2]، ويقول ابن القطان فيما ينقله ابن عذارى أيضا (وكان يغلب عليه الجد)[3].

ويقول هو عن نفسه بأنه قد قسّم يومه ولياليه بين تصريف شؤون الدولة والاهتمام بوسائل المتعة والأنس. ولم يكن فى الحقيقة بدعا فى هذا الشأن عن غيره من ملوك الطوائف. وكان لا يصبر عن الخمر (غفر الله له) ويتعاطاها مع الخلص من رجاله وأدبائه فى مجالس الأنس والسمر التى كانت تعقد فى قصره.

أما فيما يتعلق بحياته العائلية، فقد كان المعتضد كما يقول ابن الأبار (ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن وخلّط فى أجناسهن. فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه. فقيل إنه خلّف من صنوف السريات منهن خاصة نحوا من سبعين جارية، إلى حرته المحظية لديه، الفذّة فى حلائله بنت مجاهد العامرى أخت على بن مجاهد صاحب دانية والجزر الشرقية. ففشا نسل عباد لتوسعه فى النكاح وقوته عليه. فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحواً من عشرين، ومن الإناث مثل ذلك)[4].

ولا نملك تفاصيل واضحة عن العلاقة بينه وبين نسائه وأولاده. غير أننا نستطيع أن نستخلص فيما يتعلق بعلاقته مع أبنائه شيئا ذا قيمة. إذ يبدو أنه كان حازما شديدا معهم، فقد رأيناه يغلظ فى معاملته لابنه وولى عهده إسماعيل، وأخيراً رأيناه يفتك به[5]. ورأينا شيئا من هذا عندما غضب على ابنيه محمداً وجابراً غضبا

---

(١) الضبى: المصدر السابق، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

(٢) ابن القطان فيما ينقله عنه ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٨٣ - ٢٨٥.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٣ - ٢٨٥.

(٤) الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٣.

(٥) انظر قبل، ص ١٣٤ - ١٣٧.

شديدا، توعدهما بأشد العقوبات. ورأينا محمدا يرتعد خوفا وفرقا منه عندما فشل بالاحتفاظ باستقلال مدينة مالقة. ولم ينجه من غضب والده إلا القصيدة الرائية التى نظمها مستعطفا مستصرخا عاطفة أبيه. ورأينا شيئا من هذا عندما فرق بين ابنه وولى عهده محمد، وصديقه وأليف روحه آنذاك محمد بن عمار الشاعر المذكور سابقا. فقد انزعج المعتضد جداً للعلاقة التى نشأت بينهما. وما أفضت إلى انصراف ابنه عن مهام الأمور إلى الانغماس فى اقتناص فرص اللذة واللهو، مما جعل المعتضد يعنف ابنه. ويترجم هذا العنف بابعاد صديقه عنه ونفيه فالتجأ الى سرقسطة[1]. على أنه مع ذلك كان محبا لأبنائه عطوفا عليهم، حتى لقد كان سبب وفاته كما يقال هو جزعه الشديد على ابنة له ماتت صغيرة، وكانت أثيرة لديه[2].

وفى عام ٤٦١هـ[3] على الأرجح توفى المعتضد بالله، وكان يبلغ وقتها السابعة والخمسين من عمره. وقد أورد ابن حيان فى رواية دقيقة فيما ينقله عنه ابن عذارى مدة حكم المعتضد فقال (وكانت سن عباد سبعا وخمسين سنة وثلاث شهور، وتسعة أيام تأقيتا من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمائة إلى وفاته يوم السبت ليلتين خلتا من جمادى الآخرة. ومدة إمارته من يوم بيعته بوفاة والده يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ـ ثمان وعشرون سنة ويومان[4]) وقد شيع جثمانه فى موكب مهيب على رأسه ابنه وولى عهده المعتمد الذى تولى الحكم بعده. ودفن فى يوم الأحد فى المقبرة الملكية[5].

---

(١) صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسى، ص ٥٤.

(٢) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) هذا هو قول ابن حيان المعاصر للمعتضد، والذى نقل عنه من جاء بعده. ولذا فإننا نعتمد هذا التاريخ لأنه التاريخ الصحيح والمتفق عليه تقريباً. ولا يمكننا أن نصدق رواية عبد الواحد المراكشى وابن تغرى بردى صاحبي: المعجب، والنجوم الزاهرة. من أن المعتضد توفى عام ٤٦٤هـ. فهو قول بعيد عن الصواب.
انظر، المعجب، ص ١٥٧. ـ النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٩٠.

(٤) ابن الأبار نفس المصدر والجزء والصفحات السابقة، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٥) نفس المصدر والجزء، ص ٥٢ ـ ٥٣.

وقبل أن نختم حديثنا عن المعتضد ينبغى أن نشير إلى أنه قد غدا فى سنواته الأخيرة كاسف البال، شاحب الوجه كثير الهموم. فقد كان هناك شيئان يؤرقانه ويكدران عليه صفو حياته. أولهما نشاط حركة الاسترداد المسيحى، وإحساسه بالخطر مما يخبئه له القدر، وثانيهما خشيته على دولته التى أقامها أبوه ونمّاها هو من السقوط بيد البربر[1].

ومن هنا رأيناه يشتد فى معاملته للبربر وأمراء الإمارات البربرية كما ذكرنا حتى استطاع أن يقضى على نفوذهم، ومع هذا فلم يسترح له خاطر، بل زاد يقينه بأن الخطر على دولته إنما سيأتى من المغرب على يد البربر. ولذلك كان دائم الاستطلاع لأحوال المغرب. وفى هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشى (وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العدوة. هل نزل البربر رحبة مراكش؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه، أو خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه، فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر إليهم، مصعدا ومصوبا ويقول ياليت شعرى من تناله معرّة هؤلاء القوم، أنا أو أنتم. فقال أبو القاسم من بينهم جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن ينزله بك، فكانت دعوة وافقت المقدار.[2]).

ومما يدل على ثقل ذلك الإحساس لدى المعتضد هو ما رواه ابن بسام وابن الأبار عن ابن حيان إذ قالا: (واتفق أن دخل عليه يوما بعض وزرائه وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر فإذا كتاب سقوت[3] المنتزى يومئذ بسبته. يذكر أن الملثمن المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش، فأخذ الوزير يهون أمرهم، ويخبر أن دونهم اللجج والهامة. فقال له المعتضد: هو والله الذى أتوقعه وأخشاه وإن طالت بك حياة فستراه. اكتب إلى فلان - يعنى عامله على الجزيرة[4] بحفظ

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ١٨. - ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٥٠ - ٥٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) ينتسب إلى قبيلة برغواطة البربرية.

(٤) المقصود بها الجزيرة الخضراء.

جبل طارق حتى يأتيه أمرى، فقضى أن خلعوا ولده وقوضوا أمره.)(1)

وبعيدا عن اسطورة الملحمة وغيرها. فإن ما يعنينا هنا هو أن المعتضد وهو السياسى المحنك كان يعرف أن قدر العدوتين الأندلسية والمغربية مرتهن دائما بوجود القوة الفتية التى تفرزها الأوضاع السياسية والدينية فى هذه المنطقة دائما. وتتطلع إلى ربط العدوتين أو معظمهما تحت ظل سلطة مركزية واحدة. كما أن المعتضد مثله مثل غيره من الأندلسيين الآخرين كان يستشعر خطر البربر سواء أكان ذلك خطر بربرى فى الأندلس، أم خطر بربرى خارجى من المغرب، اضافة إلى دوافع الحقد التى يكنها للبربر عامة.

---

(1) الحلة السيراء، ج ٢، ص ٥١ ـ ٥٢. ـ الذخيرة، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص ١٨ ـ وص ٣٠ ـ ٣١.

الباب الثالث

الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله

- تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه.
- الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطة.
- جهود المعتمد فى توسيع رقعة دولته.
- خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر.
- حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته.

تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه المعتضد وآراء المؤرخين فيه

تولى المعتمد زمام الحكم فور إعلان وفاة أبيه المعتضد عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م كما قلنا. وقد كانت سنه غداة توليه السلطة تسعا وعشرين سنة وشهرين وبضعة أيام.(١) هذا ولم يلق ملك من ملوك الأندلس من الثناء والإشادة والإعجاب به أكثر من المعتمد بالله. فقد أسر هذا الملك بخلاله الباهرة وصفاته الحميدة وأدبه وشعره لبّ مؤرخى الأندلس القدامى، ثم جاءت مأساته المحزنة، وخاتمته المفجعة التى سنعرض لها قادما، وكأنها مسلسل روائى يروى قصة مأساة إنسانية مثيرة لتضفى على المعتمد ـ زيادة على ما ناله من الثناء ـ فيضا من الإعجاب المشوب بالإشفاق والأسى.

وفى الحقيقة فإن المعتمد بالله كان جديرا بهذا الثناء والإعجاب، ولكن يجب ألا يذهب بنا الإعجاب إلى الحد الذى ننسى أو نتناسى مسئولية ما وقع فيه المعتمد من أخطاء عن قصد أو عن غير قصد عندما ترك لأهوائه العنان. وإذا كان قد تدارك هذا أو بعضه، فقد كان ذلك بعد فوات الأوان.

نعم إن نظرتنا للمعتمد تتناول الجوانب الإيجابية والسلبية معا لشخصيته، فنحن بقدر ما نعجب بخلاله وصفاته وشعره وأدبه، يجب أن لا نغفل عن أخطائه السياسية أيضا، وهو ما سنتناوله قادما. فعندما تولى المعتمد السلطة كانت الدولة قد شهدت فى عهد أبيه عصرا زاهيا، لحمته الاستقرار والهدوء، وسداه الرقى والازدهار والثراء. فقد ترك المعتضد لابنه دولة مستقرة الأحوال بعيدة الأطراف ذات إزدهار ورفاه جعلها أعظم ممالك الطوائف.

---

(١) انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ٥٣ ـ ٥٤.

وعندما خلف المعتمد أباه عاد للدولة إشراقها ووضاءتها، كما لم يقصر المعتمد عن الارتقاء أكثر فأكثر بدولته حتى فاقت ما كانت عليه فى أيام أبيه من استقرار وازدهار وأصبح بلاطه فى إشبيلية أعظم بلاطات ملوك الطوائف فى الأندلس، بل أصبح يضاهى بلاطات بعض كبار خلفاء بنى العباس[1]. فإذا ما استعرضنا أقوال المؤرخين فى المعتمد يأتى ابن اللبانة صديقه ونديمه وشاعره فى مقدمة المعجبين به. فهو يقول فيما ينقله عنه المقرى[2] (ملك مجيد، وأديب على الحقيقة مجيد، وهمام تحلى به للملك لبّة، وللنظم جيد، أفنى الطغاة بسيفه وآد، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عباده، فأطلع أيامه فى الزمان حجولا وغررا، ونظّم معاليه فى أجيادها جواهر ودررا، وشيد فى كل معلوة فناءه، وعمّر بكل نادرة مستغربة، وبادرة مستطرفه أوقاته وآناءة، فنفقت به للمحاق سوق، وبسقت ثرات إحسانه أىّ بسوق).

أما ابن بسام فيأتى أيضا فى مقدمة المعجبين بالمعتمد فهو يقول (ثم استوسق الأمر بعد المعتضد لابنه المعتمد، وكان مع انشغاله بالحرب، وسعة مجاله بين الطعن والضرب، وعلى أن أباه عباد يدير عليه الرحى، ويفزع إليه كلما قرعت عصا[3] حتى صار أسوة لنجوم ليلها، وحلسا[4] لمنون حبلها.

لا يشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل

فقد كان متمسكا من الأدب بسبب، وضاربا فى العلم بسهم، وله شعر كما انشق الكمام على الزهر، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة، واتخذه بضاعة،

---

(١) يشبهه عبد الواحد المراكشى بالخليفة العباسى الواثق بالله.

(٢) نفح الطيب، ج ٥، ص ٣٧٦.

(٣) مأخوذ من المثل العربى القائل: إن العصا قرعت لذى الحلم. والمثل يضرب لمن إذا نبّه انتبه. وأول من قرعت له العصا هو: عمرو بن مالك الكنانى، وقيل هو عامر بن الظرب العدوانى من حكماء العرب، وقيل غيرهما.
انظر المبدانى: مجمع الأمثال، ج ١، ص ٣٧ - ٣٩.

(٤) الحلس جمع أحلاس ككتف، والكبير من الناس وهو حلس بيته إذا لم يبرح مكانه.
انظر الفيروز آبادى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٥.

لكان رائعا معجبا ونادرا مستغربا، فما ظنك برجل لا يجد إلا راثيا ولا يجد إلا عابثا. وهو مع ذلك يرمى فيصيب ويهمى[1] فيصول. وشعره يوضح ما شرح، ويعبر عما ذكر، مع أنه قد رويت أشعار أولى النباهة والأعيان على قديم الزمان لشرف قائلها مع قلة طائلها.[2]). وكأن ابن بسام قد خشى من اللوم لإسرافه فى الاهتمام بالمعتمد فيقول مستدركا (وقد رأيت أبا بكر الصولى[3] أثبت لملوك بنى أمية وبنى العباس ما لو صدر مثله لصغار الناس لاستهجن أو ظهر لضعفاء السوق لاستصغر، فلنا فى الصولى أسوة فى اثبات هذا النوع من الشعر إن وقع فى كتابنا هذا، والعجب من المعتمد أنه مرى سحابة[4] فى كلتا حاليه، فصاب رديها خاطره، فأجاب وما تراجع له من طبع ولا بعد الخلع، بل يومه فى هذا الشأن دهر، وحسنته فى هذا الديوان عشر، فإن أجاد فما أولى، وإن قصّر فعذره أوضح وأجلى[5]). أما ابن الأبار فيقول (وقد أفضى الأمر إلى ولده، وهو فى ريعان شبابه. وكمال جماله ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة مولده فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة. وقال أبو بكر[6] ابن أبى الوليد بن زيدون: مولده سنة إحدى وثلاثين، وكذلك قال أبو بكر بن اللبانة، وكان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين. عفيف

---

(١) همى: من الشيء يهمى هميا سقط.
انظر الفيروزآبادى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٢) المصدر السابق، القسم الثانى - المجلد الأول، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) هو أبو بكر محمد بن محمد الصولى، وكتابه الذى يذكره ابن بسام هو: أشعار أولاد الخلفاء. وله بالإضافة إلى ذلك عدة كتب أخرى مثل: الأخبار المنثورة، الأوراق، الوزراء، وبعضها مفقود.
انظر فهرست أسماء الكتب الذى وضعه حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٦٩ - ٤٧١.

(٤) مرى الشيء استخرجه، والمعنى استخرج الماء من السحاب.
انظر الفيروزآبادى: المصدر السابق، ج ٤، ٣٩٢.

(٥) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والمجلد أعلاه، ص ٣٢ - ٣٣.

(٦) تولى الوزارة للمعتمد بن عباد بعد وفاة أبيه الشاعر الوزير أبو الوليد بن زيدون.

السيف والذيل، مخالفا لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية، ردّ جماعة ممن نفى أبوه، وسكّن وما نفّر، وأحسن السيرة وملك فأشجع.)[1].

أما عبد الواحد المراكشى[2] فيكيل المديح للمعتمد كيلا حيث يقول: (ثم قام بالأمر بعده ابنه أبوالقاسم محمد بن عباد بن محمد إسماعيل بن عباد، وزاد المعتمد على الله، الظافر بحول الله، وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنه الحلل المنشره، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به، وينضم إليه، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة، والسخاء، والحياء، والنزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة). ويسترسل فى مبالغة واضحة فى إشادته به فيقول (وفى الحقيقة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت، فالمعتمد هذا أحدها، بل أكبرها.)[3].

أما الفتح بن خاقان فقد أشاد به على طريقته المتكلفة المصطنعة فى الأسلوب، فقال (ملك قمع العدا، وجمع البأس والندا، وطلع على الدنيا بدر هوى، لم يتعطل يوما كفه ولا بنانة يراعه، وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم وثغور بره بواسم، ولياليه كلها دررا، وللزمان أحجالا لم يغفلها عن سمات عوارف، ولم يضحها من ظل إيناس وارف، ولا عطلها مأثرة بقى أثرها باديا. ولقى معتفيه[4] منها الى الفضل هاديا. وكانت حضرته مطمحا للهمم ومسرحا لآمال الأمم وموقفا لكل كمى[5] ومقذفا لذي أنف حمى لم تخل من وفد، ولم يصح جوها من انسجام رفده،

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٣) عبد الواحد المراكشى: نفس المصدر والصفحة.

(٤) معتفيه من أعفى. ومعناها أنفق العفو من ماله.

انظر الفيروزآبادى: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٥) الكمى كغنى الشجاع أو لابس السلاح كالمتكمى.

فاجتمع تحت لوائيه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة أعداد يغص بها الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوس والمضار، وطلع فى سمائه كل نجم متقد، وكل ذى فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميدانا لرهان الأذهان، وغاية لرمى هذا البيان، ومضمارا لإحراز خصل فى كل معنى وفصل، فلم يتسم فى ذمامه إلا بطل نجد ولم ينسق فى نظامه إلا ذكاء ومجد فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا مصره تسفح فيه ديم الكرم. ويفصح فيه لسانا سيف وقلم، ويفضح الرضى[1] فى وصفه أيام ذى سلم.)[2].

وبنفس الطريقة المتكلفة هذه ساق الفتح مدحه للمعتمد فى كتابه الآخر مطمح الأنفس ومسرح التأنس[3].

أما ابن خلكان فيقول فيما ينقله عن أبى الحسن على بن القطاع السعدى فى كتاب (لمح الملح) (أقوى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة وأعظمهم تمادا، وأرفعهم عمادا، ولذلك فقد كانت حضرته ملقى الرجال، وموسم الشعراء وقبلة الآمال، وألف العقلاء حتى لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء كما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه.)[4]

أما ابن الخطيب فيشيد بفروسيته وشجاعته وشاعريته كما يشيد بسيرته الحسنة السمعة أيضاً.[5]

وينقل المقرى[6] عن ابن خميس صاحب كتاب أدباء مالقة ما نصه (وقال الفقيه القاضى أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد وقد ذكر الناس من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه.) ويتأهب[7] المقرى للتحدث عن المعتمد فيقول: (وأنا الآن أذكر نبذا من أخباره وأردفها بما وقفت عليه من منظومات

---

(١) المقصود به الشاعر العلوى الشريف الرضى الشاعر العباسى المشهور.

(٢) الفتح بن خاقان: القلائد، ص ٤ ـ ٥.

(٣) ص ١١ ـ ١٢.

(٤) وفيات الأعيان، مجلد ٥، ص ٢١.

(٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة، مجلد ٢، ص ١٠٨ ـ ١١٠.

(٦) المصدر السابق، ج ٥، ٣٧٧.

(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة.

أشعاره، فإنه رحمه الله تعالى جم الأدب، عالى النظم فائقه.).

وخلاصة الأمر أن معظم المؤرخين القدامى لم يتناولوا من شخصية المعتمد إلا الجانب المشرق الوضاء فقط فلم يعنوا بمناقشة وانتقاد مسلكه السياسى الإنتهازى الذى ما لبث أن ظهرت نتائجه له وللمسلمين فى الأندلس من بعد. بل لم يعنوا أيضا بانتقاده على ما كان يقترف فى قصره وبلاطه من المجون والخلاعة والإسراف والتبذير إلى حد كبير.

الموقف السياسي في الأندلس غداة تولي المعتمد السلطة

تولى المعتمد السلطة عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م عقب وفاة أبيه المعتضد. وكانت الفترة التى سبقت تولى المعتمد السلطة والتى أعقبتها بعد ذلك تؤذن بأخطار جسام، فقد بدأت نذرها تطفو إلى السطح وتؤذن بأوخم النتائج بالنسبة للأندلس الإسلامية على وجه التخصيص.

فقد كانت الأندلس الإسلامية تمر بمرحلة من أصعب فترات حياتها السياسية وأكثرها اضطرابا، رغم ما بلغته المالك الإسلامية من رفاه ورقى اجتماعى وثقافى مجيد. إذ شهدت الأندلس آنذاك بعض تغييرات فى القوى السياسية المهيمنة على المالك والإمارات الإسلامية.

ففى قرطبة اتضحت الأمور وانجلت عن تفرد عبد الملك بن أبى الوليد بن جهور بالسلطة وسحقه لكل أعدائه. وذلك بتخلصه من سيطرة ونفوذ ابن السقاء وزير أبيه، وملك البلاد غير المتوج والذى ذهب ضحية أطماعه وتطلعاته، وبتخلصه أيضا من سيطرة ونفوذ شقيقه عبد الرحمن. ولقد لعب المعتضد والد المعتمد دوراً مهما فى الوصول الى هذه النتيجة، إذ انتهز ظهور التنافس الشديد بين وزير الدولة الجهورية وعبد الملك بن الوليد بن جهور الذى عزّ عليه انفراد ابن السقاء بكل النفوذ والسلطة اللذين ألقاهما على كاهله الرئيس الشيخ أبو الوليد بن جهور. فأستغل ذلك التنافس بين الرجلين، وبدأ ينصب دسائسه عندهما، حتى تمكن من إيقاع الوقيعة بينهما.

وعلى أية حال فقد اسفرت حبائل المعتضد ومؤامراته ضد الرجلين إلى تمكن عبد الملك بن أبى الوليد الظفر بعدوه ابن السقاء وقتله على يديه، وبذلك انفرد بالسلطة، وتلقب بالظافر. على أن انفراد عبد الملك بالأمر أسفر داخليا وخارجيا عن نتيجتين رئيسيتين: فعلى الصعيد الداخلى استتب الأمر لعبد الملك بعد تخلصه

من نفوذ أخيه عبد الرحمن، وأصبح صاحب السلطات المطلقة فى الدولة الجهورية.

أما على الصعيد الخارجى فقد أدى هذا إلى تطلع ملوك الطوائف للاستيلاء على قرطبة. فقد غدت مهيضة الجناح ضعيفة الشأن.[1] بل يمكننا القول بأنها أصبحت تدور فى فلك مملكة إشبيلية.

وقد رأينا المأمون بن ذى النون يتمزق غضبا وغيظا وهو يرى المعتضد وقد خدعه عندما أغراه بإطلاق يده للاستيلاء على قرطبة شريطة أن يخلى له مدينة قرمونة[2]. وها هو يشعر ثانية أن المعتضد تمكن بخديعته ودهائه أن يجعل من مملكة قرطبة تابعة له، ولذلك فقد أعد العدة للتحرش بعبد الملك. وسنعرض قادما لأحداث سقوط قرطبة أخيرا بيد المعتمد عند حديثنا عن جهوده لتوسيع رقعة دولته. أما مملكة غرناطة، فقد كانت لا تزال تنعم بحكم مليكها باديس بن حبوس. وقد خرج من محناته ومشكلاته الداخلية مع ابنه ووزرائه كأقوى ما يكون بعد أن استكانت له الأمور واستقامت[3].

وأما مملكة بطليوس فقد توفى المظفر بن الأفطس فى نفس العام الذى توفى فيه المعتضد بالله، وتولى الحكم بعده ابنه يحيى. وتلقب بالمنصور، على أنه ما لبث أن دخل فى خلاف مع أخيه عمر، وانتهى الأمر بانتصار عمر وظفره بمملكة أبيه بعد وفاة أخيه المفاجئة عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢م وتلقب بالمتوكل[4].

وفيما يختص بمملكة طليطلة فلم يحدث بها تغير يذكر فيما عدا فقدها لبعض أطرافها التى انتزعها النصارى. فالمأمون بن ذى النون كان لا يزال يليها، ويواصل تحقيق أطماعه فى الاستيلاء على ما يقدر عليه من أراضى وأصقاع جيرانه. فقد

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول - المجلد الثانى، ص ١٢٣ - ١٢٤. - ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٦ - ٢٥٧. - خالد الصوفى: المرجع السابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) انظر قبل الباب الثانى، ص ١٥١.

(٣) يراجع فى أخبار هذه الأحداث:

- عبد الله بن بلقين بن زيرى: المصدر السابق، ص ٣٠ - ٦٩.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٨٤ - ١٨٥.

استطاع أن يقضى على استقلال مملكة بلنسية ويعزل صاحبها صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر، ويعهد بحكمها نيابة عنه إلى واحد من بيوتاتها العريقة(١).

أما مملكة سرقسطة فقد استقر الأمر لملبكها أحمد بن سليمان بن المقتدر، بعد أن ضم إليه أعمال إخوته، ولم يبق هناك من منافس له سوى أخيه يوسف حاكم لاردة.

وأما بقية الممالك والإمارات الأخرى، فلم تشهد كبير تغير فى القوة السياسية الحاكمة لها. فقد استمر بعض حكام تلك الإمارات والممالك فى حكمها، كما شهد بعضها وفاة بعض من حكامها وتولى بعض من أبنائهم السلطة مكانهم.

* * * * * * * * *

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى، فقد كان مغايرا للموقف السياسى لدى الممالك الإسلامية، إذا كانت تلك الممالك تعيش على فوهة بركان غداة وفاة الملك فرديناند الأول. ورغم أن فرديناند قد توفى عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م أى فى عهد المعتضد إلا أن أسبانيا النصرانية كانت تمر بفترة حالكة من تاريخها. فقد عادت الخلافات بين الإخوة من أبناء فرديناند إلى أجواء الفترة التى عاشتها أسبانيا النصرانية بعد وفاة الملك سانشو العظيم من حروب أهلية بين الإخوة، إذ قسم فرديناند مملكته بين أبنائه كما مر بنا، وكان المعتضد كما سبق أن ذكرنا يدفع الإتاوة بانتظام إلى غارسيا ملك جليقية(٢).

وقد اتخذت الحروب الأهلية بين الإخوة غداة تولى المعتمد السلطة وجهها السافر، إذ بعد وفاة والدتهم الملكة سانشاه بعد عامين من وفاة زوجها فرديناند، حاول سانشو التوسع على حساب إخوته. فقد طمع فى الاستيلاء على مملكة أخيه ألفونسو، وذلك بعد عام واحد من وفاة والدته، ودارت رحى حرب أهلية بين الإخوة انتهت باستيلاء سانشو على مملكة أخيه ألفونسو، وبالقبض عليه(٣) عام

---

(١) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) انظر قبل الباب الثانى، ص ١٦٦ - ١٦٧

(٣) فى موقعة جلمبيجرة Golpejerra

انظر: -Jan Read: Op. Cit., p 102.

٤٦٢ هـ/ ١٠٧١م. ثم سعت شقيقته أوراكا للإفراج عنه مقابل أن يصرف ألفونسو نظره عن الاشتغال بالسياسة، وأن يلبس لباس الرهبان، وأن يعيش فى أحد الأديره. على أن ألفونسو استطاع وبمساعدة أوراكا أيضا الفرار من ديره، فالتجأ إلى بلاط ملك طليطلة، ومليكها المأمون بن ذى النون. كما حاول سانشو الأعتداء على أراضى أخيه غارسيا ملك جليقية، واستطاع بعد حروب ومطاحنات عسكرية أن يقضى على نفوذه ويستولى على مملكته. مما جعل أخوه غارسيا يفر إلى بلاط المعتمد. وبعد ذلك حاول سانشو الاستيلاء على أملاك شقيقتيه أوراكا وألبيرة. ولكنه قتل غيلة تحت أسوار غاصمة مملكة أخته أوراكا بعد عام واحد فقط من استيلائه على أملاك أخويه[١].

وعندما قتل أجمع أشراف وكونتات قشتالة على أستدعاء أخيه ألفونسو ليتولى حكم مملكة أخيه المقتول. وبالفعل عاد ألفونسو وأصبح الحاكم المطلق لمملكة قشتالة وليون وجليقية فى نفس عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٧١م.

أما غارسيا فلم ينعم بالعودة إلى مملكته، رغم أنه قد عاد من منفاه لدى المعتمد، فقد قبض عليه شقيقه ألفونسو. ويقول J.B.BuRy ،[٢] إن المعتمد زوّد غارسيا بكتيبة من جنده لمساعدته فى كفاحه ضد أخيه مغتصب مملكته. بيد أننا لا نعرف متى تم بعث تلك الكتيبة؟؟. كما أننا لم نعثر فى الروايات العربية على ما يشير إلى شىء من هذا.

وهكذا فقد غدا ألفونسو بعد مرور خمس سنوات من تولى المعتمد السلطة الحاكم المطلق لتلك المملكة الأسبانية الكبرى كما كانت فى عهد والده الملك فرديناند. ولم يشذ عن ملكه سوى إمارة برشلونة التى كانت تحت حكم أمرائها من آل برنجير الذين تولوا الحكم فيها من عام ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥م. بعد القضاء على أسرة بوريل[٣].

---

(١) انظر: -Jan Read Op. Cit., p 396.

-J.B.Bu Ry: Op. Cit., p 395-396.

ـ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢.

(٢) Op. Cit., p 396 .

وانظر كذلك محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

(٣) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٤٠٧.

جهود المعتمد في توسيع رقعة دولته

استيلاء المعتمد بالله على قرطبة :ـ

رأينا عند حديثنا عن استيلاء المعتضد بالله على إمارة قرمونة أنه قد استطاع خداع المأمون بن ذى النون عندما طلب منه أن يكف عن مساعدة البرزالى أميرها، على أن يطلق يده فى مهاجمة مملكة قرطبة. ورأينا المأمون يغلى حقدا وغيظا لخداع المعتضد له[1] وقد مر بنا أيضا كيف استطاع المعتضد بأحابيله وألاعيبه أن يغرر بعبد الملك بن محمد بن جهور وبوزيره ابن السقاء معا؟. وكيف استطاع بدهائه أن يضرب الخصمين ببعضهما؟، وما ترتب على ذلك من أحداث مررنا بها من قبل.

وقعت هذه الأحداث والمعتضد والمأمون بن ذى النون كانا يراقبان تطوراتها. ولكن يبدو أن انشغال المعتضد بالأوضاع الداخلية والحروب الخارجية لم يسعفه بفعل أى شىء لاستثمار نتائج خطته الماكرة بعكس المأمون بن ذى النون الذى ركز جهوده لاحتلال قرطبة التى كانت منتهى أمله وغاية مناه.

وتوالت الأحداث بسرعة وتوفى المعتضد عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م وعندها شعر المأمون بأن الجو قد خلا له بوفاة عدوه القوى اللدود، فشدد من ضغطه على المدينة وضرب عليها حصارا شديدا.

وكنا قد ذكرنا أيضا أن مملكة قرطبة قد غدت مهيضة الجناح، ضعيفة الشأن تدور فى فلك مملكة إشبيلية وتحتمى بحماها. وعندما اشتد ضغط المأمون على المدينة بعث عبد الملك إلى المعتمد بن عباد يستغيثه ويستنجد به. وقد لبى المعتمد هذا الطلب بسرعة، وجهز جيشا قوامه ١٣٠٠ فارس بقيادة خلف بن شجاع، ومحمد ابن مرتين. وتوجه هذا الجيش إلى قرطبة وعسكر بالجهة الشرقية منها. ومن الطبيعى

---

(١) انظر قبل الباب الثانى، ص١٥١ ـ ١٩٣

أن يستشعر المأمون الخطر، إذ أدرك أنه سيقع بين فكى الرحى أى بين القوات القرطبية التى ستخرج لمهاجمته، والقوات الإشبيلية المساندة لها. ولهذا فقد اضطر إلى رفع حصاره عن المدينة. وقد وقعت هذه الأحداث فى السنة الثانية من وفاة المعتضد بالله(١).

وإثر هذا الموقف النبيل من جانب المعتمد فى نفس عبد الملك بن جهور، مما جعله يلهث بالشكر والعرفان له. وتهيأ لتوديع الجيش توديعا يليق به. غير أنه لم يرع إلا ورجال المعتمد يقتحمون أبواب قرطبة ويمتلكونها، ويدخل على أثرهم الجيش. واستطاع رجال المعتمد أن يحكموا قبضتهم على المدينة، وأن يحيطوا بقصر الحكم الذى اعتصم به عبد الملك مع جماعته من رجاله الخلص. كما احتمى الشيخ ابو الوليد بن جهور بالمسجد مع بناته وحريمه. وقد استبسل عبد الملك فى الدفاع والمقاومة، ولكن قوات الجيش وجماعة كبيرة من الرعاع والسوقة استطاعت اقتحام القصر وانتهابه. فاضطر أخيرا إلى طلب الأمان. وهكذا سقطت قرطبة بيد العباديين واستتب الأمر لهم فيها.

واعتقل عبد الملك وأخوه عبد الرحمن، وأرسلا مخفورين إلى إشبيلية. أما الشيخ أبو الوليد فلم تحفظ له كرامة، ولم ترع له حرمة رغم مرضه الشديد. وقد أثرت فيه هذه الحادثة كثيرا فيقال (إنه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على مركب هجين، وحاله تقر عيون الحاسدين، ورفع يده إلى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء. فكان مما حفظ عنه قوله: اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا، ثم مات بعد أربعين يوما من نكبته بجزيرة شلطيش، مزال النعمة، مدال الحرمة.)(٢).

تلك هى خلاصة أحداث سقوط مملكة قرطبة على يد المعتمد بن عباد. والآن يحسن بنا أن نقلب هذا الأمر على كافة الجوانب لعلنا نجد تفسيرا لما حدث. فقد اختلف فى تفسير أسبابه ودوافع تلك الحملة ومتى وقعت؟؟ فالبعض يقول إن هذا

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.-

ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٤٩ - ١٥١.

(٢) نفس المصدرين السابقين، ونفس الصفحات.

الأمر كان مبيتا حسب خطة سرية وضعت فى إشبيلية[1]. أما البعض الآخر فيقول إن ذلك لم يحدث إلا عندما أقلع ابن ذي النون عن قرطبة (فاجتمع بعض أهلها فى السر على ان يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد، فأبرموا أمرهم وأحكموه، وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس. وثاروا فى صبيحة اليوم الذى اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد.[2]).

وفى الحقيقة أننا لا نستطيع التصديق بأن ذلك التخطيط كان خبط عشواء، وأنه قد جاء ارتجاليا وبهذه السرعة. وهل يمكن أن يحدث هذا الأمر الخطير إلا بالتفهم والتنسيق المسبق؟؟.

إننا نجزم بأن للرأى الأول وجاهته وصوابه، فقرطبة كانت أمل العباديين جميعا: القاضى أبوالقاسم والمعتضد بعده، ثم المعتمد. فقد كان هدف العباديين الاستيلاء على قرطبة مركز الخلافة الروحى ودائرة الاستقطاب الثقافى والعلمى. خاصة وأن الخليفة هشام كما يدعون لازال بينهم، ويعتبرون إقامته فى إشبيلية إقامة مؤقته، فمكانه الطبيعى هو فى عاصمة آبائه وأجداده. ولذلك كان عليهم وهم المتبنون لدعوته والمنافحون والمدافعون عنه أن يعملوا على أن يعود إلى عاصمته ليشرعوا من هناك فى إعادة سلطته الخلافية على كافة بلاد الأندلس. نقول إن هذا الخاطر، وهذا التفكير كان محور سياسة القاضى أبى القاسم الرئيسية طوال مدة حكمه، وجزءا غير يسير من مدة حكم المعتضد بالله. وعندما توفى المعتضد واشتد ضغط المأمون بن ذى النون على مملكة قرطبة، رأى المعتمد أن ظروف مملكة قرطبة قد أصبحت سيئة للغاية، وغدت مستهدفة من قبل مملكة قوية لا تروم إلا القضاء عليها، فبدت له بمثابة تفاحة قد نضجت واستوت وحان قطافها. ونعتقد أن عبد الملك بن أبى الوليد بن جهور كان يرى أن خطر مملكة إشبيلية على مملكته لا يقل بأى حال عن خطر مملكة طليطلة عليها، رغم روح المودة التى تبديها مملكة إشبيلية. ومع ذلك فقد اختار أهون الشرين وهو الانضواء تحت سلطة مملكة

---

(١) يميل إلى الأخذ بهذا الرأى محمد عبد الله عنان فى كتابه دول الطوائف، ص ٦١.

(٢) ابن عذارى المصدر السابق والجزء، ٢٥٩ - ٢٦٠.

إشبيلية. أما قضية الفئة المعارضة لعبد الملك بن جهور، فنحن لا ننكر دورها فى التأليب عليه، ومن الجائز أن انصراف عبد الملك هو وخاصته إلى اللهو والترف والمجون قد صرفه عن تركيز الجهد فى تصريف أمور الدولة بما تتطلبه مواصفات رجل الدولة الحقيقى، إضافة إلى هذا من الجائز أن حاشية عبد الملك وخاصته قد استغلت دالتها لديه. فأخذت تعربد فى الدولة نهبا وسلبا وظلما. كل هذه العوامل ألبت عليه النفوس، وجعلت المخلصين من أبناء البلد يتطلعون بأنظارهم نحو مملكة إشبيلية التى يشعرون بأنها أصبحت الجديرة بقيادة الأندلس كلها. فراسلوا المعتمد ونسقوا معه لمساعدته وتسليمه البلد إذا اقتضى الأمر ذلك(١). ويتراءى لنا أنه لو لم يطلب عبد الملك المساعدة من المعتمد لكان أبناء قرطبة قد طلبوها منه. وأما ما قاله ابن الخطيب(٢) عن العامة ومساعدتهم لجيش المعتمد فهم فى ما يبدو لا يعدون أن يكونوا من الأفاقين الذين يستهويهم ركوب الموجة المنتصرة أيا كانت.

وأيا ما كان الأمر، فقد دخلت قرطبة وأحوازها فى طاعة مملكة إشبيلية(٣). واستطاع المعتمد بذلك أن يوسع رقعة دولته بالاتجاه شرقا فى الجزء الجنوبى من الأندلس الإسلامية. واستطاع أيضاً أن يحقق حلماً عجز عن تحقيقه أبوه وجده من قبل. وغدت دولته تثير خوف ورعب بقية دويلات الطوائف. وقد سر المعتمد بهذا الفتح المبين سروراً بالغاً جعل شاعريته تهتز فنظم فى ذلك أبياتا يمجد فيها فتحه لقرطبة(٤). وقد ولى المعتمد ابنه سراج الدولة عباد حكم مدينة قرطبة(٥)، على أن يساعده فى تدبير أمورها قائده ابن مرتين.

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) أعمال الأعلام، ص ١٤٩ - ١٥١.

(٣) لكى يؤكد العباديون سيطرتهم على قرطبة حرصوا على أن يسكوا عملة عبادية من ضرب قرطبة. باسم المعتمد على الله، وابنه سراج الدولة، والحاجب هاشم وذلك فيما هو موجود بالدنانير المضروية فى سنة ٤٦٣ - ٤٦٦هـ انظر:

Miles: Op Cit Vol 2, No: 513 - 571.

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ١٣.

(٥) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٨٩ - ١٩٠.

وهكـذا كانت الأنـدلس تعيش آنـذاك وقتـا عصيبا، وظرفا قاسيا فالبقاء فيها للأقوى. وسيطر على مجتمعه الإنحلال والتدهور الإجتماعى والأخلاقى، وباتت الشريعة التى تحكم تصرفات ملوك الطوائف آنذاك هى شريعة الغاب، وشريعة السمك الذى يأكل فيه الكبير الصغير. وبات غير مستنكر أن تجتاح مملكة كبيرة مملكة أخرى ضعيفة موادعة مسالمة. ولقد شهد عصر المعتمد بالله بالذات ظاهرة سقوط أكثر من مملكة على يد مملكة أخرى ومن ثم زوالها عن الوجود ولقد سقطت مملكة مرسية بعد مملكة قرطبة ـ ذلك السقوط الذى سنعرض له قادما ـ وسقطت مملكة دانية التى أسسها مجاهد العامرى على يد بنى هود ملوك سرقسطة، وكانت مملكة بلنسية قد سقطت قبل ذلك فى عهد المعتضد بالله.

ومن أسف أن ذلك الاجتياح والاحتلال لتلك الإمارات والممالك لم يكن نابعا عن شعـور دينى يستهـدف جمع الشمل. ونبذ الفرقة والتجزؤ. لو حدث هذا لكنا التمسنا عذرا لتلك الحروب المدمرة وما نتج وينتج عنها عادة من مضار وأذى لفئات الشعب فى تلك الممالك. ولكن الخزى.. كل الخزى أن ذلك الإجتياح والاحتلال إنما كان يتم لأسباب ذاتية ومطامع آنية، يمكن أن نصفها بكل الأوصاف والنعوت ماعدا الحرص على المصلحتين الدينية والقومية.

ومهما يكن من أمر فقد استقرت قرطبة لبنى عباد وأسلمت لهم زمامها، ولكن العباديين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها طويلا. وتكرر هنا درس مدينة مالقة التى خرج منها الجيش العبادى بقيادة المعتمد نفسه آنذاك مضطرا مقهورا. وإن كان هناك اختلاف فى المدة التى لبث فيها العباديون فى قرطبة هذه المرة. فقد طالت إلى خمس سنوات ثم أخرجوا عنها ثم أعيدت ثانية لهم. والحقيقة أن مما يعاب على العباديين هو تفريطهم فى استثمار نتائج جهودهم وأعمالهم التى أقيمت بالعرق والكد والقوة والخـداع لذلـك نراهم يفـرطـون فى تلك المكـاسب بسياسـة الـلامبالاة وعدم الاكـتراث، والانصراف إلى اللهـو والمجـون. وهـذا ما حدث بالضبط فى تلك الحادثتين اللتين تركتا فى قوة وكرامة العباديين أثرا لا يمحى. أعنى بها حادثتي: مالقة المذكورة سابقا، ثم حادثة قرطبة هذه.

خروج قرطبة عن سلطة بنى عباد :-

فابن المعتمد الملقب بسراج الدولة كان وقتها فتى يافعا لم يتعد طور المراهقة بعد. وكان من الطبيعى أن يسعى إلى استئناف حياة اللهو والدعة والرفاهية التى كان أبوه وأترابه يحيونها فى بلاط إشبيلية. ولم يكن قائد الجيش الوزير ابن مرتين بأحسن حالا من أميره الفتى، فانصرف الاثنان يعبان من رحيق اللهو والمجون ما شاء لهم وطاب دونما إدراك للمسئوليات والتبعات.

استمر احتلال بنى عباد لقرطبة من عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م حتى عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥م. وكانت هذه الفترة سانحة عظيمة للمأمون بن ذى النون لحبك المؤمرات وتدبير الحيل للانتقام من العباديين، والظفر بقرطبة التى كانت قاب قوسين أو أدنى منه. ولذا فقد استمال إليه رجلا يدعى حكيم بن عكاشة، وكان يلى بعض الحصون المجاورة لقرطبة من قبله أى من قبل المأمون. وابن عكاشة هذا كان رجلا من أتباع الوزير ابن السقاء، وعندما قتل ابن السقاء كما مر بنا فرّ هذا الرجل إلى طليطلة ولجأ إلى مليكها المأمون، فولاه هذا أحد الحصون القريبة من قرطبة.(١) ولهذا فقد نسق المأمون معه على أن يعمل على إجلاء العباديين عن قرطبة وضمها إلى مملكته. وأباح له من المال ما يكفيه لتدبير أمر ذلك من سلاح وشراء للذمم والضمائر. واستطاع هذا أن يحكم اتفاقه مع عدد من الأعوان من الحراس وغيرهم فى المدينة. وقد لفتت هذه الاستعدادات والتحركات المشبوهة نظر بعض الحراس الموالين للدولة، فأبلغوا ابن مرتين بأن هناك شيئا يدبر فى الخفاء، بل يقال إنهم أبلغوا الأمير عباد نفسه، فلم يهتما بالأمر بل إن ابن مرتين كما يذكر ابن الخطيب قد كذب الخبر واستهان به(٢).

وعندما استكمل ابن عكاشة وضع الخطة، وتحددت ساعة التنفيذ اقتحم برجاله المدينة ليلا بعد أن فتح له الأعوان بعضا من الأبواب. ولن نمضى فى تفاصيل تلك الأحداث، فما يهمنا هنا هو أنها قد انتهت بمقتل الأمير سراج الدولة عباد وقائده

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) أعمال الأعلام، ص ١٥٨.

ابن مرتين، ونادى ابن عكاشة بالطاعة لابن ذى النون، واستقرت له الأمور بعد هذا واستتبت. وبعث ابن عكاشة برأس ابن المعتمد إلى المأمون فى بلنسية[1]. ويقـول ابن الخطيب (وخاطب ابن ذى النون، فتلاحق بقرطبة فدخلها فى أبهة عظيمة، وأخذ بيعة أهلها، وكان وصوله إليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ .)[2] كل هذه الأحداث لا نجد دافعا إلى تكذيبها والشك فيها، ولكن ما نستغربه بشدة هو أن لا يكون بالمدينة جيش يدافع عنها. أفيعقل ألا يكون هناك جيش للدفاع عنها؟؟. إن المؤرخين لم ينقلوا لنا من أحداث تلك الاشتبـاكـات إلا مقتل عباد بن المعتمد ووزيره ابن مرتين وعدد قليل من الأنصـار فقط. مما يدل على أنه لم تكن هناك قوة عسكرية فى المدينة تحميها من عاديات المعتدين. حتى لو تحققنا من وجود قوة صغيرة فقط لتولى شئون الأمن الداخلية، فإن هذا يعد خطأ سياسيا وعسكريا كبيرا يضاف إلى جملة أخطاء المعتمد الاستراتيجية الأخرى. ومع هذا فمن المحتمل أن يكون هذا التقصير راجعا إلى حياة اللهو التى انغمس فيها سراج الدولة هو وزيره.

وقد نزلت هذه الأحداث على المعتمد نزول الصاعقة، فأذهلته وأوجعته، ولكنه تماسك واستجمع قواه.

عودة قرطبة إلى حظيرة الدولة العبادية ثانية :-

يقول الفتح ابن خاقان فى وصفه لحالة المعتمد تلك (وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثأره، ونصب الحبـائـل لوقـوع ابن عكاشة وعثاره، وعدل عن تأبينه إلى البحث عن مفرقه وجبينه. فلم تحفظ له فيه قافية ولا كلمة للوعته شافية.)[3]

وهكذا فقد أخذ المعتمد يعد العدة لاسترجاع قرطبة والثأر لولده وكرامته فى نفس الوقت. أما المأمون بن يحيى فلم ينعم طويلا بالتربع على عرش قرطبة إذ ما لبث أن (اعتل بقرطبة وتوفى فيها لاثنتى عشر ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ٤٦٧ .)[4]

---

(١) أبن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٥١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) قلائد العقيان، ص ١٢ - ١٣ .

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

ويقول ابن خلدون إنه قد مات مسموما(١). ولا نستبعد أن يكون ذلك قد تم بتدبير من ابن عكاشة. فالعلاقات بين الرجلين كان يسودها حالة من الفتور والجفوة. ولابد أن ابن عكاشة قد لمس أثر ذلك فى نفس المأمون ونظراته له(٢)، فأعجل بالتدبير عليه، ولا نتصور أنه كان للمعتمد يد فى مقتله، طالما لم يكن هناك دليل(٣).

ومهما يكن من أمر فقد أعلن ابن عكاشة تبعيته ليحيى ابن إسماعيل بن المأمون الملقب بالقادر حفيد المأمون المذكور، وخليفته من بعده(٤).

ويبدو أن أهواء أهل قرطبة كانت تميل إلى الانضواء تحت سلطة العباديين رمز الأرستقراطية الأندلسية، بل لنقل رمز العنصر العربى كله فى وجه البربر. فليس خافيا أن بني ذى النون وإن كانوا قد تعربوا إلا أنهم يعودون إلى أصل بربرى. بالإضافة إلى أنه من الصعب على أهل قرطبة الأطمئنان إلى جانب مغامر أفاق لا أخلاق له تجرأ على قتل الملوك كما يقول المأمون بن ذى النون نفسه الذى ذهب إن صحت رواية ابن خلدون ضحية تدبيره. نقول من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان إليه، لذلك فقد راسلوا المعتمد يعلنون له عن رغبتهم الصادقة فى عودة

---

(١) العبر، مجلد ٤، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٢) يقول على أدهم: إن المأمون (كان فى صميم نفسه يخشى هذا اللص المغامر المتمرس بالجرائم، وكان يرى أن من تطاول على قتل الأمراء وأبناء الملوك لا يؤمن شره، ولذلك شرع يتحين الفرص للخلاص منه، ولم يستطع كتمان ذلك عن حاشيته. ففى ذات يوم دخل عليه ابن عكاشة فرحب به وأدناه وهش له. فلما خرج تنفس الصعداء وأتبعه نظرة شوهاء، وهينم بكلمات نال بها منه، ولما سأله أحد رجال حاشيته عن سبب ذلك قال: من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك).
انظر، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٣) أشار ليفي بروفنسال إلى إمكانية ذلك.
انظر: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص ١٢٩.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٧٦ - ١٧٧.

سيطرته على مدينتهم، ويتعهدون بمساعدته وتقديم يد العون له[1]. ولهذا فقد جهز المعتمد بعد موت المأمون المفاجىء بفترة وجيزة جداً[2] جيشا توجه إلى قرطبة، واستطاع بمساعدة أهلها أن يقتحم المدينة ويحتلها.

وقد حاول ابن عكاشة الفرار، إلا أن رجال المعتمد قبضوا عليه وجىء به إلى المعتمد فقتل وصلب مع كلب إمعانا فى التشفى والتنكيل. وبسط المعتمد أثر ذلك سيطرته على أجزاء مهمة من مملكة طليطلة تشمل جميع ممتلكاتها بين نهر الوادى الكبير، ووادى آنه. وقد عهد المعتمد بأمر قرطبة لابنه المأمون الملقب بالفتح[3]

---

(١) أورد صلاح خالص رسالة كتبها المعتمد يشرح فيها تفاصيل وظروف استعادة قرطبة، توضح تماما ما ذهبنا إليه من أن أهل قرطبة كانوا يميلون إلى عودة سلطة بنى عباد إلى مدينتهم ويتعهدون بمساعدته ومعاونته، وتشير تلك الرسالة إلى أن تلك الفئة التى ساعدت ابن عكاشة لم تكن إلا فئة ضئيلة الشأن قليلة العدد، مأجورة مسخرة لا يعتد بها.
انظر: المعتمد بن عباد الإشبيلى، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) نميل إلى تأييد ما ذهب إليه صلاح خالص من تصحيح لتاريخ استعادة المعتمد لقرطبة. وذلك فى تصحيحه لما أورده عبد الواحد المراكشى الذى قال إن ذلك قد حدث عام ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨م. وتبعه فى ذلك بعض المؤرخين المحدثين الذين تناولوا شرح أحداث تلك الفترة، كدوزى، وعلى أدهم، وعبد الوهاب عزام، وذلك لأن ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام أشار إلى أن استعادة قرطبة قد وقعت بالتحديد فى ٢٧ ذى القعدة عام ٤٦٧ هـ (١٤ يوليو ١٠٧٥م) لا تشير فى قليل أو كثير إلى أن المعتمد ظل يحاصر قرطبة ثلاث سنوات قبل أن يقتحمها.
انظر: المعجب، ص ١٨٩/ ـ ١٩٠.ـ أعمال الأعلام، ص ١٥٩.ـ صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلى، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.ـ دوزى، المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ على أدهم، المرجع السابق، ص ١٤٦.ـ عبد الوهاب عزام، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.
هذا ما يقوله ابن خلدون، أما عبد الوهاب عزام ففى كتابه المذكور سابقا كثير من الخلط فى تحديد السنوات وتحديد من من أبناء المعتمد تولى شأن قرطبة أول مرة، وكذلك بعد عودتها إلى المعتمد ثانية.
انظر: المرجع السابق، ص ٩٤، وص ٩٦ ـ ٩٧.

والذى بقى حاكما لها حتى مجىء المرابطين وقتله على يديهم كما سنتناوله قادما إن شاء الله .

كما امتدت حدود مملكة إشبيلية إلى مدينة لورقة التابعة لمملكة ألمرية ، فقد انشق صاحبها عن المعتصم بن صمادح أمير ألمرية ، ثم اعترف بالطاعة للمعتمد بن عباد ، وبقيت المدينة فى حوزة مملكة إشبيلية حتى سقوط دولة بنى عباد على يد المرابطين كما سيأتى .

ظهور الوزير محمد بن عمار ، ودوره .

فى توجيه جهود المعتمد نحو التوسع :-

كانت الأحداث التى عرضنا لها فى حديثنا عن جهود المعتمد بالله للاستيلاء على قرطبة وما تبعها بعد ذلك من أحداث أخرى ، نتيجة لسياسة وضعها المعتمد بمفرده كما رأينا . أما الجهود الأخرى للمعتمد فى توسيع رقعة دولته ، فقد كانت نتاج سياسة وضعها وزيره محمد بن عمار ، وأقره عليها المعتمد بعد ذلك .

وفى الحقيقة لقد ارتبطت سياسة إشبيلية الخارجية فى عهد المعتمد بمحمد بن عمار الذى طبعها بطابعه الخاص ردحا غير يسير من الزمن حتى لنكاد لا نجد غضاضة من أن نوافق من يدعو سياسة المعتمد الخارجية بسياسة محمد بن عمار(١) . إذ لعب دورا رئيسياً فى توجيه سياسة المعتمد الخارجية ورسم خطوطها . واسم محمد بن عمار قد لامس أسماعنا فى حديثنا عن المعتضد بالله ، ورأيناه يدبج القصائد فى تمجيد المعتضد والإشادة بأعماله وفتوحه كما مر بنا سابقا ، لذا فنحن ملزمون باستجلاء بداية رحلته نحو السياسة الإشبيلية وبداية العلائق بملوكها .

ينتمى محمد بن عمار إلى أسرة عادية من عامة الناس فى المجتمع الأندلسى ، ولد فى قرية من أعمال مدينة شلب تدعى شنبوس ، ويكنى بأبى بكر ، وقد شب فى مدينة شلب الواقعة فى غربي الأندلس وتلقى علومه فى الدين والأدب على يد رجالها وشعرائها . وقد بدأت مخايل الأدب ، وبذور الموهبة الشعرية تصبغ حياته مذ رحل إلى قرطبة حيث اختلط بالصفوة من أدبائها وعلمائها ، فصقل ذلك شاعريته وفجرها(٢) . ومن قرطبة بدأ رحلته فى التسيار فى أقاليم الأندلس مادحا ،

---

(١) كصلاح خالص فى كتابه : محمد بن عمار الأندلسى ، ص ٨٥ .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

مشيدا متكسبا (لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة.)[1]

وقد أسر سحر بلاط المعتضد وإشراقه لبَّ ابن عمار. فألقى عصا التسيار فى عاصمته بعد طول تجوال فى ممالك الأندلس. وفى إشبيلية ألقى بين يدى المعتضد قصيدته الرائية المشهورة التى أشرنا إليها سابقا، والتى لاقت من المعتضد الإعجاب والاستحسان، فأمر بأن يكتب فى ديوان الشعراء وأن ينتظم فيه[2].

وفى بلاط المعتضد انعقدت أواصر صداقة متينة بين ابن عمار، وبين ابن المعتضد وولى عهده الفتى محمد الملقب بالمعتمد فيما بعد. وكان توثق العلائق الوشائجية السريع جدا بين الاثنين مثار تساؤل واستعجاب. وفى الحقيقة فقد كانت هناك خلال وصفات جمعت بينهما. فكلاهما كان شابا يافعا وإن كان ابن عمار يكبر المعتمد بتسع سنوات. إضافة إلى هذا كانت تربط الاثنين صفة جامعة مشتركة هى نظم الشعر وتذوقه، ولا خفاء فى أنه كان للشعر فى العصور الإسلامية دور رئيسى لا فى حياة الشعوب فحسب بل وفى حياة الدول والممالك أيضا. فالشعر عدا كونه أهم وسيلة للإعلام الرسمى والشعبى فى تلك العصور، وهو ما تمثله اليوم الصحف والمجلات والإذاعة الصوتية والمرئية، فإنه كان الوسيلة الأكثر فاعلية فى التعبير عما يختلج فى النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وآمالها وآلامها وأتراحها وأفراحها. ومن هنا نستطيع القول بأن نظم الشعر وتذوقه الذى يجمع بين ابن عمار والمعتمد كان الرابطة الأوثق فى الجمع بينهما. وعدا هذا وذاك كان الاستعداد الفطرى للّهو والمجون والانسياق وراء اللذات الذى يجمع بين الاثنين صفة ثالثة تقربهما لبعضهما بعضا.

والواقع أننا نستطيع أن نلمس قواسم مشتركة بين الصديقين شدتهما ببعض ووثقت علائقهما بدرجة تذكرنا بالعلاقة التى كانت قائمة بين هارون الرشيد

---

(١) نفس المصدر ونفس الصفحات.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٣ - ١٧٦.

وجعفر البرمكى. وقد أفاض المؤرخون القدامى والمحدثون[1] فى وصف تلك العلاقة التى كانت بين المعتمد وابن عمار مما يعفينا عن الإسهاب فى التحدث عنها.

ويكفى أن نورد لعبد الواحد المراكشي وصفه لتلك العلاقة إذ يقول (ثم تعلق بالمعتمد على الله، وهو إذ ذاك شاب، فلم تزل حاله تتزيد، وتوالت خدمته له تقوى وتتأكد إلى أن صار ابن عمار أقرب إليه من شعيرات فصته، وأدنى إليه من حبل وريده.)[2]

وعندما استطاع المعتضد أن يبسط سيطرته على إمارة شلب عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م، ولىْ ابنه المعتمد ولايتها. وقد استدعى المعتمد إثر ذلك صديقه وأليف روحه محمد بن عمار إليه فى شلب، وعهد إليه بالوزارة، وشهدت أيامهما فيها الكثير من مغامرات الصبا وعبث الفتوة واليفاعة ظلت ماثلة فى ذهن المعتمد حتى بعد توليه الملك[3].

على أننا ما نلبث أن نفاجأ بالمعتضد يأمر بالتفريق بين ابنه وصديقه ولصيق روحه كما يقول عبد الواحد المراكشى. ولا يهمنا هنا تتبع ما حدث هناك، فالواضح أن ثمة مسلك مشين كان يسلكه الصديقان فى شلب، جعل المعتضد يتضايق جدا

---

(١) من المؤرخين القدامى الذين أفاضوا فى الحديث عن ابن عمار وعلاقته بالدولة العبادية: ابن بسام، وابن الأبار، والمقرى. ومن المحدثين صلاح خالص الذى ألف مؤلفا سماه: محمد ابن عمار الأندلسى، وكذلك ثروت أباظه الذى ألف كتابا بهذا العنوان.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٣) بعث المعتمد إلى صديقه محمد بن عمار واليه على شلب بقصيدة يتشوق فيها إلى الأيام السعيدة التى قضياها فى تلك المدينة.

وفى هذه القصيدة يقول:

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر   وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

ويقول فيها ايضا:

ليال بسد النهر لهوا قطعتها   بذات سوار مثل منعطف البدر

انظر ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

من الإشاعات والأقاويل التى تلوكها الألسن عنهما. فأمر بالتفريق بينهما، يقول صاحب المعجب (وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماء إليه، فلم يزل ابن عمار مغتربا فى أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله.)[١]

وعلى أية حال وكمتتبعى أحداث وتاريخ لايهمنا من تفاصيل اغتراب ونفى ابن عمار إلا القدر الذى يرتبط بموضوعنا فقط. وعلى هذا فنحن لا نجد من تلك التفاصيل إلا ما يشير إلى القصائد التى بعثها ابن عمار من منفاه للمعتضد، وابنه المعتمد مسترحما مستعطفا متبرما متأففا. وعندما توفى المعتضد تبسم الدهر لابن عمار، فها هو صديقه ورفيق دربه يصبح الرجل الأول فى الدولة. وبالفعل لم يخب المعتمد لصديقه رجاء، (فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.)[٢].

وقد قيل فى وصف صفات ابن عمار الكثير يعنينا منها ما اتفق عليه المؤرخون من أنه كان مغامرا انتهازيا وصوليا ذا أطماع ومطامح واسعة، وذا شخصية قوية نافذة متسلطة. كما يهمنا من تلك الأوصاف ما اتفقت عليه الكلمة من أنه كان سياسيا داهية، ودبلوماسيا محنكا[٣]. اتضحت معالم تلك الصفات وبرزت عندما تمنى ابن عمار على المعتمد صديقه أن يعهد إليه بحكم ولاية شلب (وهى بلده ومنشأه (هكذا!) كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها، خارجها ودواخلها.)[٤].

ويبدو أن افتقاد المعتمد لساعات الأنس واللذة اللتين كان يحياهما الصديقان قد أذكت فى نفس المعتمد شوقا مبرحا[٥]، جعله يبعث إلى صديقه ويستدعيه إلى

---

(١) عبد الواحد المراكشى، ص ١٧٦.

(٢) عبد الواحد المراكشى، نفس المصدر، ص ١٧٦.

(٣) انظر، صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسى، ص ٧٥ - ٨٢.

(٤) عبد الواحد المراكشى، ص ١٧٦.

(٥) يرى صلاح خالص فى كتابه أعلاه، ص ٨٣ - ٨٤ أن عودة ابن عمار من شلب إلى إشبيلية لم تكن تنم عن أسباب عاطفية وإنما كانت لأسباب سياسية تخدم كليهما.

إشبيلية حيث هو، فيعزله عن شِلب ويعهد إليه بمنصب أهم ومركز أخطر وهو الوزارة[1].

وسنألف منذ الآن فطالعا التعامل مع لقب الوزير ابن عمار الذى غدا المهيمن الرئيسى على السياسة الخارجية الإشبيلية والموجه لها، ولا ندرى فى الحقيقة تماما ما كان عليه الأمر وقتذاك فى الدولة وفى منصب الوزارة بالذات. فنحن نعرف أنه كان هناك وزير ذو أهمية بالغة فى دولة إشبيلية. ونعنى به الوزير الشاعر ابن زيدون. وإذا كنا لم نشر للوزير ابن زيدون وأعماله فى عهد المعتضد وهو الذى كان وزير دولته، فذلك لأننا قد آثرنا التحدث عنه عند حديثنا عن الحياة الأدبية لاحقاً من جهة، ولكون شخصية المعتضد النافذة المتسلطة لم تكن تسمح لبروز أى نفوذ أو سيطرة لأى من كان مهما بلغت مكانته من جهة أخرى. نقول إننا لم نستطع معرفة صلاحيات الوزير ابن زيدون، كما لم نستطع معرفة ما يخص ابن عمار منها أيضا. ولكن ما نستطيع الجزم به هو التأكيد على المكانة العالية الرفيعة التى بلغها ابن عمار[2] (وأن المعتمد لم يزل يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماه.)[3]

على أن أخطر ما اضطلع به ابن عمار فى عهد المعتمد هو مداخلاته وصداقاته وسفاراته مع أمراء وملوك النصارى فى أسبانيا. فقد اتفق على الإشادة بسياسته تلك وبصداقاته ومداخلاته التى رسمها لتحقيق ما يطمع إليه هو أولا من صيت

---

(١) عبد الواحد المراكشى: نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٢) يرى بعض المحدثين كصلاح خالص وغيره أن ابن عمار استطاع بدهائه أن يتخلص من غريمه وشريكه فى الوزارة الإشبيلية ابن زيدون بإقناع المعتمد بضرورة بعثه إلى قرطبة لإخماد ثورة اليهود التى قامت هناك. وكان يقصد من ذلك إبعاده عن مليكه ليخلو له الجو ويحتكر صداقته، إلا أن الإرادة الإلهية شاءت أن تزيح ابن زيدون عن طريق ابن عمار، إذ لم يلبث ابن زيدون أن توفى عام ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م بعد قليل من بدء مهمته.

انظر، محمد بن عمار الأندلسى، ص ٧١ ـ ٧٣. ـ دائرة المعارف الإسلامية ج ١، ص ١٨٦ ـ ١٨٧، وص ٢٤١ ـ ٢٤٢ (مادة ابن عمار.)

(٣) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٧٨.

وشهرة ومجد ذائع ـ وهو مانجح فيه ـ ثم تحقيق رغبات المعتمد وتطلعاته فى التوسع ثانيا. وفى الحالتين كان هو المستفيد الأول، ونستشهد هنا بعبد الواحد المراكشى (١) فى وصفه لمكانة ابن عمار (وشهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأذفنش(٢) إذا ذكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة).

وما دمنا بصدد الحديث عن دور ابن عمار فى رسم السياسة الإشبيلية تجاه الممالك النصرانية، فلا يمكننا إلا أن نقر بأن سياسة الوزير ابن عمار هذه كانت تقوم على مبدأ سياسى واضح هو توثيق الروابط وتأكيدها مع ممالك النصارى وخاصة مملكة قشتالة وملكها ألفونسو السادس الذى بلغ من خطره السياسى والعسكرى أن أصبح كما يقول صلاح خالص الوحيد القادر على فرض رأيه ووجهات نظره فى الصراع القائم بين ملوك وأمراء الممالك الإسلامية(٣). ولذا فقد كان ابن عمار يدرك أنه لكى يحقق مشاريع مليكه وما تعود عليه هو ثانيا من فوائد شخصية بعد هذا، عليه أن يوثق علاقته مع الملك القشتالى وحده. فكان من الطبيعى أن تنعقد أواصر صداقة متينة بينه وبين ألفونسو السادس دفعت فى الواقع كثيرا من الإشكال والمصائب عن مملكة إشبيلية بفضل تلك الصداقة. ويروى لنا عبد الواحد المراكشى (٤) قصة رواية طريفة تقوم على خدعة ذكية خلاصتها أن ابن عمار استطاع فى وقت من الأوقات التى كان ألفونسو يشدد فيها ضغطه على إشبيلية، استطاع بفضل تلك الخدعة الذكية التى مارسها مع ألفونسو أن يرد الهجوم الكاسح الذى كان ألفونسو يبيته ضد إشبيلية. ولكنه لم يفعل ذلك إلا مرغما وبعد أن ضاعف له ابن عمار الإتاوة السنوية المقررة على إشبيلية.

كما أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية قول عبد الله بن زيرى ملك غرناطة

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) الأذفنش: الاسم المعرب لألفونسو السادس بن فرناندو الأول الذى تدور الحوادث التى سبقت موقعة الزلاقة بينه وبين المرابطين، والحوادث التى أعقبتها بعد ذلك حول شخصه، وهو الذى تدور حوله أيضا علاقات ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله مع مملكة قشتالة.

(٣) محمد بن عمار الأندلسى، ص ٧٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٨ ـ ١٨٠.

عنه (ولأنه قد استمال النصارى واندخل معهم بحيلة، فمتى داهمه أمر من قبلهم وجهه(1) إليهم فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به.) (2)

على أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية الفائقة أيضا أنه كان فى مفاوضاته الشاقة مع النصارى لا ينساق إطلاقا فى التفريط لهم فى الأراضى. وإنما كان يضحى لتفادى ذلك بأموال جسيمة باهظة(3). وهذا ما يؤكد ما ورد فى قصة عبد الواحد المراكشى.

سياسة الوزير ابن عمار تجاه مملكة غرناطة :ـ

قبل أن نحدد طبيعة هذه السياسة وما نتج عنها من أحداث، يجدر بنا أن نلم بنتف من أحوال مملكة غرناطة، وبشىء من طبيعة العلاقات بينها وبين مملكة إشبيلية حتى يكون تناولنا للأحداث طبيعيا وموضوعيا.

قلنا إن مملكة غرناطة كان يحكمها غداة تولى المعتمد السلطة باديس بن حبوس الصنهاجى. وذكرنا أنه خرج من محناته ومشكلاته الداخلية كأقوى ما يكون، إلا أنه توفى بعد هذا فى عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٣م، بعد حكم استطال إلى أكثر من ثلث قرن. ورغم أنه قد ترك ابنا يدعى ماكسن، إلا أنه لم يعهد إليه بولاية العهد لسوء سيرته، ولخروجه عليه، ولعدم أهليته لذلك. ولذا فقد عهد بمملكته إلى حفيديه: عبد الله بن بلقين وأخيه تميم بن بلقين، على أن تكون العاصمة غرناطة وذواتها لعبد الله، ومالقة إلى أخيه الأصغر تميم الذى كان يتولاها منذ عهد جده(4).

ولن ندخل فى تفاصيل أخبار مملكته غرناطة، فما يهمنا هو الإشارة إلى أن عبد الله ابن بلقين الذى خلف جده على مملكة غرناطة كان يفتقد إلى كثير من صفات جده التى استطاع بها حفظ أطراف مملكته، والمحافظة على دولته قوية مرهوبة الجانب داخليا وخارجيا. فلقد كان ضعيف الشخصية متهالكا رغم ما حاول رسمه عن

---

(1) المقصود به المعتمد.

(2) التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين بن زيرى، ص ٧٦.

(3) صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسي، ص ٨٦.

(4) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ١٣٩، ص ١٤٢.

نفسه فى مذكراته الوثائقية المعروفة بالتبيان والتى نشرها ليفى بروفنسال بعنوان: مذكرات الأمير عبد الله. وكان بجانب ذلك صغير السن لم تعركه التجارب، وتصقله السنون بعد.

وقد حاول المعتمد أن يستأنف معه الدور الذى مارسه أبوه وجده من قبل مع البربر عموما. ونحن هنا فى هذا الصدد لا نميل إلى الأخذ بما ذهب إليه محمد عبد الله عنان فى تفسيره لسياسة العباديين مع البربر التى تقوم كما يقول على التوجس منهم والقضاء على سلطانهم. إذ أنه يعلل سبب هذا الصراع بأنه صراع حضارى بين العرب الذين يمثلهم العباديون، والبربر فى الأندلس عموما[1]. فنحن لا نميل إلى أخذ هذا التعليل فى الاعتبار، ذلك لأن الصراع كان أبعد ما يكون عن أن نفسره بأنه صراع حضارى محض. كما أننا لا نزعم أن العباديين قد نصّبوا أنفسهم القوة العربية المقابلة للقوة البربرية. وبمعنى آخر فإن العباديين لم يكونوا ينظرون إطلاقاً إلى صراعهم مع البربر بمنظار عنصرى يبدو كمحور لسياسة رسمية، فبنو عباد سبق لهم أن ثّلوا عروش إمارات عربية صميمة. ولا نزعم أيضا أنهم كانوا يتطلعون فى فتوحاتهم وتوسعاتهم من منظار قومى يهدف إلى تضييق الشقة ويدعو إلى الوحدة وعدم التجزؤ حتى لو كان ذلك بالقوة المسلحة إذا اقتضى الأمر ذلك. فسياستهم لم تكن إلا سياسة إشبيلية محلية فقط تهدف إلى بسط سيطرة مملكة إشبيلية على كل بلاد الأندلس باعتبار أنَّ حكامهَا مفوضون من قبل الخليفة هشام المزعوم كما يدَّعون لقيادة الأندلس كلها. وعندما مات الخليفة المزعوم عهد إلى المعتضد كما يقولون أيضاً لأن يكون أميرا على الأندلس كلها من بعده[2].

ولهذا كله انطلق العباديون فى جهودهم لتوسيع رقعة دولتهم لا يالون بالإقدام على فعل أى شىء يوصلهم إلى هدفهم المنشود. ولكن المعتمد رغم أنه كان يختلف عن جده وعن أبيه من حيث الغلظة والقسوة والجبروت، إلا أنه كان أكثرهم انتهازية ووصولية. فقد سمح لنفسه بمدارة النصارى، والأمرّ منه الاستعانة بهم

(١) المرجع السابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) انظر قبل، ص ١٣٩ ـ ١٤٠

ضد إخوانه من المسلمين لتحقيق أغراضه. وهو أمر بالغ الخطورة والخزى خلت صحيفة أبيه وجده من معرتها.

وعلى أية حال فقد استعد المعتمد لتوسيع رقعة دولته على حساب مملكة غرناطة جارته من الجنوب الشرقى. إذ رأى هو ووزيره ابن عمار أن مملكة غرناطة قد وصلت إلى غاية من الضعف والخور مثلها مثل مملكة قرطبة. ورأيا فيها أيضا تفاحة قد نضجت وحان قطافها، فجندا نفسيهما للعمل على الإجهاز عليها. ولكى تتضح معالم أحداث تلك الجهود لابد لنا من عود على بدء ـ عندما تحدثنا عن الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطة. إذ كنا قد أشرنا إلى أن ألفونسو السادس استطاع أن يصبح سيد أسبانيا النصرانية شبه المطلق بعد تلك السلسلة من الحروب الأهلية، والأحداث الأخرى التى عرضنا لها ولم يعد فى الأندلس بدءً من عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٣م، وهو العام الذى تربع فيه ألفونسو السادس على معظم أسبانيا النصرانية إلى مملكته الواسعة، وإمارة برشلونة [١] فى الشمال الشرقي أقوى منه.

وقد بدأ خطره يتعاظم شيئا فشيئا منذ استتبت له الأمور، وكان فى الحقيقة أشد خطرا من أبيه، وأكثر منه انتهازية، وكانت سياسته فى الواقع أشد دهاء ومكرا من سياسة أبيه، فوالده فرديناند كان حاضرا متأهبا فى كل الأوقات لتلبية أى دعوة من أى مملكة أو إمارة إسلامية وكان لا يجد حرجا من نقل ولائه ومساعدته لمن يدفع أكثر. أما ابنه ألفونسو السادس فقد فاقه فى هذا وبزه. بل إنه انتهج سياسة ماكرة تهدف إلى إنهاك قوى خصومه المسلمين المالية والعسكرية بفضل الحصار الطويل والشديد الذى يضربه على معاقلهم. ثم يرفع ضغطه عن هذه المعاقل بعد أن يكون قد استطاع امتصاص قواهم العسكرية والمالية. ومن ثم يسهل عليه بعدئذ القضاء على استقلال تلك المعاقل[٢].

وستتضح معالم هذه السياسة بعد قليل فى موضوعاتنا القادمة إن شاء الله

---

(١) انظر قبل، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) انظر فى هذا: عبد الله بن بلقين بن زيرى: التبيان، ص ٧٣.

وسيتضح معها أن حكام الممالك الإسلامية فى الأندلس انزلقوا فى تورط مفزع إلى خدمة مشاريع ألفونسو السادس والإسهام فيها بسوء سياستهم بقصد وبغير قصد.

فكر المعتمد ووزيره ابن عمار فى مهاجمة مدينة جيان(1) ذات الأهمية العسكرية والتى تقع إلى الشمال الشرقي من ولاية قرطبة. ومن ثم العمل على الاستيلاء عليها. وبالفعل استطاع المعتمد أن يضم هذه المدينة إلى مملكته وينتزعها من صاحبها عبد الله حفيد باديس عام ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤م(2). ثم فكر بعد ذلك فى مهاجمة غرناطة نفسها، إلا أن وزير الدولة الغرناطية النافذ المدعو سماجة الصنهاجى استطاع أن يبدى قدرا من الحزم عظيما فحصن المدينة واتخذ العدة للمقاومة، مما جعل المعتمد ييأس ويرفع حصاره عنها(3). وفى تلك الأثناء شاء ألفونسو السادس أن يوسع ضغوطه نحو مملكة غرناطة وأن يحاول إجبارها على الإنسياق فى تنفيذ سياسته بإرغامها على دفع الإتاوة شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى وكان هذا دليلاً ساطعاً على رغبته في جر الممالك الإسلامية نحو الغاية التى خططها بدقة. فقد بعث إلى عبد الله بن زيرى يطلب منه أن يدفع له عشرين ألف دينار كإتاوة مفروضة مستغلا حرج موقف المملكة. وفى هذا الصدد يقول ابن زيرى نفسه (وأما ألفونس لما تيقن هذه الفتن، علم أن ذلك من أكبر سعادته، ومن أعظم فرصة فى طلب الأموال. فأرسل إلينا رسوله: أول مداخلة نشأت بيننا وبينه، فأتى باطرشولش(4) يطلب منا ضريبته، فأبينا عليه واجتمع رأينا

---

(1) جيان، مدينة وكورة فى التقسينم الادارى للأندلس الإسلامية. والبلد يقع على نهر الوادى الكبير الى شرقي قرطبة، أما البلد فيقع على السفح التالى الشرقي لجبل كوز Jabalcuz غربى بلون Guadalbullin والبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ مترا، ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع وخاصة قصبته. وجيان اليوم مديرية واسعة من مديريات منطقة الأندلس (فى جنوب أسبانيا). •

انظر، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ح ١، ص ١٢١.

(2) محمد عبدالله عنان : دول الطوائف، ص ١٤٢. رقم ٣.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٣٤.

(4) سفير أسبانى نصرانى بعثه ألفونسو السادس لأخذ الإتاوة من مملكة غرناطة كما هو واضح.

على أن لا نفعل. وأن ضرر ألفونش لا يخشى وغيرها أمامنا. نعنى بذلك ابن ذى النون. ولم نقس أن أحدا يعاقده على مسلم. فانصرف عنا دون عمل[1].)

ولكن ابن زيرى كان واهما، فالعصر الذى يعيش فيه عصر تغيرت فيه المفاهيم، وقوضت فيه المثل، وأصبحت صفات الوصولية والانتهازية وغيرهما دلالة على ذكاء خارق وسياسة محنكة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذا دليل على عدم أهلية عبد الله للحكم وقلة تجاربه ومحدودية ثقافته، فالأندلس قد شهدت فى عهد جده نوعا من هذا التعاون الذى يستبعده.

وأيا ما كان الأمر فقد انصرف السفير النصرانى غاضبا ومتوعدا بأوخم النتائج. وفى طريقه إلى بلاده التقى فى مدينة باغة[2] بوزير مملكة إشبيلية محمد بن عمار الذى كان يترصد مجيئه. ودخل الاثنان فى مفاوضات سياسية اتضح منها المدى الكبير الذى انزلق فيه المعتمد ووزيره ابن عمار على السواء فى تحقيق رغباتهما الشخصية.

ويروى عبد الله بن زيرى بكل امتعاض وحنق ما حدث بقوله (وإن ابن عمار انتهز هذه الفرصة وكان منتظرا له بباغة مرتقبا لما يصنع معنا، فلما رأى أنه لم يتم له عمل، ألقى يده فيه على المقام وقال له: إن كنتم منعتم عشرين ألف دينار «وهى التى سأل عن ضريبته»(٣) فنحن نعطيكم خمسين ألفا، على أن نعاقدكم على غرناطة، تعطونا القاعدة ولكم ما فيها من الأموال، فعاقده على ذلك.)[4] ومعنى هذا أن ابن عمار كان يهدف إلى أخذ الإذن من ألفونسو بإطلاق يده ويد ملكه بمهاجمة مملكة غرناطة والاستيلاء على عاصمتها مطمئني البال إلا أن ألفونسو سوف

---

(١) عبد الله بن بلقين بن زيرى: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٢) باغة مدينة صغيرة، هى غير باجة Beja ، المذكورة سابقا، واسم هذه البلدة فى القديم ايباغنوم Epagnumm أو باغو، وتسمى اليوم عند الأسبان بريغو Priego .

انظر: شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج ١، ح ٦، ص ١٣٠. وح ٢، ص ١٨٩.

(٣) ما بين القوسين هو من تحقيق ناشر كتاب البيان ومحققه ليفى بروفنسال.

(٤) عبد الله بن بلقين بن زيرى: المصدر السابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.

لن يعارض فى هذا، أو بمعنى آخر لن يعارض فيما سيحدث من تغير من توازن القوى آنذاك. وذلك على اعتبار أن ألفونسو سوف لن يخسر شيئا بل على العكس فإن المبلغ الباهظ الذى دفعه له ابن عمار سيساعده على تقوية جيشه استعدادا لجولات أخرى.

وكان لهذا العمل دلالته الخطيرة فمجرد الاحتكام إلى العدو النصرانى والاتفاق معه فى شأن إسلامي بحت يعنى انتقاصا للسيادة الإسلامية الكاملة لأية دولة من دويلات الطوائف، ويعطى بعدئذ الحق والمبرر لملوك النصارى فى التدخل فى الشئون الداخلية للممالك الإسلامية، ومحاولة دس أنوفهم فى همومها للوصول إلى غاياتهم.

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن يسمح لمملكة إشبيلية ببناء حصن أو قلعة أمام مدينة غرناطة يقفل عليها السبل ويضيق عليها الأنفاس - وهى وسيلة عسكرية كانت سائدة فى العصور الوسطى -. وقد اهتدى ابن عمار إلى انتقاء مكان مناسب لهذا الحصن عند حصن يليلش القريب من غرناطة بمساعدة بعض الخارجين على المملكة الغرناطية[1]. وقد استطاع أن يبنى ذلك الحصن بسرعة مذهلة بمساعدة بعض من مفرزات الجيش النصرانى. يقول ابن زيرى (وأكرى ابن عمار من عسكر ألفونش ما قوى به البنيان بأعداد من الأموال جسيمة، يسوفهم فيها تارات، ويعدهم ويخادعهم، حتى تم البنيان. وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه، ويبرز أبدا على مقربة من غرناطة مدة كونه، طمعا فى أن يقوم معه أهل البلدة، فلما تم بنيانه، قواه بالندب، واتخذ فيه جميع الأقوات وأمرهم بالتضييق، وكانت الحال شديدة. . .)[2].

ومن الواضح والطبيعى أن يؤثر هذا التضييق، وذلك الإقفال للسبل على مملكة غرناطة، رغم أن المعتمد وألفونسو قد غادرا مسرح تلك الأحداث. وحاول عبد الله بن زيرى جاهدا أن يخضع ذلك الحصن لنفوذه، ولكنه لم يستطع فعل أى

---

(١) عبد الله بن بلقين بن زيرى: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

شيء. وقد أثرت هذه الأحداث في الجبهة الغرناطية الداخلية المضعضعة أصلا، وقد أخذ ضغط الأحداث يعبىء في الشعور الشعبى القنوط واليأس من استمرارية بقاء الدولة، وندم ابن زيرى على تفريطه في عدم موافقة ألفونسو عندما طلب منه الإتاوة مقابل مداراته[1].

ونحن هنا نستبعد ما أورده محمد عبد الله عنان[2] من أن عبد الله بن زيرى هو الذى بادر بطلب معونة ألفونسو أسوة بمعظم أمراء الطوائف. وأن المعاهدة التى عقدت كانت معاهدة حلف وصداقة، تعهد فيها ابن زيرى بدفع إتاوة قدرها عشرين ألف دينار. كما يقول عنان أيضا إن ابن زيرى ووزيره سماجة الصنهاجي المذكور سابقا قد خرجا ومعهما سرية من الجند النصارى التى أمدهما بها ألفونسو. وقد أغار الجيش على أراضي إشبيلية. واستطاع أن يسترجع حصن قبرة[3] الذى يقع فى جنوب غربى جيان. نستبعد هذا لأن ابن زيرى نفسه لم يشر إلى هذه الأحداث فى كتابه السالف الذكر. بل يقول إنه فى أول اتصال تم بينه وبين ألفونسو وذلك عندما رفض أداء الاتاوة: (فأرسل إلينا رسوله أول مداخلة بيننا وبينه فأتى..)[4] ولو أننا افترضنا أن ابن زيرى قد فاته رصد بعض الأحداث والإتيان بها، فإننا لم نعثر على رواية مساندة تؤيد هذا الرأى، بل إن محمد عبد الله عنان لم يورد عند روايته لهذه الأحداث مصدره أو مصادره التى اعتمد عليها.

شغلت هذه الأحداث الفترة من عام ٤٦٦ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤ ـ ١٠٧٥م. وقد أجهدت مملكة غرناطة كثيرا. على أن حدثا جليلا وخطيراً حدث فى عام ٤٦٧ هـ بدل المواقف فى جنوب الأندلس، وأزاح عن كاهل غرناطة كابوساً ثقيلاً، ذلك هو

---

(١) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

(٢) دول الطوائف، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) حصن قبرة هو اسم لكورة من كور جنوب الأندلس. وقبرة اليوم Cabra مركز إدارى فى مديرية قرطبة.

انظر، ابن الأبار: المصدر السابق،ج ٢، ح ١، ص ٣٦٥.

(٤) انظر عبد الله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٦٩.

خروج قرطبة عن طاعة بنى عباد، وما حدث من مقتل عباد بن المعتمد كما مر بنا سابقا(١). فقد أربك هذا الحدث سياسة إشبيلية، وجعلها تنسق جهودها سراعا وتدفع باهتمامها نحو المشكلة المستجدة والنقطة المتفجرة. ومن هنا فقد أرغم ابن عمار على تغيير استراتيجيته، فاضطر إلى سحب جنوده من حصن يليلش والتوجه نحو قرطبة. وأعطى هذا الحادث لابن زيرى الفرصة ليقول (فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة، وسمع بالخبر أهل يليلش أخلوها على المقام، ودخلها رجالنا، وصارت في ملكنا مستبدة مبنية، فنظرنا منها بالذى نصنع بقصبة غرناطة، وتروّح مخنّقها من حيث لم يحتسب.)(٢)

عودة الوزير ابن عمار لمحاولات التوسع على حساب مملكة غرناطة:

لم تستطع مملكة غرناطة أن تنعم بالهدوء الذى أسبغته أحداث قرطبة طويلا. إذ ما إن أستطاع المعتمدأن يستعيد قرطبة حتى توجه الوزير ابن عمار نحو الهدف الثانى فى السياسة الإشبيلية، ولكنه فضل هذه المرة أن يتجه نحو ألفونسو السادس مباشرة ليعقد معه اتفاقية على غرار الاتفاقية الأولى، وبنفس المبلغ الذى تعاقدا عليه فى المرة الأولى. ويقول ابن زيرى هنا (وبقى ابن عمار مرتهنا بما جعل على نفسه للنصرانى من كراء يليلش فى تبعات كثيرة، وجرايات جسيمة يقطعها له ويعده بها، وأدخل سلطانه من ذلك فى تشغيب، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحة لكى يحتاج إليه فى تلك الفتنة لا يقر عن إدخال ضرر على المسلمين. ومتى ما كان المعتمد يسعى فى تهدين الأمر ونروم معه الصلح، أوتنشأ مهادنة لا ينام فى نقضها وإشعال نار الفتنة. فعاد ثانية إلى النصرانى ألفونش، وزين له أمر غرناطة، وصورنا عنده فى صورة من لا يقدر على شىء من أجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأسرها. على أن يعاقده إذا تمكن من البلدة أن يجعلها ملكه، وله ما لقى من أموالنا، وألقى يده فى ألفونش عازما عليه فى الإقبال عليها، وأعطى على ذلك أموالا جسيمة، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية، سيعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير.)(٣).

---

(١) انظر قبل، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) التبيان. ص ٧١.

(٣) نفس المصدر، ص ٧٢.

وهنا تتضح انتهازية ألفونسو بأوضح ما تتجلى عليه الصورة، إذ إنه عمد إلى الاستفادة من الجانبين وابتزازهما معا. وهذا ما لاحظه ابن زيرى نفسه عندما قال (فأدرك الرومى من ذلك طمع كبير (هكذا!) وقال: هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة، وإن لم تحصل البلدة! وأى فائدة لى فى إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسى؟ وكلما أكثر الثوار،ووقع بينهم التنافس، كان لى أفئد! فأتى على نية أخذ مال الفريقين، يكسر رؤوس بعضهم ببعض. ولا كان أيضا فى أمله أن يأخذ البلد لنفسه، فإنه عمل فى ذلك حسابا أن قال: «أنا من غير الملة، وكل الناس يشنأنى، فبأى وجه أطمع فى أخذها؟ إن كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن، وإن كان من وجه القتال، فيهلك فيها رجالى وتذهب أموالى، وتكون الخسارة على أكثر مما نرجوه إن صارت إلى. ولو صارت، لم تتمسك إلا بأهلها، ثم لا يؤمنون! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتى! ولكن الرأى، كل الرأى، تهديد بعضهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا، حتى ترق وتضعف، ثم هى تلقى بيدها إذا ضعفت وتأتى عفوا)[1]. ويضرب المؤلف مثلا لما حدث بعد ذلك من سقوط طليطلة بقوله (كالذى جرى بطليطلة إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم، مع اندبار سلطانها، وصارت إلىّ بلا مشقة؟)[2].

كما يتضح هنا ما سبق أن قلناه عن سياسة ألفونسو الماكرة التى تهدف إلى إنهاك قوى الخصوم، وإضعافها ليسهل عليه بعد ذلك القضاء عليهم. ورد ذلك فى إشارة أحد مستشاريه الذين بعثهم للتفاوض مع مملكة غرناطة ونصها (إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنحس البقاع: جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم!! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة،. حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف!).

ومن أسف أن رد فعل ملوك الطوائف آنذاك كان سلبيا مخزيا.. ويشرح أحدهم وهو ابن زيرى نفسه رد فعلهم ومواقفهم آنذاك بقوله (فكان الجميع يساير الأمور،

(١) المصدر السابق، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٧٣.

ويدافع الأيام، ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال، وتهلك الرعايا بزعمهم، يأتى الله بالفرج وينصر المسلمين!)[1].

ولقد قدم ألفونسو إلى غرناطة تحقيقا للهدف الذى قلناه قبل قليل، وعسكر قرب غرناطة ثم طلب الاجتماع بالملك الغرناطى. وتداول عبد الله بن زيرى مع وزرائه ومستشاريه فى أمر هذا الطلب واستقر الرأى أخيراً إلى مفاوضته فيما يريده. وتلاقى الملكان خارج العاصمة، وأبدى عبد الله بن زيرى من ضروب الإكرام والحفاوة مما أوجب شكر ألفونسو له، وقد أوضح ألفونسو له أنه قد سيق إلى عقد المعاهدة مع ابن عمار سوقا لاخيار له فيه كما يزعم. ولذا فقد طلب منه أن يدفع له الإتاوة. وإلا فهو حرّ فى العودة إلى معاقدة ابن عمار. وعلى هذا فقد طلب منه أن يدفع له خمسين ألف مثقال.

ولكن عبد الله بن زيرى رفض دفع هذا المبلغ وأشتكى له بأن أحوال البلاد المالية تعجز عن الوفاء بذلك المبلغ الضخم، وأخيرا اتفق معه على دفع ثلاثين ألف مثقال بعد طول مشقة[2]،

وهكذا استطاع ألفونسو أن يتحصل على ما يريده من إنهاك قوى خصومه المسلمين وإضعافهم. . وقد بعث بعد ذلك إلى ابن عمار يقول له (كذبت لى فى قولك إن غرناطة فى ضعف، وإن صاحبها من صغر سنه لا يعقل، ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك.)[3]. وأخيرا، وبعد أن وصل ألفونسو إلى ما يريده ولو مؤقتاً، رأى أن يحل الإشكال بين المملكتين بمعرفته ووصايته. فقد اتفق مع المعتمد ومع عبدالله بن زيرى على أن يعطى كل منهما بعضا من الحصون ذات الأهمية العسكرية لكليهما، وأن يدفع الإتاوة السنوية التى قررت على كل منهما فى تلك المصالحة.[4]

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) عبد الله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٧٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٧٥ ـ ٧٦.

وتعتبر هذه الأحداث آخر شيء فى سياسة ابن عمار تجاه مملكة غرناطة، إذ ما لبث أن رفع ظله عنها بعد ذلك. وصفت الأمور لعبد الله بن زيرى ونترك له يروى غبطته تلك بقوله (ومما هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار وشغله فى مرسية. وبزوال سماجة عنا وأتباعه وتوفى قبل ذلك ابن ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة وكانت الأندلس قد ارتجت له، وخافه الرؤساء، فلم يلبث بها يسيرا حتى مات.)[1]

وما دمنا قد ختمنا حديثنا عن العلاقة السيئة المتفجرة بين مملكتي إشبيلية وغرناطة والتى وضع لها ألفونسو حدا وحلا فرضه فرضا على الطرفين، فإننا نشعر ربطا للموضوع واقتضاءً للسياق أن ثمة ما يدعو إلى إيضاح ما آلت إليه العلاقات بين المملكتين بعد ذلك. وبعد أن رفع ابن عمار ـ الذى كان له الدور الأكبر فى تدهور العلاقات بين المملكتين ـ ظله عن غرناطة، وانشغل فى أمر احتلال مرسية وما تبع ذلك فى النهاية من أحداث أدت إلى مقتل ابن عمار كما سنرى بعد[2]. بعد هذا شهدت علاقات عبد الله بن زيرى ملك غرناطة المذكور بالمعتمد تحولا جذريا، إذ سرت فى العلاقات السياسية بينهما موجة من المودة والتفاؤل والمحبة. وفى الحقيقة أنه كان لغياب ابن عمار عن مسرح الأحداث وانشغاله بفتح مرسية ثم تعاقب الأحداث سراعا وما أفضت إليه بعد ذلك من مقتل ابن عمار. الدور الرئيسى فى تحسن العلاقات بين المملكتين. وقد سرَّ هذا التحول الإيجابى فى العلاقات المشبع بروح المودة عبد الله بن زيرى نفسه، فنراه يعلن عن سروره هذا عندما يتحدث عن هذه الأحداث بقوله (ليس كل الناس علم سرّ الأمر كالذى نصفه نحن، والدليل على ما قدمناه ذكره من ارتباط المعتمد إلى الخير وإيثاره للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته، ولم ير بعد فتنة بيننا وبينه، وحقق معنا فى كل أمر الذى فعلنا نحن معه، وجددنا العقد على ما ارتضيناه من معاوضات، سوى ما كان قديما بيده، مما خرج عنا فى أيام المظفر وأخذت الفتنة عليه خفها، ولم

---

(١) عبد الله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) انظر بعد، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٩،

يوجد فى طلبه ذلك خير، ولا إلى غير المصالحة سبيل[1]) . كما يستطرد فى تعبيره عن رضاه التام للتطور الإيجابى للعلاقات بين المملكتين فيقول: فقرت الأحوال قرارها، وتهنى كل واحد منا بملكه إلا ما كان من سيف برانى يعترض بلادنا من الروم، فكان الرزء فيه واحدا، والمشاركة سواء، وإن كنا لا نقدر على ذلك بالإمداد بعضنا لبعض لضعف الحال، فكنا نتشارك بالمداخلة وإعمال الرأى والتحذير من أمر عسى أن يكون خفى عن الآخر، وما أشبه ذلك.)[2]

وبالفعل فقد ترجم المعتمد عن حسن نواياه تجاه مملكة غرناطة، وعن صدق عزمه فى نهج أواصر المودة بين المملكتين، وذلك عندما ساءت الأحوال الداخلية فى مملكة غرناطة، وبدأ بعض الطامعين من حكام المدن والولايات يفكر فى الخروج على عبد الله بن زيرى والاستقلال بما تحت أيديهم، مستغلين ضغط ألفونسو السادس على المملكة من جهة، وتدهور العلاقة الأسرية بين عبد الله بن زيرى وأخيه تميم ملك مالقة من جهة أخرى[3] . فقد تطلع هؤلاء الطامعون من حكام المدن والأقاليم إلى طلب مساعدة المعتمد بن عباد وعونه، ولكن سياسة الوفاق الجديدة التى رسمت بين المملكتين، جعلت المعتمد يصم أذنيه عن مد أولئك الثائرين بالمساعدة التى طلبوها. بل إن المعتمد عمد إلى التوسط لمصالحتهم مع مليكهم ورأب ذلك الصدع بينه وبينهم وعندما أصر أولئك على الخروج لم يجدوا من المعتمد أية مساعدة أو عون على الإطلاق. [4].

---

(١) التبيان، ص ٨٢.

(٢) نفس المصدر، والصفحة.

(٣) انظر نفس المصدر، ص ٨٤ - ٩٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٩٥ - ٩٩.

خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر

صـور عن متانة العلاقة بين الصديقين :-

لم يكن يدر بخلد أحد من الناس لا فى إشبيلية فقط بل وفى الأندلس عموما أن يوما سيأتى تسوء فيه العلاقة بين الصديقين، وأن يحل الحقد والقدح محل المودة والخلة. لم يكن يدر بخلد أحـد أن علاقة المعتمد مع صديقه الحميم ستتدهور وتسـوء وتفضى أخـيرا إلى مقتـل الـوزير على يد مليكه وصديقه المعتمد نفسه. فالعلاقة لم تكن عبارة عن صداقة تقليدية بل هى علاقة أخوية حميمة ندر وصفها، وعـز شبههـا. نقول لم يدر بخلد أحد أن تتجلى الأمور بعد كل تلك الصداقة والعشرة إلى العـداء والقتل أخيرا، حتى المعتمد نفسه كان يرى أن اليوم الذى ستسوء علاقته بصديقه لن يقدر له أن يراه.

ومع هذا حدث ذلك بل وحدث الأخطر منه وهو مقتل ابن عمار على يد المعتمد نفسه. ويروى لنا عبد الواحد المراكشى فى هذا المعنى قصة ذات طرافة ودلالة: (وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت عليه العادة جارية، إلا أنه فى تلك اليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد. فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معى على وساد واحد، فكان ذلك: قال ابن عمار فهتف بى هاتف فى النوم يقول: لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين، قال فانتبهت من نومى فزعا، وتعوذت ثم عدت فهتف بى الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثا، فانتبهت فتجردت من أثوابى، والتففت فى بعض الحصيره وقصدت دهليز القصر مستخفيا به، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت. فانتبه المعتمد

فافتقدنى فلم يجدنى . فأمر بطلبى فطلبت له فى نواحى القصر . وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه . فكان هو الذى وقع علي ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يتفقد الباب هل فتح ؟ فوقف بازاء الحصير الذى كنتُ فيه . فكانت منى حركة فأحس بى وقال ما هذا يتحرك فى هذا الحصير؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ليس علي إلا السراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعا ، وقال يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا؟ فلم أر بدا من أن أصدقته فقصصت عليه قصتى من أولها لآخرها ، فضحك وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : وكيف أقتلك؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ . فتشكّر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى ، الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الايام والليالى إلى أن كان من أمره ما سيأتى الإيماء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال(١) .

ومن هذه الصور التى تبرز ما كان بين المعتمد وصديقه الأثير لديه ابن عمار من الود والأخوة أن هدايا المعتمد لم تكن تقف عند حد ، وكان يميزه عن غيره من المحيطين به ، ولم يكن يبخل علي صديقه بأغلى الهدايا وأثمنها مما يجعل ابن عمار يلهج شكرا وعرفانا . ويقول(٢) :

أفى كل يوم تحفة وتفقّد ... بفضل نوال واهتبال يؤكّد

ويقول أيضاً :

تبرعت بالمعروف قبل سؤله ... وعدت بما أوليت والعود أحمد

ولكنه مع هذا يعجز عن الوفاء لصديقه فيقول :

فإن أنا لم أشكرك صادق نية ... تقوم عليها آية النصح تعضد

فلا صح لدين ولا برّ مذهب ... ولا كرمت نفسى ولا طاب مولد

ويهدى الشاعر الوزير لصديقه هدية فى مناسبة من المناسبات ويرفقها بأبيات من

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٠٠ .

الشعر. فيوجه إليه المعتمد بمكبة فضة فيها خمسمائة دينار. وقيل خمسة آلاف دينار ذهبا، وكتب معها:

هبة أتتك من النضار ألوفها ... فاغنم جزيل المال من وهّابه
فلو أن بيت المال يحوى قُفله ... أضعافها لكسرته عن بابه
فالبحر يطفح جوده لك زاخرا ... لما كسوت البحر بعض ثيابه.[1]

ويقول ابن الأبار[2] (وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد حين وجهه أبوه المعتضد محاربا بشلب فنزع إليه وبلغ من المنزلة لديه أن غلب عليه ثم صحبه بإشبيلية، وكان يحضره فى مجالس أنسه، ويستدعيه إليها، ويؤثره على خاصته ويستريح إليه بسره، ومن ذلك قوله وكتب به إليه:

قد زارنا النرجس الذكى ... وحان من يومنا العشى
ونحن فى مجلس أنيق ... وقد عطشنا، وثم رى
ولى خليل غدا سميّ ... يا ليته ساعد السميّ

فأجابه واصلا قائلا:

لبيك لبيك من مناد ... له الندى الرحب والندىّ
ها أنا بالباب عبد قنّ ... . وجهك السنىّ
شرّفه والداه باسم[3] ... شرفته أنت ....

بل إن ابن عمار بلغ من عظم منزلته لدى المعتمد أنه كان يعهد إليه بأجل الأعمال وأدقها. بل إنه كان يمثل بالإضافة إلى الوزارة ما يمكن أن نسميه اليوم برئيس المراسم. فلا يعتمد مجلس مع المعتمد ولا ترتب مقابلة أو موعد إلا عن طريقه. وفى هذا الصدد يقول ابن الأبار (وسرى إلى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة إلى بعض كرائمه شعرا يعتذر فيه من اللحاق بها، آخره «إن شاء ربى أو شاء ابن عمار».)[4]، بل ويروى ابن الأبار أيضا صورة لعظم مكانه وعلو درجة ابن عمار

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٣) من الواضح أن نشير إلى أن اسم كليهما أى المعتمد وابن عمار، محمد.
(٤) ابن الأبار: نفس المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢،

لدى المعتمد إذ يقول (واتصل بالمعتمد فى بعض سفاراته عنه إلى جليقية أن الطاغية أذفونش ثقفه هنالك، ثم ورد الخبر بعد بضد ذلك فلما قدم ابن عمار كتب إليه المعتمد:

لما نأيت نأى الكرى عن ناظرى ... وصرفته لما انصرفت عليه
طلب البشير بشارة يحظى بها ... فوهبت قلبى واعتذرت إليه

إلى غير ذلك ما أوردت من الدلائل على لطف المنزلة وتمكن الحظوة وتضاعف الأثرة وحب الرئاسة فى رأسه يدور إلى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور. . .)(١).

ونعتقد أن ما أوردناه من الصور فيه من الدلالة والمغزى ما يدل على عمق الصداقة، وقوة ووثوق الآصرة التى جمعت بينهما، والتى سمت وعلت إلى مرحلة الخلّة النادرة فى كل زمان ومكان.

إصرار الوزير ابن عمار على احتلال مرسية وبداية الوحشة بين الصديقين :-

كانت مملكة مرسية تأتى هى ومملكة دانية، وألمرية، وبلنسية وغير ذلك من الإمارات والممالك الأخرى فى المرتبة الثانية من الأهمية السياسية والعسكرية للممالك الإسلامية فى الأندلس المعروفة بممالك الطوائف. وكانت تمثل مع تلك الممالك التى ذكرناها خطا سياسيا مخالفا للخط السياسى الذى سلكته الممالك الخمس الكبرى فى الأندلس، وهى إشبيلية، وغرناطة، وطليطلة، وبطليوس، وسرقسطة. فقد نزعت هذه الممالك كما مر بنا نحو التوسع وبسط السيطرة والنفوذ. أما مرسية وغيرها من تلك الممالك المذكورة فقد تبنت - محكومة بعوامل طبيعية وجغرافية وبشرية - سياسة التعايش السلمى والعلاقات الودية المتوازنة مع تلك الممالك الخمس. مع المحافظة فى نفس الوقت على العلاقة الخاصة والمميزة التى تربط كل مملكة من ممالك الصف الثانى هذه بمملكة أخرى قوية سواء أكان ذلك بسبب الجوار، أم المصاهرة أم غير ذلك. ولسنا هنا فى معرض ذكر تفاصيل تلك السياسة وذلك النهج فما يمكن أن نستخلصه من كل تلك العلاقات والأحداث

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

هو شيئا واضحا وهو أن ممالك الصف الثانى كانت دائما تقع ضحية أطماع وتطلعات الممالك الكبرى الخمس.

قلنا إن مملكة مرسية قد أسسها خيران العامرى أحد فتيان المنصور بن أبى عامر، وعندما تركها خيران خلفه صديقه زهير العامرى الآخر. ثم غادر زهير مرسية إلى ألمرية ليلى حكمها بعد وفاة خيران. ولكنه عهد بحكمها إلى أحد أعيانها ووجهائها، وهو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر. وعندما قتل زهير خلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بحكم الولاء على مملكته. فأقر ابن طاهر عليها(۱). وقد استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا حتى توفى عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م. فخلفه فى حكمها ولده أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر. وقد اعترف ابوعبد الرحمن بن طاهر بالسلطة الاسمية لعبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ملك بلنسية. ولكن عبد الملك ذهب ضحية مؤامرة دبرها حماه المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وأسفرت هذه المؤامرة عن إقصائه عن الحكم ودخول بلنسيه فى طاعة مملكة طليطلة. وهنا انتهز أبو عبد الرحمن هذه السانحة، فأعلن استقلال مرسية التام عن مملكة بلنسية أو مملكة طليطلة بمعنى أدق(۲).

وقلنا أيضا إن ابن عمار رفع ظله الثقيل عن مملكة غرناطة وأراحها من دسائسه ومؤامراته بفضل تدخل ألفونسو السادس، ودعوته للصلح بين الأطراف المتنازعة. ورأينا أن الاتفاقية التى عقدت برعايته قد عادت ببعض المكاسب المادية على مملكة إشبيلية بفضل مساعى وزيرها. فهو وإن كان قد عجز عن تحقيق آماله بسقوط مملكة غرناطة على يديه، فإنه لم يعد من الغنيمة بالإياب، فقد استحصل على بعض الحصون والقلاع من مملكة غرناطة. وكان هذا كافيا لرفع أسهمه كثيرا لدى مليكه، ولعلو درجته وسموها أكثر فأكثر عنده. كما أن مداخلاته وصداقاته للنصارى ولألفونسو بالذات، والجهد المشرف الذى بذله لرد عاديات ألفونسو بتلك

---

(۱) انظر قبل ص ۷۱.

(۲) انظر قبل ص ٦٥.

الخدعة الذكية التى ذكرناها سابقا[1]، قد عادت عليه بالشهرة والمجد الذائعين. ومن هنا فقد أحس فى نفسه القدرة على ضم الأندلس جميعها تحت نفوذه. ولا نستبعد أن يكون رأى ألفونسو فيه الذى قال ذات يوم عنه: إنه رجل الجزيرة، قد نفخ فى رأسه وصور له بأنه الرجل الذى خبأته الأقدار للمعتمد ليكون وسيلته فى ضم الأندلس كلها لإمرته. ولذا فقد أخذ يتطلع إلى مد نفوذ مملكة إشبيلية نحو الشرق، ونحو مملكة مرسية بالذات. ومهما تضاربت الأقوال فى أسباب محاولة الاستيلاء على مرسية، فإن ثمة شيئاً واضحا وأكيداً كان قد قرره الصديقان وهو الاستعداد للاستيلاء عليها وضمها إلى مملكة إشبيلية بعد أن أقنع ابن عمار ملكه المعتمد بضرورة وأهمية ذلك الأستيلاء[2]. ورحب المعتمد بهذا المشروع الذى سيضيف إلى مملكته منطقة واسعة كثيرة الخيرات، وما يضفى عليه ذلك من مجد وصيت. وتنفيذا لسياسة المحاور والأحلاف التى كانت سائدة آنذاك، رأى الاثنان أن يسيرا فى مشروع الاستيلاء بخطة مدروسة تهدف إلى عقد محالفة مع إمارة برشلونة الواقعة فى الشمال الشرقي من أسبانيا، والقريبة من مملكة مرسية، خوفا من أن تسارع مرسية إلى الاستنجاد بها فيما لو هاجمتها القوات الإشبيلية. ولذا فقد هدف ابن عمار إلى عقد معاهدة مع أمير برشلونة ابن ريمند.[3] وفعلا توجه ابن عمار إلى برشلونة، ومر فى طريقه اليها بمرسية، ونزل ضيفا على صاحبها ابن طاهر[4]. ويقال إنه داخل بعضا من أعيانها فى أمر التخلص من حكم آل طاهر.

وعندما وصل ابن عمار إلى برشلونة، عقدت بين الطرفين معاهدة تنص على أن

---

(١) انظر قبل، ص ٢١١.

(٢) ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢٢،

(٣) ابن ريمند: هو أمير برشلونة الكونت رامون برنجير (أو الكونت Raimundo (Ramon)-Berenguer II el Fratvecid
كونت برشلونة من سنة ١٠٧٦ - سنة ١٠٩٦م، وهو ابن رايموند برنجير الأول الملقب بالعجوز المتوفى سنة ١٠٧٦م، ولهذا يسمى الأول منهما ابن ريمند.)
انظر ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ح ١، ص ١٢٠.

(٤) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٢٠ - ١٢٢.

تمد إمارة برشلونة مملكة إشبيلية بجيش يساعدها على إحكام حصارها على مرسية، مقابل أن تتعهد مملكة إشبيلية بدفع عشرة آلاف مثقال أو دينار لبرشلونة. وللتأكد من صدق النوايا اتفق على أن يرهن كل واحد من الطرفين المتعاقدين رهينة - حسبما كان سائدا فى العصور الوسطى وحتى وقت قريب، فرهن الكونت رامون أحد أبناء عمه لدى المعتمد، ورهن ابن عمار الرشيد ابن المعتمد نفسه لدى الأمير البرشلونى.

وحاصر الحليفان مرسية وضيقا عليها الحصار، وشنا عليها الغارات، إلا أن ذلك لم يفت فى عضدها. ويبدو أن أمير برشلونة قد أحس بنوع من الريبة من حلفائه ولا سيما وأن الأجل المضروب لدفع المبلغ المذكور إليه قد انصرم، فعجل بالقبض على الرشيد بن المعتمد مقدرا أن المعتمد سيتحرك حتما لخلاص ابنه. وبلغ الخبر المعتمد فأزعجه جدا وأغضبه. فعمل على الأسراع فى دفع ما اتفق عليه. وقد كانت الميزانية تعانى وقتها من عجز مالي فاضطر إلى سك نقود مزيفة وبعث بها إلى أمير برشلونة الذى أطلق سراح الرشيد فورا[1]. وقد كانت هذه الحادثة أول ما أصاب علاقات الصديقين بالفتور والجفوة. بل وتحولت إلى مراسلات أدبية شعرية تحمل فى طياتها التنصل من المسؤولية والعتاب من قبل ابن عمار، والصفح والتطمين من قبل المعتمد بالله[2].

والواقع أننا لم نعثر على إشارات تدل على أن ابن عمار يتحمل تبعة فشل ذلك الاتفاق. ولكننا نعتقد أن المعتمد قد نقم عليه أن ينفرد بالأمر برهن ابنه الرشيد دون استشارته، فوضعه بذلك أمام الأمر الواقع. ومن هنا سر غضبه وانزعاجه عندما علم بنبأ القبض على ابنه الرشيد. وقد وقعت هذه الأحداث فى عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م.

احتلال مرسية :-

وبعد أن مضى على تلك الأحداث ثلاث سنوات، وفى عام ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) انظر صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسى، ص ١١٣ - ١١٨.

عن لابن عمار أن يعاود الكرة مع مرسية، فأهلها كما ادعى ناقمون، غاضبون على حكامها، وأظهر للمعتمد كتبا كثيرة زعم أنها وصلته تحث على افتتاح المدينة وضمها لمملكة إشبيلية[1].

وسواء أكان المعتمد قد اقتنع بهذا أم لم يقتنع فقد أسال هذا المشروع لعابه، فوافقه عليه، وفوضه فى العمل على الإعداد له. وبدأ ابن عمار من فوره يعد العدة فجهز جيشا كبيرا توجه به نحو قرطبة حيث التقى بحاكمها الفتح بن المعتمد واجتاز منها إلى حصن يدعى حصن بلج وكان تحت حكم رجل يدعى عبد الرحمن ابن رشيق وقد رحب به هذا واحتفى بقدومه احتفاء كبيرا، جعل ابن عمار يعهد إليه بقيادة جيشه. وتوجه الاثنان نحو أراضي مملكة مرسية. واستوليا فى طريقهما إليها على بعض الحصون التابعة لها[2]. وقبل الوصول إلى مرسية توجه ابن عمار لسبب غير معروف إلى إشبيلية، وترك قيادة الجيش إلى ابن رشيق. ووصل هذا إلى المدينة، وضرب عليها الحصار. وفى نفس الوقت بدأ مراسلاته ومداخلاته مع أهلها الموالين لابن عمار توطئة لتحديد ساعة الثورة معهم على بنى طاهر. وأخيرا سقطت المدينة بيد ابن رشيق ونودى بالبيعة للمعتمد، ووقع صاحبها أبو عبد الرحمن بن طاهر أسيرا فى يد ابن رشيق. [3]

بلغت هذه الأخبار أبن عمار فى إشبيلية، فسر سرورا عظيما، وزاد فى تعاليه وغروره، وطلب من المعتمد أن يسمح له باللحاق بمرسية وكأنه قد أتى بعز الدنيا وجاهها، (وأشار على المعتمد بذلك، فما خالفه فواقا فلم يترك ابن عمار بإشبيلية فى ملك سلطانه ولا ملك أحد من معارفه، فرسا عتيقا، ولا مطية ولا زاملة[4] إلا استخرج ذلك من أيديهم رغبة ورهبة حتى لأجتمع له مائة جنبية، ومائة زاملة،

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء والصفحات.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحات.

(٤) الزاملة التى يحمل عليها من الإبل وغيرها.

انظر الفيروزآبادى: المصدر السابق، ج ٣، ص٤٠١،

وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعه من الديباج والخز إلى ما دون ذلك من نفيس الكسا، ليعم بذلك أهل مرسية. على قدر منازلهم، ولم يخف عن ابن عباد وجهة مراده، فلما سلم عليه مودعا قال له: (سر إلى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع، فقال: لست بمخدوع ولكنك مضطر، فحلم عنه)[١] والفقرة الأخيرة هذه ذات دلالة خطيرة فى سير الحوادث، إذ يستدل منها على أن ابن عمار كان يعمل على التدبير على فعل شىء خطير مجهول وتدل على أن المعتمد بدأ يتوجس من نوايا صديقه ووزيره وأعماله المشبوهة. والمهم أن ابن عمار خرج من إشبيلية فى موكب مهيب إلى مرسية، فدخلها فى يوم مشهور ومشهود، (وابن رشيق بين يديه. وقد برز له وخرج يزفه إلى القصر، وجلس فى اليوم الثانى مجلس التهنئة للخواص والعوام، فجمعت الشعراء بأمداحه، وقد تزيا بزى ابن عباد فى حمل الطويلة[٢]، وحكاه فى التصيير[٣]، وكتب «ينفذ هذا إن شاء الله» فى أسفل قرطاسه، وتختم فى كلتا يديه.. الخ)[٤].

انهيار العلاقات بين ابن عمار والمعتمد وبينه وبين الممالك المجاورة له:

تولى ابن عمار حكم مرسية كما قلنا وانتزى كما يقول ابن بسام فيما ينقله عنه ابن الأبار (.. على مرسية وقعد بها مقعد الرؤساء وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء مستظهرا بجر الأذيال، وإفساد قلوب الرجال..)[٥] ولقد رأيناه يحاكى المعتمد محاكاة الند «للند» فى زيه الرسمى. وفى تصريفه لأمور الدولة. والواقع أننا قد مررنا بشىء يدل على أن ابن عمار كان يضمر الخروج والتمرد على المعتمد، وأن تمرده هذا لم يكن ابن ساعته أى عندما استقر بمرسية. كما أننا فى الوقت نفسه نميل

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٠.
(٢) المقصود بها القلنسوة التى كان يرتديها المعتمد. فقد تشبه به ابن عمار فى لبسها.
(٣) التصيير: يراد به هنا التوقيع على الأوامر. كأن يكتب مثلا يصير هذا أى ينفذ.
انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ج ١، ص ١٤١.
(٤) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٤٠ - ١٤٢.
(٥) المصدر السابق والجزء، ص ١٣٤ - ١٣٥.

إلى تأييد صلاح خالص فى أغلب ما ذهب إليه من تعليل لدوافع ابن عمار للخروج والتمرد[1]. فهو يرى أن انتزاء واستئثار الفاتحين ـ ونرى معه هذا الرأى ونضيف والأصهار كذلك ـ بالمقاطعات والمدن التى يفتحونها لحساب ساداتهم وأقربائهم كان شيئا مألوفاً فى الأندلس ويعد خاصية من خصائص عصر الطوائف كما يعبر عن روح العصر أصدق تعبير. فابن عمار كان ابن عصره ما فى ذلك شك، زيادة على هذا فإن ابن عمار كان يعتد بنفسه كثيرا، وكانت ثقته الكبيرة بحنكته السياسية والدبلوماسية، وتعاليه وغطرسته حتى على أبناء المعتمد نفسه كان دافعا له ليجرب حظه كما فعل الآخرون. . وكانت الصداقة المتينة التى تربطه بألفونسو السادس دافعا ثالثا له للانفراد بحكم مرسية مستقلا. بل إن هناك من كان يعتقد أن ابن عمار كان يعمـل لحساب ألفونسو وتحت إمرته[2]، وإن هناك من يقول بأن فتح مرسية تم بالاتفاق مع ألفونسو[3] . وأخيرا فإن ابن عمار كان يرى أن تلك الممالك كانت تفتقر إلى السند الشرعى لوجودها، إذ إن شرعية وجود تلك الممالك كانت تعتمـد كما يبـدو على ركـائز ثلاث هى : القوة، والمال، والنفعيون والوصوليون والمرتزقة. وتحت يده من هذه الركائز الكثير.

وعلى هذا فقد ساءت العلاقة بين ابن عمار ومليكه، ومضى ابن عمار بعيدا فى

---

(١) محمد بن عمار الأندلسى، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) جاء فى الـرواية التى رواهـا ابن الأبار والتى نقلناها فى المتن أن ابن عمار تختم فى يديه بخاتمين، وكان هذا العمل هدفا للغمز عليه، فقد كان ابن عبد العزيز صاحب بلنسية يعتقد أن ابن عمار كان يعمل لحساب ألفونسو والمؤتمن بن هود معا، ولذلك تساءل عندما بلغه هذا الخبر: أخاتم التأمير أم خاتم التأمين؟. وهى عبارة فكاهية ذات مغزى سياسى هام. ويقال إن الذى قال هذه الجملة هوابن طاهر صاحب مرسية السابق.
انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .ـ ابن خاقان: القلائد، ص٧٢.

(٣) من الذين يعتقدون هذا الاعتقاد حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب الحلة السيراء الذي ننقل عنه كما هو واضح.
انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

الاستقـلال بالأمـر، والانفـراد بالتدبير والمعتمد مع هذا يحاول أن يوسط بعض أصـدقـاء الـطرفـين. يذكـرون الوزير بالأذمة والآلاء، ويدعونه إلى نبذ الفرقة والتمرد. بل إن المعتمد كتب إليه قصيدة يعتب فيها عليه عتابا رقيقا، فكان رد ابن عمار عليه يحمل من روح الصلف والمناددة ـ إن صح هذا التعبير ـ أكثر مما يحمل مـن روح التبعية والاعتـذار [1] . وهكذا أوحت تلك الاعتبارات والدوافع لابن عمار أن ينسف كل محاولات الإصلاح وعودة المياه لمجاريها بينه وبين المعتمد.

وأقحم ابن عمار نفسـه فى سلسلة من الأخطاء السياسية مع جيرانه من ملوك الطوائف، وكان لا يأبه بهذا أبدا طالما كان يعتقد أن ألفونسو ضمانته الوحيدة، ولكن ألفونسو لم ينفعه فعلا، وسنرى بعد قليل إشارة إلى هذا . نقول إن علاقاته مع جيرانـه المسلمـين كانت سيئة للغاية سواء أكان ذلك مع مملكة غرناطة، ام إشبيلية بالطبع، أم بلنسية وكانت علاقته بهذه الأخيرة بالذات متوترة للغاية، فقد نقم ابن عمار على صاحبها أبى بكر بن عبد العزيز غدره به، إذ توسط ابن عبد العزيز لديه لإطلاق سراح ابن طاهر حاكم مرسية السابق، مقابل نزوله له عن أحد الحصون، بيد أن ابن عبد العزيز لم يفعل ذلك، فألهب هذا غضب ابن عمار وهياجه، فنظم قصيدة يهجوه فيها ومن ضمنها أبيات يمدح فيها نفسه[2]، وعندما بلغت القصيدة المعتمـد ذيلها بعدة أبيات يعرض فيها بابن عمار، ويزدرى به. وعندما بلغت هذه الأبيات ابن عمار اهتاج لها واستوحش[3].

ورأى ابن عبد العزيز أن يسير فى حقده على ابن عمار بعيدا، فدبر له مكيدة بأن دس له أحـد أعوانه الذى توصل إلى أن يكون أحد ندماء ابن عمار وجلسائه. واستـطاع هذا أن يستحصـل على قصيدة كان ابن عمار قد نظمها فى وقت من

---

(١) انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . ـ صلاح خالص محمد بن عمار الأندلس، ١٢٧ ـ ١٣١ .

(٢) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ . ـ ابن خاقان: القلائد، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ .

الأوقات يهجو فيها المعتمد.وكانت هذه القصيدة مقذعة حقا، فقد أفرط ابن عمار فى القدح والهجو للمعتمد وزوجته اعتماد الرميكية وأبنائه. ولاقت هذه القصيدة لخطورتها وأهميتها اهتمام كل من عالج هذه الفترة من عهد المعتمد بالدراسة الأدبية والتاريخية، بل وبلغ من خطورتها أنها كانت السبب المباشر فى مقتل ابن عمار بعدئذ(١).

وعلى أية حال فإن ابن عمار لم يوفق فى سياسته الخارجية لمملكته، فدخل فى معارك كلامية مع جيرانه، وظلل جبهته الخارجية بسياج من جدار الشك وفقدان الثقة. أما على الصعيد الداخلى فلم يوفق فيه أيضا مما يرسخ الاعتقاد بأن تولى المناصب القيادية أمر بالغ الخطورة، وتحتاج، أى القيادة من صاحبها مؤهلات ومواصفات أكثر من عادية، وأن بروز قائد من القواد أو وزير من الوزراء فى قيادتهم للجيوش أو فتحهم للمدن والمعاقل لا يعنى بالضرورة أن يكونوا جديرين بتسنم مناصب قيادية عليا. نقول هذا لأن ابن عمار الذى نجح بفضل مهارته السياسية ودبلوماسيته الفائقة فى كثير من المهام، لم يستطع أن يحافظ على استقلاله بمرسية التى هان عليه فى سبيلها كل شىء. فأخفق فى اختيار نوابه ومساعديه، وترك لهم الحبل على الغارب، وانصرف إلى اللهو والمجون. وابن رشيق فى هذا يقتنص الفرص ويتحين السوانح لتعيين أهله وأقربائه وأتباعه فى تولى المناصب والوظائف. ولم تجد نصائح الخلّص من ناصحيه فى لفت نظره وانتباهه شيئاً(٢). ولا نظن أن ابن عمار قد ترك مرسية طوعا واختيارا فارا على وجهه منها إلى جليقية كما جاء فى كتاب ابن الأبار(٣)، وذلك لأن هذا أمر مستبعد ولكننا نعتقد أن ابن عمار فكر فى وقت من الأوقات أن يخرج إلى مقابلة ألفونسو السادس شاكيا له معاملة ابن رشيق له. وفى نفس الوقت ليضع نفسه تحت تصرفه (ليخدم أمر الأنظار التى تجاوره فى

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ص ١٤٢ ـ ١٤٤، وص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

صلاح خالص: ؛ محمد بن عمار الأندلسى، ص ١٣٧ ـ ١٤٠.

الشرق، وعسى يضعها فى يديه مثل شنت مرية . .)[1] ولكنه لم يوفق فى مهمته، فاتجه إلى سرقسطة وملكها المؤتمن الذى خلف أباه المقتدر فى الحكم عام ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١م. وعند ذلك أعلن ابن رشيق استقلاله بالمدينة كما يقول ابن زيرى[2]. على أنه يجوز أن يكون ابن عمار قد عاد قبل ذهابه لسرقسطة إلى ألفونسو طالبا عونه ضد ابن رشيق الذى استبد بالمدينة، ولكنه لم يحصل على ما يريده من معونة، فقد قابله بفتور، بل وأعطاه رأيه فيها فعله صراحة إذ قال له: (يا ابن عمار مثلك مثل السارق سرق السرقة فضيعها حتى سرقت منه.)[3]. ويعلق ابن بسام على موقف ابن عمار فيما ينقله عنه ابن الأبار[4] بالمثل الساخر الذى يقول صاحبه بعد فقدانه لما سعى منْ أجله «أنفقت مالى وحج الجمل».

نهاية ابن عمـار المفجعـة :ـ

وأيا ما كان الأمر فقد استقر القرار لابن عمار فى سرقسطة لدى مليكها المؤتمن، وقد احتفى به هذا احتفاءا كبيرا، وأجرى عليه وعلى أصحابه من العطايا والأرزاق ما اعتقد أنه يكفيه، ولكن حب المغامرة والمخاطرة دفعته نحو نهايته المفجعة. فقد خرج أحـد عمال ابن هود عليه واستبد بأحد الحصون، فرأى ابن عمار فى ذلك فرصتـه الـذهبية ليثبت لابن هود وغـيره من الـرؤساء أنه لازال بمقدوره تحقيق الصعب بفضل حنكته ودهائه، فتحصل على إذن المؤتمن للخروج لمقابلة ذلك الثائر الذى تربطه وإياه صداقة سابقة. وبالفعل استطاع بفضل خطة دنيئة وضعها أن يقضى على ذلك الثائر فى عقر داره[5]، وأعاد إلى ابن هود حصنه الخارج عنه، والأهم منه أنه أعاد الاعتبار والثقة لنفسه. وسرّ ابن هود سرورا عظيما، وبعث

---

(١) عبد الله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٨٠.
(٢) عبد الله بن زيرى: نفس المصدر والصفحة.
(٣) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ١٤٦ ـ ١٤٨.
(٤) نفس المصدر والجزء، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٥) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

للمعتمد بن عباد يتمنى عليه السماح بتسريح أبناء ابن عمار وعياله إليه فى سرقسطة، فوافقه المعتمد، ولكنه حذره فى نفس الوقت من ابن عمار ومكره(١).

وهكذا عادت لابن عمار ثقته بنفسه، وسعى ثانية إلى أن يمارس نفس الدور مع حصن آخر خارج عن سلطة ابن هود. فقد سقطت مملكة دانية التى أشادها مجاهد العامرى كما قلنا فى يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦م. وكان من جملة الحصون التابعة لها حصن يدعى شقورة، تحصن فيه حفيد مجاهد، وعندما مات هذا الحفيد خلفه عليه عبدان من عبيده هما إبراهيم وعبد الجبار ابنا سهيل، ورأى هذان العبدان أن أحسن ما يمكن أن يفعلاه هو مساومة رؤساء الممالك المجاورة للحصن لشرائه، وعند ذلك رأى ابن عمار أن يستولى على الحصن بنفس الطريقة التى استخدمها فى الحادثة الأولى دون أن يخسر المؤتمن درهما واحدا. على أنه لم يوفق فى هذا وانقلبت الدائرة عليه. وقبض عليه هذان العبدان وأحكما وثاقه، وأعلنا لملوك الطوائف عن رغبتهما فى بيعه، ولم يكن هناك بطبيعة الحال من متشوق لذلك أكثر من المعتمد فأرسل ابنه إلى ابني سهيل هذين فاشترى منهما الحصن وابن عمار معا(٢)، وعاد به إلى قرطبة (ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن، وقيوده ظاهرة للناس. وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه فى تلك الحال، وقد كان قبل إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم، والسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يديه أو يرد عليه ابن عمار السلام. وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه، أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه، فسبحان محيل الأحوال، ومديل الدول. فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء، والملك الشامخ والرياسة الفارعة ذليلا خائفا فقيرا لا يملك إلا ثوبه الذى عليه، فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنعه ما كان به أمتعه.)(٣). ثم أدخل

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٤٩ - ١٥١.

(٣) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٨٣ - ١٨٤.

على المعتمد فقرعه وأنّبه، وذكّره بأفضاله عليه، فلم يحر ابن عمار جوابا، ثم أخذ ابن عمار يعتذر له عن فعلته ويطلب منه الإقالة والصفح. فلم يسعفه المعتمد بهما، وقد وقعت هذه الأحداث فى عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م. وبعث ابن عمار من سجنه بقصائد إلى ولدي المعتمد: الرشيد والراضى يستعطفهما ويطلب منهما التوسط لدى أبيهما[١]. بل وأرسل للمعتمد نفسه قصائد. (لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع. .)[٢] كما بعث صاحب شاطبة إلى المعتمد يشفع فى ابن عمار ويرجو العفـو عنده، فبعث له المعتمد برسالة يوضح فيها أخطاء وذنوب ابن عمار التى اقترفها ويوضح له أن عثرته لا يمكن أن تقال بسبب تلك الأخطاء وبسبب تعريضه بالمعتمد وأسرته. وكان يذكى هذا الشعور بالحقد والمؤاخذة اعتماد الرميكية زوج المعتمد وأم أولاده، فقد ألحت عليه بالتخلص منه ومعاقبته على فعلته وكان حقدها ينم عن عداء شخصي حتى قبـل أن يهجوها[٣] ابن عمار هجاء مراً فى قصيدته المشهورة التى أشرنا إليها.

ويروى عبد الواحد المراكشى[٤] فى شىء من التفصيل كيفية مقتل ابن عمار. وخلاصة هذه الرواية أن ابن عمار نظم فى آخر ما نظم للتوسل بالمعتمد قصيدته الحائية المشهورة التى يقول مطلعها:

سجــاياك إن عاقبت أنـدى وأسجـح   وعـذرك إن عاقبت أجـلى وأوضح

. . إلــخ القصيدة.

وهى من غرر قصائده وأجودها، فأثرت فى نفس المعتمد فأرسل إليه فأحضره، فقرعه وأنبه كالعادة. ويظهر أن توسلات ابن عمار واستعطافه الصادق للمعتمد قد حرك كوامن الرأفة فى قلبه فقال له قولا فهم منه ابن عمار أن العفو عنه سيحصل

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ١٥١ - ١٥٣.

(٢) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٨٤ - ١٨٦.

(٣) محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص ٢٨٢ - ٢٨٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٦ - ١٨٩.

يوما. وكان ابن عمار فى أثناء سجنه يطلب أوراقا يكتب فيها قصائده ورسائله التى يبعثها للمعتمد وأبنائه. وكان قد طلب قبل هذه المقابلة مع المعتمد ورقتين سطر فى الأولى القصيدة الحائية التى ذكرناها. وعندما شعر بقرب عفو المعتمد عليه سطر فى الورقة الثانية رسالة وبعث بها إلى ابن المعتمد الراضى كما يقول عبد الواحد المراكشى أو الرشيد[1] فيخبره بما حدث بينه وبين المعتمد. وكان يحضر مجلس ابن المعتمد بعض من وزرائه وجلسائه فلما سمعوا بهذا خرجوا وتناقلوا الخبر وأضافوا عليه حقدا منهم عليه إضافات سيئة للغاية. وكان أكثر الحاقدين على ابن عمار الوزير أبوبكر بن أبى الوليد بن زيدون الذى يكن له عداءا شخصيا لما فعله مع أبيه. وقد حمل ابن زيدون وزر هذه الشائعات[2]. وعندما بلغت الأبيات المعتمد استشاط غيظا وبعث لابن عمار يستفسر منه عن حقيقة ما حدث. فأنكر أن يكون قد حدَّث أحدا بما دار بينهما، وعندما سأله عن مصير الورقة الاخرى التى طلبها تبين له كذب ابن عمار. فطار صوابه، وفقد اتزانه، وتوجه نحو سجن ابن عمار، وهناك ضربه بآلة تشبه الفأس وتعرف بالطبرزين حتى مات. ثم أمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ثم دفنه[3]. ويقال إن المعتمد ندم بعد ذلك على قتله[4]. وهكذا انتهت فصول حياة ابن عمار بهذه النهاية الفاجعة المؤسفة. وعلى كل حال فإن ما حدث لابن عمار يؤكد لنا حقيقة هامة هى أن الملوك يمكن لهم أن يتساهلوا فى كل شىء الا فى شىء واحد فقط وهو منازعتهم ملكهم والرغبة فى سلطانهم.

---

(١) رواية صلاح خالص عن هذه الأحداث تشير إلى أن ابن عمار بعث بتلك الورقة إلى الرشيد ابن المعتمد. ومهما يكن فإن المسألة ليست بذات الأهمية، فالمهم أن ابن عمار قد أخطأ فى استعجاله نشر خبر احتمال إطلاق سراحه. فأودى هذا الخطأ إلى مقتله أخيرا.
انظر محمد ابن عمار الأندلسى، ص ١٦٤.

(٢) صلاح خالص: نفس المرجع، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٣) عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص ١٨٦ - ١٨٩.

(٤) ابن خاقان: القلائد، ص ١١٠.

حــياة المعتمد الأسرية
والسمات المميزة لشخصيته

يجدر بنا ونحن نأتي على ختام عهد المعتمد أن نتحدث عن الحياة الأسرية له، وعلى السمات المميزة لشخصيته. أما فيما يتعلق بحياته الأسرية، فقد أطنب كثير من المؤرخين في إعجاب بذكر تفاصيل الحياة الهانئة التي كان يحياها المعتمد مع زوجه وأم أولاده اعتماد الملقبة بالريميكية. فقد التقى المعتمد باعتماد في أجواء ظلال رومانطيقية شاعرية عند مرج الفضة أحد مروج إشبيلية ومتنزهاتها. وعندما عرف أنها جارية لأحد رجالات إشبيلية ويدعى حجاج بن ريميك، بادر إلى شرائها، ومن ثم تزوجها،(1)، رغم أنها احتفظت بلقب سيدها ريميك فكانت لا تعرف إلا به.

ولقد هام بها المعتمد حباً وكلف بها كلفاً شديداً.

وكانت ذات خلال باهرة، وروح مرحة، وبديهية حاضرة، ومعرفة لا بأس بها بالشعر وتذوقه.(2) وقد شاطرت المعتمد أيام أنسه وساعات صفوه وهنائه. كما شاركته في أجل وأدق مواقف حياته العريضة حتى بعد خلعه ونفيه إلى المغرب على يد المرابطين كما سنعرف بعدئذ. وقد أحبها المعتمد حباً جماً خالصاً لم يطفىء أواره وجود كثيرات من حظياته وجواريه اللائي كن يحمن حول بلاطه وقصره، كما لم يطفئه زحف السنين وكر الأيام وكانت ذات دالة عظيمة عليه. فلم يكن يرفض طلباً لها مهما عز وغلا. وتحتفظ كتب الأدب والتاريخ بقصص من هذا النوع.(3) وكان يحتفظ لها بالمكانة المثلى والدرجة الأسمى في قصره وقلبه معاً.

---

(1) ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص ٦١-٦٣. - صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص ٣٠-٣٥.

(2) المقرى: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨-٩.

(3) انظر المقرى: نفس المصدر السابق، ج ٦، ص ٨-٩ - صلاح خالص: نفس المرجع أعلاه، ص ٦٢-٦٣.

ويكفى أن نشير إلى أنه أى المعتمد لم يتلقب بهذا اللقب إلا بعد اقترانه بها.[١] فقد كان يلقب بالظافر والمؤيد من قبل. كما يكفى أن نشير إلى أن معظم أبنائه الذين خلدتهم كتب الأدب والتاريخ كانوا أبناءها.[٢] وكذلك يكفي أن نشير إلى أنها بقدر ما شاركت المعتمد أيام أنسه وسعادته، بقدرما شاركته أيامه القاسية البائسة في منفاه بالمغرب الأقصى.

وقد أنجبت منه كما ذكرنا عدة أبناء شهروا في التاريخ. وكان بكر أبنائها سراج الدولة عباد والمكنى بأبي عمرو، الذي مر ذكره سابقا. وقد ولد للمعتمد في عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م في حياة أبيه المعتضد.[٣] وعهد إليه بحكم ولاية قرطبة بعد سقوطها على يد مملكة إشبيلية. على أنه قتل بعد ذلك كما شاهدنا في أحداث خروج قرطبة عن طاعة العباديين. ولم يكن عمره وقت ذاك يتجاوز السابعة عشر بعد.[٤] وثاني هؤلاء الأبناء حسب الأهمية لا السن، الرشيد واسمه عبيد الله ويكنى بأبي الحسين، ويصفه ابن اللبانة بقوله فيما ينقله عنه ابن الأبار (وكان دمثا رقيق حاشية الطبع، طالع شيئا من العلوم الرياضية، وكشف له عن غيب الأغاني، حتي قيل إنـه يجيد ضرب العود، وكان له أدب وشعر)[٥] ونضيف أيضا إلى هذا أنه كان سياسيا محنكـا، وكـان ذا رؤية سياسية بعيدة. وقد عارض أباه المعتمد في أمر استدعاء المرابطين والاستنجاد بهم.[٦] وقد نفى مع أبيه إلى أغمات المدينة التي نفى إليها بعض ملوك الطوائف، ومات في حوالي عام ٥٣٠هـ.[٧]

وثالث هؤلاء الراضى، واسمه يزيد ويكنى بأبي خالد، وكان ذا اهتمام بالثقافة والمعرفة. وقال عنه ابن الأبار (وكان الراضي من أهل العلم والأدب، كلفا بالمطالعة

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠-٦٣.
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحات
(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٧٠-٧١
(٤) انظر قبل، ص ٢٠٢.
(٥) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، ص ٦٨-٦٩.
(٦) انظر بعد، ص ٢٨٤.
(٧) صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص ٨٣-٨٤.

والدراسة، قرأ كتب القاضي أبي بكر بن الطيب، وأشرف على مذهب أبي محمد بن حزم الظاهري، فمهر في الأصول، وذهب إلى النظر والاختيار). كما يضيف ابن الأبار قوله عنه (وهو شاعر بني عباد بعد أبيه، على أنه أقوى عارضة منه، وأبوه ألطف طبعا وأرق صنعا). (١) وأطنب الفتح بن خاقان في المدح الرخيص المتكلف بذكر شمائله وأوصافه. (٢) ويبدو أن اشتغاله بالأدب والمعرفة والثقافة قد شغل وقته كثيرا، حتى لقد أقعده هذا عن الاهتمام بالظروف الحرجة لدولة أبيه. وقعد به عن مشاركة إخوته أخطر الأحداث والمعارك. واتضح هذا جليا عندما تباطأ في تلبية دعوة أبيه له لخوض معركة ضد النصارى. مما جعل المعتمد يحنق عليه ويكتب له قصيدة يسخر فيها منه ومن تعلقه بالأدب دون المعارك والمواقع التي شهدها بنو عباد. فبعث إليه الراضي بقصيدة يعلن فيها توبته ويقر بأخطائه ويستعطف أباه أن يعفو عنه ويصفح. (٣) وقد ولاه المعتمد حكم مدينة الجزيرة الخضراء. وعندما قدم المرابطون تلبية لدعوة المعتمد، طلبوا الجزيرة الخضراء منه. فولاه على مدينة رندة التي استمر يحكمها حتي مقتله على يد المرابطين كما سنرى بعد. (٤)

ورابع هؤلاء الأبناء، المأمون واسمه الفتح ويكنى بأبي نصر، وقد تولى أمر ولاية قرطبة بعد عودتها ثانية إلى سلطة العباديين عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م وقد استمر يحكمها حتى قتل على يد المرابطين عند خلعهم للمعتمد. (٥) وبالإضافة إلى هؤلاء فهناك عدة أبناء من اعتماد هذه هم: المعتد واسمه عبدالله، ويكنى بأبي بكر، والربيع ويلقب بتاج الدولة ويكنى بأبي سليمان، والمعتلى زين الدولة أبوهاشم، ثم فخر الدولة، وشرف الدولة. ثم أخيرا ابنته بثينة التي أخذت من الأدب والعلم بسبب. (٦)

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ٧٠-٧١

(٢) قلائد العقيان، ج ٢، ص ٣٥-٣٦.

(٣) انظر قلائد العقيان، ص ٣٦-٤٠ - صلاح خالص: نفس المرجع، ص ٨٦- ٩١

(٤) انظر بعد، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، وص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٥) ابن الأبار: المصدر السابق، والجزء، ص ٦١-٦٣.

(٦) صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلى ص ٨٤-٨٥.

كما رصدت كتب الأدب والتاريخ بعض أسماء لأبناء المعتمد من بينهم المؤتمن، سراج الدولة يحيى، وذخر الدولة حكم،(١) وقد عثرنا على ذكر لابن آخر للمعتمد يدعى عبدالوهاب ويلقب بعز الدولة. وقد أخذ بطرف من الأدب والفقه والطب وتوفي بالمغرب عام ٥٢٠هـ(٢) وسنتعرف لاحقا على ابن آخر كان له دور في المقاومة العبادية ضد المرابطين، وهو عبدالجبار بن المعتمد. (٣)

ومن الحق أن نشير إلى أن علاقات المعتمد بأبنائه وزوجته اعتماد كان يسودها الألفة وروح المحبة والحنو، فلم نعثر على موقف واحد يشبه موقف أبيه المعتضد مع أبنائه ونستطيع أن نسجل هذا الترابط الأسري في سجل المعتمد الإيجابي فعلاقات المعتمد بأبنائه كانت تقوم على ركائز من المحبة والعطف والحنو. وكانت علاقات الأولاد بأبيهم تقوم على ركائز من الإكبار والإجلال والتقدير، وليس على التوجس والخوف والرهبة مثلما كان وضع أبناء المعتضد مع أبيهم القاسي . .

وأخيراً فإن كتب الأدب والتاريخ حفظت لنا ذكر زوجة ثانية حرة هي ابنة مجاهد العامري ملك دانية والجزائر الشرقية، ولكن يبدو أنها لم تكن ذات دور خطير في حياة المعتمد. ولذلك مر ذكرها في المصادر المعاصرة مرورا سريعا.(٤)

كما نحب أن نشير إلى أنه كان في قصره عدد من السرارى والإماء كن في حوزته، مثل جوهرة التي قال فيها أعذب الأقوال والأوصاف. وسحر، ووداد، وأم عبيدة(٥).

---

(١) نفس المرجع، ص ٨٥

(٢) عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، قسمان القسم الأول، ص ٩٧.

(٣) انظر الباب الرابع، ص ٣٥٠.

(٤) المقرى: المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٦-١٤٨.

(٥) انظر: ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني ـ المجلد الأول، ص ٣٤ـ ٣٥. المقرى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٢-٢٣٣.
صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلى ص ٧٣-٧٧.

السمات المميزة لشخصية المعتمد:

لعل أبرز الصفات التي كان يتحلى بها المعتمد هي الرأفة والإشفاق والحلم فلم يكن قاسيا غليظا مثل والده المعتضد، وإنما كان حليما رؤوفا مع الناس عموما يستوى في هذا أسرته أو خاصته وحاشيته، أو عامة الناس. ولقد رأينا ما يدل على هذا في معرض حديثنا عن علاقته بأبنائه. فقد كان أقصى عقاب اتخذه ضد ابنه يزيد الراضي هو التندر والتهكم. وهو في هذا يختلف عن أبيه المعتضد الذي قتل ابنه بيده. وهدد المعتمد نفسه بالقتل أيضا كما مر بنا سابقا.[1]

وحتى في حياته العامة كان يسير وفقا لهذه الصفات الإنسانية الحسنة. فقد أمّن الكثيرين من الذين قسى عليهم والده، ورد لهم أموالهم وحقوقهم، كما أنه امتاز بحسن الظن وسلامة الطوية. ولم نعثر على صورة أو موقف واحد بدا لنا فيه المعتمد قاسيا غليظا لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه فيما عدا موقفه من خروج ابن عمار عليه. ومع هذا فإنه يتراءى لنا بالنسبة لهذه القضية أنه بجانب الأمور الشخصية، فإن دواعي المحافظة على سلطانه هى التي دفعته إلى قتل وزيره أكثر مما دعته كوامن القسوة والغلظة في قلبه. وفي الواقع فإنه يجب علينا ونحن نرسم هذه الصورة الشخصية للمعتمد ومقارنته بأبيه أن نأخذ في الاعتبار أن شخصية أبيه وما عرف عنه من قسوة ربما كانت نتيجة لأن ظروف تكوين الدولة كانت تستدعى ذلك من أبيه. ولذلك أراد المعتمد عن طريق المعاملة الحسنة لكل خاصته ورعاياه أن يكسب محبتهم، وذلك بتغيير صورة بنى عباد في نظرهم. كما أنه كان لشاعرية المعتمد ذاتها أثر في تلك المعاملة الحسنة للناس. فما من شك أن شاعرية المعتمد أوجدت في ذاته هذا الجانب الإنساني الذي كان يفتقر إليه أبوه.

ومن أبرز مميزات شخصية المعتمد أنه كان سليم الطوية - بالنسبة للناس والأنصار فقط - حسن الظن والثقة. ولم يكن متشككا متوجسا قليل الثقة في الأنصار والناس مثلما كان أبوه. ولكنه كان شديد الثقة بالناس والأنصار. ولم يصخ لدواعي التوجس والتشكك سواء أكانت تلك دواعي شخصية ذاتية. أم دسائس

---

(١) انظر قبل الباب الثاني، ص ١٨١ - ١٨٢

ومؤامرات يحيكها بعض المغرضين. ورأينا صورة واضحة تدل على سمو أخلاقيات المعتمد وذلك عندما بعث بعض المغرضين له عند تسلمه الحكم بقصيدة يحذرونه فيها من الوزير أبى الوليد بن زيدون ومن خطره وأطماعه، فكتب لهم قصيدة طويلة يكذبهم فيها، ويعلن للملأ حسن ظنه وثقته بوزيره، ويحذرهم من الصيد في المياه العكرة. وكان هذا الموقف كافيا للجم أفواه المغرضين والمفسدين. (١)

وبالإضافة إلى هذا يعد التقدير والاحترام لرجاله من أبرز صفاته أيضا. فقد كان شديد التقدير والاحترام لوزرائه وخاصته. وكان يعاملهم معاملة الصديق للأصدقاء وليس معاملة الملك أو السيد لأتباعه. بل لقد كان يتباسط معهم. ويتفقد شؤونهم، ويحادثهم ويشاركهم مجالس أنسهم ومرحهم. بل إنه كان يتمنى الخروج لملاقاة بعضهم والترحيب بهم لولا أن ناموس الملك ومقتضيات الحكم كانت تحول دون ذلك. (٢)

---

(١) عندما تولى المعتمد السلطة بعد أبيه، رفعت إليه رقعة فيها عدة أبيات من الشعر تعرض بالوزير أبى الوليد بن زيدون ويقول مطلعها:

يا أيها الملك العلي الأعظم
اقطع وريدي كل باغ ينام
لا تتركن للناس موضع شبهة
واحزم فمثلك فى العظائم يحزم.. الخ

فلما قرأها المعتمد وعلم ما تحمل من الدسيسة وقع خلف تلك الرقعة بعدة أبيات يقول فيها:

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا
الدين أفتن والمروءة أكرم
خنتم ورمتم أن أخون وإنما
حاولتم أن يستخف يلملم

ـ ويلملم هو ميقات أهل اليمن ويقع على بعد مرحلتين من مكة.

انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني ـ المجلد الأول، ص ٤٠ـ٤٢

ـ ابن خاقان: القلائد، ص ١٧ـ٢٠.

(٢) انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني المجلد الأول، ص ٣٦ـ٣٧.

ابن خاقان: القلائد ص ٧ـ٩.

وإضافة إلى هذا كان المعتمد كريما سخيا جوادا شأنه شأن والده، وسنرى بعد صورة مثالية رائعة لهذا الكرم والجود وحتى وهو في أعسر الأوقات وأحلك الظروف.[1] ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن المعتمد كان شاعرا متميزا، طرق معظم مقاصد الشعر وأغراضه وبرّز فيها وحلّق. ومن الطبيعي جدا أن يكون للأدب عنده سوق رائجة وفرص رحبة واسعة. وأن يؤم بلاطه العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين.[2]

تلك هي الجوانب المشرقة في شخصية المعتمد، وهي التي جعلت المؤرخين بالإضافة إلى نهايته المفجعة يفيضون في الإشادة به والثناء عليه، دون أن يعنوا بالجانب السلبي من شخصيته. فلم يكلفوا أنفسهم عناء رصد تلك الجوانب القاتمة من شخصيته، فقد نسوا ذلك أو تناسوه، في خضم اهتماماتهم بمأساته المفجعة. ولكن التاريخ وكما هو معلوم لا مكان عنده للعواطف ومن ثم فلابد للمؤرخ المنصف أن يحكم بما له وبما عليه في موضوعية متجردة عن الهوى. فالمعتمد لم يكن ملاكاً كما صورته لنا كتب التاريخ والأدب، ولكنه كان بشرا تختلج في نفسه جميع أحاسيس الإنسان ومشاعره المتناقضة.

هذه المقدمة التي استهللنا بها حديثنا عن الجانب السلبي من شخصية المعتمد ضرورية لتوضح نقطة هامة وهي أنه من الثابت والمسلم به عبر العصور أن عدم الإحساس بالمسؤولية والانغماس في اللهو وإشباع النزعات والعيش الناعم هي أسباب غير مباشرة بطيئة شديدة المفعول في انحلال الدول وسقوطها يستوى في هذا ملوك الطوائف ومن كان قبلهم أو من جاء بعدهم على المستوى البشري عموما.

نقول هذا لأننا قد رأينا تبريرا واهيا لانصراف المعتمد إلى اللهو والتمتع والأنس بحجة أن الموضوع ليس موضوع وجود هذا الاتجاه أو عدم وجوده، بل بالقدرة على خلق نوع من التوافق والتوازن بين تلك الرغبات وبين التبعات والمسؤوليات،

---

(١) انظر عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٥-٢٠٦

(٢) انظر فيما بعد، الباب الخامس، ص ٤٢٣.

بدعوى أن هذا الاتجاه يعدّ مظهرا أصيلا في حياة أمراء وملوك الطوائف في الأندلس، علاوة على أنه كان المظهر المميز للأرستقراطية الأندلسية،(١) ولكن هل كون هذا الاتجاه مظهرا أصيلا ومألوفا في المجتمع الأندلسي يعفى الأمراء والملوك من تبعة الفساد الأخلاقي، والتنكر للمثل الأخلاقية الإسلامية؟؟ هل يعفيهم هذا وهم الذين يقفون الجزء الأكبر من حياتهم الخاصة في البحث عن اللذائذ ووسائل المتعة كما يقول صلاح خالص نفسه؟؟(٢)

أى انسجام وتوافق ذلك الذي استطاع المعتمد أن يكيف به حياته العملية والشخصية؟؟ لم نجد في حقيقة الأمر عند استقرائنا لتاريخ المعتمد بالذات ما يدل على أنه كان صاحب إنجاز تاريخي عظيم لا في حياة الأندلس عموما ولا في حياة إشبيلية خاصة. فما هي إسهامات المعتمد البارزة على المستوى المحلي والقومي التي تفرضه على التاريخ فرضا كشخصية تاريخية؟؟ حتي في النواحي الإنشائية العمرانية لم نعثر على إسهامات بارزة واضحة تسجل في صفحته. نعم لقد فرض المعتمد نفسه كشاعر وكإنسان، وكملك مترف، وكبائس فقير خاصمه الزمن وناهضه الدهر. أما فيما عدا هذا فلا. ولهذا فإن اتهام بعض المؤرخين للمعتمد بأن انكبابه على اللهو إلى درجات جاوزت الحد كان سببا من أسباب تدخل المرابطين لتدارك الوضع المتدهور. لا ينفيه نقض المستشرق الفرنسي بيريز(٣) له أو غيره. فالقضية قضية عامة تنسحب على الدول في أي مكان وزمان، وملخصها أن عدم الإحساس بالمسؤولية والانغماس في اللهو والمترفات الحضارية إلى حدود غير معقولة هي أسباب جوهرية لسقوط الدول وانحدارها.

---

(١) انظر، صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص ٥٦-٥٩، وص ٩١-٩٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٩١.

(٣) يرى المستشرق هنرى بيريز Henri Pérés فيما ينقله صلاح خالص عنه في كتابه (عن الشعر الأندلسي) أن تهم الفسق والانحلال التي وجهت لملوك الطوائف هي من وضع مؤرخين عاشوا في عصري المرابطين والموحدين. ومن هنا جاء تفسيرهم لسلوك هؤلاء الملوك بتلك القسوة. وفي رأيه أن ملوك الطوائف لا يختلفون عن غيرهم ممن كان قبلهم أو من جاء بعدهم. أنظر: صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص ٩٢-٩٣.

وهذا ما يفسر تحاملنا على المعتمد بالله فالظرف الذي كانت تمر به الأندلس وقتذاك كان حرجا ودقيقا. إذ كان النصارى يشددون ضغطهم على الممالك الإسلامية. فكان الواجب عليه باعتباره أقوى ملوك الطوائف، وأفسحهم ملكا، وأوسعهم ثراء وجاها أن يصرف النظر عن اهتماماته الخاصة ويعطي الأهمية القصوى لتدارك الموقف العصيب الذي تعرضت له الأندلس وقتها. ولكن عدم المبالاة وعدم الإحساس بخطورة هذا الموقف العصيب كأن ما يدور في الأندلس ليس بمفض إليه. كل هذا يجعلنا ننحى باللائمة عليه. ونعتقد اعتقادا راسخا أنه كان مقدور مملكة اشبيلية تزعم ممالك الأندلس وقيادتها نحو شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد على الأقل في أمر مواجهة النصارى.

ومهما يكن من أمر فقد أسرف المعتمد إسرافا شديدا في تحقيق رغباته وملذاته.[1]

ويؤسفنا أن نشير إلى أن المعتمد استعان بالنصارى لتحقيق مآربه وأهدافه التوسعية. وهو أمر لم يقدم عليه أبوه وجده من قبل كما قلنا سابقا. كما يؤسفنا أن نشير إلى أنه كان انتهازيا ومتقلبا. وظهر ذلك واضحاً عندما داهم مملكة قرطبة، وهو الذي جاء لنجدتها ونصرتها. كما ظهر ذلك واضحا أيضا عندما طلب من يوسف بن تاشفين أن يعهد إليه بمملكة غرناطة بعد خلع مليكها عنها كما سنرى بعد.[2]

على أن الموقف الإيجابي الواضح والحسنة المميزة الناصعة في سجله هي موقفه الإسلامي المشرف باستدعاء المرابطين لتدارك أمر الأندلس بعد تدهور الأوضاع واشتداد ضغط النصارى عليها كما سنرى بعد إن شاء الله.[3] وكذلك موقفه في موقعة الزلاقة التي أبلى فيها بلاء حسنا مخلصا النية لله ثم لبني قومه وإخوته من المسلمين.

---

(١) عن ذلك انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني ـ المجلد الأول، ص ٣٥ـ٣٦.
ـ عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٦٠ـ١٦١.
صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي: ص ٤٢ـ٤٣، وص ٥٥ـ٩١ وص ٩٣ـ٩٥.

(٢) انظر بعد، الباب الرابع، ص ٣٣٩.

(٣) انظر بعد، الباب الرابع، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

الباب الرابع

تطور الأوضاع السياسية في الأندلس ونهاية دولة بني عباد

- اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وسقوط طليطلة
- تدهور العلاقات السياسية بين ألفونسو والمعتمد وبقية ملوك الطوائف والتفكير في الاستعانة بالمرابطين.
- موقعة الزلاقة.
- قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بني عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف.

اشتداد حركة الاسترداد المسيحي
وسقوط طليطلة

عند حديثنا عن الحرب الأهلية بين أبناء فرديناند الأول رأينا أن الغلبة والنصر كانا من نصيب سانشو الأخ الأكبر الذي عهد له والده بحكم قشتالة. ورأيناه يرغم أخاه ألفونسو بالتزام أحد الأديرة، وبارتداء مسوح الرهبان. ورأينا الفونسو يفرّ من الدير بمساعدة أخته أوراكا ويلتحق لاجئا ببلاط الملك المسلم المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة كما مر بنا سابقا[١] وما تركنا بسطه وتفصيله من تلك الأحداث نعود هنا إلى ذكره والتحدث عنه لإرتباط ذلك بهذه النقطة بالذات. فالفونسو فرّ إلى المأمون بن ذي النون الذي استقبله أحسن استقبال. فأكرم وفادته وأحسن عشرته وعامله معاملة الضيف الملكي العزيز المبجل لا معاملة اللاجىء السياسي أو الأمير المطرود المخلوع.[٢] ونحن هنا لا نملك تأكيدا واضحا من أن وراء تلك المعاملة اللطيفة أهدافا سياسية رغب المأمون في جنى جناها فيها لو تغيرت وتطورت الأمور لصالح الفونسو. ولكننا لا نستبعد أن يكون هذا الخاطر قد عنّ للمأمون وهو يعامل الفونسو تلك المعاملة الكريمة المفرطة. ومما يحكى عن تلك الفترة التي أقام فيها الفونسو في طليطلة أنه سمع ذات يوم وهو في مكان قصيّ حواراً دار في مجلس المأمون عن المدن وحصانتها ومناعتها والوسائل الكفيلة بالتغلب عليها. . . الخ فكان مما سمعه أن مدينة طليطة لايمكن أنْ تسقط بسهولة في يدي مهاجميها لمناعة موقعها وشدة تحصيناتها الدفاعية الطبيعية أو البشرية، وأنه إذا أُريد

---

(١) انظر قبل الباب الثالث، ص ١٩٥ ـ ١٩٦

(٢) انظر:

- J.B. Bury : op cit, p 396

- Jan Read : op cit., p 102

ـ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٩٠

الاستيلاء عليها فإن الأمر يستوجب إرهاقها بالحصار الطويل، وبتضييق السبل عليها بقطع المؤونة عنها، وبث الفزع والرعب في نفوس أهلها. . إلخ. جرى هذا الحوار والفونسو يستمع إليه بانتباه بالغ، فعلق ذلك في ذهنه وملك عليه خاطره.(١)

ومهما يكن من أمر فإن إقامة الفونسو ببلاط المأمون لم تطل كثيرا، إذ تطورت الأمور في أسبانيا النصرانية وانجلت عن مقتل سانشو تحت أسوار قلعة أخته أوراكا. فبعث أشراف قشتالة وليون كما رأينا إلى الفونسو يطلبون منه القدوم لتسليمه مملكة أخيه.(٢) ويذكر أن الفونسو أخفى نبأ موت أخيه عن المأمون، وتأهب لمغادرة المدينة خفية، ولكن المأمون فطن إلى هذه الحيلة فأمر باعتقاله، غير أن الفونسو استطاع أن ينجو بنفسه. على أن هذه الرواية لا يعتد بها، لأنه ثبت أن الفونسو أبلغ الخبر للمأمون الذي أظهر غبطته وسروره لذلك،(٣) وسمح له بمغادرة المدينة، ولم يطلب منه سوى أن يتعهد بعدم مهاجمة أراضيه وبمساعدته ضد أعدائه من ملوك الطوائف. ثم قدم له من جليل النفائس وثمين التحف ما أوجب شكر الفونسو له. ولم يكتف بهذا بل خرج يودعه في موكب ملوكي عظيم.(٤)

وعلى أية حال فقد تربع الفونسو على عرش مملكة أبيه أو أخيه ـ لا فرق ـ كما مر بنا، ورأيناه يصبح سيد أسبانيا النصرانية النافذ، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها. كما مر بنا في ثنايا تلك الأحداث ذكر شيء من خصائص سياسته ومعالم شخصيته مما لا حاجة له الآن هنا.(٥)

---

(١) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع، ص ٣٩١، ص ٣٩٣.

(٢) حسين مؤنس: مقال بعنوان: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول، ص ٤٤-٤٥.

محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٩١-٣٩٣

(٣) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع، ص ٣٩٣

(٤) نفس المرجع والصفحة

(٥) انظر قبل الباب الثالث، ص ٢١٤

وباعتلاء الفونسو عرش قشالة وليون وجليقية أخذت حركة الاسترداد (La Re-conguista) مسارا ذا صبغة صليبية. [1] إذ حاول الفونسو أن يوحد صفوف مملكتي أرغونة ونبرة التابعتين لأبناء عميه سانشو وراميرو الأول. وبعث في نفوس حكام تلك المملكتين روح الوحدة والتآلف، ونبذ الفرقة والخصومات والتعاون ضد المسلمين. ثم أخذ يعمل لأول مرة في تاريخ أسبانيا النصرانية على التقرب إلى الكنيسة الرومانية. فبدل الطقوس الأسبانية القوطية بطقوس كنسية روما، وفتح قنوات للاتصال ببابا روما جريجورى السابع. وفتحت أبواب اسبانيا أمام الرهبان الكلونيين. [2] وانضوت بذلك الكنيسة القوطية القديمة تحت ظل كنيسة روما.

ومن جهة أخرى وسع اتصالاته مع فرنسا في الشمال والمتزعمة للحروب الصليبية آنذاك، ولتأكيد الانفتاح على أوروبا التي تدين بالولاء لكنيسة روما تزوج من الأميرة

---

(١) نذكر بهذه المناسبة بأن البابا أوربان الثاني حرم على الأسبان أن يشتركوا في الحرب الصليبية في المشرق لأن أعداء النصرانية (المسلمون) يهددونهم في عقر دارهم وأنه يكفى النصارى الاسبان فخرا أن يقاتلوا المسلمين في الغرب (اسبانية):
أنظر: يوسف اشباخ: نفس المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٢) نسبة إلى مدينة كلونى Clnny في فرنسا، حيث أسس فيها حركة إصلاح ديني مسيحي عرفت بحركة الإصلاح الكلونية. وقد انبعثت منذ القرن العاشر الميلادي، حيث أسس وليم الأول التقى دوق اوكتين ديرا في سنة ٩١٠م. وكانت هذه الحركة تهدف إلى تصحيح مسار الكنيسة المسيحية الغربية، وكذلك تفادى الأخطاء والمفاسد التي تردت فيها بقية الأديرة المعاصرة الأخرى. وقد قام هذا النظام الديري الجديد على ركيزتين أساسيتين هما التبعية المباشرة للبابوية فقط دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين حق الإشراف على هذه الأديرة الكلونية. وثانيهما قام هذا النظام على أساس الطاعة المطلقة، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد. وقد انتشرت هذه الحركة الإصلاحية الديرية في القرن الحادي عشر الميلادي وشملت معظم أوروبا.
انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١، ص ٣٢٨-٣٢٩. ج٢، ص ١٣، وج ١ من نفس الصفحة.

كونستانس ابنة أحد أمراء برجونيو الذين ينتمون إلى أسرة كابيه التي تحكم فرنسا وقتها. (١)

وبدا كما لو أن اسبانيا عادت إلى المعسكر الأوروبي الصليبي بعد طول انفصال وغربة. وبات في إمكاننا أن نعتبر أن اسبانيا النصرانية غدت تدور في فلك الكنيسة الرومانية وتخضع لرغبات بابواتها. رغم ما قيل من أن الفونسو كان يعارض في كثير من الأحيان رغبات الكنيسة والبابا معا. (٢)

وعندما تولى الفونسو تلك المملكة النصرانية شبه الموحدة، كانت أحوال المسلمين في حالة سيئة من التفكك والتمزق، وتبعث في نفس الوقت على المزيد من الأسى والحزن كما تثير الشفقة والسخط معا. فمملكة طليطلة كانت تدخل آنذاك في نزاع مميت مع جاراتها الممالك الإسلامية، كما كانت ترنو ببصرها إلى تحقيق حلم مليكها القديم الجديد وهو الاستيلاء على قرطبة وانتزاعها من يد مليكها الجديد المعتمد، وقد تحقق لها ذلك بفضل الظروف التي سنحت لها وقتذاك كما رأينا. (٣) أما المعتمد بالله فقد كان يدبر مع وزيره ابن عمار مشاريع الاحتلال والتوسع على حساب الممالك المجاورة كغرناطة وغيرها. (٤) وبالنسبة لمملكة سرقسطة فإنها كانت تمرّ آنذاك بأدوار سيئة في نزاعاتها العائلية المستمرة بين الاخوة من أبناء سليمان المستعين بن هود، ولم يكن بعضهم يتورع من الاستعانة بأمراء الامارات النصرانية المجاورة كأرغونة ونبرة. بينما نرى البعض الآخر منهم ينشغلون في أحيان أخرى في رد عاديات هؤلاء الأمراء أنفسهم. وكذلك رد عاديات امارة

---

(١) انظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٥٢-٢٥٣.
يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، الجزء الأول، ص ١٣٨ وما بعدها. حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، ص ٤٧-٤٨. محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٩٧، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع، ص ٤٠٢.

(٣) انظر قبل، الباب الثالث، ص ٢٠٢ - ٢٠٤.

(٤) انظر قبل الباب الثالث: ص ٢١٢ وما بعدها.

برشلونـة الجارة المسيحية الثالثة الواقعة في الشمال الشرقي من سرقسطة.(١) أما مملكـة بطليوس فقـد كان ملكهـا عمر المتوكل مشغولا في نزاعه مع أخيه يحيى المنصور، وبخلافه مع ابن ذي النون.(٢) وأما الممالك الأخرى فقد كانت أضعف وأبعد من أن تؤثر في مجريات الأمور السياسية والعسكرية.

وهكذا فما إن اعتلى الفونسو العرش سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٢م حتى وجد أمامه عالما إسلاميا مفككا مضطربا متناحرا. وهيأ له هذا تشديد ضغطه على المسلمين وإرهاق ملوكهم بطلب الإتاوات المضروبة عليهم سنويا منذ عهد أبيه فرديناند. ولم يُستَثْنَ أحدٌ من ذلك، حتى حليفه ومضيفه المأمون بن ذي النون، فقد فرض عليه إتاوة سنـوية كان يؤديهـا له طوعا أو كرها.(٣) وتعتبر هذه الفترة من عهد الفونسو السادس التى تبدأ من سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٢م التي تولى فيها عرش قشتالة وليون وجليقية، وتنتهي في عام ٤٨٤هـ/١٠٨٦م أزهى فترات حكمه وخاصة بعد استيلائه على طليطلة.(٤)

ولكى نزيد هذا الرأي توضيحا وتأكيدا ننقل عن ابن الكردبوس وصفه لتلك الفـترة الحـرجـة من تاريخ المسلمين، إذ يقول(٥) (وخلص الملك للفنش(٦) بن فردلند، واستبد به واستفحل أمره، واستحكم في المسلمين طمعه، وصحّ في قياسه الفاسد أن يستخلص جزيرة الأندلس لنفسه. فلم ينم عن شن الغارات ومواصلة الغـزوات. وصـادف ملكـه نفـاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيما. وضعف بعضهم عن بعض بأنجـاد الـرجـال، واللعين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرورا (هكذا!). وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمور واقتناء القيان، وركوب

---

(١) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٢٧٩-٢٨١

(٢) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع، ص ٨٨

(٣) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ١٨٠

(٤) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح٣، ص ٧٦-٧٧

(٥) ابن الكردبوس: نفس المصدر، ص ٧٦-٧٨

(٦) أي الفونسو السادس.

المعاصي وسماع العيدان. وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية، متى طرأت من المشرق كي يوجهها إلى الفنش هدية ليتقرب بها إليه ويحظى دون مطالبه لديه إلى أن ضعُفَ من أولئك الثوار الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية، وأذعن من بقى منهم خارج الذمة إلى أداء (الجزية)، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد، ولا يتجاوز له أحد. ووكلوا أمور المسلمين إلى اليهود، فعاثوا فيهم عيث الأسود، وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا. وتطوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون).

وقبل أن نختتم الحديث عن هذه النقطة المتعلقة باشتداد حركة الاسترداد المسيحي لا بد أن نشير إلى الأحداث التي سبقت سقوط طليطلة في يد الفونسو. فقد توفى المأمون بن ذي النون بعد قليل من دخوله قرطبة ظافرا، وخلفه في حكم مملكته حفيده يحيى الملقب بالقادر. إذ كان ابنه هشام قد توفى في حياته.(١) فخلف يحيى جده في وسط هذا الجو المشحون المليء بالأطماع الشخصية للافتراس والتسلط. عدا عن كونه لم يكن على شاكلة جده قوة وحزما وحنكة ودهاء، بل كان ضعيفا فاسقا. فكان من الطبيعي أن يستغل كل الأعداء والطامحين الفرصة لتحقيق مقاصدهم. فأعلن أبوبكر بن عبدالعزيز حاكم بلنسية وصاحبها استقلاله الكامل التام الناجز عن مملكة طليطلة. ومعنى هذا أنها لم تعد ترتبط بها ذلك الارتباط الأسمى الذى كانت عليه في عهد المأمون. وبدأ المقتدر بن هود يعد العدة للانقضاض على معاقله، واستطاع بالفعل الاستئثار بمدينة شنتبرية. ومن ناحية أخرى أخذ أمير أرغونة وابن عم الفونسو: سانشو راميرز يشدد الضغط على بعض أطرافها وكذلك فعل المعتمد بن عباد الذي استطاع أن يستأثر ببعض القلاع التابعة لمملكة طليطلة.(٢)

---

(١) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ١٠٦

(٢) ابن الكردبوس: نفس المصدر السابق، ص ٧٩-٨١ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ١٠٦-١٠٧

هذا بالنسبة للجبهة الخارجية، أما الجبهة الداخلية فإنه أي يحيى القادر لم يكن موفقاً فيها أيضاً، إذ بدأ خطواته الأولى في الحكم بالتخلص من وزير جده السياسى الحكيم المدعو بابن الحديدي وكان ذلك بمشورة بعض أعدائه الحاقدين عليه، وشعر القادر وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل. ولكنه كان واهما إذ ما لبث أولئك الذين أشاروا عليه بقتل ابن الحديدي أن أثاروا في وجهه المتاعب والمصاعب مع الخاصة والعامة من أهل المملكة. ولذلك فقد فَقَدَ بقتل ابن الحديدي النصير والمؤازر والمستشار. وأضافت هذه الأحداث هما ثقيلا إلى صدره بجانب تلك الهموم التي ذكرناها. ولذلك فعندما تطلع حوله يلتمس العون والتأييد لم يجد سوى الفونسو ليستمد منه العون ويطلب منه النصرة.(١)

ولبى الفونسو دعوته شريطة أن يتنازل له عن بعض الحصون والقلاع التي عينها له بالإضافة إلى المبالغ الطائلة التي كان يرهقه بها. واستطالت تلك الأوضاع الحرجة المضطربة من حياة طليطلة حتى عام ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م فتحرّج فيها الموقف الداخلي والخارجي وتدهورت الأمور في البلاد إلى الحد الذي نضبت فيه الخزائن، وشحت الأقوات، وغلت الأسعار. مما أفضى أخيرا إلى قيام ثورة شعبية ضده، فأضطر إلى الفرار من المدينة بأهله وولده إلى أحد الحصون التابعة له.(٢) ورأى أهل طيلطلة أن البلاد في حاجة إلى أمير أو حاكم قوي حازم يستطيع أن يفرج كربتها ويعيد لها عزتها، وينقذها من تلك الضائقة التي حاقت بها. فاستقر رأيهم على أن يستغيثوا بالملك عمر المتوكل صاحب بطليوس جارهم القريب منهم. فلبى المتوكل دعوتهم وقدم إلى طليطلة واستقر بها في أعقاب سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م وأقام هناك نحوا من عشرة شهور(٣).

وفي تلك الأثناء راسل القادر ألفونسو السادس مستصرخا به طالبا نجدته وعونه ضد مناوئيه، وضد عمر المتوكل مذكرا إياه بسالف المودة والصداقة بينه وبين جده.

---

(١) محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) انظر: J.B. Bury: OP. Cit, P 397

(٣) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الرابع ـ المجلد الأول، ص ١٢٤ـ ١٢٥.

وبـذهي أن يغتبط ألفونسو لهذه الدعوة وأن يظهر قلقه وجزعه على مصير حفيد المأمون حليفه الراحل. ولكنه اشترط عليه مقابل ذلك أن يتنازل له عن بعض الحصون التي سماها له. (فأعطاهما له فأدخل فيها اللعين ثقاته في الحين وحصنها[1] أشد تحصين). [2] ثم اصطحب معه القادر نحو طليطلة. وضرب عليها الحصار ونازلها منازلة شديدة. ولم يجد المتوكل معها بدّا من الانسحاب تحت جنح الظلام مؤثرا السلامة تاركا المدينة تواجه قدرها المحتوم. ولن ندخل في تفاصيل أحداث الحصـار الـذي ضربـه ألفونسو على المدينة، فما يهمنا هو الإشارة إلى أن القادر استطاع أن يعود إلى مدينته تحت ظلال الحراب النصرانية عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م، وأن ينكّـل بخصومه ومناوئيه أشد تنكيل. كما يهمنا أن نشير إلى أن الفونسو قد استحصل على ثمن باهظ جدا من الأموال والتحف والهدايا التي قدّمها له القادر حتى شعر بالرضى ثم انصرف إلى قشتالة ظافرا غانما. [3]

أما القادر فقد نفرت منه النفوس، إذ اجتمع على أهل طليطلة عسفه وعنته، وعيث الفـونسو وانتهاكه لأراضى ومزارع الأهالى. وجرى من صروف المصائب والمتاعب ما أثقل كاهل السكان وجعلهم يستصرخون من حولهم دونما مجيب أو سميع. ورأى ألفونسو أن الوقت قد حان للاستيلاء على طليطلة، وأنه ما من شيء يحول بينه وبينها ولا سيما وقد أعطته وفاة المأمون جد القادر التي أشرنا إليها سابقا الفرصة للتحلل من عهده له الذي كان قد وعده إياه وهو يغادر طليطلة متوجها إلى ليون لتسلم الملك مكـان أخيه. ويقـوم هذا العهد على أساس احترام ألفونسو

---

(١) هذان الحصنان هما حصن سرية، وحصن قورية. ويعتقد أحمد مختار العبادى في تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ح٤ ص ٨٣ أنهما كانا يقعان بالقرب من الحدود القشتالية، وأنهما هما المعروفان اليوم باسم Soria أو Coria أو Conoria .

(٢) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤

(٣) ابن الكردبوس: نفس المصدر والصفحات

لسيادة أراضى المـأمـون وعـدم التعرض لها. [1] أما الآن فالظروف التي تجتازها طليطلة على الصعيد الداخلي تتيح لألفونسو فرصة ذهبية لتشديد الضغط عليها، ولا سيما وهو يعرف بأنها لن تسقط في يده إلا بعد أن ينهكها الحصار ويهدّها الجوع وقلة المؤن، وجاء استئناف ملوك الطوائف للدور الذي مارسوه مع القادر في مهاجمة أراضيه وانتزاعها من يده ليضيف ورقة رابحة تضاف إلى أوراقه الرابحة الأول[2].

ويهمنا هنا أن نذكر بموقف المعتمد بالله من تلك الأحداث أي أحداث مهاجمة طليطلة من قبل الطامعين في خيراتها وأراضيها، وعلى رأسهم الفونسو. فالمعتمد عقد بوساطة وزيره ابن عمار مع الفونسو معاهدة يتعهد فيها بدفع الإتاوة له، كما يتعهد في الوقت نفسه ـ وهذا هو المؤسف ـ بإطلاق يده لمهاجمة أي مملكة من ممالك الـطوائف بما فيهـا طليطلة. فلم يعـد يعـترض مشاريعه التي يعدها للاستيلاء عليها. [3] بل إن الموقف المؤسى الذى انحدر إليه بعض ملوك الطوائف أنهم لم يكتفوا بمساعدة الفونسو في حصاره لطليطلة فحسب، بل أمدوه بالميرة والمؤونة. [4] كما أصمّ البعض الآخر آذانهم عن صيحات استغاثة أهالي طليطلة أثناء محاصرة الفونسو لها. وقد استمر الفونسو يشدد ضغطه على المدينة بكل تصميم وعزيمة. ويرى أن استمراره في الحصار سيفضى بلا شك إلى النتيجة التي يرجوها. ويكفي أن نشير إلى أن حصارطليطلة قد استمر من عام ٤٧٤ إلى عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨١ ـ ١٠٨٥م.

ولم تجد محاولـة الملك عمر المتوكل ملك بطليوس وهي المحاولة الوحيدة التي

---

(١) انظر:

ـ ليفى بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٢٨. (نقلا عن المؤرخ الأسباني منندث بيدال صاحب كتاب: أسبانيا في عهد السيد).

ـ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٩٥.

(٢) ابن الكردبوس: نفس المصدر السابق، ص٨٤.

(٣) محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٤) على أدهم: المرجع السابق، ص ١٩٩

اتسمت بالشهـامة والنخوة، لم تجد شيئا في إنقاذ طليطلة، وارتدت الكتيبة التي بعثها بقيادة ابنه مهزومة كسيفة.[1]

سـقوط طليطلـة:

لم يكن من المستـطاع على أى قائـد عسكري افتتاح طليطلة عنوة لاستحالة ذلك، فقد كانت تتمتع بموقع طبيعي حصين، فهي تقع على المنحدر الصخري الوعر لنهر التاجة ويحيط بها شبه جزيرة تزيد من مناعتها منعة وتحصينا. وكانت في الواقع شجىً دائما في حلوق الحكام والملوك، ولم يكن من السهل الاستيلاء عليها. وعنـدمـا وقعت في يد المسلمـين الفاتحين لم يهنأ الولاة الأمويون ومن ثم الأمراء فالخلفاء من بني أمية أيضا بحكمها، فقد ظلت طيلة تلك الفترة مدينة ثائرة متمردة على السُلطة المركزية وخاصة أيام حكم الحكام الضعاف. ومما كان يزيد من متاعب السلطة المركزية أن غالبية سكانها كانوا من المولدين الأسبان الذين ظلوا مصدر مضايقات ومشاغبات للحكام والخلفاء دائما.[2] ولهذا فإن مدينة بهذه الأوضاع لا يمكن أن تسقط بسهولة إلا إذا تعرضت للحصار الطويل وأقفلت عليها السكك والدروب لكى لا تمد بالمؤن والميرة ويعشش الفزع والوهن في نفوس سكانها، وهو ما استطاع ألفونسو أن يستغله أحسن استغلال. وكان واثقا من أن المدينة ستضطر آجلا أو عاجلا خاضعة مستسلمة. وبالفعل فقد حدث ما خطط لأجله ألفونسو، إذ ما لبث أهل طليطلة أن ضاقوا ذرعا بذلك الحصار الرهيب الطويل وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فرأوا أن يداخلوا ألفونسو ويستصرخونه ويستعطفونه، فجاءه وفد منهم يرجون ذلك ويلوّحون له في نفس الوقت بأنهم سيطلبون مساعدة ملوك الطوائف غير أن ألفونسو استهزأ بهم وسفَّه آراءهم تلك واستخفها وبعث بطلب رسـل ملوك الـطوائف إليه، وعـلى رأسهم رسل المعتمد ابن عباد الذين

---

(١) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع أعلاه، ص ٢٧٢

(٢) عن المولدين ودورهم في مضايقة السلطة المركزية الإسلامية وإتعابها يمكن مراجعة عبادة كحيلة: الرسالة السابقة، ص ١٨٩-١٩٣، وص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

تسـابقـوا إلى خطب مودتـه والحصـول على رضائه فخاطبهم جميعا بكل عجرفة وكـبرياء، وطـردهم من مجلسه بطريقة مخزية ذليلة. فأسقط في يد الطليطليين، وخاب كل أمل في نفوسهم لانفراج ذلك الكرب عنهم، وشعروا وقتها أن لا مناص من التسليم أو الاستسلام بمعنى أدق.[1] وأخيرا توصل أهل طليطلة إلى عقد معاهدة مع ألفونسو تنص على أن يسلموا المدينة له مقابل أن يتعهد بالحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم وأماكن عبادتهم.

وأخيرا دخل ألفونسو السادس طليطلة مكللا بالغار في ١٠ محرم ٤٧٨هـ/ ٦ مايو ١٠٨٥م[2] ظافـرا منتصرا. وعـادت طليطلة إلى الأسبـان مرة أخرى وإلى الأبد.[3] وقد عهد ألفونسو بحكم المدينة إلى أحد رجاله المستعربين. ومما يؤسف له أن ألفونسو لم يف بتعهداته لأهل طليطلة، إذ لم يمض غير قليل من الوقت حتى تحول جامع طليطلة بايعاز من الرهبان وزوجة ألفونسو الفرنسية إلى كنيسة كبيرة ظلت كذلك حتى اليوم.[4] واستولى الفونسو بعد ذلك على كافة الأراضى التابعة

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، ص ١٢٨-١٣٠

(٢) اعتمدنا في الأخذ بهذا التاريخ على المستشرق الفرنسي ليفى بروفنسال، الذي ينقل هذا التوقيت بالشهر الهجرى عن مؤرخ أندلسى بلنسى معاصر لأحداث سقوط طليطلة ويسمى ابن علقمة صاحب كتاب البيان الواضح في الملم الفادح، المفقود، وقد توفى عام ٥٠٩هـ، وقد بقيت منـه أجـزاء مهمـه عثـر عليها بروفنسال. أما التوقيت الميلادي لسقوط طليطلة فيقول بروفنسال إن يوم ٦ مايو ١٠٨٥م هو الصحيح على خلاف ما يراه معظم المؤرخين المحدثين من أن سقوط طليطلة قد حدث في ٢٥ مايو ١٠٨٥.

انظر الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٤٦، وج ٢ من نفس الصفحة.

(٣) للاطلاع على مزيد من أخبار سقوط طليطلة في المراجع الأجنبية يراجع مثلا:

- Josepb f O'Callagban: A history of Medival Spain P.204-206
- J.B. Bury Op. Cit, 397
- Jan Read: OP. Cit, P 1036 - 122-123

(٤) جامع طليطلة: هو جامع باب مردوم نسبة إلى باب مجاور له يعرف بالباب المردوم، وقد بنى عام ٣٩٠هـ. وقد أقام عليه الأسبان بعد سقوط طليطلة بوقت يسير كنيسة سانتا كروث. وهو المعروف اليوم باسم كنيسة الكرستودى لالوث.

انظر: مانويل جوميث مورينو: الفن الاسلامي في أسبانيا، ص ٢٢٧. عبدالعزيز سالم: المساجد والقصور في أسبانيا ص ٥٠-٥١.

لمملكة طليطلة الواقعة في شمال نهر التاجه.(١) وغادر القادر المسلوب الملك والإرادة طليطلة تحت ظلال الحراب النصرانية التي ساندته في الدخول إليها قبل ذلك. فاستقر بمعسكر ألفونسو. ثم طلب القادر من ألفونسو أن يساعده في الاستيلاء على بلنسية، وقيل بل تنازل له عن طليطلة مقابل أن يعهد له بملك بلنسية.(٢) وقد استطاع القادر بفضل مساعدة ألفونسو أن يستولى على بلنسية، وأن يسلم له أهلها قيادها.(٣)

وبهذه الصورة المؤسية سقطت مدينة طليطلة المنيعة الحصينة. ونزل خبر سقوطها على المسلمين مدويا كالصاعقة ليس في الأندلس وحدها بل وفي بقية العالم الإسلامي، وترك سقوطها رنة أسى محزنة لدى المسلمين وخاصة الأندلسيين بالذات. وفاضت المشاعر الدينية والوطنية في نفوسهم. وعمت الأندلس وقتها موجة من الاستنكار والتنديد، وانبرى الشعراء والفقهاء والمفكرون يحذرون من مغبة ذلك وينبّهون ويلفتون الأنظار إلى الخطر الحقيقي الماحق القادم. وتنقلوا بين أصقاع الأندلس يبثون في نفوس الأهالي روح المقاومة والجهاد. وذهب بعضهم إلى ملوك الطوائف يبثونهم مخاوف الأمة من الأخطار المترتبة على سقوط طليطلة واسطة عقد الأندلس ودرّة جيدها. وسفح الشعر - ضمير الأمم وصوتها العالي ووسيلة إعلامها فى أفراحها وأتراحها وخطوبها - مدادا باكيا فيه حرقة الأسى والتفجع، وفيه لوعة الحزن والأسف لحال المسلمين وتخاذلهم واستسلامهم للهوان والذل. وتناقلت الألسن قصيدة رائية باكية لشاعر مجهول تنضح وتفيض أسى وحزنا، وهي في حوالي السبعين بيتا ويقول مطلعها:(٤)

لثكلك كيف تبتسم الثغور   سرورا بعد ما يئست ثغور

وطغى في البلاد تيار تشاؤمي يعبر أصدق تعبير عن مخاوف المسلمين الأندلسيين

---

(١) محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية شرقة وأندلسية، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع اعلاه، ٢٧٦.

(٤) للاطلاع على هذه القصيدة يراجع:

المقرى: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٣ وما بعدها

ويدعو إلى الهروب والهجرة خوفاً من المستقبل القاتم. وقد عبر عن هذا التيار الشاعر المشهور المعروف بابن العسال وهو عبدالله بن فرج اليحصبي عندما قال: (١)

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط

أما عن الموقف الذي ساد الأندلس في أعقاب سقوط طليطلة مباشرة، فينقله لنا ابن الكردبوس في شيء من المرارة والأسى عندما يقول (ولما حصل الطاغية ألفنش لعنه الله بطليطلة، شمخ بأنفه ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه، فشن غاراته على جميع أعمالها، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات(٢) والقرى المعمورة. وحاز وادى الحجارة إلى طلبيرة(٣) وفحص اللج(٤) وأعمال شنتمرية كلها، فلم يكن بالجزيرة

---

(١) المقرى: نفس المصدر السابق، ص ٨٤-٨٦

(٢) يرى أحمد مختار العبادى نقلا عن المستشرق الهولندى دوزى أن المدن الكبرى كانت تسمى أمهات، في حين كانت المدن الصغرى التابعة لها تسمى بنيات.

انظر: ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح١، ص ٨٧.

(٣) طلبيرة هي المعروفة باسم Talavera de. la.Reina في مديرية طليطلة، وتقع على نهر تاجه على ١٥٠ كيلومترا غربي طليطلة على مجرى النهر. وهي اليوم مركز إدارى في مديرية طليطلة، وعلى بعد ٣٠ كيلومترا منها توجد اليوم مدينة أصغر تسمى طلبيرة القديمة Talar-veala Vieja وهذه تابعة لمديرية قصرش. وقد سقطت طلبيرة في يد ألفونسو السادس سنة ١٠٨٢/٤٧٥م أي قبل سقوط طليطلة بثلاث سنوات.

انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ح٢، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) الفحص Alfoz اسم يطلق على عدة مواضع بالأندلس وهو يعني كل موضع يسكن سواء كان سهلا أو جبلا بشرط أن يزرع. وهو في اللغة شدة الطلب. أما فحص اللج فقد اختلفت المصادر العربية في تسميته وتحديد مكانه، فتارة يسمى بحصن اللج وتارة يسمى بحصن الثلج، وتارة يسمى بالبسيط، وابن الكردبوس يجعله في منطقة طليطلة.

انظر ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ٤، ص ٨٧-٨٨

من يلقى أقل كلب من كلابه، فعند ذلك وجّه كل رئيس بالأندلس رسله إلى الفنش مهنئين، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين، وفي أن يشركهم في بلادهم له عاملين، ولأموالهم إليه جابين، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين[1] نهض إليه بنفسه وتحمل هدية عظيمة القدر سنية متقربا إليه، وراغبا أن يقره في بلده عاملا بين يديه، فجازاه على هديته بِقِرْدٍ وهبه إياه، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء، ويعتقد أنه جنته[2] مما كان يحذر من ألفنش من وقوع البأساء. وانتحى ألفنش انتحاء الجبابرة، وأنزل نفسه منازل القياصرة، وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماش على التراب، وتسمى بالامبراطور، وهو بلغتهم أمير المؤمنين، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الامبراطور ذي الملتين، وأقسم لأرسال[3] الرؤساء أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحدا ولا يبقى لهم ملتحدا، سوى من اكتنفته رعايته، وشملته عنايته).[4]

ويضيف ابن الكردبوس قائلا (وكان رسول ابن عباد إليه يهوديا يعرف بابن مشعل فقال له: كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد، والمعتمد، والمعتصم، والمتوكل، والمستعين، والمقتدر، والأمين، والمأمون. وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفا، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني

---

(١) حسام الدولة ابن رزين: هو يحيى بن عبدالملك بن هذيل بن خلف بن رزين صاحب شنتمرية الشرق أو سهلة بني رزين كما كانت تعرف في الجغرافية الإسلامية. وقد تولى حكم شنتمرية الشرق سنة ٤٩٦هـ، غير أنه ما لبث أن خلع على يد المرابطين بعد ذلك بوقت قصير.

انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ص ١٠٩، وح١، ص ١١٠

(٢) الجنة بالضم كل ما وقي

انظر، الفيروزابادى: المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٢.

(٣) أي رسل الرؤساء.

(٤) تاريخ الاكتفاء، ص ٨٧-٨٩.

والعيدان؟! وكيف يحل ببشر أن يقرّ منهم على رعيته أحدا، وأن يدعها بين أيديهم سدى(؟). [1]

ورغم أن هذا الكـلام الـذي فاه به ألفـونســو يعبر عن وجهة نظره في ملوك الطوائف، ويعني في نفس الوقت أنه يجد لنفسه المبرر لمهاجمتهم والاستيلاء على أراضيهم. نقول رغم أن هذا الكلام صحيح للأسف الشديد، فإن المسلمين لم ينصِّبـوه حكما ليقضى لهم حقوقهم من ملوك الطوائف، ولم يكلفوه برفع الضرر والحيف عنهم، بل إن رغباته الشخصية، وحماسته القومية والدينية هي التي دفعته إلى قول هذا.

---

(١) تاريخ الاكتفاء: ص ٨٩.

تدهور العلاقات السياسية بين ألفونسو والمعتمد وبقية ملوك الطوائف والتفكير في الاستعانة بالمرابطين

أعطى سقوط طليطلة لألفونسو كمّاً هائلا من الاعتداد والتعالي، ونفخ فيه ذلك الانتصار الذي لم يكن ليتاح له لو لم يسهم المسلمون بسوء سياستهم في التعجيل به. نقول نفخ فيه ذلك الانتصار دبيباً ممقوتاً من العظمة والكبرياء أوحى له بشعور زائف بأنه باعث أمجاد النصرانية ومحيى رسومها، وأب وحدتها وقائدها الملهم. وصور له ذلك أنه الرجل المنتظر لإحياء ملك القوط القدامى.(١) ولذلك فقد مضى في استفزاز المسلمين واستثارتهم شوطا بعيدا موقنا بعظم جدوى الورقة التي يلعب بها دائما وهي اختلاف كلمة المسلمين وتفرق وحدتهم. ولم يكن يخطر على باله بأن هناك خاصية من صميم خصائص المسلمين والعرب بصفة خاصة وهي أن المحن والمصائب الكبرى التي تحل بهم تفضى دائما إلى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم، فسرعان ما ينسى أو يتناسى كل واحد منهم خلافاته ونزاعاته الشخصية في سبيل الذّب عن الهدف المشترك والمصير المشترك.

ولذا فإن ألفونسو ما إن استطاع الاستيلاء على طليطلة حتى بدأ يسيطر على بقية المناطق التابعة لها، فاستولى باسم القادر بن ذي النون على بلنسية وملكه إيّاها، أو بمعنى أدق جعله نائبا عنه في حكمها، وبعث إلى المقاطعات التي استطاع السيطرة عليها من ينوب عنه في حكمها يجبون له الإتاوات.(٢) ثم توجه نحو سرقسطة التي مزقتها الحروب الأهلية بين المؤتمن ابن المقتدر الذى خلف أباه

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥.

(٢) حسن أحمد محمود: نفس المرجع، ص ٢٥٥

وبين أخيه المنذر صاحب لاردة. وبعد أن توفى المؤتمن عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م استمرت الحروب والمنازعات بين المستعين ابن المؤتمن وبين عمه المنذر أيضاً. فقد توجه ألفونسو عقب استيلائه على طليطلة نحو سرقسطة وضرب حولها الحصار، وأقسم بأيمان مغلظة أن لا يبرح مكانه حتى يفتحها أو يموت دونها. ولم تجُدِ شيئا محاولات المستعين معه بإغرائه بدفع الإتاوات وما شاء من الأموال والتحف والهدايا التي يرغب فيها شريطة أن يرفع حصاره عن المدينة.(١) وأخذ عيونه وجواسيسه يندسون في صفوف سكان المدينة ويبثون إعلانات براقة زاهية، ودعايات كاذبة مضللة من أن ألفونسو سوف يحسن معاملتهم ويعدهم بالخير ويمنيهم بالإحسان والتجلة. ويذكرونهم بأيادى ألفونسو البيضاء على أهل طليطلة عندما فرق على ضعفائها المساكين مائة ألف دينار. وكان هذا بطبيعة الحال من قبيل ذر الرماد في العيون لتطمينهم ليس إلا، وإلا فلم يمض غير وقت يسير حتى تنكر لمبادئه وتعهداته.(٢)

وفي نفس الوقت تحركت قوات قتشالية نحو غرناطة وضربت حولها الحصار، كما استولت بعض القوات أيضا على حصن لييط Aledo وهاجمت قوات أخرى بعض أطراف مملكة ألمرية.(٣) وتناقلت بعض كتب التاريخ رواية مفادها أن الفونسو ذهب به الاستعلاء والطمع والغرور حدا جعله يخترق نهر التاجه وأتاح له هذا أن يجتاز بقواته القشتالية والليونية لأول مرة نهر التاجه جنوبا الذي كان يمثل وقتها حدا فاصلا بين الممالك الإسلامية والنصرانية. فقد ذهب به التعالى حدا جعله يخترق نهر التاجه جنوبا حتى وصل إلى جزيرة طريف(٤) في أقصى جنوب

---

(١) انظر: J.B. Bury: OP. Cit, P. 397-398
ـ حسن محمود: نفس المرجع ص ٢٥٥.

(٢) ابن الكردبوس: المصدر السابق ص ٩١.

(٣) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٥٥

(٤) جزيرة طريف هى عبارة عن رأس بارز في الطرف الأقصى الجنوبي لشبه جزيرة أيبريا جنوب غربي الجزيرة الخضراء بقليل. وتنسب إلى طريف بن زرعة الذى أرسله طارق بن زياد في مهمة استطلاعية لاختبار أحوال شبه الجزيرة قبل عبور المسلمين إليها. وهي اليوم مدينة صغيرة تسمى بنفس الاسم Tarifa
انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ح٣، ص ١٩٩.

الأندلس، فضرب بقوائم فرسه البحر ثم تبجح قائلا بأنه قد وطأ أرض الأندلس رغم أنوف المسلمين وملوكهم[1] وفي الواقع أن وصول ألفونسو إلى جزيرة طريف حدث بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين المعتمد، وبعد حادثة الرسول اليهودي التي سنعرض لها بعد قليل. وقد بعث ألفونسو وهو في طريف بخطاب إلى يوسف ابن تاشفين الذي سيستعين به المعتمد وبقية ملوك الطوائف كما سنرى بعد قليل أيضا.

تدهور العلاقات بين الفونسو وملوك الطوائف:

ما نقلناه سابقا من ردود فعل تجاه سقوط طليطلة، كان مجر رد فعل شعبي في جميع الأندلس. وكان من الطبيعي أن يأتي رد الفعل ذلك عفويا قويا يترجم مخاوف الناس، ويعبر عن قلقهم ثم لا شيء سواه ـ وهم معذورون في ذلك ـ فلم يكن لديهم من الإمكانات ما يغيرون به الوضع رغم تلويحهم بالثورة. وقد ترجم عن معاناة أولئك الناس الشاعر الأديب أبوالقاسم خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر عندما قال: [2]

ناد الملوك وقل لهم ... مالذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام فى ... أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم ... إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبى شققتم

وقال أيضا:

سنصبر والزمان له انقلاب ... وأنتم بالإشارة تفهمونا

ومع هذا فلم يشق الناس عصا الطاعة، ولكن ما جدّ من ظروف وأحداث قلب

---

(١) حسن محمود: نفس المرجع السابق، ص ٢٥٥ (نقلا عن ابن بسام).
وانظر كذلك:
Muhammad Benaboud Yangus mackay the Authenticity of alfonso visletter to Yousf B. Tasufin. in Al-Andalus, Vol, XI 111, 1978, P. 234

(٢) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الثاني ٣٧٤.

الأوضاع وخلط الأوراق، وجعل ملوك الطوائف يفكرون في اتخاذ إجراء حاسم، ومن ثم كان رد الفعل الرسمي الذي سنتحدث عنه هنا.

ويبدو أن ملوك الطوائف لم يستوعبوا الخطر الحقيقي من سقوط طليطلة في يد ألفونسو في بادىء الأمر. أو أنهم شعروا بأن ذلك الحادث إنما هو خاص بمملكة طليطلة وحدها، وأنهم إذا ما وطدوا علاقاتهم مع ألفونسو فإنهم سيضمنون بقاء عروشهم. ومن المحتمل أن شيئاً من هذا حدث وفكر فيه ملوك الطوائف. وربما يفسر لنا هذا الكلام ما جاء في رواية صاحب الاكتفاء ـ إن صحت ـ من أن ملوك الطوائف ومن ضمنهم المعتمد بالله قد بعثوا برسلهم لألفونسو في أعقاب سقوط طليطلة مباشرة مهنئيين بذلك الفتح العظيم. (١)

وعلى هذا فإننا نقول بكل أسف إننا لم نعثر على رد فعل رسمي تجاه سقوط طليطلة من ملوك الطوائف وخاصة من المعتمد. ولا يقلل من أهمية كلامنا ما رواه يوسف أشباخ عن رد فعل مزعوم للمعتمد تجاه سقوط طليطلة. فهو يقول إن المعتمد بعث بخطاب إلى ألفونسو الذي استكمل احتلال بقية أراضي طليطلة يحذره فيه من التمادي في الهجوم على مملكة طليطلة. وطلب منه أن يحترم بنود المعاهدة الموقعة بينهما والتي كنا قد أشرنا إلى أن المعتمد عقدها بوساطة وزيره ابن عمار، فإذا لم يحترم ألفونسو نصوص الاتفاقية، فإن ذلك يعتبر خرقا واضحا لها. ويعقب يوسف أشباخ بقوله: إن ألفونسو بعث للمعتمد خطاباً ينفي فيه خرقه لنصوص الاتفاقية، ويشعره بأن ما حدث إنما تم بالاتفاق مع صاحب طليطلة القادر نفسه، ولكي يبرهن عن حسن نواياه بعث له بخمسمائة فارس ليساعدوه في حربه ضد ملك غرناطة. وبالفعل توجهت تلك القوة إلى إشبيلية، وأن ألفونسو عندما شعر بتصميم المعتمد علىٰ رأيه، يئس من أمر إشبيلية، فتوجه نحو بلاد بنى الأفطس يهاجم أراضيهم ويعيث فيها. (٢)

فنحن نستبعد هذا، إذ هل كان المعتمد بتلك القوة التي يستطيع بها أن يناطح

---

(١) انظر قبل ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) تاريخ الأندلس: في عهد المرابطين والموحدين، ج ٢، ص ٧٣.

ألفونسو ويهاجمه؟؟ فكلنا نعرف أن المعتمد كان يتهالك في استجداء ألفونسو لطلب مساعدته؟؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى فالنزاع بين مملكتي إشبيلية وغرناطة كان قد حسم بزوال ابن عمار وزوال سياسته، وانشغاله بفتح مرسية ثم مقتله أخيرا بشهادة عبدالله بن زيري ملك غرناطة نفسه كما رأينا سابقا.[1] وكان هذا قبل سقوط طليطلة كما هو واضح.

وعلى أية حال فإن أمامنا عدة روايات عن بداية تدهور العلاقة السياسية بين المعتمد وزملائه ملوك الطوائف، وبين ألفونسو السادس. بادىء ذي بدء لنصف فتور العلاقة بين الفونسو وعمر المتوكل صاحب بطليوس، ثم نعرج على النقطة الهامة في موضوعنا وهي فتور العلاقة بين المعتمد وألفونسو، وما أفضت إليه بعد ذلك. فيُروى أن ألفونسو بعث في أعقاب سقوط طليطلة إلى عمر المتوكل خطابا فيه من الصلف والعتو ما فيه، إذ جرت كما يقول صاحب الحلل الموشية (بينه وبين ملك الجلالقة خطوب كثيرة آل حال المسلمين بعمالته إلى الضعف، والاستيلاء على بلادهم، وخاطبه ملك الجلالقة بكتاب يرعد فيه ويبرق ويتشطط عليه في أداء وظيف من المال كل سنة).[2] ويقول صاحب الحلل الموشية أيضا إن عمر المتوكل أجابه بخطاب أورد نصه ويهمنا إشارته فيه إلى أنه مستعد هو وزملاؤه ملوك الطوائف إلى مقاومة ألفونسو ومواجهته.

أما أسباب توتر العلاقة بين المعتمد وألفونسو فقد قيل فيها الكثير، واختلفت فيها الروايات اختلافا بينا، فمن تلك الروايات ما يعود بفتور العلاقات وتدهورها إلى ما قبل سقوط طليطلة. إذ يروى ابن اللبانة معاصر المعتمد وصديقه وشاعره الأثير لديه في كتابه الذي ألفه عن بني عباد، والمعروف بلقيط الدر وسقيط الزهر المفقود فيما ينقله عنه المقرى أنه في عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م جاء رسل ألفونسو كالمعتاد لتسلم الإتاوة السنوية من المعتمد، وكان على رأس البعثة سفير يهودي يدعى ابن شالب، فوجه لهم المعتمد المبلغ المعتاد، إلا أن اليهودي رفض أخذه،

---

(١) انظر قبل، الباب الثالث، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) مجهول، ص ٢٢ـ ٢٣.

واحتج بأن الذهب على غير العيار المعتاد، وهدد بأنه في العام القادم سوف لن يأخذ مالا، بل سيأخد بدلا من ذلك الحصون والقرى. ويبدو أن السفير اليهودي قد تجاوز مهمته دون أن يكون عنده تفويضا من ألفونسو نفسه، ويبدو أن ما دفعه إلى هذا الموقف المتعجرف هو وثوقه من قوة سيده وتأكده من الحالة السيئة التي بلغها المسلمون وقتها. ولذلك جاء صلفه هذا من موقع قوة. وهنا نشعر برد فعل المعتمد عنيفا قويا حازما فيه من الانتصار للكرامة ما يبعث على الإعجاب، عندما أمر بقتل السفير وصلبه.(١) ومع هذا فنحن نتساءل هل كان رد فعل المعتمد الذي جابه به السفير اليهودي هو انتصار شخصي للمهانة التي ألحقها به السفير؟؟ أم أنه كان رد فعل ديني؟؟.

يلوح لنا من هذه الرواية رأيان هما: إما أن يكون ابن اللبانة قد وهم في تحديد التاريخ الذي ذكره وهو عام ٤٧٥هـ. وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نعتبر هذه الحادثة سببا مباشرا لفتور العلاقات بين المعتمد، وبين ألفونسو وهي التي تشير معظم روايات المؤرخين على أنها قد حدثت في أعقاب سقوط طليطلة في عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. أما الرأى الثاني فهو أن هذا الحادث قد جرى في التاريخ المحدد الذي أشار إليه ابن اللبانة الذي كان على إطلاع واسع على مجريات الأمور في إشبيلية آنذاك بحكم وجوده الدائم في البلاط الإشبيلي. وفي هذه الحالة يمكن اعتبار هذه الحادثة مجرد سحابة قاتمة في العلاقات بين الحليفين ساق السفير برعونته المعتمد إليها سوقا.

وعلى أية حال فقد كان رد فعلها لدى ألفونسو غاضبا، فأقسم بأن يأتي بجنود

---

(١) نفح الطيب: ج ٥، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

وقد أشارت إلى هذه الحادثة أيضا بعض المراجع الأوروبية الحديثة التي طابقت روايتها رواية المؤرخين المسلمين.

انظر مثلا:

- Angus Mackay and Muhammad Benaboud:Al foniso VI of leon and gastile BHs, L VI (1979) P. 97

كثيفة (بعدد شعر رأسه حتى يصل بحر الزقاق). [١] لينتقم منه جزاء فعلته تلك.

هذه الرواية رواها ابن اللبانة كما ذكرنا، ورواها من بعده المقرى الذي نقل عنه، ومن المحدثين دوزى، [٢] كما رواها في شيء من الاختلاف يسير صاحب الحلل الموشية الذي جعل تاريخ هذه الحادثة عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م. [٣]

على أن هناك من الروايات الأخرى ما تؤكد على أن الفتور الذي ساد العلاقات الإشبيلية النصرانية قد حدث في أعقاب سقوط طليطلة. وهذه الروايات تروى شأنها شأن ما سبق ذكره أسبابا مباشرة لهذا الفتور. فصاحب الحلل الموشية يقول[٤] في معرض حديثه عن هذه الواقعة: (وكان الطاغية أدفنش في سنة ٤٧٨هـ قد غلب على طليطلة، واستولى على أعمالها، وحازها لنفسه، وكثر الروع على الأندلس واشتد الخوف وتطرق لبلاد المعتمد على الله بن عباد، ولما ملك أدفنش أعمال طليطلة وطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها، وهابت الملوك أمره لكون طليطلة نقطة دائرتها خاطب المعتمد على الله أباالقاسم بن عباد يطلب منه تسليم أعماله إلى رسله وعماله، وتشطط عليه في الطلب وأظهر له السرور بالغلب. .)

والواقع أن خطاب[٥] ألفونسو للمعتمد يفيض تبجحا وتهكما وتقريعا، فلما

---

(١) المقرى: المصدر السابق، ص ٣٧٧ - ٣٧٨

(٢) المرجع السابع، ص ٢٦٧-٢٧٠

(٣) مجهول: ص ٢٨-٣٠

(٤) مجهول: ص ٢٤-٢٦

(٥) خطاب ألفونسو للمعتمد، ورد المعتمد عليه كان مثار شك لدى بعض المؤرخين الأوروبيين. ومصدر الشك نشأ من أن الخطابات المتبادلة بين ألفونسو والمعتمد وبين ألفونسو ويوسف بن تاشفين كما سنرى بعد - لم ترد فى المصادر العربية سوى فى كتاب الحلل الموشية المذكور سابقا. ومن هنا كان مصدر الشك، غير أن آنجوس ماكاى ومحمد بن عبود كتبا مقالا في مجلة:

BHS, LVI, (1979) University of Edinburgh

حاولا فيه اثبات صحة الخطابيين المتبادلين بين الفونسو السادس والمعتمد ابن عباد.

أنظر:

ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD, OP. cit., P. 96

وصل كتابه إلى المعتمد[1] بعث له بخطاب شديد اللهجة ويعلن له بأن ما حصل من تخاذل عن الجهاد واستكانة إلى اللهو والمجون هو ما أتاح له تحقيق أغراضه، ويبدى في نفس الوقت استعداده هو وزملاؤه من ملوك الطوائف للقاء والفداء والجهاد.

أما رواية عبدالمنعم الحميري[2] فهى تروى ما حدث بشكل مغاير دون أن نعرف بالضبط متى حدث الفتور بين الملكين المسلم والنصرانى. ولكن ما يلوح في رواية الحميري يشير إلى أن الأحداث تلك وقعت بعد سقوط طليطلة. المهم أن سبب فتور العلاقة بين الرجلين عند الحميري تعود إلى أن ألفونسو طلب من المعتمد أن يسمح لامرأته القمبيطية (الكونتيسة) بأن تدخل جامع قرطبة، وتلد في الجانب الغربي منه. وكان فيما سبق موضع الكنيسة قبل تحويله إلى جامع في عهد الأمويين. كما سأله أن تنزل زوجته في مدينة الزهراء التي بناها عبدالرحمن الناصر لطيب هوائها. فجاء الرسول إلى المعتمد وأبلغه تلك الرسالة. فوضح له المعتمد استحالة ذلك، فما كان من اليهودي أي السفير من قبل ألفونسو، إلا أن شرع يتبجح في حديثه مع المعتمد يهدد ويتوعد، فاستشاط المعتمد غضبا وتناول محبرة كانت في يده، فرمى بها رأسه، ثم أمر به فصلب.

وحاول المعتمد أن يأخذ فتوى العلماء فيما فعل، فأجابه بعضهم بأن ما فعله لا غبار عليه، لأن الرسول تجاوز حدود مهمته فجاز قتله.

وبلغ هذا الخبر ألفونسو فأغضبه، وأقسم أن يغزو المعتمد في إشبيلية ويحصره فيها. وحشد على وجه السرعة جيشين سيرّ أولهما إلى مدينة باجة في غربي الأندلس، وطلب منه أن يتقابل وإياه عند قرية طريانة، وحشد جيشاً آخر تولى قيادته بنفسه، واتجه به في مسار آخر بمحازاة النهر الأعظم أي الوادى الكبير الذي تقع عليه إشبيلية.[3]

---

(١) عن نص الخطابين المتبادلين بين ألفونسو والمعتمد، انظر بعد الملاحق.

(٢) صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٣ - ٨٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٨٤ - ٨٦

أمـا ابن الأثير فيروى رواية أخرى عن فتور العلاقات بين المعتمد وألفونسو مفـادهـا أن ألفـونسـو بعد أن استولى على طليطلة، بعث إليه المعتمد الضريبة المعتـادة، فلم يقبلها منه، وأرسل يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها، أو يسلم إليه جميع الحصون المنيعة، ويبقى له وللمسلمين السهل. وكان الرسول في نحو خمسمائة فارس. كما يروى ابن الأثير أن المعتمد قد بادر إلى قتل أولئك الرسل، ولم ينج إلا عدد قليل جدا منهم. فذهبوا إلى ألفونسو وأخبروه ذلك، فطار صوابه وكان ألفونسو يعتزم محاصرة قرطبة، فعدل عنها إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار. (١)

تلك خلاصة للروايات التي تناقلتها كتب التاريخ في شرح الأسباب المباشرة لتدهور العلاقات بين المعتمد وألفونسو. ومهما يكن من أمر، ومهما تعددت تلك الآراء التي دفعت بالعلاقات بين الحليفين السابقين نحو الطريق المسدود، فإننا نعتبرها أسبابا هامشية ثانوية ليست هي السبب الأساسي الجوهري الذي أدى إلى هذا التـأزم في العـلاقـات. أما الشيء الثابت الذي جعل العلاقات تسوء بين الرجلين، فإنه بلا شك الخطر الذي استشعره ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة، وعندما (تيقن كل من ثار ورأس ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس مذهب ألفنش فيهم، وأنه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية، رأوا الرجوع إلى الحق أحق). (٢) وشعر المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لأول مرة، بأن الدور الذيَ نال غيره ولحقهم سيناله هو نفسه لا محالة، وأحسُّوا جميعا بخطورة الحالة السيئة التي بلغتها الأندلس آنذاك وأحسوا أكثر بأنهم قد أسهموا بسياستهم تلك بترك الحبل على الغارب لألفونسو ليحقق ما يشاء ويريد. وباتوا ينظرون بأسى بالغ بأن ميزان القوى بدأ يميل بشكل واضح إلى جانب النصارى. (٣) وربما شعروا أيضا بأن بقاء الممالك الإسلامية في الأندلس أمر مشكوك فيه لا سيما وأن ألفونسو

---

(١) الكامل، ج ١٠، ص ١٥٠-١٥١

(٢) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٨٩

(٣) انظر: Angus mackay and Muhammad Benaboud OP Cit, P, 96

يشدد ضغطه على تلك الممالك كلها. وكانت مملكتا أرغونة ونبرة في الوقت نفسه تشددان ضغطهما أيضا على مملكة سرقسطة. وكذلك كانت تفعل إمارة برشلونة.[1] وأفاق ملوك الطوائف من سباتهم، واستشعر المعتمد الخطر باعتباره أقوى ملوك الطوائف، وباعتبار مملكته أوسع ممالك الطوائف مساحة وثراء. وجاءت حادثة الرسول اليهودي لتضيف إلى تلك الأسباب سببا آخرا مباشرا يمسّ هذه المرة كرامته وعزّته الشخصية. وجعلت كل هذه الأمور المعتمد ينسف كل خطوط التلاقي مع ألفونسو، ويصل بالعلاقات بينهما نحو الطريق المسدود كما ذكرنا. وجاءت بعد ذلك الخطابات المتبادلة بينهما لتقضى على كل بارقة أمل في تحسن العلاقات.

ونظر المعتمد حوله، فوجد أنه أمام خطر نصراني ماثل وضاغط، وبين جبهة أندلسية مفككة، وموقف عسكري ضعيف لا يسمح بخوض معركة مع النصارى. وباتت مجالات الاختيار أمامه ضيقة محصورة في اختيارين أو ثلاثة أحلاهما مر. ومع هذا فقد صمم على أن يختار أهون الاختيارين وقعا رغم خطورته، وهو الاستعانة بالمرابطين. وهو ما سنتناوله بالحديث على التوّ إن شاء الله.

الاستعانة بالمرابطين:

لسنا معنيين هنا مباشرة ببسط الحديث عن المرابطين، وتفاصيل نشأتهم وحياتهم، وركائز دعوتهم. فما يهمنا الإشارة إليه كمدّخل إلى معرفة الجماعة التي أخّرت بعد المشيئة الإلهية بقاء الوجود الإسلامي في الأندلس إلى ما يزيد عن قرنين من الزمن هو معرفة الخطوط الرئيسية لهذه الدعوة وأصحابها معا. فالمرابطون جماعات من البربر ينتمون إلى عدة قبائل منها: لمتونة، وجدالة، ولمطة وغيرها. وتنتمي هذه القبائل بدورها إلى قبيلة صنهاجة القبيلة الأم التي ينتسب لها البربر البرانسة في المغرب والأندلس. وقد تبنى هؤلاء دعوة سلفية تهدف إلى نبذ الخرافات والشعوذات التي كانت قد سادت آنذاك في المغرب. كما تهدف إلى الزهد والتقشف والعودة بالإسلام إلى ما كان عليه في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه

---

(١) انظر: J.B.Bury : OP. cit P. 398

الراشدين من بعده نقيا صافيا. وقاد هذه الدعوة السلفية وعمل على نشرها بين البربر الأمير يحيى بن إبراهيم أمير قبيلة جدالة التي هي صنو لمتونة شرفا ومحتدا. وكان هذا الأمير قد أهمه ما آل إليه أمر البربر قومه وقتها من انتشار الجهل والشعوذة والخرافات في صفوفهم. وعندما ذهب إلى المشرق ليحج التقى في طريق عودته في القيروان بتونس بأحد العلماء البارزين فيها، وأوضح له حالة قومه تلك فكان أن أشار عليه بمراجعة عالم في المغرب الأوسط ليدله على رجل صالح يذهب معه لتفقيه قومه، ونشر الدعوة السلفية بينهم. وبالفعل فقد دلّوه على رجل يدعى عبدالله بن ياسين، أبدى استعداده للذهاب إلى مضارب الجداليين واللمتونيين والتى كانت تقوم فيما يعرف اليوم باسم (موريتانيا) ومالى. ومن هناك بدأ الشيخ عبدالله ابن ياسين يبث دعوته، وقد أثّرت فيهم تلك الدعوة فتبنوّها. وقد كانوا يعرفون أيضا بالملثمين، لأن رجالهم كانوا يتلثمون، في حين كانت النساء سافرات الوجه. وفي هذا أقوال كثيرة لا مجال لها في بحثنا. وقد سمى عبدالله بن ياسين أتباعه بالمرابطين[1] لكونهم قد وافقوه على المرابطة معه في الرباط الذي أقامه للتعبد وللتدرب على حياة الجهاد.

وهناك تقاطرت أعداد كبيرة من أولئك الرجال على الرباط الذي رابط فيه عبدالله بن ياسين وأتباعه، وازداد عددهم يوما بعد يوم. ثم أذن لهم عبدالله بن ياسين بنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله بين قبائل البربر الملثمين الآخرين الذين كانت قد تفشت فيهم الوثنية. وخاض ابن ياسين هو والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي حروب الدعوة. وشغلت هذه الأحداث الفترة من بداية القرن الخامس الهجري حتى الثلث الأخير منه. وبعد يحيى بن إبراهيم تعاقب على إمارة المرابطين أبوبكر بن إبراهيم أمير قبيلة لمتونة، وخلفه بعد ذلك عدد آخر من أمراء المرابطين. وكان آخرهم الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني الذي تنازل له ابن عمه الأمير

---

(١) أحمد مختار العبادي: دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مجلة تطوان، منشورات وزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة، مجلة للأبحاث المغربية والأندلسية، العدد الخامس، سنة ١٩٥٦م، ص ١٤٦-١٥١.

أبـوبكـر بن يحيى اللمتوني عن إمارة المرابطين وملك المغرب، وتوجه للصحراء بحيث تفرغ للعبادة، ولم يكد يطل العقد السابع من القرن الخامس الهجري - العقد الثامن من القرن الحادي عشر الميلادي - حتى كان يوسف بن تاشفين قد بسط نفوذه على معظم أجزاء المغربين الأوسط والأقصى، وأصبح سيد بلاد المغرب الفعلي.(١)

ومن الثـابت أن التفكـير بالاستعـانة بالمرابطين والاستصراخ بهم قد تمّ على مستويين اثنين: مستوى شعبى على يد الفقهاء، ومستوى رسمى على يد المعتمد

---

(١) عن دعوة المرابطين وقيام دولتهم أنظر المصادر والمراجع التالية:
- علي بن أبي زرع الفاسي الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - أبـوعبيد البكرى: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، المستخرج من كتابه المسالك والممالك نشر البارون (دى سلان). - ابن عذارى: المصدر السابق، ج٤، نشر ليفى بروفنسال، تحقيق ومـراجعة إحسان عباس. - مجهول: الحلل الموشية. - ابن خلدون: العبر - المقرى: المصدر السابق. - السلاوى الناصرى: الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى. وهناك بعض المصادر الأخرى وعلى رأسها مصدر مهم للغاية في التاريخ لعصر المرابطين ودولتهم وعنوانه: الأنوار الجليلة (الجلية) في محاسن الدولة المرابطية لأبي بكر بن الصيرفي، وقد عثر عليه ليفي بروفنسال أخيرا إلا أنه من حسن الحظ أن نقل ابن عذارى في كتابه المذكور سابقا مادة مهمة من هذا الكتاب. وهناك المصادر المشرقية كالكامل لابن الأثير، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها.

أما المراجع العربية والغربية فأهمها:
- حسن محمود: قيام دولة المرابطين - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس (المرابطين والموحدين). - عبدالحق حموش: ابن تاشفين. - يوسف أشباخ: تاريخ المرابطين والموحدين. وقد نشر حسين مؤنس ومحمود مكى في مجلة معهد الدراسات المصرية بمدريد وثائق تلقى الضوء على فترة مهمة من تاريخ المرابطين. فنشر حسين مؤنس في العدد ١-٢، المجلد الثاني، سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م بحثا بعنوان: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس. وكان قد نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد ١١، جزء ٢، ١٩٤٩م أربع قطع تتعلق بتاريخ الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين. أما محمود مكى فنشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان السابع والثامن، ١٩٥٩م - ١٩٦٠م بحثا بعنوان: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. وغير ذلك من المراجع الأخرى.

ابن عباد. ومن الثابت أن مبادرة الفقهاء قد سبقت مبادرة المعتمد كما أن بعض هذه المبادرات الشعبية قد سبقت سقوط طليطلة. فصاحب الحلل الموشية يذكر أنه في عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م وفدت على يوسف بن تاشفين وفود أندلسية فشكوا إليه ما حل ببلادهم من ضرر النصارى، فوعدهم خيرا، وصرفهم إلى أوطانهم، ثم بعث إلى الأندلس رسلا لشراء آلات الحرب والعدد والسلاح. وحتى بعد سقوط طليطلة توافدت على يوسف أعداد كبيرة من أهل الأندلس لما بلغهم عنه ما كان عليه من القوة والنفوذ ومن حب للجهاد، فأخبروه بما حدث من تكالب العدو، كما أخبروه عن الأحداث الجسيمة المتمثلة بسقوط طليطلة.(١)

ويروى لنا الحميري(٢) أن فقهاء الأندلس كانوا يذهبون إلى بلاط يوسف بن تاشفين ويروون أمامه وأمام رفاقه المرابطين ما يدور من فواجع وأحداث دامية تجرى في بلادهم. ويوسف بن تاشفين نفسه يشير إلى أنه قد جاز إلى الأندلس بناء على إلحاح الأهالي الذين بعثوا إليه مستصرخين الكرة بعد الكرة، بل إنه لم يشر صراحة إلى مراسلة ملوك الطوائف له مع ما يفهم من هذا ضمنا.(٣) وهكذا فإن مسألة التفكير في الاستعانة بالمرابطين كانت أملا وحلما راود الكثير من أهل الأندلس فقهاء وشعراء ومفكرين سعوا عند يوسف بن تاشفين إلى تحقيقه، وتحملوا من أجل ذلك مشاق الجواز، وهم يعلمون أن المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة على ردّ هجمات النصارى، بل والأهم من هذا هو عرقلة السقوط الإسلامي الوشيك في الأندلس، بل وإيقافه. كما لمس أولئك المفكرون أن ملوك الطوائف أبعد وأضعف من أن يتداركوا ذلك الخطر الماحق لما كانوا عليه من الاختلاف والفرقة والتناحر والتباغض.

أما مسألة الاستصراخ الرسمي فلا شك أن الفضل يعود فيه إلى المعتمد بن

---

(١) مجهول: ص ٢٢-٢٥

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦.

(٣) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف: نص رسالة يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس صاحب أفريقية - ص ٤٤٦-٤٤٨

عباد. وفي الواقع أن قضية استدعاء المرابطين شغلت انتباه المؤرخين القدامى ومع ذلك لم تستطع أن تشفى غلة، كما لم تستطع تلك الروايات الكثيرة أن تقرر حقيقة تاريخية متفق عليها لا لبس فيها ولا غموض. ذلك لأننا لم نجد في تلك الروايات رغم الحشد الهائل من التفاصيل ما يزيل الغموض عن طريق الباحث الثبت. على أننا نستطيع أن نقرر ونؤكد شيئاً واحداً هو: أن المعتمد بن عباد هو الوحيد من ملوك الطوائف الذي أتاح بدعوته الرسمية للمرابطين أن ينقذوا الأندلس من خطر سقوط محقق.

وقبل أن نورد تلك الأقوال التي أشارت إلى دعوة المعتمد للمرابطين وجهوده فيها، يحسن بنا أن نلقى الضوء على موضوع هو من الأهمية بمكان. وهو هل كان المرابطون يهدفون إلى مواصلة جهادهم في الأندلس بعد أن استتبت لهم الأمور في المغرب؟؟. وهل لو لم يدعهم أهل الأندلس إلى إنقاذهم من الخطر النصراني لكانوا أقدموا هم أنفسهم على ذلك؟؟

بادىء ذي بدء نجد رواية لابن خلكان [1] تؤيد ذلك الرأى الذي يقول بأن المرابطين كانوا يتمنون العبور إلى الأندلس ومواصلة الجهاد هناك، بل إنهم عقدوا العزم على ذلك. وابن الأبار[2] يشير بما يفهم منه أن يوسف بن تاشفين صمم على الجواز إلى الأندلس، والجهاد في سبيل الله رغبة واحتسابا، بل وافتتح مدينة سبتة عنوة وقتل أميرها في سبيل ذلك. وعندما علم ملوك الأندلس بذلك رأوا أن يتخذوا بادرة سريعة لتدارك ذلك. ونحن في الحقيقة لا نستبعد أن المرابطين كانت تحدوهم رغبة عارمة في مواصلة الجهاد. ونتفق في هذا مع القائلين[3] بهذا الرأي، فالواقع أنه ما كاد العقد السابع من القرن الخامس الهجري يطل حتى كان يوسف بن تاشفين قد استطاع أن يبسط دعوة المرابطين على معظم أرجاء المغربين

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ مجلدات، المجلد ٧، ص ١١٢-١١٤.

(٢) الحلة السيراء، ج ٢، ص ٩٨-١٠٠

(٣) انظر: حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٦٣-٢٦٥، وص ٢٦٧-٢٦٨. أحمد مختار العبادى: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٢٩-٣٣٠. عبدالحق حموش: ابن تاشفين، ص ٦٢-٦٣.

الأوسط والأقصى. فمن الطبيعي أن يفكر المرابطون بمواصلة جهودهم نحو الأندلس التي تعاني في ذلك الوقت بالذات من الانقسامات وهجمات النصارى الكثير. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التماثل التاريخي والجغرافي بين العدوتين الأندلسية والمغربية يفرض على المغرب وبمنطق الأحداث التاريخية والجغرافية ذاته أن يمارس دوره في إنقاذ الأندلس وانتشالها من هوة السقوط في براثن النصارى. ومن المؤسف أن نرى هذا الأمر مثار شك وسوء ظن من قبل بعض المؤرخين الأوربيين مثل: J.B.Bury ،[1] الذي يفسر مجيء يوسف بن تاشفين إلى المغرب على أنه غزو سعى إلى تحقيقه على وجه السرعة دونما انتظار الإذن من ملوك الطوائف، وبإكراه منه. وهو قول مغرض فسر به المؤلف مبدأ النجدة الأخوية الإسلامية بتفسير مادي دنيوي. ومهما يكن فإننا نتفق مع القائلين[2] بأنه لو لم يبادر الأندلسيون خاصة على المستوى الرسمي الذي ذكرناه إلى طلب الاستنجاد بيوسف ابن تاشفين،لكان المرابطون هم السباقون إلى التدخل الإسلامي المشروع لتدارك البلاد الأندلسية من الخطر النصراني المذكور، سيما وأن صرخات الفقهاء والمفكرين كانت قد توالت على يوسف بن تاشفين تستحثه على عون الأندلس ونصرتها.

أشرنا إلى أن الفضل في مسألة الطلب الرسمي للمرابطين بإنقاذ إخوتهم المسلمين يعود للمعتمد ولا شك، وحتى هذا الطلب الرسمي من المعتمد لاقى من التناقض في الروايات حدا بعيدا. فصاحب كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،[3] وتابعه في ذلك صاحب كتاب الاستقصا للسلاوي الناصري[4] يرويان أنه في عام ٤٧٥هـ/١٠٨٢م ورد كتاب من المعتمد إلى يوسف يخبره بحال المسلمين وما آل إليه أمرهم، فرد عليه يوسف بأنه سيعمد إلى مساعدة الأندلسيين إذا استطاع أن يفتتح مدينة سبتة،

---

(١) انظر: OP. cit, P. 394

(٢) عبدالحق حموش: المرجع السابق، ص ٦٢-٦٣

(٣) علي بن أبي زرع ص ٩٩-١٠٠

(٤) ص ٣١ - ٣٢.

ولكن يبدو أن هناك خلطا عند هذين المؤرخين السابقين[1] في تاريخ هذه المراسلة بين المعتمد ويوسف، فهما قد انفردا أولا بهذه الرواية دون غيرهما من المؤرخين، وثانيا كان المعتمد في تلك الفترة مشغولا بقضية تمرد ابن عمار وخروجه عليه كما ذكرنا سابقا. أضف إلى ذلك أن الحس الديني والإحساس بالمسؤولية لم يتيقظا في نفس المعتمد بعد. ومن جهة ثالثة فإننا نعرف بأن تحرك ملوك الطوائف لم يحدث إلا بعد سقوط طليطلة.

وسبق أن ذكرنا أن العلاقة قد ساءت بين المعتمد وألفونسو بعد سقوط طليطلة، وبعد حادثة السفير اليهودي، وأن ألفونسو حشد جيشين وجه أحدهما نحو مدينة باجة، ووجه الآخر نحو مدينة إشبيلية، فضرب عليها الحصار وهنا عنَّ للمعتمد أن يلجأ إلى وسيلة يرفع بها الخطر النصراني الماحق.

لا يمكن أن نصدق بأن فكرة الاستعانة بالمرابطين هي فكرة طارئة لمعت فجأة في خيال المعتمد وسرعان ما حققها؟ فبنو عباد أنفسهم كانوا يشعرون بقوة المرابطين وأهميتها، حتى أن المعتضد بالله والد المعتمد، كان يرصد عيونه في المغرب ليعرف المدى الذى بلغوه في توسيع رقعة دولتهم في المغرب، وعندما علم بسيطرتهم على معظم المغرب، أمر عماله أن يحصنوا مدينتي جبل طارق والجزيرة الخضراء اللتين كانتا تابعتين له.[2] كما أن المعتمد شعر بأن المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة والمهيئة للوقوف أمام خطر النصارى وتدارك الأندلس قبل فوات الأوان، كما أنه لا بد أن يكون على اطلاع بالسفارات الشعبية التي كان بعض أهل الأندلس يقومون بها عند يوسف بن تاشفين لإقناعه بالتدخل في الأندلس. ولذا فإن المعتمد عندما بعث له ألفونسو وهو يحاصره في أراضي إشبيلية خطابا يتهكم فية ويزرى بموقفه

---

(١) من الواضح أن السلاوي ينقل في كتابه الاستقصا كثيراً عن صاحب الأنيس المطرب، وقد لقى مؤلف القرطاس انتقاد كثير من المؤرخين والمستشرقين حديثا للخلط الذى يقع فيه دائما.
انظر: مقال بعنوان: دراسة حول كتاب الحلل الموشية، مجلة تطوان، نشر معهد مولاى الحسن، العدد ٥٠ سنة ١٩٦٥م. ص ١٣٩-١٥٨ مع الحواشى.

(٢) انظر قبل الباب الثاني ص١٨٣ - ١٨٤.

ويقول له (كثر بطول مقامي في مجلسى الذبان، واشتد علي الحر فألقنى من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي وأطرد بها الذباب عني)[1] نقول إن المعتمد عندما ورد له هذا الخطاب فكر أن يطبق فكرته الجريئة وهي الاستعانة بالمرابطين، فرد على ألفونسو بخطاب قوي حازم يقول فيه (قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك. وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية، تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله)[2] وقد ذاع عزم المعتمد هذا في أرجاء الأندلس لما له من الأهمية والخطورة، ولقى بطبيعة الحال الكثير من التأييد والمعارضة.

ولعل أول المؤيدين هم العامة في الأندلس بطبيعة الحال، إذ إن هذا العمل ـ إن كتب له أن يحدث ـ فسيخفف حتما عن كاهلهم ثقل الحصار والخراب والفساد الذي يحل بأراضيهم. وفي نفس الوقت سيريحهم من الضرائب الباهظة التي يدفعونها لملوك الطوائف ليدفعوها بدورهم إلى ألفونسو. ونستطيع أن نتفهم هذا الشعور عندما نطلع على المحاورة التي دارت بين المعتمد وابنه وولي عهده الرشيد الذي اعترض على مسألة الاستعانة بالمرابطين[3] كما سنرى بعد قليل.

وأما الجانب الآخر من المؤيدين لهذا العزم فهم القضاة والمفكرون الذين كانوا يتحرقون شوقا إلى عمل أي شيء في سبيل تجميع القوى الإسلامية ضد النصارى بعد أن استشرى خطرهم. ولذلك فما إن ذاع خبر تلك المراسلات بين المعتمد وألفونسو، وعلم الناس بأن المعتمد سيطلب نجدة المرابطين، حتى عقد الفقهاء في مدينة قرطبة إجتماعاً عرضت فيه الحالة السيئة التي كانت عليها الأندلس آنذاك حتى لقد خشى أن تعود البلاد نصرانية كما كانت. ولقد أشار بعض الحاضرين

---

(١) الحميرى: المصدر السابق، ص ٨٥ـ٨٦.

(٢) الحميرى نفس المصدر السابق والصفحات

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص ٣٠ـ٣١

من الفقهاء بالاستعانة بعرب أفريقية(١) وهم مجموعة من القبائل العربية التي رحلت إلى أفريقية وعثت فيها، للاستعانة بهم ضد النصارى، غير أن قاضي قرطبة عبدالله بن محمد بن أدهم، أبدى تخوفه من قدوم هؤلاء، وخشى أن يفعلوا بالأندلس مثلما فعلوا بأفريقية، ولكنه اقترح الاستعانة بالمرابطين. وقد اطلع المعتمد على ما دار في هذا المؤتمر، وأقرّ ما توصلوا له من نتائج، بل وطلب من ابن أدهم أن يكون سفيره إلى يوسف بن تاشفين وبالفعل ذهب إلى المغرب وأخبره بذلك. (٢)

على أننا لا نعتقد بأن المعتمد اتخذ قراره هذا بسهولة، فقد كان يقيس حساباته بدقة بالغة وكان يرى أن مجال الاختيارات أمامه ضيقة. فما من سبيل أمامه إلا خيار واحد أو خيارين. ولذا فقد اختار أهون الاختيارين وقعا كما ذكرنا. ولقد لقى تفكيره هذا من يؤيده، كما لقى من يعارضه. وإذا كنا قد عرفنا ردود الفعل المؤيدة، فإن ردود الفعل المعارضة تحتاج منا إلى وقفة مهمة. فالمعتمد لقى معارضة قوية من

---

(١) كتب حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب ابن الأبار: الحلة السيراء حاشية مهمة بخصوص عرب أفريقية هؤلاء رأينا من الفائدة أن نعتمد عليها هنا، فالمقصود بعرب أفريقية العرب الهلالية وهم قبائل (الأثبج، ورياح، وزغبة، وعدى) وكانت هذه القبائل تقطن في صعيد مصر على الضفة الشرقية من نهر النيل. وكان يلى أفريقية (تونس الحالية) من قبل الدولة الفاطمية في مصر وقتذاك البربر الصهاجيين المعروفين ببني زيرى. وعندما انقلب هؤلاء على الفاطميين وعادوا للمذهب السنى وتركوا المذهب الشيعى، ودعوا لبنى العباس في بغداد. رأى الوزير الفاطمي الجرجرائي أو البطائحى على الأرجح أن يبعث بهذه القبائل العربية إلى أفريقية، فوصلوا إلى برقة وخربوها ثم خربوا بعد ذلك معظم ما صادفوه في طريقهم. ثم اتصلوا بالأمير المعز بن باديس الصنهاجى صاحب أفريقية الذي صانعهم واستعان بهم على أبناء عمه بني حماد أصحاب قلعة بني حماد في الجزائر الآن. كما استعان بهم على أعدائه من قبيلة زنانة المؤيدة للأمويين. فطلب المعز بن باديس من زعيم الهلاليين قدوم تلك القبائل من برقة، وعندما جاء أولئك إلى أفريقية خربوا مدينة القيروان. وانقلبوا عليه، فاضطر إلى اللجوء إلى مدينة المهدية والاعتصام بها. وقد وقعت هذه الأحداث في النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

انظر: ابن الأبار، المصدر السابق، ج٢، ح ١، ص ٢١

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد ١٠، ص ١٥١-١٥٢

ملوك الطوائف ومن مستشاريه ورجال دولته أيضاً، إذ جاءته كتب ملوك الطوائف تحذر من خطوته تلك، وتلفت نظره إلى عاقبة ذلك.(١) غير أن المعتمد رأى أن خطر المرابطين - إن وجد - سيكون ولا شك أقل ضررا من خطر النصارى. وكان يدرك بأن ملكه وملك ملوك الطوائف معه سيضيع سواء أكان ذلك على يد المرابطين أم على يد النصارى. ولذا فقد جاء جوابه لملوك الطوائف وغيرهم من المعارضين على ما يدل على شعوره ذلك. وفي نفس الوقت يدل جوابه هذا على نظرة موضوعية واقعية للأمور. ويوضح هذا الجواب بما لايدع مجالا إلى الشك على الضرورة الحتمية للاستعانة بالمرابطين في ذلك الوقت بالذات. مهما تكن نتائج ذلك العمل.(٢) ولم يصغ إلى نصائح بعض المستشارين الذين أشاروا عليه بمداراة ألفونسو، وعقد السلم معه، وإعطائه ما يريد، بدلا من الاستعانة بالمرابطين.(٣) وعندما عارضه ابنه وولي عهده الرشيد أجابه بأنه يدرك تماما مخاطر الاستعانة بالمرابطين. ولكنه تجاه تلك الأوضاع الخارجية السيئة، وتجاه النقمة الشعبية العارمة على سياسة ملوك الطوائف عامة، رأى أن لا مناص من طلب معونة المرابطين.

ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن الدافع الأساسي لهذا الاستصراخ هو الخوف من درس سقوط مدينة طليطلة، ولا نستبعد أيضا أن وخزات الضمير، وتحرك الإحساس بالندم لديه عندما أفسح المجال لألفونسو ليصل إلى ما وصل إليه قد أذكى في نفسه ذلك الشعور الديني، وسما به وقتها - على الأقل - إلى أن يضحى إذا كان لا مناص من ذلك بملكه وأمجاده مقابل أن يسعى لبقاء الإسلام والوجود

---

(١) الحميري: المصدر السابق، ص ٦٥- ٨٦

(٢) أجاب المعتمد كل معارضيه بقوله: (يا قوم أنا من أمرى على حالتين، حالة يقين وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فرذلند ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليّ. ويمكن ألا يفعلا، فهذه حالة الشك. وأما حالة اليقين فهى إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله، وان استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأى شيء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه وحينئذ أقصر أصحابه عن لومه).

(٣) مجهول: الحلل الموشية. ص ٣١

الإسلامي في الأندلس. ولقد أجاب ابنه الرشيد بتلك الأقوال الخالدة: والله لا يسمع عني أنى قد أعدت الأندلس دار كفر، ولا يمكن لي أن أتركها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في المنابر الإسلامية: حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير[1] أو رعى الجمال خير من رعى الخنازير. (أي أن كونه مأكولا لابن تاشفين أسيرا. يرعى جماله في الصحراء خيرا من كونه ممزقا لابن فرذلند أسيرا يرعى خنازيره في قشتالة) [2]

وهكذا وبعيدا عن التفاصيل الواسعة والجزئيات الدقيقة، نستطيع أن نقول إن مسألة استدعاء المرابطين أصبحت محورا أساسيا لسياسة المعتمد الخارجية وقتذاك. فقد بعث من فوره بخطابات من إنشائه هو نفسه، ومن إنشاء بعض كتابه أيضا إلى يوسف يستحثه ويستصرخه. [3]

ورغم أننا قد أفدنا حقا من رواية صاحب الحلل الموشية في شرح أحداث تلك الفترة، والخطابات المتداولة بين ألفونسو والمعتمد، وبين ألفونسو ويوسف بن تاشفين. إلا أنه لم يتطرق إلى كثير من الأحداث الأخرى المهمة. وكان لابن عبدالمنعم الحميري[4] فضل كبير فيها، فقد أشار إلى أن المعتمد عندما عزم على رأيه وصممّ على تنفيذه خاطب كلا من عمر المتوكل ملك بطليوس، وعبدالله بن بلقين بن زيرى ملك غرناطة، فاتفق رأيهم جميعا على أن يبعثوا قضاة مدنهم إليه. وقد ضم إليهم القاضى ابن أدهم قاضي قرطبة، والوزير أبوبكر بن زيدون وزير المعتمد. وتوجهت هذه الهيئة مفوضة من ملوكها لمقابلة يوسف بن تاشفين ومواجهته على شروط لا يتعدونها كما يقول ابن زيرى نفسه، وكذلك ابن الأبار.[5] وقد حدّد ابن زيرى[6] تلك الشروط بقوله (وقد كان رسلنا مضوا مع رسل المعتمد

---

(١) مجهول: نفس المصدر، ص ٣١-٣٢

(٢) الحميرى: المصدر السابق، ص ٨٥-٨٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص ٣٠-٣٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٦- ٨٧

(٥) التبيان: ص ١٠٣. الحلة السيراء، ج٢، ص ٩٨-٩٩

(٦) نفس المصدر السابق، ص ١٠٣

إلى أمير المسلمين، على اتفاق ضمّ بعضنا فيه بعضا إلى حقيقة وعاقدنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته، وألا يعرض لأحدنا في بلده ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه).

قضية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء:

كثر خوض المؤرخين القدامى في هذا الموضوع، ولم نجد للأسف فيما أوردوه في هذا الصدد آراء مقنعة موضوعية، إذ تركوا للخيال والتشكيك مكانا كبيرا، مع أنها قضية ليست بذي بال، وقوامها أن يوسف بن تاشفين رأى هو ومستشاروه عندما جاءتهم دعوة الأندلسيين للإنقاذ والنجدة، رأوا وهم البعيدون عن تلك البلاد وطبيعتها الحربية والجغرافية أن يتبصروا أمرهم قبل أن يجتازوا إلى بلاد لا يعرفونها، فكان أن أشار عليه أحد كتابه ومستشاريه الأندلسيين بطلب مدينة الجزيرة الخضراء من المعتمد بن عباد وهي الثغر البحري المطل على الضفة الأندلسية من بحر الزقاق أو المجاز، والتابعة لابن عباد،[1] كما رغب يوسف بن تاشفين أيضا أن يضع يده على ثغر سبتة المطل على الضفة الغربية الأخرى من بحر الزقاق، ليسهل عليه الجواز إلى الأندلس.

أما مدينة سبتة فقد انعقدت حولها الآراء، وندر وجود تناقض في الأقوال بشأنها[2] فقد طلب يوسف بن تاشفين من صاحبها سقوت البرغواطي[3] أن

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص ٣٦ـ٣٨.

(٢) من الأقوال المتناقضة بشأن افتتاح سبتة ما ورد في كتاب روض القرطاس لعلي بن أبى زرع، وكتاب الاستقصا للسلاوى الناصرى اللذين يجعلان المقتول فى سبتة ابن سقوت البرغواطى يحيى الملقب بضياء الدولة وذلك في سنة ٤٧٧هـ. أما أبوه سقوت فقد قتل في حصار طنجة الذي ضربه المرابطون حولها قبل ذلك.

انظر: الروض القرطاس، ص ٩٩ـ١٠٠ الاستقصا، ص ٣١ـ٣٤.

(٣) سقوت البرغواطى أصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الأقصى جنوبي طنجة إلى أصيلا. وقد تولى سقوت حكم طنجة وسبتة من قبل الحموديين. وقد قتل في سنة ٤٧٦هـ على يد المرابطين عندما عارض دعوتهم.

انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ح١، ص ٥١.

يسمح بالنزول عنها لأهميتها في مواصلة الفتح والجهاد. فأبى صاحبها ذلك، فأخبر يوسف بن تاشفين ابن عباد بذلك فسير إليه أسطولا بحريا ضرب عليها الحصار، وسيّر يوسف بن تاشفين في نفس الوقت جيشا بريّا حاصرها ومع هذا فلم ينثن صاحبها عن رأيه، فأفتى الفقهاء بقتاله، فقوتل ودخل المرابطون البلد عنوة وقتلوا صاحبها. (١) هذه الروايات لا خلاف فيها بين المؤرخين كثيرا كما قلنا.

أما مسألة الجزيرة الخضراء، فيقال إن الوفد الذي ذهب برئاسة أبي بكر بن زيدون وزير المعتمد اقترح على يوسف بن تاشفين أخذ مدينة جبل طارق بدلا من الجزيرة الخضراء، غير أن يوسف بن تاشفين أصرّ على أخذ الجزيرة. ولما لم يكن مع الوفد صلاحية للتفاوض، فقد طالت المدة التي تستلزم المراسلة بين الوفد وبين المعتمد حول هذا الموضوع مما أعطى الفرصة للشائعات المغرضة أن تظهر وتكبر. فتظهر المعتمد بمظهر المتقاعس عن التنازل عن الجزيرة الخضراء، (٢) أو تظهره بمظهر المراوغ الذي يبيّت أمرا يعود فيه النفع له وحده. ومن هذه الروايات رواية عبدالله بن زيرى ملك غرناطة الذى أشار صراحة إلى أن المعتمد راوغ في إعطاء رأيه بسرعة حتى يتدبر أمره مع ألفونسو السادس، مما يعني أن ابن زيري كان يقصد بأن المعتمد كان يلعب بورقة الجزيرة الخضراء لثني ألفونسو عن رأيه في مهاجمة مملكته، فإذا رأى أن ألفونسو ماضٍ في عزمه عاد إلى يوسف بن تاشفين وأعطاه الجزيرة الخضراء. (٣)

ومن الأقوال الأخرى أن الراضي بن المعتمد حاكم الجزيرة الخضراء كان مترددا في النزول عنها للمرابطين الذين عبروا البحر نحوها، رغم أنه قد أمدّهم بالمؤونة والميرة. فما كان من المرابطين إلا أن أحدقوا بالجزيرة وبعثوا له من يفهمه بأنه سيجد نفسه أمام الأمر الواقع، ولذا فلا مناص أمامه من التسليم. فبعث إلى أبيه على وجه السرعة بذلك، فأمره بإخلاء الجزيرة والتوجه نحو مدينة رندة. (٤)

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد ٦، ص ٣٨١-٣٨٢

(٢) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ص ٩٨-١٠٠

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣

(٤) انظر: على أدهم: المرجع السابق ص ٢١٨

والواقع أنه يخيل إلينا أن المعتمد لم يكن مترددا في إخلاء الجزيرة الخضراء. وأما تلك الأقوال التي تشير إلى غير ذلك، فإننا نعتقد أنه لا يمكن أن يعتد بها كثيرا، فعبدالله ابن زيرى خصم المعتمد وقريعه، له الحق في أن يروى ما يروق له. والروايات الأخرى لم تعمل على أن تظهر للمسألة وجهتها الموضوعية.

صحيح إن طلب الجزيرة الخضراء قد فاجأ العباديين بدليل ما أورده صاحب الحلل الموشية من استنكار ابن المعتمد وولي عهده الرشيد الذي قال لأبيه معترضا: ألا تنظر إلى ما يطلبه الرجل؟؟. ولكن المعتمد الذي بات يشعر أن نهاية ملكه محققة سواء أكانت على يد ألفونسو أم على يد المرابطين أجاب ابنه بقوله: إن طلب الجزيرة قليل في حق النصرة والعون.(١) هذا هو المعقول، فالمعتمد الذي سلم للمرابطين أن يتحكموا في شؤون البلاد - على الأقل في فترة الاستنجاد - لا يضيره أن يتخلى عن الجزيرة لهم ليجتازوا منها إلى الأندلس. كما أنه أعقل من أن يخلق لنفسه أزمة مع هؤلاء الذين جاءوا لمساعدته وهو المحاصر بأكثر من جيش نصراني، كما أنه المعني أكثر من غيره من ملوك الطوائف بعداوة ألفونسو.

ومهما يكن فقد اجتازت الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بحر الزقاق من ثغر سبتة، واتجهت نحو الجزيرة فدخلتها واستقرت فيها، وجاء المعتمد بنفسه وتبعته وفود ملوك الطوائف ترحب بيوسف بن تاشفين، وتقدم له واجبات الضيافة ومراسم التكريم. ولم يتخلف عن المسير إلى الترحيب به إلا من أقعدته ظروف مرضية أو كبر سن كحاكم ألمرية،(٢) أو ظروف أمنية كالمستعين بن هود الذي كان محاصرا وقتها من قبل ألفونسو.(٣)

وأخيرا فهناك عدة نقاط بقيت جديرة بلفت الاهتمام إليها وهي أولا: أن ما سقناه من أحداث لجواز يوسف بن تاشفين الأول للأندلس هو خلاصة يتراءى لنا

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص ٣٨.

(٢) عبدالله ابن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠٤

(٣) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٩٢.

أنها موضوعية واقعية لكل ذلك الكم من الروايات الكثيرة المتناقضة.[1]

والأمر الثاني أن ألفونسو كان على علم بتلك الاتصالات التي كانت تدور بين العدوتين، بدليل أنه بعث إلى يوسف بن تاشفين بخطاب مليء[2] بالتهديد والوعيد، يدل على أن ألفونسو السادس كان منزعجا جدا لتلك الاتصالات لخطورتها على موقفه رغم ما يبديه من عدم اكتراث ولا مبالاة[3].

---

(١) للاطلاع على ذلك الحشد الكثير من التفاصيل التي يظهر فيها التناقض بوضوح نحيل القراء إلى الكتب التالية:

- عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠١ وما بعدها.

ابن الأبار: المصدر السابق، والجزء، ص٩٨-١٠٠ - عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ١٩٠-١٩٢. - ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد ١٠، ص ١٥١-١٥٣. ابن خلكان: المصدر السابق، مجلد ٧، ص ١١٤- ١١٦. علي بن أبي زرع: روض القرطاس، ص٩٧ ومابعدها. - الحميري: المصدر السابق، ص٨٣-٩٠. - ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٩٠ وما بعدها. مجهول: الحلل الموشية، ص ٣٢-٤٠. ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص ٣٨١-٣٨٤. السلاوى الناصرى: المصدر السابق، ص ٣١ وما بعدها.

(٢) خطاب ألفونسو ليوسف بن تاشفين كان بعد توتر العلاقات بين المعتمد وألفونسو، وبعد أن وصل ألفونسو إلى جزيرة طريف. ومن المحتمل أن يكون ألفونسو قد اطلع ساعتئذ على الاتصالات التي جرت بين المعتمد ويوسف بن تاشفين، فبعث بخطابه المذكور في المتن إلى يوسف. وقد أورد صاحب الحلل الموشية أيضا دون غيره من المؤرخين المسلمين نص الخطابين المتبادلين بين ألفونسو ويوسف بن تاشفين. وقد توصل محمد بن عبود وآنجوس ماكاى إلى صحة الخطابين المذكورين. وذلك في المقالة التي كتباها في مجلة: الأندلس، وقد استند الكاتبان للدلالة على صحة الخطابين على مؤرخ مصرى عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وهو شهاب الدين محمد بن سليمان الحلبى (توفى عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤-١٣٢٥م) والذي كان يشغل وظيفة رئيس ديوان الإنشاء في مصر المملوكية في كتابه: حسن التوصل إلى صناعة الترسل (القاهرة، ١٨٨٠م ص ٤) ومن الجائز جدا أن يكون المؤرخ المصرى قد نقله عن معاصره صاحب الحلل الموشية الذي عاش في القرن الثامن الهجري أيضا.

انظر: MUHAMMAD BENABOUDS ANGUS MACKAY. op. cit, P. 234-236

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٨-٣١. أحمد مختار العبادى: المرجع السابق، ص ٣٣٠-٣٣١.

والأمـر الثـالث وهـو أنـه إذا لم يكن للمعتمـد بن عباد فضل المبادرة الأولى بالاستعانة بالمرابطين، فإن له الفضل بلا شك في تبنى تلك الرغبة الشعبية التى تتوق إلى نصرة المرابطين، أو لنقل إنه كان له الفضل في القيام بالمبادرة الرسمية لذلك. لذا فنحن لسنا مضطرين إلى تبنى وجهة نظر حسن محمود (١) التي تغمط المعتمد حقه في هذه النقطة بالذات وتنكر عليه سابقته، والتي تصور أيضا دعوته ليوسف وكأنه قد اضطر إليها اضطرارا وسيق إليها سوقا عندما رأى المرابطين يدقون أبواب الأندلس. (٢) نحن لا نتفق مع وجهة النظر هذه، وإلا فأين هي المصادر الأندلسية التي تصور المرابطين كقوم يأتمرون بأمر أمراء إشبيلية ويلبون نداءهم للجهاد تلبية السيد التابع؟؟

نحن لا ننكر الرغبة الجامحة للمرابطين للتدخل في الأندلس احتسابا ورغبة في الجهاد التي أشرنا إليها سابقا، إلا أن المبادرة جاءت من الأندلسيين أولا، وجاءت من المعتمد نفسه كضرورة ملحة نعم. وفي هذا ما نعتقد الكفاية للإشادة بصاحب المبادرة التي أخرجها من طي الأماني والأحلام إلى حيز الوقاع والحقيقة.

---

(١) انظر: قيام دولة المرابطين، ص ٢٦٢-٢٦٣، وص ٢٦٩.

(٢) انظر، حسن محمود: نفس المرجع ص ٢٦٧.

موقعة الزلاقة

يحمد للمؤرخين القدامى في الواقع جهودهم العظيمة في تتبع أحداث معركة الزلاقة، والأحداث التي أعقبتها والإلمام بمعظم جزئياتها وتفاصيلها رغم التباين والتناقض في هذه الروايات بين مؤرخ وآخر، ولذا فإن موقعة الزلاقة خلّدت لحسن الحظ بمعظم أحداثها الجسام، وما من شك في أنه كان لأهمية المعركة السبب الأساسي لهذا الاهتمام البالغ.

وإذا ذهبنا نتقصى أحداث معركة الزلاقة ذات النتائج البالغة الأهمية والتي سنعرض لها بعدئذ نجد وسط ذلك الحشد من التفاصيل المتباينة خطوط تلاقي أساسية بينها، كما نجد مجموعة من الحقائق متناثرة نجمعها من هنا وهناك.

ولعل أول ما نستطيع استخلاصه من تلك الروايات السالفة أن جهود أمراء الأندلس للجهاد وقتها كانت صادقة وكانت عزائمهم لا تشوبها شائبة، فقد وحّد المصير المشترك القائم الذي تبينوا خطره، صفوفهم وقلوبهم ربما لأول مرة، وشعروا بأن الوقت يعمل لغير صالحهم، فأصدقوا الله ثم الناس النيّة، وتوجهوا بكل أحاسيسهم نحو إنقاذ الوطن والنفس من ذلك المصير الذي ينتظرهم. ولذا فما إن وطئت أقدام يوسف بن تاشفين أرض الأندلس حتى جاءته وفود ملوك وأمراء ومعظم بلاد الأندلس وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، فقابلوه بالترحاب الشديد، وقدموا له الضيافات والهدايا كل بحسب طاقته[١] حتى إنه (لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج).[٢] ويروى عبدالله بن زيرى مبتهجا حقيقة هذا الموقف الجماعي النادر فيقول (والعجب في تلك السفرة من حسن النيات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك).[٣] ويشير

---

(١) الحميرى: المصدر السابق، ص ٨٦ـ٨٨. عبدالله بن زيرى: المصدر السابق ص ١٠٤

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٧٠. (نقلا عن الضبى صاحب بغية الملتمس).

(٣) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر، ص ١٠٤

أيضا إلى مواقف ملوك الطوائف التي كانت تتوق إلى الجهاد، وقد أعمل كل منهم جهده، ووطن نفسه على الموت والفداء.

وقد سارت الجيوش المرابطية تحفها قلوب الأندلسيين ومهجهم نحو إشبيلية شمالا، وهناك بقوا في بطحائها مدة ثلاثة أيام قدّم لهم المعتمد فيها من ضروب الإكرام والإتحاف حدا عظيما، جعل لسان يوسف بن تاشفين يلهج بالشكر، كما سبب ذلك الإتحاف الزائد تصورات خاطئة لدى بعض المؤرخين، إذ استشفوا من ذلك مواقف سياسية ليوسف بن تاشفين لسنا معنيين هنا بإيرادها على الأقل في هذه الفقرة.(١)

والمهم في الأمر أن الاستعدادات للقاء الفاصل قد اتخذت في إشبيلية، فهيأت أسبابها من مؤن وذخائر وعُدد وكل ما يلزم للمعركة الفاصلة. وتوافدت الكتائب الأندلسية من كل صوب نحو إشبيلية، كما توافد من المغرب بقية المتطوعين من قبائله. فلم تتخلف قبيلة عن المشاركة في هذه المعركة.(٢) وكان تشوق المرابطين إلى الجهاد والفداء عظيما إلى الحد الذي أثروا فيه على يوسف بن تاشفين بإجابة الأندلسيين ونصرتهم.(٣) وبدا كما لو أن كل شيء قد أعدّ للمعركة المصيرية بين المسلمين والنصارى.

أما على الصعيد النصراني، فمن الطبيعي أن تزعج تلك الأخبار ألفونسو وكان في ذلك الوقت محاصرا للمستعين بن هود في سرقسطة، فما إن بلغه عبور المرابطين

---

(١) من الذين شككوا في هذا الإكرام الزائد عبدالواحد المراكشى، وفي الواقع لا يمكن قبول رواياته على علاتها، فهو قد كتب كتابه سالف الذكر فى عصر الموحدين. وكان بوقا من أبواقهم في ذلك الوقت رغم أنهم قد أساءوا إليه أخيرا. فهو يقول عندما أخذ يصف لقاء المعتمد بيوسف "(. . . وأظهر من بره وإكرامه فوق ما قد يظنه أمير المؤمنين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية مالم يظنه يوسف عند ملك. وكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوّف إلى مملكة جزيرة الأندلس. . الخ).

انظر: المعجب، ص ١٩٠-١٩١

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص ٣٢-٣٣

حتى أعدّ العدّة للتوجه جنوبا ليتخذ من الإجراءات السريعة ما يواجه به الموقف العصيب، وبعث لابن هود الذي بلغته أخبار قدوم المرابطين، يطلب منه الأموال التي كان قد رفضها من قبل كشرط للارتحال عن عاصمته. ولكن المستعين أبى ذلك عليه، فاضطر ألفونسو إلى الانسحاب سراعا نحو طليطلة. (١)

واستشعر ألفونسو لأول مرة خطورة الموقف ولم يعد في مقدوره أن يلعب بورقة الخلافات والفرقة بين ملوك الطوائف، بل وجد أمامه صفا موحدا وجيشا إسلاميا كثيفا. وشعر أن المعركة القادمة ستكون معركة عقيدة ومصير وليست معركة حصن أو إتاوات. ولذا فقد سارع إلى ترميم علاقاته المتدهورة مع ممالك النصارى وأشعرهم بخطورة المعركة. فهى مواجهة حاسمة فاصلة بين الإسلام والنصرانية، فبعث إلى ابن عمه سانشو راميرز ملك أرغونة. يطلب منه الإمداد، كما جاءته إمدادات من مملكة نبرة وبرشلونة، وجنّد على وجه السرعة قوات من ليون وجليقية وأستوريش وقشتالة، وطلب النجدة من ولايات فرنسا فجاءته كتائب من الفرسان من لانجدوك وبروفانس وبرجنديه، كما طلب من قائده المرموق البرهانس (٢) الذي بعثه مع القادر بن ذي النون نحو بلنسية ليُملِكه إيّاها، فاجتمعت له بذلك أعداد عظيمة أسلمت له قيادها بطبيعة الحال. (٣)

تحديد مكان المعركة:

لم يأت تحديد مكان المعركة خبط عشواء. أو من قبيل الصدفة المحضة. بل كان مبنيا على حسابات دقيقة إسلامية ونصرانية على السواء. فلقد كان المكان الذى

---

(١) ابن الكردبوس: المصدر السابق ص ٩٢

(٢) البرهانس أو البارهانش Alvar Fañez هو قائد قشتالي مسيحى، ويقال إنه كان ابن أخ للسيد القمبيطور الذي استولى على بلنسية. وقد قتل في عام ٥٠٧هـ/ ١١١٤م. ويعتبر من أكبر قواد الملك ألفونسو السادس.

انظر: ابن القطان: نظم الجمان، ح٢، ص ٦، وح١، ص ٧

(٣) انظر: حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٧٢ - سعيد عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥٣٣ - محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة، ص ٢٨٠-٢٨٢ - علي أدهم: المرجع السابق ص ٢٢٠.

شهـد أحداث تلك المعركة يتبع من الناحية الجغرافية مملكة بطليوس وغير بعيد منها، وهو الذى تسميه المصادر الإسلامية الزلاقة، بينما تسميه المراجع الأسبانية Sacralias وتعـرف الآن باسم Sagrajas . ولم يكن يفصـل هذا المكـان عن المعسكرين سوى ثلاثة أميال هي القدر الذي يشكل عرض نهر وادى يانه والذى يمتد شمالا فى اتجاه نهر التاجة ويسمى اليوم جوبرد.(١) وتقع الزلاقة بين بطليوس وقورية.(٢)

فعـلى الصعيد الإسلامي كان يوسف بن تاشفين يميل على عادته إلى التؤدة والحذر الشديد، فخشى من التوغل شمالا نحو طليطلة وبقية أراضي ألفونسو، وكان يميل كما يفهم من رواية عبدالله بن زيرى إلى أن يكون اللقاء على أرض إسلامية حتى إذا انجلت المعركة لصالح المسلمين يكون قد ضمن السلامة وهو في أرض إسـلامية، أما إذا انجلت المعركة عن هزيمة المسلمين فتكون أراضي المسلمين مأوى يلجئون إليه. بل إننا نفهم من رواية ابن زيرى أيضا أن يوسف بن تاشفين كان يؤثـر عدم اللقاء أصلا. فلربما كان يتمنى أن يكون النصارى قد أخافهم وأرعبهم وصوله إلى الأندلس، فلا تحدث معركة، وهو الغريب عن تلك البلاد التي لا يعرف لقصر المدة خباياها وجغرافيتها بعد.(٣) كما أن التحليل الحديث لدوافع ذلك التدبير الحربي الهادف إلى اختيار بطاح بطليوس مكانا مناسبا للمعركة، يلقى الضوء على فهم تلك الحسابات الدقيقة التي بنى عليها ذلك الاختيار. وفي هذا فنحن نؤيد تحليل عبدالحق حموش(٤) لذلك التدبير الحربي. فالواقع أن يوسف بن تاشفين خرج من المغرب وهو يعلم أن أمامه أكثر من لقاء وأكثر من معركة، فلو أنه فكر في شن سلسلة من الحروب الصغيرة الخاطفة مع الأسبان حتى ولو كان ذلك للمناوشة، لكان قد حكم على جيشه بالتبدّد والإنهاك والتفريط في القوة فيما لا

---

(١) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح١، ص ٩٣ - محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ح٢، ص ٣٢١.

(٢) ابن الكردبوس: نفس المصدر السابق، ص ١٠٥

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) ابن تاشفين، ص ٧٦-٦٨

طائـل منه. ولذا فقد فضل لقاء رئيسيا حاسما تجتمع فيه زهرات شباب الجيش وفتـوتـه المتـأججة التي لم تهدّها بعد تلك المعارك الصغيرة، فكان أن رنا بنظرته العسكرية الفاحصة إلى أن ينصرف إلى الجانب الغربي من الأندلس، إذ عرف أنه مركز الثقل في الممالك الإسلامية والأسبانية على السواء. فطليطلة عاصمة ألفونسو غير بعيد عن بطليوس، وإشبيلية وأراضيها الواسعة، فضلا عن أن مملكة بطليوس تقع غير بعيد عن الجزيرة الخضراء جسر عبوره وإمداداته. ولهذا فقد كان اختيار هذا المكان مبني على الحسابات الدقيقة، وليس على الصدفة وحدها. (١) وبما يماثل هذا التحليل تقريبا رأينا تفسيرات أخرى مشابهة، فالواقع أن يوسف بن تاشفين ومن معه لو فكروا في التوجه صوب طليطلة ومحاصرتها لكان قد ازداد توغلهم في بلاد النصـارى، ولـطالت بذلك خطوط مواصلاتهم ولسهل من ثم على الفونسو أن يقضى عليهم وهم منهكـون. ولذا فقد آثر يوسف بن تاشفين وأركان حربه أن يكون اللقاء ـ إن تم ـ في بطحاء بطليوس لا سميا وأنهم قد علموا بتحرك ألفونسو نحو بطليوس. (٢)

أما على الصعيد النصراني فقد كان لألفونسو حساباته الدقيقة أيضا، فهو قد رغب أن يكون اللقاء في أرض المسلمين، فإذا أسفرت المعركة عن هزيمته انسحب إلى بلاده وهـو مطمئن إلى أن المسلمـين سوف لن يتبعـوه إلا بعـد أن يتخـذوا استعـداداتهم لجولـة أخرى تحتاج بطبيعة الحال لبعض الوقت، هو نفسه الذي يمكّنه من النجاة بنفسه من الهزيمة ليستعد لجولة أخرى من جديد. وصان بلاده في نفس الوقت من آثار المعركة والقتال، أما إذا كان النصر حليفه فهو بلا شك المستفيد. تلك كانت وجهة نظره، (٣) والواقع أن حساباته هذه لها ما يبررها، مما يعني أن النصـارى لم يكونوا بأقل اضطرارا من المسلمين في أن تكون الحرب في بطحـاء بطليوس وعـلى أراضي المسلمـين. (٤) ولكن رغم وجـاهـة هذه النظرية

---

(١) عبدالحق حموش: المرجع السابق، ص ٦٧ـ ٦٨

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٧٣ـ٢٧٥

(٣) الحميرى: المصدر السابق، ص ٨٧ـ٨٨

(٤) حسن محمود: نفس المرجع اعلاه، ص ٢٧٥

العسكرية النصرانية، إلا أنه كان عليه من الأولى أن يجر المسلمين إلى الدخول معه في معركة يختار لها هو مكان اللقاء. فلو أنه استقر في طليطلة وتحصّن بها، لكان أغـرى المسلمين بمحاصرته، ولقطعوا تلك المسافة بين بطليوس وطليطلة، حتى إذا أنهكهم التعب وكدّهم الإرهاق، انقضّ عليهم فأثخن في صفوفهم.(1)

المعركة الفاصلة:

كان على يوسف بن تاشفين أن ينظم صفوف القوات الإسلامية، وكانت قد بلغت من الكثـرة ما تستـوجب معـه فصلهـا إلى معسكرين. فارتأى أن يكون الأنـدلسيون في جيش أو معسكر خاص، ويكون هو نفسه في معسكر آخر من المـرابـطين. وولى كما يفهم من الـروايات سالفة الذكر، المعتمد قيادة المعسكر الأنـدلسي، في حين تولى هو قيادة جيش قواتـه المـرابـطية ذات الثقـل الحـربي الكبير.(2) وتلاقت الجيوش الإسلامية والنصرانية في بطحاء الزلاقة وجها لوجه، وبدأت المراسلات بين الفريقين، فبعث يوسف إلى ألفونسو بخطاب يطلب منه على مقتضى السنة النبوية أن يختار واحدا من الأمور التي نصت عليها السنة عند لقاء الكفار وهي: الإسلام أو الجزية أو الحرب، غير أن ألفونسو غضب من هذا الخطاب وبعث لملوك الطوائف يقرعهم ويؤنبهم.(3) وكان قد حصلت بينه وبين يوسف بن تاشفين من قبل خطابات متبادلة. تهجم فيها ألفونسو على يوسف بن تاشفين كثيرا. فكان رد يوسف بن تاشفين عليه موجزا قويا حازما هو ذاته جواب هارون الرشيد لنقفور ملك البيزنطيين عندما قال له: «الجواب ما تراه لا ما تسمعه». (4)

وعلى أية حال فلم يبق إلا أن تحدد ساعة اللقاء بين الفريقين كما كانت عليه العادة العسكرية وقتذاك. فجرت مراسلات بين الفريقين حدد فيها يوم المعركة،

---

(1) نفس المرجع أيضاً، ص ٢٧٤

(2) الحميرى: المصدر السابق، ص ٨٩-٩٠

(3) الحميرى: نفس المصدر، ص ٩٠-٩١

(4) مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٨-٣٠ المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ٨٨-٩٩

غير أن ألفونسو كان يبيّت في الواقع مكيدة للمسلمين، تنبّه لها المعتمد بن عباد ولفت نظر يوسف بن تاشفين إليها. وبالفعل فلم يهاجم ألفونسو قوات المسلمين في اليوم المتفق عليه، ولكنه هاجمهم في اليوم السابق له. (١) ونشبت في ذلك الوقت المعركة الهائلة بين المسلمين والنصارى، وكانت في الواقع معركة غير متكافئة في العدد والعدّة. فصدم الأندلسيون صدمة شديدة وارتبكت صفوفهم وتمزقت. وفي الحقيقة أن ما حدث كان نتيجة لحدوث خلل في تنفيذ الخطة. إذ كانت الخطة العسكرية التي وضعها يوسف بن تاشفين كما يتراءى لنا تقوم على أساس أن يتلقى الأندلسيون الصدمة أو الضربة الأولى حتى إذا تورط النصارى في مهاجمتهم معتقدين بأن هؤلاء هم الجيش كله، بادر يوسف إلى معسكر النصارى، فأشعل فيه النار وقضى على الموجودين فيه، فيعود ألفونسو لتدارك ذلك، فتصدمه قوات يوسف المستعدة والنشطة حتى ذلك الوقت. وفي نفس الوقت تطبق عليه القوات الإشبيلية الأخرى. غير أنه لم يكتب لهذه الخطة أن تطبق بحذافيرها، إذ يبدو أن تدخل ألفونسو بكل قواته وثقله قد أربك صفوف الأندلسيين، (٢) فبدأت صفوفهم تتمزق، وكثرت الانسحابات في صفوفهم، وتحمل المعتمد بن عباد وصحبه القليل، عبء ذلك الموقف الحرج، وأبلى فيه بلاءً حسنا، فكان يرمي بنفسه في النزال حتى أنه أصيب إصابات بالغة. (٣) كل ذلك وضغط النصارى يزداد على الأندلسيين ويزداد تحمل المعتمد لعبء ذلك، حتى كاد الأمل يذوى في نفسه. وهنا طلعت عليه كتيبة مرابطية بقيادة القائد المرابطى المعروف دواد بن عائشة فنفسّت الكثير عن الأندلسيين، وفي نفس الوقت تحول يوسف لتنفيذ الشق الثاني من الخطة بكامل قواته وكامل قواه. وأعطت هذه الخطة ثمارها مباشرة، وتحول النصارى من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع، وتنفس الأندلسيون والمعتمد

---

(١) انظر: عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٩٣-١٩٦.
ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد ١٠، ص ١٥٣-١٥٤
المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ٩٧-١٠١

(٢) عبدالحق حموش: المرجع السابق، ص ٦٦

(٣) الحميرى: المصدر السابق، ص ٩١-٩٢

بالـذات الصعـداء. وأخـيراً انجلت المعـركة عن انتصار المسلمين انتصارا باهرا خالدا. وقد وقعت هذه الموقعة على الأرجح في ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م، ونزل المعتمد وهنأ يوسف بن تاشفين على ذلك الفتح المبين، كما هنأه أيضا بقية ملوك الطوائف، وبعث المعتمد إلى ابنه وولي عهده الرشيد يعلمه نبأ النصر العظيم ويطلب منه أن يزف ذلك النبأ للمسلمين في المملكة.(١)

وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار الإسلام على النصرانية في لقاء تاريخي يضاف إلى الأيام الخالدة في تاريخ المسلمين كبدر والقادسية واليرموك وغيرها.

ومن المفيد أخـيرا أن نلم بالأسباب أو العوامل الحربية التي أدت إلى انتصار المسلمـين في هذه المعـركـة، فقد استخدمت فيها خطط عسكرية جديدة. كما استخدمت فيها أسلحة جديدة من قبل المرابطين لم يعهدها النصارى من قبل.

وفي الحقيقـة أن المسلمـين كانـوا أحكم وأزكى في خططهم العسكـرية التي وضعوها من النصارى. فالخطة التي اعتمدها النصارى وكانوا يعتقدون أنها مجدية تلاشت أمام الخطة التي وضعها يوسف وأركان حربه، فالنصارى كانوا يعتمدون خطة الفارس الفرد، فيما وضع المسلمون خطة تحتوى تلك الخطة النصرانية وهي خطة الجيش الكامل. كما أن أبرز ما يميز خطة النصارى العسكرية عنف وقوة الفارس المثقل بالدروع والحديد، وكان أبرز ما يُميز الخطة الإسلامية هو المواجهة بقطائع كاملة من الجيش تدك الخطة النصرانية(٢) دكا كما أن خطة الكمائن القديمة الجديدة التى تلجأ لها الجيوش الإسلامية دائما كانت عاملا آخر من عوامل النصر. وإضافة إلى هذا فقد أنزل المرابطون إلى ميدان القتال فرقا يمكن أن نسميها مع شيء من التجاوز فرق الصاعقة. وتتكون من كتائب مشاة كان عددها في تلك المعركة أربعة آلاف مقاتل من السودان.(٣) متسلحين (بدرق اللمط،(٤) وسيوف

---

(١) الحميرى: نفس المصدر، ص ٩٣-٩٤

(٢) عبدالحق حموش: المرجع السابق، ص ٦٥-٦٦

(٣) المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٠-١٠١ (نقلا عن ابن خلكان)

(٤) نقل ابن خلكان عن ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك، أن لمطة: بلدة عند السوس الأقصى (فى المغرب الأقصى) بينها وبين مدينة سلجماسة ١٩ يوما.
انظر: وفيات الأعيان، ص ١١٤-١١٥

الهند، ومزاريق الزان). (١) وفي أيديهم السهام، فأخذوا يطعنون الخيل التي فزعت بفرسانها وأحجمت عن التقدم، فجمحت بأصحابها.

أما بالنسبة للأسلحة التي استخدمت لأول مرة في تلك المعركة، فقد كان لها دور رئيسي في النصر، إذ كان من عوامل النصر نزول الجمال لأول مرة في تاريخ الحروب الإسلامية النصرانية في أسبانيا. فقد أمر يوسف كما يقول ابن خلكان (٢) (بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة، فارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة (ولا خيلهم) (٣) رأوا جملا قط، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغـائها). ويضيف قائلا كان ليوسف رأي مصيب فكان يحدق بها عسكره ويحضرها للحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها).

وبالإضافة إلى الجمال فقد استخدم المرابطون الطبول الكبيرة التي كانت تشق بأصواتها الهائلة عنان السماء، فكانت ترتعد لها قلوب النصارى وتصم آذانهم. والواقع أن الشعوب الصحراوية التي كانت ولا تزال تعيش في الصحراء في أفريقية تعرف أهمية ذلك النوع من الأسلحة المعنوية في حروبها. فقد عرف المرابطون من القبائل الزنجية التي كانت تعيش في نواحي نهر السينغال والنيجر الطبل المعروف بطبل جنادة الذي ينسب إلى غينيا GUINÉE، (٤) كما يذكر أن المرابطين استخدموا سلاحا خفيفا كان له دور في القتال شديد حتى لقد كاد أن يذهب ضحيته ألفونسو نفسه. هذا السلاح هو الخناجر المقوسة والتي يطلق عليها المرابطون الأطاس أو الطاس. (٥)

---

(١) المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٠-١٠١ (نقلا عن ابن خلكان)

(٢) المقرى: نفس المصدر والجزء والصفحات

(٣) العبارة فى الأصل جاءت على هذا النحو (ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم) وقد أعدت صياغتها على هذا النحو في المتن زيادة في الإيضاح ومنعا لأى لبس.

(٤) أحمد مختار العبادى: المرجع السابق، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٥) أحمـد مختـار العبـادى: مقـال بعنوان: دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مجلة تطوان، العدد الخامس، سنة ١٩٥٥م. ص ١٥٢.

هذه العوامل المادية والمعنوية أدت إلى كسب المسلمين لهذه المعركة الفاصلة. ولكن هناك عامل قبل هذا وبعده هو سلاح الحمية والحماس الديني أو لنقُل سلاح العقيدة، فقد كان لهذا السلاح الدور الأساسي في الانتصار، فقد كانت النفوس صادقة في اللقاء، مخلصة في الأداء مرابطين وأندلسيين على السواء رغم النكسة الأولى. أخلصوا النية لله وصدقوا العزم، وكان يذكى هذا العزم الفقهاء الذين انتشروا في صفـوف الجيش الإسلامي برمته يلهبون الحماس ويذكرونهم الغنائم الإلهية ورياح الجنة، ويذكرونهم الشهادة أو النصر المؤزر المشرف. فأعطى هذا كله شحنـات هائلة من القـوة، فاندفعوا إلى القتال دفعا يرومون الفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. وهكذا تحقق لهم ذلك النصر العظيم المؤزر.

بقيت أخيرا عدة نقاط لم نشأ أن نتحدث عنها في سياق حديثنا عن وصف معركة الزلاقة حفاظا على هذه الصور الرائعة التي رسمناها لمعركة الزلاقة من أن تشوه. باعتبـار أن هذه المعـركة من المعارك المهمة في تاريخ الإسلام عامة، وفي تاريخ الأندلس خاصة والتي تمثل ذروة حركة جهاد المرابطين والأندلسيين ضد النصارى والأسبان. وأول هذه النقاط محاولات التشكيك في ولاء المعتمد ويوسف لبعضهما البعض، وبـالتالي ولاء المرابطين والأندلسيين لبعضهم البعض قبل وأثناء وبعد المعركة. وقد أشار إلى هذه المواقف بعض المؤرخين القدامى وتابعهم بها بعض المستشرقين. فمن مواقف التشكيك بموقف المعتمد قبل معركة الزلاقة ما رواه ابن الأثير[1] بدون روية من أنه عندما تراءى الجمعان «المسلمون والنصارى» جاء من ينصح يوسف بأن يأمر المعتمد بأن يكون في المقدمة خوفا من ألا ينصح المعتمد يوسف، ولا يبذل نفسه، ففعل ذلك يوسف).

أما عبدالواحد المراكشي[2] فيشكك كعادته في صدق نيات يوسف وينظر إليه كأي طامع انتهازي، وليس كرجل عمت شهرته في التمسك بأهداب الدين العالم الإسلامي فيقول في معرض روايته لأحداث استنجاد المعتمد بيوسف إنه لم يقدر

(١) انظر الكامل، ج ١، ص ١٥٣.

(٢) انظر: المعجب، ص ١٩٠-١٩٢

العواقب تماما. ولا يدرك أنه قد سل سيفا عليه يحسبه له. وهو موقف تشكيكي ظالم بلا شك. وكان قد أشار في مكان آخر إلى أن يوسف كان حريصا على أن يظهر للأندلسيين وللمعتمد إنه لم يأت إلا للجهاد فقط، وإنه كان دائم الحرص على أن يظهر التعفف والتأفف من الإقامة في الأندلس بل إنه يروى أن يوسف كان يقول في أكثر أوقاته (كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتغاء). [1]

أما أثناء معركة الزلاقة فيروى ابن الكردبوس[2] رواية غريبة وهي أنه عند احتدام المعركة وعند هزيمة الأندلسيين في الصدمة الأولى أعلم يوسف بذلك (فقال اتركوهم قليلا للفناء فكلا الفريقين من الأعداء، فلما تحقق أن أكثرهم قد أسر وقتل رأى أنه قد آن أن يفترس العدو، إذ قد تباعد عن محلته..).

أما دوزى[3] فيقول في معرض وصفه لأحداث معركة الزلاقة إن المعتمد بعث إلى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيوشه على عجل، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافي، وقد كان (يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها، فلم يبادر إلى تلبية طلبه، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسيين، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا: وماذا يهمني إذا كان نصيب هؤلاء جميعا الهلاك، إنهم جميعا أعداء). وهذا ولا شك موقف مغرض لا يمكن أن يقدم عليه يوسف إطلاقا.

أما بعد معركة الزلاقة فقد رأينا عدة مواقف تشكيكية في موقف يوسف والمعتمد على السواء، فمن هذه المواقف ما رواه عبدالواحد المراكشي[4] أيضا أن يوسف بعد انتصار الزلاقة رغب في التجول في بلاد الأندلس للتنزه وهو يقصد غير ذلك، أي للاطلاع على شؤون الأندلس والناس، فتحقق له ذلك أي الاطلاع على أحوال

---

(١) يسر حسوا فى ارتغاء: مثل عربي مشهور يضرب لمن يريك أنه يعينك، وإنما يجر النفع إلى نفسه.

انظر: الميداني: مجمع الأمثال، ج ١، ص ٤١٧

(٢) انظر: الاكتفاء، ص ٩٤

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٠٢

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٩٤

البلاد. وكان في كل ذلك يظهر إجلال المعتمد وتأييده واعترافه بفضله، وأنه أي يوسف رهن إشارته. ويبدو لنا هذا مستحيلا، إذا علمنا بأن يوسف قد اضطر إلى الإنسحاب إلى المغرب مباشرة بعد معركة الزلاقة فاتجه إلى إشبيلية فبقي فيها ثلاثة أيام ثم توجه نحو الجزيرة الخضراء ومنها إلى المغرب.[١]

وعلى نفس نغمة عبدالواحد المراكشي أي نغمة إعجاب يوسف بالأندلس ومناظرها وخيراتها، ورغبته في امتلاكها على نفس هذه النغمة يضرب المستشرق الفرنسي ل. أ. سيديو.[٢]عندما يقول: بأن يوسف طمع في تملك الأندلس التي أعجبته خيراتها ومناظرها. وأن أهل الأندلس عندما شعروا بنياته الخفية، فكروا في إحباط ما رمى إليه.

وفي الحقيقة أن هذه المواقف التشكيكية لا يمكن الاعتداد بها، ويكفي أن نشير للاستدلال على وجهة نظرنا إلى تلك الرسالة[٣] التي بعثها يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس أمير أفريقية يشرح له ما حدث قبل وأثناء وبعد معركة الزلاقة من أحداث بالتفصيل فهي تدل دلالة واضحة على سلامة موقف الأندلسيين، وموقف المعتمد بالذات ـ على الأقل في تلك الفترة فقط ـ.

كما أن من النقاط التي صرفنا النظر عن الاهتمام بها هي المبالغة الممقوتة من جانب المؤرخين المسلمين في تقديراتهم الخاطئة لعدد المشتركين في القتال من النصارى، وفي عدد القتلى وعدد الناجين أيضا. وهي تقديرات لا تمثل الحقيقة كثيرا، فكل ما يمكن أن نستخلصه من تلك الروايات المختلفة أن عدد الجيش النصراني كان يفوق بلا شك عدد الجيش الإسلامي أندلسيين ومرابطين. وعلى

---

(١) انظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٨٩

(٢) انظر: تاريخ العرب العام امبراطورية العرب، وحضارتهم، ومدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية ص ٢٨٥.

(٣) انظر نص رسالة يوسف لأمير أفريقية المنقولة من مخطوط رقم ٤٤٨ الغزيرى بمكتبة الأسكوريال التي أوردها محمد عبدالله عنان في كتابه: دول الطوائف، ص ٤٤٧-٤٤٩.

هذا فنحن نستبعد ما أوردته الروايات الإسلامية من أرقام مبالغ فيها.(١) حتى ما جاء في رسالة يوسف لأمير أفريقية السابقة لا نستطيع أن نتقبلها بسهولة. إذ تقول الرسالة إن عدد الذين نجوا من النصارى بعد المعركة واستطاعوا الفرار بما فيهم الفونسو نفسه وحاشيته لا يزيد عن ألفي فارس، لا نستطيع قبول هذه الرواية، إذا علمنا بأن أقل تقديرات المؤرخين عن عدد جيش النصارى تصل إلى ثمانية وأربعين ألف فارس، بل إن بعض الروايات تجعل عدد الناجين من المعركة من النصارى لا يزيد عن عشرة فرسان فقط.

وأخيرا فإننا نقرر كما قلنا سابقا بأن معركة الزلاقة قد وقعت على الأرجح في يوم ١٢ رجب عام ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر عام ١٠٨٦م غاضين النظر عن الأقوال المتناقضة في هذه النقطة بالذات.(٢)

---

(١) تصل أقصى تلك التقديرات المبالغ فيها حدا وصلت به رواية صاحب الحلل الموشية أن عدد القتلى ٣٠٠ ألف فارس، أما بقية التقديرات الأخرى فتعددت، فمنها ما يقدر عدد جيش النصارى ٢٨٠ ألف فارس، ورواية أخرى تقول إن عدد الجيش النصراني ٦٠ ألف فارس، في حين قالت رواية أخرى ١٥٠ ألف فارس، أما عدد الفارين فتصل رواية الحميري بهم إلى تسعة أشخاص فقط، وبعض الروايات الأخرى تصل بهم إلى مائة فارس والبعض الآخر إلى ٥٠٠ فارس.

وهكذا فهي تقديرات مبالغ فيها لا يمكن قبولها.

انظر: مجهول: الحلل الموشية، ص ٤٩، وص ٥٠. الحميري: المصدر السابق، ص ٨٨. ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ١٥٣-١٥٤. محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة، ص ٢٨٥-٢٨٦. ودول الطوائف، ص ٣٢٥-٣٢٨، وص ٤٤٩

(٢) اختلف المؤرخون أيضا في تحديد السنة والشهر اللذين وقعت فيهما معركة الزلاقة، فبصرف النظر عن رواية النويري كما جاء في كتاب حسن محمود: قيام دولة المرابطين، التي تؤرخ لمعركة الزلاقة بأنها وقعت في عام ٤٧٧هـ. وبغض النظر عن رواية ابن خلدون وابن الكردبوس اللذين يجعلان تاريخ وقوعها عام ٤٨١هـ، فإن الثابت أنها وقعت في عام ٤٧٩هـ، وفي ١٢ من شهر رجب منها. أما بعض الروايات الأخرى كرواية ابن الأثير وعبدالواحد المراكشي فتجعل وقوعها في شهر رمضان من نفس السنة، في حين كانت رواية علي بن أبي زرع صاحب روض القرطاس هي الرواية العربية الصحيحة والدقيقة التي حددت تاريخ المعركة حتى بالتوقيت العجمي (الميلادي).

نتـائج موقعة الزلاقـة:

نكاد نجزم بأن معركة الزلاقة ـ على عظم أهميتها ـ لا يمكن وبنظرة موضوعية فاحصة لسير الحوادث في الأندلس في تلك الفترة أن نستخلص منها وحدها (أي المعـركـة) النتائج والآثار البعيدة المدى التي تركت بصماتها لردح من الزمن على الصعيدين، الإسـلامي والنصراني معـا. فالنظرة التاريخية الموضوعية للأحداث تجعلنا نقرر في أن قوة المرابطين الفتية وحماسهم للجهاد منذ أن قامت دعوتهم في غربي أفريقية كان هو العامل الرئيسي في تحقيق هذا الانتصار الحاسم على النصرانية في موقعة الزلاقة، وهو الانتصار الذي مدّ في عمرالوجود الإسلامي في الأندلس بمعنى أنه وكما أشرنا سابقا أن التدخل المرابطي ترتبت عليه نتيجة مهمة توازى في أهميتها جميع ما ترتب على موقعة الزلاقة من آثار. هذه النتيجة هي الفسحة الطويلة من الزمن التي بلغت أربعة قرون في عمر الوجود الإسلامي في الأندلس، فبقاء الوجود الإسلامي لأربعة قرون أخرى كان نتيجة مباشرة كما يتراءى لنا للتدخل المـرابـطي. ونـردد بهذه المنـاسبة مع القائلين بأننا لا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق ما الـذي كانت ستؤول إليه الأمور لو لم تتح للأندلسيين سانحة قدوم المرابطين؟؟. ولكن ما نستطيع إقراره هو أن التدخل المرابطي قد أنقذ الأندلس وقتها من خطر السقوط، فكان تدخلهم في الوقت المطلوب سببا أساسيا في شل تقدم حركة الاسترداد المسيحي وتعطيل مسيرتها.(١)

وبعد هذا إذا ذهبنا نتقصى ما ترتب على معركة الزلاقة من نتائج وآثار بعيدة،

= انظر: ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٩٨، وح١، ص ٩٢. عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٩٣-١٩٤. ابن خلدون: المصدر السابق، مجلد٦، ص ٣٨١. ابن خلكان: المصدر السابق، (فيما ينقله عنه المقرى في ج٦، ص ٩٤-٩٥، وص ١٠٠-١٠١) الحميري: المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤. ابن الأبار: المصدر السابق، ص ٩٨-١٠٠. ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٥٣. علي بن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٩٦. حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٨١. محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٢٣.

(١) عبدالحق حموش: المرجع السابق، ص ٦٨.

فإننا سنشعر بالغبطة لتلك النتائج. فلقد صححت المعركة في الواقع خللا حدث في توازن القوى في شبه الجزيرة الأيبيرية. فبانتصار الزلاقة عاد لشبه الجزيرة توازن القوى - وإن لم يعمر طويلا -(١) وزالت - على الأقل وقتها - فكرة قشتالة التي لا تقهر. وتبين للمسلمين في الأندلس آنذاك أنه بحد أدنى من الترابط والتآلف والوحدة يمكن لهم الوقوف في وجه المؤامرات والمواجهات النصرانية الخطرة. وبنفس أهمية هذه النتيجة وفي موازاتها كان انتصار الزلاقة انتصارا للكرامة والعزة الأندلسية، وعادت للأندلسيين الثقة بأنفسهم. وارتفعت روحهم المعنوية.(٢) وتخلصوا في ذروة الانتشاء بالانتصار من الآثار النفسية المتردية التي كانوا عليها قبل المعركة. وعاد لأسبانيا المسلمة وقتها شعاع هائل من روح الثقة والأمل، وهبت فيها روح العزيمة والإصرار والثقة - وإن كان هذا لم يعمر طويلا أيضا للأسف -.

أما بالنسبة لأسبانيا النصرانية فقد تركت تلك المعركة بما ترتب عليها من نتائج بصماتها على الفكر والنفسية النصرانية. فالواقع أنه لم يكتب لحالة الشعور باليأس والأسى اللتين ترتبتا على هزيمة النصارى أن يستمر طويلا. صحيح أن المعركة قلبت الموازين وعطّلت حركة الاسترداد التي سار بها ألفونسو إلى الأوج. وأصيب النصارى بحالة من الذهول والتفجع، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا - والتبعة في هذا تقع على الأندلسيين بالذات - فهبّ النصارى من عثارهم يجمعون القوى من جديد وأدت فورة المرابطين المتأججة بالحماسة الدينية إلى رد فعل نصراني موازٍ لها في القوة، فحل الإصرار والعزيمة على تدارك الأمور بسرعة مكان الذهول والأسى. وأذكت الكنيسة المسيحية في غربي أوروبا شعور النصارى بأن ما حدث لا يعدو أن يكون نكسة مؤقتة، واندفعت تحثهم على تجاوز هذه النكسة والعمل بسرعة على صد شعور اليأس والذهول وإحلال الحماس الديني والقومي مكانه استعدادا للقاء آخر. فالكنيسة اعتبرت الموقعة صفحة من صفحات الحروب

---

(١) صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي، ص ٢٦٠

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٨٥.

الصليبية ظللها العثار والتخبط. ولذا فلا بد من طي هذه الصفحة سريعا. والاستعداد لصفحة أخرى مشرقة.(١)

أما على الصعيد المرابطي فقد تركت هذه الموقعة أكثر من أثر ونتيجة فبادىء ذي بدء قررت هذه المعركة ابتداء من ذلك الوقت ارتباط الأندلس بالفلك المغربي. فأصبحت لأكثر من قرن ونصف تدور حوله، وتقتدي بهداه. وأصبحت العدوتان تكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش في عهدي المرابطين والموحدين بعدهم.(٢) ويأتي بعد ذلك النتيجة المهمة الثانية التي جعلت من المرابطين الأمل والمنقذ والمعين بعد الله. فقد زاد انتصار الزلاقة من تعلق قلوب الأندلسيين بالمرابطين وسما هذا الحب لهم، والإعجاب بهم إلى الذروة. والتفت حولهم قلوب المسلمين من الطبقات العامة والوسطى. وكان يذكي هذا الشعور ويؤججه الفقهاء الذين أوحوا للناس - حتى ولو لم يكونوا في حاجة إلى ذلك - أن المرابطين هم أملهم الوحيد بعد الله، وهم المنقذين لهم من عسف وجُور وظلم وتقاعس ملوكهم وأمرائهم.(٣) وتحقق لديهم هذا الشعور ورسخ عندما طالب يوسف بن تاشفين الملوك بعد الموقعة برفع المكوس والضرائب عن كاهل السكان والتخفيف عنهم. فأشرابت النفوس حبه هو وصحبه. ولم يعارض هذا الشعور الفياض بالمحبة والإعجاب والتقدير إلا بعض المتزلقين والنفعيين من الأدباء والشعراء والوزراء الذين خشوا على مكاسبهم من أن تتعرض للخطر. وعمّ الشعور بالإعجاب والثناء للمرابطين ويوسف بن تاشفين بالذات بقية أنحاء العالم الإسلامي، حيث بلغت أصداء المعركة أسماع المسلمين في المشرق. فأثنى عليه كثير من الفقهاء والأدباء والمفكرين واعتبروه القائد الإسلامي الحكيم المثالي الذي تتمثل فيه معظم صفات الحاكم الإسلامي الحقيقي.(٤)

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٨٦. محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٣) حسن محمود: نفس المرجع أعلاه. ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٤) نفس المرجع أعلاه، ص ٢٨٤.

وأخيرا فقد أسهمت هذه المعركة في رفع شأن يوسف بن تاشفين في المغرب ذاته، وساعدت على حل جميع مشكلاته الداخلية، فاستكانت له القبائل الثائرة، وخشي كثير من الحاقدين عليه أن يعرضوا له بعد أن أحاطت به هالات المجد والفخار بوصفه علما من أعلام الجهاد.[1]

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٨٥.

قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بني عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف

الموقف السياسي بعد معركة الزلاقة:

لم تكن معركة الزلاقة رغم الانتصار الباهر الذي حقّقه المسلمون فيها معركة حاسمة قاطعة، فهي قد وضعت العلاج للمشكلة ولكنها لم تستمر في تقديمه أو بمعنى آخر هي قد عرفت الداء ولكنها لم تعالجه بكل الدواء ولذلك فقد جاء ذلك الانتصار ناقصا مبتورا، حتى لقد بدا بعد بضعة شهور من انتصار الزلاقة وكأن الأمور قد عادت إلى ما كانت عليه سابقا، فلا أثر مادي لذلك الانتصار لا على الصعيد الإسـلامي ولا على الصعيد النصراني. فعلى الصعيد الإسلامي عادت الأمور لما كانت عليه سابقا من التفكك والانحلال والانصراف إلى ما تعطّل من حياة العبث والمجون. واتضح لكل ذي بصيرة أن الأندلسيين قد استمرأوا ذلك التفكك ونسوا في غمار ذلك الاهتمام الإقليمي الضيق أو تناسوا بمعنى أوضح بأن وحدة الأندلس لم تكن شيئا من مخلفات الماضي غير ذات قيمة وتلاشت من أفكارهم أي فكرة أو طردوا منها بالأحرى أي فكرة تهدف إلى الحفاظ على الوطن والحفاظ على وحدته، بأي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد ـ على الأقل في تلك الظروف الحرجة التي اشتدت فيها الحملة النصرانية الشرسة ـ وبات الوطن في نظر أولئك الملوك لا يتعدى تلك الرقعة الصغيرة التي يضعون أيديهم عليها، وتلك التي سعوا إلى توسيعها مع الزمن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة. أما أن يتبادر إلى أذهـانهم أن العدو لا يفرق بينهم ولا يستثنى أحدا، أما أن يفكروا بأنهم ليسوا قادرين على تحمـل عبء القتـال والـدفـاع عن وجودهم بتلك النظرة والسياسة الإقليمية الضيقـة، أما أن يتبادر إلى أذهانهم بأن الوحدة ولا شيء غيرها المنفذ الوحيد من الخطر الماثل، أما كل هذا فقد نسوه أو تناسوه مدفوعين في ذلك برغبات

ذاتية آنية ضيقـة ليست من الدين والقومية والوطنية في شيء إطلاقا[1]. بل إننا افتقـدنـا ذلـك الموقف الرسمي الموحد الذي ظهر على المسرح السياسي في إبان اشتـداد حركة الاسترداد المسيحي في عهد فرديناند الأول ـ حتي وإن كان ذلك الموقف لم يخرج عن حدود الاستنكار والشجب والتنديد ـ ولم نجد مثلا من يبادر إلى عقد إجتماع تطرح فيه سلبيات وإيجابيات ما حدث قبل وأثناء وبعد موقعة الزلاقة، إذ كان حريا بهم عقد هذا الإجتماع لتدارس الأمر لا سيما وأن المرابطين قد أفسحوا المجال أمامهم لاتخاذ ما يرونه من تدابير وبدائل عسكرية وسياسية أخرى. بل إن المرابطين أرهقوا أنفسهم بالاستعجال بالعودة إلى المغرب تاركين بعض الحاميات لمساعدتهم وشد أزرهم. فعلوا ذلك لتطمين أولئك الملوك من أن تتبادر إلى أذهانهم وساوس أو أي نيات سيئة تجيش بها صدور المغرضين.[2] وعندما انتهت المعركة أصر يوسف بن تاشفين على مغادرة الأندلس سراعا[3] خوفا من أن يفسر تباطؤه في العودة بتفسيرات سيئة ـ وقد كان ـ[4] والشيء الوحيد الذي أصر عليه يوسف بن تاشفـين ومن منظور إسلامي بحت هو الرغبة في نبذ الخلافات والفرقة ونسيان الأحقاد والأضغان لا تناسيها فقط، وتوحيد الكلمة وجمع الصفوف.[5] ولكن من يسمع ومن يعقل؟؟. حتى لو وجد المدرك لخطورة ذلك الموقف ولصدق وجهة نظر يوسف بن تاشفين وغيره من الداعين إلى الوحدة والتجمع. حتى هذا خشي من ذلـك المد أن يؤثر في مكاسبه وامتيازاته.[6] نقول إنه كان حريا بهم أن يجتمعوا للبحث عن أحداث تلك الفترة العصيبة ولكنهم لم يعوا الدرس أبدا. لأن ذلك

---

(١) للاطلاع على مزيد من هذه المواقف المؤسية انظر: علي حبيبة مع المسلمين في الأندلس، ص ٢٣١ـ٢٤٠، وص ٢٥٢ـ٢٥٦

(٢) عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٩٨

(٣) انظر الحميري: المصدر السابق، ص ٩٤

(٤) انـظر عبدالواحـد المـراكشي: المصـدر السـابق، ص ١٩٤ وما بعدها. وانظر أيضا، عبدالكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ص ٢٩٩ـ٣٠٠

(٥) عبدالله بن زيري: المصدر السابق، ص ١٠٦

(٦) على حبيبة: المرجع السابق، ص ٣٣٨.

كان في نظرهم يعد تفريطا في المكاسب والامتيازات رغم أن الكل خاسر. صحيح أن هذا التباين والتناقض في المواقف والسياسة جاء وليد واقع اجتماعي مفكك إلى طوائف وأجناس وأعراق وأديان مختلفة. [١] لكن المحنة الواحدة تسمو بالخلافات وتترفع عن الصغائر والإحن العرقية والطبقية والمذهبية. والمحن توحد القلوب والمواقف. وهذه خاصية من أبرز خصائص التاريخ البشري عموما وهي عند العرب والمسلمين أظهر وأبرز.

نعم نحن لا نظلم ملوك الطوائف، فقد اجتمعت كلمتهم لأول مرة في معركة الزلاقة، ولكن ما نؤاخذهم عليه هو عدم استغلال تلك الفرصة التي توحدوا فيها لأول مرة. فما إن انتهت الزلاقة حتى عادوا سيرتهم الأولى.

ولذا فإننا نعتبر نتائج انتصار الزلاقة المادية نتائج آنية فقط فيما يخص الأندلسيين بغض النظر عن الآراء التي تجعل فضل بقاء الوجود الإسلامي في الأندلس أربعة قرون أخرى نتيجة رئيسية لمعركة الزلاقة. [٢] نقول بغض النظر عن هذا فالحقيقة أن رغبة المرابطين في التدخل في الأندلس رغبة واحتسابا، واستدعاء الأندلسيين للمرابطين الذي جاء متوافقا مع تلك الرغبة يعتبر في حد ذاته نتيجة لاشتداد حركة الاسترداد المسيحي والتي وافقت في نفس الوقت تأجج روح الجهاد لدى المرابطين منذ قيام دولتهم. وليس نتيجة فورية لمعركة الزلاقة. ولا نتصور بأنه لو لم ينتصر المسلمون في معركة الزلاقة لكان المرابطون قد انسحبوا مؤثرين السلامة وتركوا الأندلس لمصيرها المظلم. لا نتصور أن هذا كان سيحدث. فالمرابطون كان يحركهم في تدخلهم في الأندلس هدف وروح جهادية عارمة لا يعطل سيرها ولا يوقف امتدادها الهزيمة في معركة أو في معركتين. إننا نعتقد أن الهزيمة لو وقعت سوف لن تثنيهم عن هدفهم الاستراتيجي القاضي إلى إبقاء الوجود الإسلامي في الأندلس. وبالتالي حماية الجناح الشمالي للدولة المرابطية من خطر النصارى. [٣] ولا

---

(١) انظر قبل التمهيد، ص ٤٨ ـ ٥٤ .

(٢) من الذين تبنوا هذا الرأى كثير نذكر منهم على سبيل المثال:

ـ محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة، ص ٢٩٠-٢٩٢ . عبد الكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ص ٢٩٨ .

(٣) محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص٢٥-٣٠.

سيما وقد رأينا ألفونسو السادس يصل بقواته حتى جزيرة طريف على الساحل الأندلسي المقابلة للساحل المغربي وبعث من هناك برسالة ليوسف بن تاشفين يهدده فيها ويتوعده. إننا نعتقد أن المرابطين كانوا مستعدين من أجل ذلك إلى خوض معركة أو عدة معارك لا تهمهم نتيجتها بقدرما يهمهم الوصول أخيرا إلى تحقيق الهدف الاستراتيجي الذي اتضح لهم وقتها.

أما لماذا لم يجعل المرابطون من موقعة الزلاقة موقعة حاسمة؟؟ وهم القادرون لو شاءوا ـ فإن الأمر يقتضي أن نشير إلى أنهم ربما قد فكروا باديء ذي بدء أن يتركوا قضية الوطن الجريح لملوك الطوائف، لعلهم يكونوا قد تعلموا من الدرس القاسي الذي مرّ بهم. لا ندعى أن هذه هي سياسة المرابطين في تلك الفترة. ولكننا نخمّن أن يوسف بن تاشفين فضل أن يكون منقذا وقت الشدة فقط أو بمعنى آخر، يجوز أن المرابطين آثروا أن تكون المواجهة بين ملوك الطوائف الذين سيتحملون بالضرورة مسؤولياتهم، وبين النصارى باعتبارهم، أي ملوك الطوائف هم أصحاب الأرض والحق، ويكونون هم وراءهم يمدونهم بالتأييد السياسي والعسكري والبشري أيضا. ذلك لأنه حتى تلك اللحظة لم يدر في خلد المرابطين أن ملوك الطوائف سيتقاعسون عن إنقاذ الوطن، كما لم يدر بخلدهم أن يبادر أولئك الملوك إلى خيانة قضيتهم الأولى وطعنها وطعن حلفائهم المرابطين في الظهر بطلب المعونة من النصارى.(1) لذا فإننا قد نخمنّ بأن المرابطين شاءوا أن يكونوا ردفاء للأندلسيين لا نوابا عنهم في مقاتلة النصارى. ويبدو لنا أن هذا الهدف كان استراتيجيا في تفكير المرابطين ثم جاءت بعد ذلك عوامل أخرى، وجدّت ظروف أخرى جعلت المرابطين يتوقفون عند ذلك الحد من الانتصار الذي حققوه في موقعة الزلاقة. من تلك العوامل أن المرابطين كانوا حريصين على تنفيذ الاتفاق الذي بموجبه جازوا إلى الأندلس وهي الشروط المحددة التي اشترطها ملوك الطوائف للسماح للمرابطين بالجواز إلى الأندلس والتي أشرنا إليها

---

(1) انظر بعد، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

سابقا. (١) والشيء الآخر أنه لا يمكن أن يثق يوسف بن تاشفين ثقة عمياء بملوك الطوائف وهو الذي يعلم علما أكيدا بأنهم لولا الحاجة الاضطرارية الفائقة له لما طلبوا منه المساعدة. وصحيح أننا قلنا إنه في إبان معركة الزلاقة كانت نيات ملوك الطوائف صادقة مخلصة لله، ثم لعباده. ولكن من يستطيع أن يضمن ليوسف بن تاشفين أن ذلك الموقف الموحد الذي اضطروا إليه اضطرارا سوف يستمر ويمتد أجله؟؟ أما الشيء الثالث الذي يجب أن لا يغيب عن بالنا من تلك العوامل فهو أن المرابطين لهم التزاماتهم ذات أولوية تجاه مملكتهم في المغرب وهي التزامات مهمة جدا لا يمكن أن تنسيهم إياها التزاماتهم الجديدة في الأندلس. بل إنه قد حدثت دواعٍ واعتبارات مغربية في تلك الفترة بالذات أي بعد موقعة الزلاقة، فرضت على يوسف أن يعود سريعا إلى بلاده. هذه الدواعي والاعتبارات هي وفاة ابن عمه أبي بكر بن عمر أمير المرابطين السابق على الأرجح. (٢) فاضطر إلى القفول مباشرة إلى المغرب ليأخذ البيعة لنفسه تحسبا لأي حادث يبادر فيه بعض أمراء المرابطين لاغتصاب الإمارة مستغلا غيبة يوسف بن تاشفين وانشغاله بحركة الجهاد. (٣) ونعتقد جازمين بأنه ليس في هذا الموقف ما يسبب الخجل ليوسف بن تاشفين أو

---

(١) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠٣. ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ٩٨-٩٩. عبدالواحد المراكشي المصدر السابق ص ١٩٨.

(٢) تخبط للأسف بعض من المؤرخين القدامى في تفسير استعجال يوسف بن تاشفين للذهاب للمغرب بعد أن بلغته أخبار وفاة ابن عمه أبي بكر بن عمر. فأكثر الروايات القديمة وتبعهم بعض المحدثين تقول إنه رجع إلى بلاده عندما بلغه خبر وفاة ابنه أبي بكر، فيما يقول البعض الآخر إن السبب في رجوعه هو استياؤه من الأحوال التي رأى عليها ملوك وأمراء الطوائف. ولكن كل من هذين التفسيرين لا يبدو مقنعا. ولكن التفسير الصحيح لذلك هو وفاة ابن عمه أبي بكر ابن عمر عام ٤٨٠هـ، كما أشار إلى ذلك حسن محمود، وأحمد مختار العبادي في تحقيقه لكتاب الاكتفاء.

انظر: حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٨٦-٢٨٨. ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح ٨، ص ٩٥.

(٣) حسن محمود : نفس المرجع، ص ٢٨٧.

يقدح في موقفه إطلاقا سواء أكان ذلك لتركه ساحة المعركة، أو لإسراعه إلى المغرب.

ويؤسف المرء أن يجد لدى بعض المؤرخين القدامى مواقف تشكيكية استخلصوها من تباين وجهات نظر كل من يوسف بن تاشفين والمعتمد بعد معركة الزلاقة، فالحميري يقول في معرض وصفه لمعركة الزلاقة: (ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرص على اتباع الطاغية وقطع دابره، فأتى ابن تاشفين واعتذر بأن قال: لو اتبعناه اليوم لقى في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين، فيهلكهم بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ويحتموا بنا ثم نرجع إليه فنحسم داءه. وابن عباد يرغب في استعجال إهلاكه ويقول إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه. ويوسف مُصِرّ على الامتناع من ذلك، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوى على شيء وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة. وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين، فقال شيع بن عباد: لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الصواب والرأى في معالجته، ولكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه، فيقع الاستغناء عنه، وقالت شيع يوسف: إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العودة إلى جزيرة الأندلس)(١). ويبدو أن هذا القول غير مقنع ولا موضوعي أيضا، فحتى تلك اللحظة لم نجد بوادر سوء تفاهم أو خلاف بين المعتمد ويوسف. بل إن يوسف أشاد في رسالته التي بعثها للمعز بن باديس المشار إليها سابقا، بالمعتمد وأثني عليه وشكره على كرمه الفائق وموقفه الإسلامى هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى هل كان المعتمد بتلك السذاجة التي يعتقدها البعض من أن تتبع ألفونسو وقتله ـ إن حدث ـ هل كان سيقضى على حركة الاسترداد التي شنها النصارى من عهد فرديناند الأول منهاجا ودستور حياة؟؟. قد يقتل ألفونسو، وقد يؤثر ذلك على حركة الاسترداد نفسها. ولكن لن تقف حركة الاسترداد أبدا، فهناك عدة ممالك نصرانية عدا قشتالة وليون وجليقية

---

(١) انظر الروض المعطار، ص٩٣ ـ ٩٤.

تتحرق شوقا إلى شن حملات الاسترداد كمملكة نبرة وأرغونة وبرشلونة. كما أن الطابع الصليبي الذي اتخذته موقعة الزلاقة سوف يذكي تلك الحركة ويؤججها، (١) وسوف تدفع هذه العوامل خلفاء ألفونسو نحو مواصلة سياسته تلك. لا نجد تفسيرا واقعياً لرغبة المعتمد في المتابعة سوى الرغبة الجامحة في استغلال تلك الوحدة التي تحققت في الإجهاز على العدو لإنهاكه على الأقل أو لتعطيل حركة الاسترداد إلى أمد يستطيع فيه المسلمون أن يحققوا شأوا بعيدا. أما إذا نظرنا إلى المسألة من ناحية إصرار يوسف على عدم المتابعة، فإننا نرى أن ذلك التفسير الذي استخلصه المؤرخون تبسيطا ساذجا للأمور، وتحليلا سطحيا خاليا من الموضوعية والمنطق. فيوسف لديه أكثر من سبب وسبب لعدم المتابعة. هي التي ذكرناها سابقا، فضلا عما عرف عن يوسف دائما من التحوط والحذر. فهل كان يسمح في لحظة فرح عاطفي متأجج بتحمل مغبة التورط في لقاء آخر مع النصارى وداخل أراضيهم هذه المرة؟؟.

وعلى أية حال فقد انصرف يوسف إلى المغرب مشيعا من قبل المعتمد وغيره من ملوك الطوائف بالاحترام والثناء. (٢) وطلب من ملوك الطوائف أو طلبوا منه هم ذلك - لا فرق - أن تظل بعض القوات المرابطية في الأندلس للمساعدة على رد عاديات النصارى. وإرهابهم في نفس الوقت. لا لشيء آخر رغم ما تذهب إليه استنتاجات عبدالواحد المراكشي. (٣)

ترى لو لم يضع يوسف تلك الاعتبارات في مخيلته، ولو لم تأت الأخبار من المغرب التي أزعجته إلى هناك بسرعة، هل كان يكتب بعد المشيئة الإلهية لموقعة الزلاقة أن تكون حاسمة؟؟. نعم قد نخمن هذا، ولكن جاءت تلك الظروف وأملت عليه تلك الاعتبارات أن يكتفى بذلك القدر من الانتصار، فجاء نصر الزلاقة ناقصا ومبتورا.

---

(١) حسن محمود، المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٢) الحميرى: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٣) انظر المعجب، ص ١٩٩-٢٠١

الموقف العسكري بعد معركة الزلاقة:

قلنا إن الأمور عادت إلى ما كانت عليه قبل موقعة الزلاقة، وانصرف كل أمير إلى الاهتمام بقضاياه الإقليمية فقط، وانعكس انسحاب المرابطين على الموقف العسكري المسيحي، فألفونسو الذي كان قد خاطب أمراء النصارى والقوى النصرانية في أوروبا يناشدهم المساعدة الفورية عقب هزيمته في معركة الزلاقة، فقدم عليه من فرنسا كل من دوق برجنديا ولانجدوك وبعض فرسان مقاطعة نورماندى. رأى بعد انسحاب المرابطين أن يصرفهم إلى بلادهم إذ ليس ثمة ما يدعو إلى وجودهم بعد هذا. ولكن هؤلاء فضلوا القيام باستعراض للقوى النصرانية الصليبية. فارتدوا إلى أنحاء نهر الأبرو شمالا وتوقفوا عنده. (١) وساعدوا من هناك سانشوراميرز ملك أرغونة في حربه مع ابن هود ملك سرقسطه. وتعرضت مدن مملكة بني هود:تطيلة، ووشقة، وطرطوشة إلى عبث هؤلاء وتخريبهم. (٢) وانصرف ألفونسو إلى تركيز هجماته وطلعاته العسكرية المتعددة، فهاجم أراضي المسلمين حتى وصل إلى إشبيلية فعاث فى أراضيها. وظهر في الأفق خطر نصراني ماحق جاء هذه المرة من حصن لييط الذي كنا قد أشرنا إليه سابقا فقد بنى ألفونسو هذا الحصن عقب استيلائه على طليطلة في منطقة تقع بين مرسية ولورقة على رأس جبل شاهق، وشحن وزود بالسلاح والعتاد وأسند ألفونسو قيادته إلى أحد فرسانه النبلاء وهو الكونت غرسيه خمينيس. (٣) واتخذ ألفونسو من هذا الحصن قاعدة للهجوم على أراضي المسلمين في مرسية ولورقة وعموم شرقي الأندلس. (٤) وكان في الواقع شوكة في حلق المسلمين تخرج منه الغزوات الخاطفة

---

(١) انظر حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٢) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٩٩، حسن محمود نفس المرجع، ص ٢٩٠.

(٣) : غرسيه خيمنيس: GARCIA GIMÉNEZ ، أحد قواد الملك ألفونسو السادس، وهو الذى احتل قلعة لييط من قبله. ومن هناك أخذ يشن الغارات على المدينة ونواحيها.
انظر: ابن الكردبوس: المصدر السابق، ح٤، ص١٠٠

(٤) : محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص٣٣٤.

مرة ناحية الشرق، ومرة أخرى ناحية الغرب تعيث وتفسد. [1] وتعرض شرق الأندلس ومدنه مرسية وشاطبة ودانية وغيرها من مدن الشرق إلى خطر صليبي حقيقي كان يشنه ويغذيه القائد القشتالي المشهور القمبيطور أو الكنبيطور أو القنبيطور[2] الذي كان قد انشق على سيده ألفونسو السادس من قبل، وبدأ يعرض خدماته على ملوك المسلمين وخاصة ملوك سرقسطة يحارب أعداءهم من المسلمين والنصارى على السواء. وعندما سحب ألفونسو جيشه وقائده البرهانس المذكور سابقا من بلنسية للاستعداد لمعركة الزلاقة، عرض القمبيطور خدماته على القادر بن ذي النون صاحبها الذي ملكّه إياها ألفونسو كما ذكرنا سابقا.

والواقع أنه لا يمكن أن يمر بنا ذكر القمبيطور أو السيد كما كان يطلق عليه دون أن نلم بنبذة قصيرة عن هذا الرجل الذى أفردت له كتب التاريخ والأدب والملاحم الأسبانية مكانا قلما حظى به مواطن أسباني حتى الآن. فقد قيل الكثير والكثير حول هذا الرجل، وحول سيرته وخاصة بغدما تحول إلى بطل أسطورى قومي عند الأسبان، رغم أن البحث العلمى الحديث قد أثبت أنه لم يكن يوما من الأيام بالفارس النبيل، وبالوطنى المجيد، بل ثبت أنه كان أفاقا متجولا فى الأندلس يقدم خدماته لمن يدفع له أكثر.

الاسم الحقيقى للقمبيطور أو السيد هو رودريجو دياز ديبيبار Rodrigo Diaz de Vivar . وكان أبوه فصلا [3] تابعا للملك فردناند الأول وقد ولد فى عام

---

(١) : محمد عبد الله غيان: نفس المرجع والصفحات.

(٢) : ابن الكردبوس: نفس المصدر السابق، ص٩٢ - مجهول: الحلل الموشية، ص٥٤ - ٥٥ .

(٣) : نشأ نظام الأفصال كنتيجة مباشرة لنشوء نظام الأقطاع فى أوروبا فى القرن الثامن الميلادى. وقد جاء نظام الأقطاع كحتمية ضرورية عسكرية وسياسية نشأت فى دولة الفرنجة عندما تعرضت فى ذلك الوقت لغارات الفيكنج والمسلمين والمجريين. ولذلك وجد الفرد العادى فى ظل تلك الأوضاع الأمنية المتدهورة نفسه أمام خيارين لتأمين السلامة لذاته: إما أن يكون عبد قن تكون حمايته من واجبات السيد، أو أن يصبح جنديا لدى الملوك والأمراء الذين ازدادت حاجتهم إلى الاتباع المسلحين آنذاك لدرجة ملحة شديدة. ونظام الأفصال يعنى بأبسط التفسيرات أن يسلم مالك الأرض ذات المساحة المحدودة أرضه لسيد أو نبيل قوى، ثم يعود =

٤٣٦هـ/١٠٤٥م، ودخل هو وابنه فى خدمة البيت المالك، والتحق الابن خاصة بسانشو الابن الأكبر لفرد يناند وأصبح تابعا له، ثم رسمه هذا فارسا عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م. وقد خاض رودريجو معاركه ضد شقيقيه غارسيا وراميرو ملكي نبرة وأرغونة، ثم حارب فى معية الجيش القشتالى الذى استنجد به المقتدر بن هود ملك سرقسطة ضد اعتداءات، راميرو الأول ملك أرغونة الذى قتل فى تلك المعركة.

وعندما توفى فردينانـد وقسمت مملكته بين أبنائه الثلاثة سانشو وألفونسو وغارسيا، وكذلك بين ابنتيه أوراكاوألبيرة كما قلنا سابقا قام نزاع بين الإخوة، واستطاع سانشو أن يستولى على مملكتي أخويه ألفونسو وغارسيا. ولعب رودريجو دورا رئيسيا فى المعركة التى انتصر فيها سانشو على أخيه الفونسو. وكان هذا أول نفوربين الرجلين. وقد كافأ سانشو ردريق بأن عينه القائد العام للجيش، فعلا صيته وتنامى مجده. ومن ذلك الحين أخذ لقب القمبيطور ـ الكنبيطور (الكمبيادور) يلصق به. وقد قيل الكثير حول معنى هذا اللقب، وكان يعتقد أنه يعنى الفارس البطل، ولكن التفسير الصحيح الذى استقرت عليه معظم الآراء للمستشرقين المهتمين بالدراسات الأسبانية تقول إن معناه القائد صاحب الغارات فى السهول والفحوص(١). وعندما قتل سانشو تحت أسوار سمورة قلعة أخته أوراكا، استدعى أشراف قشتالة وليون شقيقه ألفونسو من بلاط المأمون ليلى

= فيتسلمها منه كأقطاع، وبذلك يصبح فصلا أو تابعا أقطاعيا له. أو هو بمعنى آخر تعاقد بين السيد أو النبيل ومالك الأرض ذات المساحة المحدودة يقوم على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة.

أما حقوق السادة على أتباعهم (أفصالهم) فهى حقوق مالية واجتماعية وحربية. ملزمة تجب عليهم تأديتها والوفاء بها فى حدود مايقضى به العرف الأقطاعى. أما أهم الحقوق والالتزامات التى ألقاها النظام الأقطاعى على السيد فهى حماية أفصاله ورعايته وتحقيق العدالة لهم.

ويجب أن نلاحظ أخيرا أن نظام الأفصال يتخذ شكلا هرميا يأتى الملك فى قمته والفارس العادى فى أسفله.

انظر: سعيد عاشور: أوروبا فى العصور الوسطى، ج٢، ص٢٥٥ ـ ٢٦٨

(١) : عن الفحص انظر قبل، ح١، ص٢٣٥ .

العرش مكانه كما ذكرنا آنفا. ويحكى هنا الكثير عن بداية النفور والكراهية بين الرجلين، فردريق باعتباره القائد العام للجيش وأبرز كونتات الدولة ورجالاتها هو الذى استدعى بحكم العرف ألفونسو ليتولى عرش أخيه. وقد ارتأى ردريق هو والأشراف الآخرين أن يحلف ألفونسو قسما يعلن فيه براءته من مقتل أخيه. وتولى ردريق نفسه مهمة تلاوة القسم، وكان هذا مما أوغر صدر ألفونسو عليه. ولذا فما كاد يستقر فى عرشه عام ٤٦٢هـ/١٠٧٢م حتى عزل ردريق عن قيادة الجيش، وولى مكانه أحد الفرسان الآخرين المناوئين له وهو غرسيه أوردنيذ[١]. ولكنه مع هذا لم يصرفـه عن خدمته، بل ظل تابعا له ثم زوجه من إحدى فتيات الأسرة الحاكمة وهى قريبة ألفونسو وتدعى خمينا أو شمينا Jimena . وعندما بدأ ألفونسو يطالب بمملكة إشبيلية بالإتاوة باعتباره وارث حق أخيه غارسيا (الذى قبض عليه) فى أخذ الإتاوة من ملوك بنى عباد بعث برسل من جملتهم رودريجو (أورذريق) لأخذ الإتـاوة فبقوا هناك. وعندما ساءت العلاقات بين مملكتي إشبيلية وغرناطة على النحو الذى رأيناه سابقا تطلع عبد الله بن زيرى ملك غرناطه إلى طلب مساعدة ألفونسو وبعث له بجملة رسل من بينهم قائد الجيش العام غرسيه أوردنيذ عدو السيد ومنافسه. وحدث أن تلاقت كتائب إشبيلية وغرناطية فى تلك الفترة فخرج كلا من ردريق وغـرسيه لمسـاندة حليفى ألفونسو: المعتمد وعبد الله بن زيرى. وتلاقى الخصمان وجها لوجه لحساب المسلمين، وانتصر فى هذا اللقاء ردريق على خصمه غرسيه فقبض عليه، ولكنه أطلق سراحه فيما بعد. وقد ذهب القائد العام للجيش القشتـالى الليونى غرسيه أوردنيذ إلى ملكـه ألفـونسو وشكا له ماحدث فأغضبه ذلك. ويبدو أن مهمة ردريق (ردريجو) لم تكن محدودة بزمن معين، فقد مكث فى إشبيلية لدى المعتمد فترة، ثم عاد عام ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلى عاصمة ملكه، فأغلظ عليه ألفونسو وأنبه على ما فعل. على أنه لم يمض بعد ذلك وقت

---

(١) : غرسيه أوردنيذ Garcia Ordonez أو غارسيا ردونس قائـد قشتـالى من فرسان سانجه (الثانى) ملك ليون، ثم أصبح من أتباع ألفونسو السادس ملك قشتالة، وهو الذى يسمى فى المصادر العربية (غرسيه ذا الفم المنبوز أو الفم المعوج).

انظر: ابن القطان: المصدر السابق، ح١، ص٧ .

قصير حتى ضاق الفونسو من تابعه للاخطاء التى كان يرتكبها، فطرده ونفاه عن مملكته وكان نظام الافصال يحفظ للتابع المنفى حقوقه التى كانت له كاملة وخرج ردريق من قشتالة، واتجه نحو مملكة سرقسطة. وهناك تدخل فى نزاع الإخوة من أبناء سليمان المستعين ثم بين أحفادهم. وبدأت من تلك الفترة أسطورة السيد (الكمبيادور) بطل الملاحم والأساطير.

وكانت أحوال ممالك الطوائف وقتها تبعث على الأسى والحزن، فتدخل ردريق ليعمل لحساب هذا مرة ولحساب ذاك مرة أخرى، وحارب فى أحايين أخرى بنى قومه النصارى أمراء نبرة وأرغونة وبرشلونة. وغدا فى ذلك الوقت رجل شرقي الأندلس القوى يعيث هنا وهناك، ويعرض خدماته لمن يدفع له أكثر، واصبح حرا طليقا بعد انفصاله عن سيده ألفونسو ليعمل مايريد. واضطر حكام منطقة شرقي الأندلس إلى مداراته ومهادنته فى أحايين كثيرة.

وعندما أعلن أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية الفعلى استقلاله الكامل عن طليطلة فى أعقاب وفاة المأمون بن ذى النون تطلع أمراء سرقسطة إلى ضمها إلى مملكتهم. وأوحوا إلى قائدهم المرتزق ردريق بذلك، فبدأ يعد العدة لهذا، غير أن الأمور تطورت فى وسط الأندلس عن أحداث خطيرة أسفرت عن سقوط طليطلة وخروج يحيى القادر حفيد المأمون بن ذى النون كما ذكرنا سابقا(١). ثم رأينا ألفونسو يرضى القادر بتسهيل احتلاله لبلنسية التى أسلمت له قيادها بالفعل، ثم رأينا رد فعل سقوط طليطلة وهو استدعاء المرابطين، وما أدى إلى حشد الحشود، فاضطر ألفونسو إلى أن يستدعى قائده البرهانس لمشاركته الحرب ضد المسلمين. وهنا يعلن رودريجو عن خطته المفاجئة التى استغل فيها ذلك الظرف الدقيق، فاتفق مع المستعين ابن هود ملك سرقسطة على أن يهاجم بلنسية فى ذلك الوقت الذى كان فيه الفريقان: المسلم والنصرانى يستعدان لخوض معركتهما الفاصلة. وجرى الاتفاق أيضا أنه إذا استولى رودريجو (القمبيطور) على المدينة تكون الغنائم له، والمدينة ذاتها تكون من نصيب ابن هود. . وعندما أسفرت معركة الزلاقة عن

---

(١) : انظر قبل، ص ٢٦٠ ومابعدها.

انتصار المسلمين تيقظ الحس الوطنى عند رودريجو (السيد) وهو اللقب الذى أطلقه عليه المسلمون عندما كان فى سرقسطة. فبادر إلى سيده القديم فصالحه عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. وقد عهد إليه ألفونسو لخبرته الطويلة بمشاكسة منطقة شرقي الأندلس، وهى الأحداث التى عرضنا لها من قبل. ومن هنا فقد أخذت أعماله تستعيد الطابع الشرعى فى نظر النصارى بطبيعة الحال. ولكن روح المغامرة والانتهازية جعلته سرعان ما يتنكر لمليكه، فيعود ليعمل لحسابه الخاص. إذ مضى يعاود أعماله العدوانية فى أراضى المسلمين وشرقي الأندلس كلها، ولم يكتف بهذا بل هاجم الممالك النصرانية أيضا كمملكة برشلونة، وشدد ضغطه على إمارة بنى رزين، والبونت، ومربيطر وغيرها من الحصون، كما شدد من تضييقه على أهل بلنسية وإرهاقهم بطلب الإتاوة والهدايا والتحف، ووافقت هذه الأحداث الفترة التى أفاق فيها ألفونسو بعد معركة الزلاقة، وبعد انسحاب المرابطين إلى المغرب. فبدأ يستفيق من هول الفاجعة، وتنامى إلى سمعه مايحدث فى شرقي الأندلس فرغب أن يسبق رودريجو إليها، واستعان لهذا الغرض بقوات بحرية من جنوة وبيزا. ولكن ردريجو هاجم أراضي مملكة سيده أى قشتالة نفسها، فأضطر ألفونسو إلى العودة لبلاده.

وهكذا فقد غدا السيد القمبيطور يعمل لحسابه الخاص بعيدا عن مضايقات سيده ألفونسو، وبعيدا عن بنى هود الذين دهمتهم بعد موقعة الزلاقة القوات الفرنجية التى حشدها ألفونسو فى أعقاب المعركة كما ذكرنا سابقا(١)، والتى كانت قد توقفت عند سرقسطة بعد أن صرفها ألفونسو إلى بلادها.

كل هذه الأمور كانت تحدث والقادر الضعيف يترامى على أعتاب السيد القمبيطور الذي غدا بعد انشغال ألفونسو حاميه الوحيد. وكان السيد القمبيطور يشتط فى طلب الإتاوة، فقد طلب من القادر فى ذلك الوقت أن يعطيه مائة ألف مثقال من الذهب كضريبة سنوية، مما جعل الأهالى يضيقون بتلك الأوضاع الصعبة والحرجة حتى تدخل المرابطون تدخلهم الثانى فى شؤون الأندلس، وهو

---

(١) : انظر قبل، ص ٣١٥.

التدخل الذى آثرنا التحدث عنه بعد أن نلم بحياة السيد القمبيطور، وأعماله التى أفضت هى وأعمال ألفونسو العدوانية إلى التدخل المرابطى الذى سنتحدث عنه على التو[1].

(١) : هذا العرض عن السيد ونشاطه الذى بدأ فى قشتالة ووصل إلى أكثر أجزاء الأندلس، استخلصناه من الكتب والدوريات العربية والمعربة التى تحدثت عن السيد وحياته. ولعل أهم مايمكن الإشارة إليه من مراجع مهمة فى حياة السيد:
- ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، الفصل السادس ص١٦٦ - ١٩٧م. والفصل السابع ص٢٠٠ - ٢٣٦ - حسين مؤنس: السيد القمبيطور، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول، مايو ١٩٥٠م، ص٣٧ - ٨٧ - شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج٢ ٢٣٥ - ٢٣٦ مع الحواشى، ج٣، ص٥٠ - ٧٢ مع الحواشى.

الجواز الثاني للمرابطين إلى الأندلس وبداية الوحشة والنفور بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف

رسمنا في حديثنا عن الموقف العسكري بعد معركة الزلاقة ملامح عدة عن الحالة الضنكة التي عانى منها المسلمون في شرق الأندلس بعد الموقعة مباشرة، ورأينا كيف أنه تعرض لعدوان نصراني صليبي مباشر من ألفونسو، ومن ناحية حصن لييط، ومن السيد القمبيطور وإذا كان غرب الأندلس قد ارتاح وقتها من غزوات النصارى واعتداءاتهم بفضل وجود الحامية المرابطية التي تركها يوسف بقيادة ابن عمه الأمير سير بن أبي بكر لتساعد الأندلسيين في حروبهم مع النصارى هناك،[1] فإن شرق الأندلس بالذات كان يعاني من ضغط النصارى وهجومهم المركز. ولقد كانت صورة الوضع في شرق الأندلس تبدو آنذاك قاتمة حالكة، فالتفتت الإسلامي هنا أوضح وأوكد. إذ كان شرق الأندلس بالذات يموج بعدة إمارات صغيرة، كشاطبة، وشقورة ولورقة، وطرطوشة، وغير ذلك؛ وهي إمارات ضعيفة تعجز إمكانياتها المادية والعسكرية من أن تقاوم ممالك الطوائف الكبرى المجاورة فضلا عن النصارى. وكانت هناك أيضا مملكة بلنسية صاحبة الحظ العاثر وقتها والتي كتب لها أن تكون هدفا لمطامع وتطلعات الطامحين في خيراتها من المسلمين والنصارى على السواء فلقد كانت بلنسية أشهى أماني المستعين بن هود، وهو من أجل الاستيلاء عليها لا يرى مانعا من الاستعانة حتى بالشيطان نفسه المتمثل بالسيد القمبيطور.[2] وهي في نفس الوقت هدفا للسيد القمبيطور نفسه الذي نصب ذاته حاميا وحيدا لها بعد أن سحب ألفونسو حاميته عنها عندما اقتضته

---

(١) انظر قبل، ص ٣٠٩

(٢) انظر قبل ص ٣١٩

دواعي الاستعداد لمعركة الزلاقة أن يفعل ذلك مضطرا؛ فرضي صاحبها القادر أو لِنقُلْ أُرغم على أن يكون السيد القمبيطور حاميه وحاميها معا.

وبالإضافة إلى هذه الأوضاع الدقيقة الحرجة فقد كان هناك النزاع بين المعتمد بن عباد وابن رشيق حاكم مرسية. وهو نزاع طويل وضع له يوسف بن تاشفين أخيرا حدا جاء لصالح المعتمد. ولمعرفة شيء عن هذا النزاع يحسن بنا أن نعود قليلا إلى الوراء عند حديثنا عن تمرد الوزير محمد بن عمار على ملكه المعتمد، إذ رأينا وقتها أن ابن رشيق الذي ساعد الوزير بن عمار على احتلال مدينة مرسية قد استغل فرصة غياب محمد بن عمار عن حماية المدينة للأسباب التي ذكرناها سابقا. واستغل أيضا من قبل تقاعس ابن عمار عن حماية استقلاله بالمدينة وافتقاره إلى مواصفات رجل الدولة أو مواصفات القيادة. استغل ابن رشيق هذا وأعلن استقلاله بالمدينة لحسابه الشخصي[1]. ولقد ساءت العلاقات بين المعتمد وابن رشيق، فالمعتمد كان يشعر وهو على حق أن المدينة فتحت باسمه وبجيشه، وهي لذلك تعتبر حقا من حقوقه أو جزءاً من مملكته، وابن رشيق يرى غير ذلك ويرى نفسه أنه أحق من المعتمد بالمدينة. وما الذي يميز غيره من المنتزين والمتسلطين عنه؟؟. لا شيء في رأيه اللهم إلا التفاوت الزمني. ولذا فقد استقل بالمدينة وأعلن للملأ أن أهلها قد اختاروه حاكما لها، بل إنه أعلن أن المعتمد لم يقدمه على مرسية وإنما الذي قدمه عليها هو ابن عمار.[2] وبدهي أن تسود حالة من الفتور والنفور علاقة المعتمد بابن رشيق. وجاء ضغط الأحداث وما أفضى إليه من سقوط طليطلة، فتدخل المرابطين، فموقعة الزلاقة ليصرف نظر المعتمد عن حسم خلافه مع ابن رشيق.

ولقد أضرت هجمات النصارى سواء أكانت تلك التي يشنها ألفونسو أم السيد القمبيطور أم حامية لييط بالأهالي في شرقي الأندلس، وتعرضت أراضيهم وممتلكاتهم للنهب والسلب والتخريب والفساد، وجأروا بالشكوى دونما مجيب أو

---

(١) انظر قبل، الباب الثالث، ص ٢٣٥

(٢) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٨١

سميع. فقر رأيهم أن يجتازوا البحر نحو يوسف بن تاشفين يشكون له ما حصل ببلادهم من عدوان النصارى، ويستصرخون دينه وشهامته ومروءته. فأصغى إليهم ووعدهم خيرا، وصرفهم إلى بلادهم وكان ذلك في عام ٤٨١هـ/١٠٨٩م.(١) ولقد ألقت هذه الأحداث الخطيرة تبعات كثيرة على المعتمد باعتبار مملكته أقوى الممالك، وباعتباره أقوى ملوك الأندلس قاطبة وباعتباره المعنى أكثر من غيره بهجوم النصارى واعتداءاته المتكررة، خاصة وأن اعتداءاتهم قد وصلت إلى إمارة ألمرية المجاورة التي تعرضت لهجوم القائد القتشالي غرسيا خمينس، وفي نفس الوقت تعرضت مرسية لاعتداءات القائد النصراني الآخر البرهانس. وتعرضت مدينة لورقة التابعة اسميا للمعتمد لاعتداءات بقية قواد ألفونسو.(٢) فرأى المعتمد أن العبء قد ألقي عليه وحده أكثر من أي ملك آخر فعمل على اتخاذ إجراء سريع فجهز جيشا بقيادة ابنه المعتد بعد أن تقاعس ابنه الآخر الراضي عن أداء المهمة مما أدى إلى أن يعتب عليه والده ويتندر به كثيرا كما رأينا سابقا.(٣) ولكن هذا الجيش هزم عند لقائه بالقوات القشتالية وعاد أدراجه نحو إشبيلية.(٤) وحاول المعتمد أن يوثق علاقاته مع المعتصم بن صمادح أمير ألمرية والوقوف في وجه الأعداء صفا واحدا. غير أن هذا لم يجد شيئا.(٥) ورأى المعتمد وقتها أن لا مناص من الاستعانة بيوسف بن تاشفين مرة أخرى.

وفي الواقع لم يكن عبور المعتمد إلى المغرب ومقابلته ليوسف بن تاشفين خالصا

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٤

(٢) انظر ابن الكردبوس: المصدر السابق ص ١٠٠-١٠١

(٣) انظر قبل الباب الثالث، ص ٢٤٢

(٤) يقول ابن الكردبوس: إن الذي قاد الجيش هو الراضي وإنه قد هزم وقتل أكثر جنوده، ولكن هذا وهم من ابن الكردبوس، فالمعتمد بعد أن شعر بعدم اهتمام ابنه الراضي وبتقاعسه غضب عليه، وبعث واحدا آخر من أبنائه وهو المعتد إلى لورقة. وقد انهزم هذا الجيش فعلا وعاد أدراجه نحو إشبيلية.

انظر: الاكتفاء، ص ١٠١. الفتح ابن خاقان: القلائد ص ٣٤.

(٥) انظر، عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٩٦-١٩٧.

لوجه الله، رغم ما حاول تأكيده ليوسف من أنه لم يأته إلا رغبة واحتسابا وانتصارا للإسلام وللمسلمين.[1] قد يكون هذا أحد أسباب توجهه نحو المغرب والتمنى على يوسف بالجواز، إلا أننا لا نرى مانعا من قبول كلام الملك عبدالله بن زيرى الذي يقول: (وإن المعتمد بن عباد، لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراد أن يضع ابنه الراضي بمرسية عوضا عن الجزيرة[2] صار بنفسه إلى أمير المسلمين، وجاز إليه البحر يريه الطمأنينة ويحكم معه ما شاء من عمل مرسية وغيرها). وفي نفس الوقت شرح له الحالة الحرجة التي يعاني منها المسلمون من جراء وجود الحامية النصرانية في حصن لييط. (وعظم له شأن لّييط وأنه في قلب البلد وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده).[3]

وعلى أي الأحوال وحتى وإن كان المعتمد قد صدر في جوازه إلى يوسف عن رغبة شخصية، فإن الأوضاع قد باتت لا تطاق. والواجب الديني يفرض على يوسف أن يبادر مرة ثانية إلى التدخل. ويتراءى لنا أنه من تلك اللحظة قد اتضح له عدم أهلية ملوك الطوائف وصلاحيتهم. وشعر في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر أن وصيته لملوك الطوائف بعد موقعة الزلاقة بنبذ الفرقة والتناحر قد ذهبت أدراج الرياح.[4] كما تحقق لديه ما كان قد راوده وهو منصرف إلى المغرب بعد أن اطلع على خلافات ملوك الطوائف من عدم أهليتهم وصلاحيتهم.[5]

ومع ذلك فقد لبى يوسف نداء المعتمد له وجاز إلى الأندلس وبعث من هناك إلى رؤساء الأندلس ليوافوه عند قدومه. وبالفعل وافاه معظم رؤساء الأندلس ورافقوه من الجزيرة الخضراء حتى حصن لييط، حيث ضرب عليه الحصار.[6] وقد

---

(١) انظر مجهول: الحلل الموشية ص ٥٤-٥٥

(٢) المقصود بها طبعا الجزيرة الخضراء التي أخلاها المعتمد للمرابطين، وطلب من ابنه الراضي أن يتوجه إلى مدينة رندة.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٤) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠٦

(٥) عبدلله بن زيري: نفس المصدر، ص ١٠٧

(٦) مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٤-٥٥

تحصنت بداخله الحامية النصرانية واثقة من مناعة الحصن وقوة تحصيناته، وواثقين أيضا من تحوطهم للأمر بتكديس الطعام والمؤن، وفوق هذا كانوا واثقين من مجيء ألفونسو لإنقاذهم.(١)

وفي الحقيقة تعدّ هذه الفترة التي كان الحصار مضروبا فيها على ليبط هي التي قررت مصائر ملوك الطوائف. فلقد صمد الحصن أمام الحصار الرهيب الذي ضربه يوسف والأندلسيون عليه، ولم تجد شيئا كل الوسائل العسكرية التي لجأ إلى وضعها وتنفيذها الجيش الإسلامي.(٢) واستطالت بهذا مدة الحصار. وظهرت ليوسف وقتذاك حقيقة الوضع المؤلم في الأندلس وقد رسم ابن زيري نفسه صورة واضحة دقيقة لذلك الوضع الذي شهده وعاصره وشارك فيه أيضا. فيقول (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس، ورعيتهم في ذلك يأتون أفواجا، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه، فالراضي منهم يلتمس الزيادة، والساخط يرجو الانتقام، وجعلوا في شكاويهم فقهاء وسائط يقصدون نحوهم؛ منهم الفقيه ابن القليعي(٣) قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا لكلّ صادر ووارد، يجد بهم السبيل إلى الطلب للقدر الذي قدّره الله. ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم عن مغارم الأقطاع التي كانت عليهم، مع احتياجهم إلى الإنفاق، ما قلق به وساء الظنّ من أجله، جيش يكلّفونه كل عام، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة، وتحف متوالية، لو فرط منها في شيء لانخرمت عليهم الأحوال، ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة، فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة، أو امتناع يؤدي إلى استئصال كالذي

---

(١) انظر: عبدالله بن زيرى: نفس المصدر أعلاه، ص ١٠٨

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٠٨-١٠٩

(٣) هو الفقيه يحيى بن محمد بن حسين الغساني المعروف بابن القلاعى (ت ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠-١٠٥١م). وقد نأى به حبه للسياسة والوظائف عن سمت العلماء ووقارهم. وقد قام بدور رئيسي لدى المرابطين في خلع عبدالله بن زيرى ملك غرناطة.

انظر: عبدالله ابن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٢، ص ١١٦-١١٨، ١٢٧-١٢٨.
حسين مؤنس: شيوخ العصر، ص ٨٥-٨٦

جرى. ونسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تهددا وعصيانا أنكرناه، لا تتم به مملكة، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة. ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألّا يعطون شيئا، ويعدهم بما كان، فلما كان يأتيهم الحفز منا، يقعدون بنا، ونحن أحوج ما كنا إليه للإنفاق، لا سيما في تلك المحلة التي عدّتنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع. وطالت تلك المحلة[1] الملعونة، فكأنما مثلق آبان الطيب من الخبيث، وكشف العورات، فلم يزد الرؤساء إلا توحشا ولا الرعية إلا تسلطا، ولا الداخلون على مثل هذه النصبة إلا طمعا، وحق لهم، مع اختلاف كلمة الرؤساء، وهم في أسباب الغرق: فمن اغتر منهم طالب صاحبه، وهو المطلوب وشغله ذلك مما هو في سبيله، ومن ميز انفرد، لم يجد معينا حتى توغل في اللجة وأخذته الحملة، وكانت مقدمات سوء، وزمانا على السلاطين عسيرا، وسعدا للمرابطين مقتبلا).[2]

هذا التصوير الدقيق للأوضاع يوضح لنا عدة حقائق منها: أن الرعية في معظم ممالك الطوائف وصلت إلى حد لا يمكن معه أن تستمر تدفع ثمن خلافات ونزوات الملوك والرؤساء في تحقيق مجد ذاتي، وتوسع تصب خيراته في جيوبهم وحدهم. ولذا فعندما لمحوا بريقا من عطف يوسف وشفقته عليهم،[3] تطلعوا نحوه راغبين إليه أن ينقذهم من عسف ملوكهم وأمرائهم الذين يفرضون عليهم الضرائب والمكوس الباهظة. ورأوا في قوة المرابطين الفتية ما يمكن معه التفاؤل بانقشاع الخطر النصراني الذي أسهم الرؤساء بسوء سياستهم في إذكائه. بل ولاح لهم بريق من الأمل والتفاؤل بسحق ذلك الخطر الماثل.

والأمر الثاني أو الحقيقة الثانية أن الفقهاء تزعموا وقتها رفع راية الاستنكار والاحتجاج على الوضع المزرى الذي وصلت إليه الأمور في الأندلس. بل إنهم تزعموا التعبير عن رغبات الرعية ومتطلباتها، ومضوا في عداوتهم لملوك الطوائف

---

(١) المقصود به بداهة المعسكر الذي ضرب الحصار على الحصن.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٠

(٣) انظر قبل، ص ٢٧٦ وما بعدها

حدا بعيدا جدا قطعوا فيه كل خطوط الرجعة وحبائل الود مع هؤلاء الملوك. وتعلقوا بيوسف يرجونه ويستعطفونه أن يضع حدا لتلك الأوضاع. وأصبح الفقهاء في حقيقة الأمر قوة خطيرة يحسب ملوك الطوائف حسابها. وسنرى بعد قليل صورا لهذه المكانة التي بلغوها، والتي يلوح لنا أنهم ما كانوا ليبلغوها لو لم يشجعهم يوسف ابن تاشفين على ذلك. وقد وصل الأمر أخيرا إلى أن ينتصر تيارهم الداعي إلى خلع ملوك الطوائف وتسليم الأندلس جملة إلى ابن تاشفين. (١)

أما الحقيقة الثالثة التي نستخلصها من كلام ابن زيرى، فهي أن هناك بعضا من المنتفعين من أمراء المرابطين كانوا يرهقون ملوكَ الطوائف وأمراءها بطلباتهم التي لا تنتهي. ولا نستبعد أن يحدث هذا فهو شيء مألوف يقع دائما. ولقد كلف إغضاب ابن زيرى لأحدهم كثيرا، فقد كلفه ضيقه من طلبات أحد قواد المرابطين ملكه وعرشه كما سنرى بعد إن شاء الله.

والمهم أن هذه الصورة هي التي كانت تسير الأمور وفقها في حصار لييط واتضح ليوسف أن هناك هوة عميقة تفصل الرعية عن ملوكها، كما أن هناك هوة عميقة أيضا تفصل بين الملوك والفقهاء والعلماء على النحو الذي رأيناه. بل إن هنالك تباينا واضحا واختلافا مريعا بين الملوك أنفسهم. فقد طفت خلافاتهم إلى السطح، وبدأوا ينشرون خلافاتهم وأحقادهم علانية وجهارا. وأخذ كل واحد منهم يدس على الآخر ما شاء له من إشاعات ودعاوى مضللة. وبدأت المزايدات بين هؤلاء الملوك بعضهم البعض تقوى وتشتد، إذ أعلن ابن رشيق حاكم مرسية أنه قائم بدعوة يوسف بن تاشفين بل أفضى به الأمر إلى أن جعل الخطبة في مملكته باسم يوسف بن تاشفين، واستمال إليه الأمير سير بن أبي بكر ودفع له الأموال والتحف. (٢) أما المعتمد فقد ساءه ذلك وعمل من ثم على استمالة أحد قواد يوسف

---

(١) آنخل جنتالت بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ٩٨.

(٢) عبدالله بن زيري: المصدر السابق، ص ١١٠

وهـو المدعو قرور الحشمي[1] ودفع له الكثير كما يقول ابن زيرى،[2] واشتكى ليوسف من أن ابن رشيق خارج عليه، وأن المدينة من الناحية الرسمية لا تزال تحت سلطته بدليل أنه كان يدفع ضريبتها السنوية لألفونسو.[3] واستشار يوسف الفقهاء في ذلـك فأفتـوه بأن تعـود السلطة في مرسية للمعتمد. فسمح يوسف للمعتمد بالقبض على ابن رشيق، ولكنه طلب منه أن لا يقتله. والظاهر أن يوسف رأى في ذلك الوقت الحرج أن مداراة المعتمد والتودد إليه أجدى من مدارة ابن رشيق حتى وإن كان قد دعى باسمـه. فلقـد خبر في تلك الفـترة ألاعيب ملوك الـطوائف وأحاييلهم، ورأى أن ابن رشيق لم يفعل ذلك إلا من أجل الإيقاع بينه وبين المعتمد وأنـه إنـما فعل ذلك ليتخلص من الملامة والمؤاخذة في مده يد العون والمساعدة للنصارى في حصن لييط.[4] وفي الوقت الذي كان فيه يوسف يحاول تهدئة خواطر ملوك الطوائف، وكان البعض منهم يمارس هواية الصيد في الأوحال، فيحكى أن المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية أخذ يتودد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويظهر له المودة والإخلاص والنصح حتى استطاع أن يتمكن من قلب يوسف. ومن ثم عمـل على أن يوغـر صدره على المعتمد، ويلفق أقوالا سيئة على لسان المعتمد حتى تمكن بالفعل من إيغار صدره عليه.[5] ويروي عبدالواحد المراكشي هنـا أن حوارا دار بين المعتمـد والمعتصم حول يوسف، فقام هذا بنقله إلى ابن

---

(١) هذا القائد هو: قرور أو جرور الحشمي كما كان يعرف في بعض المصادر العربية أيضا هو أحد أبرز قواد المرابطين في الأندلس. وقد كان وصوليا انتهازيا هدف في كثير من الأوقات إلى خدمة مصالحه الخاصة. وقد أسهم بدور ملحوظ في خلع عبدالله بن زيري ملك غرناطة.

انـظر: عبـدالله بن زيري: المصـدر السـابق، ص ١١٠، وص ١١٤ ـ ١١٦، ص ١٥٥ـ١٦١. ابن الأبار، المصدر السابق والجزء، ج٢، ص ٦٢.

(٢) عبدالله ابن زيرى: المصدر السابق، ص ١١٠

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٥ـ٥٦

(٤) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر السابق، ص ١١٠ـ١١١.

(٥) انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ٨٥ـ٨٧. عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٩٦ـ١٩٨. الفتح ابن خاقان القلائد، ص ١٤ـ١٥

تاشفين. ونحن لا نستبعد أن يكون المعتمد قد أفصح لزميله ملك ألمرية عما يدور في خلده وخلد غيره من ملوك الطوائف. ويخيل إلينا أنه لم يكن يتوقع أن يبادر المعتصم بنقل ما دار بينهما إلى يوسف، ومهما يكن فإن عبدالواحد المراكشي يروي أن المعتصم قال للمعتمد في معرض حوارهما إن إقامة يوسف قد طالت في الجزيرة فأجابه المعتمد: (لو عوجت له أصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه. كأنك تخاف غائلته، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه؟ وإنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجاراً، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم... إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس). (١)

وعلى أية حال فمهما يكن في هذا الحوار من المكابرة والتحدي والضيق الذي جاش به صدر المعتمد في ساعة ضيق وغم، فإنها تعطينا المثل على انحطاط الأخلاق والمثل إلى درجة سحقية لدى ملوك الطوائف وقتها، حتى بين الأخ وأخيه. إذ يروى ابن زيرى أن أخاه تميماً صاحب مالقة قد عاود تشكيه وتظلمه منه لدى يوسف ابن تاشفين، وكان تميم الذي شكى أخاه عبدالله بعد موقعة الزلاقة مباشرة، عاد مرة أخرى ليشكوه إلى يوسف ويكرر ذلك حتى ضاق يوسف ذرعا بهذا الإسفاف ولكنه مع هذا بعث لعبدالله يطمئنه ويهدىء من روعه ويعلمه (أن غرناطة آكد عليه من مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته، وما أشبه ذلك من المرافق...) (٢)

استطالت مدة الحصار إلى نحو بلغت فيه أربعة شهور. (٣) لم يجد معها كما ذكرنا كل الوسائل التي استخدمها الجيش الإسلامي في الحصار، بل إنه مما كان يزيد المعاناة الإسلامية حرجا أن مجموعات من هؤلاء المحاصرين النصارى كانت تتسلل خارج الأسوار وتفتك بمحلة المسلمين، ثم تعود أدراجها نحو الحصن ثانية. (٤)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) عبدالله ابن زيرى: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٣) علي بن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٤) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

وعنـدما حسم الخلاف بين المعتمد وابن رشيق على النحو الذي رأيناه، غضب أتباعه وأقاربه، فانسحبوا من المعركة والتحقوا بمدينتهم. ومن هناك حصنوا المدينة وقفلوها في وجه المعتمد والمرابطين، بل وقطعوا الميرة عن المعسكر الإسلامي. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى اختلال الأمور، فانتشرت المجاعة في المعسكر وغلت الأسعار،(١) كما أدى هذا إلى حدوث ارتباك داخل صفوف الأمراء والملوك، فخافوا أن يصيبهم ما حل بابن رشيق. وســاء ظنهم بيوسف، وســاء ظن يوسف بهم أكثر.(٢) وشعر يوسف بعد طول هذه المدة أنه من المستحيل الاستمرار في الحصار لا سيما في وسط ذلك الجو المحموم من الأقاويل والشائعات، ووسط ذلك التفتت والتمـزق مع استمرار المقاومة الشديدة من النصارى. وصادف أن نقلت عيون المسلمين وجواسيسهم المنبثة داخل المعسكر النصرانى عزم ألفونسو للتقدم نحو الحصن وإنقاذ حاميته المحاصرة.(٣) وتبين ليوسف أن رفع الحصار والانسحاب عن الحصن إلى أقـرب مدينـة إسلامية هو الحل الواجب عليه اتباعه. وبالفعل انسحب نحو مدينة لورقة ومكث فيها بعض الوقت، ومن هناك اتجه نحو بلاده. وبـالفعل ما كاد يوسف يتم الانسحاب حتى جاء ألفونسو إلى حصن(٤) لييط، فانقذ حاميته، ثم انسحب إلى عاصمته طليطلة، فجاء المعتمد فوضع يده عليه، وفي قول آخر إن الفونسو أحرقه(٥) وسحب الحامية القشتالية منه.

وهكذا فقد جاء جواز يوسف هذه المرة مخيبا لآماله، كما تيقن تمام التيقن أن ملوك الطوائف لا يمكن الاعتماد عليهم في هذه المرحلة الخطرة من تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية، وتلاشت من ذلك الوقت فكرة الجبهة الواحدة، وبات

---

(١) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر السابق، ص ١١٢-١١٣. مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٥-٧٧.

(٢) حسن محمود: نفس المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٣) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر، ص ١١٤.

(٤) السلاوى الناصرى: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢.

(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٥-٥٧

على يوسف إذا ما أراد أن يعيد التـوازن السياسي والعسكـري في الأندلس بين المسلمين والنصارى أن يتخلى نهائيا عن أن يكون رديفا لملوك الطوائف. ومعنى هذا أن يتخلى تماما عن فكرة الجبهة الموحدة،(١) ليواجه ملوك النصارى مباشرة وجها لوجه، ومعنى هذا أيضا أن يعمل منذ الآن على أن يستعد للمواجهة بين القـوة المـرابطية الفتية المتأججة حماسا للجهاد، وبين القوى النصرانية الصليبية المتأججة حماسا هي الأخرى إلى مواصلة حركة الاسترداد. وشعر يوسف أنه لا يمكن أن يحقق ما تبلور في ذهنه بعد حصار لييط الفاشل إلا بإتخاذ خطوة جريئة مع ملوك الـطوائف، هذه الخـطوة هي إزاحتهم لمصلحة الجهاد الإسلامي ضد الزحف النصراني في الأندلس فقد فرضت عليه الظروف التزاماً دينيا وأدبيا تجاه الإسلام والوجود الإسلامي في الأندلس. وبمقتضى هذا الالتزام تهيأت النفوس في الأندلس والعالم الإسلامي إلى قبول أي قرار أو أي خطة يتخذها يوسف بن تاشفين.

وكـانت الفـترة الأخيرة من حصار حصن لييط والفترة التي أعقبتها بعد ذلك حالكة السواد في حياة ملوك الطوائف، فقد آذنت شمسهم بالمغيب، ولم يعد الزمن يعمل لصالحهم، فقد أبغضتهم العامة، والخاصة، وشمتت بهم ممالك النصارى وطمعت، ونفـر منهم المـرابطون وبعدوا، بل إنهم فقدوا الثقة وحسن الظن في بعضهم البعض. وأخذوا هم أنفسهم يحيكون الدسائس والأقاويل ضد بعضهم بعضـا. وحمل الفقهاء لواء الدعوة للإطاحة بهم وصرحوا بذلك، وسمحت لهم المكانة العالية التي تحققت لهم والتي فرضتها الأحداث على ملوك الطوائف فرضاً أن تحكموا بموافقة يوسف وتأييده في مصائر هؤلاء الأمراء والملوك كما حدث لابن رشيق، ودفعهم هذا إلى أن جاهروا ملوك الطوائف بأنهم سيكررون ذلك ويفعلونه.(٢)

وأيا ما كان الأمر فإن تلك الفترة التي أعقبت حصار لِيّيط حفلت بالكثير من

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٢) انظر عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١١١.

الأخطاء السياسية الفادحة، كما حفلت بانعدام الكثير من الأخلاق والقِيم والمبادىء، فبات كل من تهيأ له قدر من المسؤولية، أو وضعته الظروف في مواجهة الأحداث يعمل لحسابه الخاص. وسادت الأندلس وقتها أجواء محمومة من حالات الريبة والتشكك والابتزاز والانتهازية والخيانة. حتى أولئك الذين كانوا يعملون تحت قيادة الأمير المرابطي المسلم، أو الملك النصراني، أو ملك من ملوك الطوائف لم يتحرجوا من أن يعملوا لحسابهم الخاص، وتجلت وقتها روح العصر بأبرز صورها. نقول حتى بعض قواد المرابطين انساق في لهاث محموم للاستفادة من ذلك الوضع كما رأينا سابقا، وكما حدث لعبدالله بن زيرى مع القائد المرابطي قرور الذي مارس معه عملية ابتزاز واضحة.(١)

ولسنا هنا نقف مدافعين عن ابن زيرى وغيره من ملوك الطوائف، ولن ننزلق في الأخذ بأقواله على علاتها، كما لن ننزلق في الحكم عليه دون أن نخضع ما حدث للتحليل الموضوعي. فلا ننظر إلى ما حدث إلا من خلال منطق العصر، ولن نأخذ من كلام عبدالله بن زيرى إلا ما يتفق وسيرالحوادث فقط. فالواقع أننا إذا نظرنا إلى الأمور نظرة تحليلية موضوعية كما ذكرنا نجد أن ما فعله ابن زيرى لم يخرج عن منطق وروح العصر أبدا. وإذا أردنا أن نقوم ما فعله في تلك الفترة يجب علينا أن ننظر إليها بالمقاييس التي كانت سائدة آنذاك، وليس بالمقاييس المثالية والحالية أيضا. فابن زيرى كان يتعرض وقتها لضغوط داخلية وخارجية معا. ضغوط داخلية يشنها عليه الفقهاء وخاصة قاضي حضرته القليعي بدافع ديني ربما، أو بدافع شخصي ربما،(٢) أو ربما بالأثنين معا، كما كان يتعرض في نفس الوقت لمضايقات القائد المرابطي قرور له، ويعاني هو وغيره من ملوك الطوائف من تذمر السكان وسخطهم من جهة ثالثة. أما الضغوط الخارجية فقد بدأ ألفونسو يشن غاراته على ممالك الطوائف وبالذات على مملكتي غرناطة وإشبيلية.(٣)

---

(١) انظر عبدالله بن زيرى: نفس المصدر السابق، ص ١١٤-١١٦

(٢) انظر: عبدالله بن زيرى المصدر السابق، ص ١١٢، ص ١١٦-١١٩.

(٣) حسن محمود: المرجع السابق ص ٢٨٩.

وفوق هذا وذاك فقد سيطرت حالة من الشك على أذهان وعقول ملوك الطوائف من نوايا يوسف، مثلما سيطرت عليه هو نفسه، فالأمراء وقد رأوا ما حل بابن رشيق قد انتابتهم حالة من الريبة والجزع. وفي نفس الوقت بلغ يوسف من النفور حدا جعله يرفض ما طلبوه من بقاء مجموعات من الجيش المرابطي في الأندلس، بل وخاطبهم مؤنبا (أصلحوا نياتكم، تكفوا عدوكم).(١)

إذا فنحن لا نحلل مواقف كل من الفريقين إلا من هذا المنظار، أي منظار فقدان الثقة وحسن الظن، ومن منظار الريبة والتشكك المتبادل تبعا لذلك. وعلى هذا فنحن نتفهم دوافع ابن زيرى فيما فعله من وجهة نظره الخاصة. فقد أوحت إليه كل تلك الاعتبارات التي أشرنا إليها بأن يحصن مملكته(٢) ويتخذ أسباب التحوط والحذر من النصارى والمرابطين على السواء رغم ما حاول أن ينفيه عن نفسه من أنه لم يفعل ذلك إلا تحوطا من اعتداءات النصارى، أو على أسوأ الأحوال - في تقديره - أن يجد ما فعله تفهما من يوسف لما في ذلك من النفع للمرابطين (فيكون بذلك للمسلمين حماية وانجراراً إلى غد...)(٣) نقول رغم الدفاع المستميت الذي أظهره عبدالله ابن زيرى من أنه لم يفعل ذلك إلا للأسباب التي ذكرناها،(٤) فإنه قد قصد في الواقع المرابطين أكثر مما قصد به النصارى.

أما قضية تعاقده مع ألفونسو السادس ودفعه إتاوة له، فتحتاج إلى وقفة متأنية. فعبدالله بن زيرى شعر أكثر من غيره بتهديدات ألفونسو وقواده له، وعندما جاءه القائد القشتالي البرهانس المذكور سابقا يطلب منه مالا له خاصة، أعطاه إياه.(٥) وتأكد هنا ما ذكرناه سابقا من أن الكل كان يعمل لحسابه بطريقة أو بأخرى. ثم لما جاء ألفونسو وهدد ابن زيري بالقتال إن لم يعطه الإتاوة، عقد معه هذا مضطرا

---

(١) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر السابق، ص ١٢٢

(٢) نفس المصدر، ص ١١٩- ١٢٠.

(٣) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) نفس المصدر، ص ١٢٠-١٢٢.

(٥) نفس المصدر، ص ١٢٢-١٢٤.

معاهدة ودفع له بموجبها إتاوة مقدارها ثلاثين ألف مثقال عن ثلاثة أعوام .[1]

هذه هي المسألة التي أخذت على عبدالله بن زيرى، وهي التي جعلت البعض يرميه بالخيانة، مع أننا لو نظرنا إلى الأمر بنفس النظرة الموضوعية التي عالجنا بها ما سبق، لرأينا أنه لم يكن بدعا في الأمر وحده، فقد دفع ابن هود صاحب سرقسطة الإتاوة لألفونسو اتقاء لشره،[2] ثم إن منطق العصر وقتها كان يستسيغ ذلك ولا يستغربه، فقد حصلت سابقات قبل موقعة الزلاقة وقبل حصار لييّط من معاقدات مع النصارى لدفع شرهم، بمعنى إننا لا نجد في هذا الموقف، وخاصة أن عبدالله بن زيرى دفع الإتاوة من أمواله الخاصة[3] ما يدل على خيانة للمرابطين؛ فالأندلس لم تكن تقع وقتها من الناحية الرسمية الصرفة تحت سلطة المرابطين، كما أن عبدالله بن زيرى لم يكن نائباً من نواب يوسف بن تاشفين في الأندلس. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو أن المعاهدة نصت على كف يد مملكة غرناطة عن مساعدة المرابطين، ولو أن المعاهدة نصت على أن تسمح مملكة غرناطة لألفونسو لمهاجمة الممالك الأخرى[4] لكان ذلك طعنا للمرابطين ما في ذلك شك. نعم هي استسلام ذليل وتغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة، بل هي خيانة للقضية الإسلامية نفسها انزلق فيها عبدالله بن زيرى هو وغيره من ملوك الطوائف.

أما غضب يوسف بن تاشفين على عبدالله بن زيرى، وجوازه إلى الأندلس للقضاء على استقلال مملكة غرناطة فإنه في نظرنا يعود إلى أن يوسف بن تاشفين فرضت عليه الأحداث والتبعات الدينية والقومية والأدبية أن يتدارك أمر الأندلس عموما لئلا ينزلق غير واحد من ملوك الطوائف إلى نفض يده من القضية والعودة للاهتمام بالقضايا الإقليمية البحتة. ففرضت عليه هذه التبعات أن يتدارك

---

(١) نفس المصدر، ص ١٢٤-١٢٥ .

وانظر كذلك: Angus Mackay and Muhammad Benaboud. O,P. Cit., P.98

(٢) عبدالله ابن زيرى: نفس المصدر، ص ١٢٢

(٣) نفس المصدر ص ١٢٦ .

(٤) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٢٥-١٢٧ .

الأندلس ويفرض عليها هيمنته وسلطته بعد أن اتضح له أن ممالك الطوائف لا يمكن الركون إليها. وفضلا عن ذلك فيوسف بن تاشفين هو الذي فرضت عليه جماهير الأندلسيين وفئات أخرى كالفقهاء وغيرهم أن يكون صاحب السلطة والنفوذ في الأندلس دون ملوكهم.

وهكذا فقد فوضت تلك الالتزامات والاعتبارات يوسف بن تاشفين لاتخاذ ما يراه من إجراء مع ملوك الطوائف، حتى ولو أفضى ذلك إلى خلعهم وازاحتهم. ولذا فقد بادر إلى بعث خطاب ذي لهجة حادة إلى عبدالله بن زيرى يستنكر فيه ما أقدم عليه ويتهدده بالمعاقبة [1]. والواقع أن عبدالله بن زيرى شعر بجزع شديد وشعر بأنه مطلوب حتما، فقد كان يعاني وقتها من تمزق داخلي وحركة عصيان يقودها الفقهاء وبعض قواد الدولة ورجالاتها الذين ما أن رأوا علاقاته تسوء مع يوسف بن تاشفين، حتى بادروا إلى الاستفادة من هذا لحسابهم الخاص، فأخذوا يزايدون عند يوسف بن تاشفين على مليكهم، ويرمونه بكل صفات الضعف والخيانة، وبعدم قدرته على قيادة الدولة.. إلخ. [2]

وساءت أيضا علاقة عبدالله بن زيرى بالمعتمد الذى شعر بأن المعاهدة التي عقدها مع ألفونسو ستؤثر عليه وعلى مملكته، ولذا فقد بدأ يظهر العداء له رغم أنه ينفي في دفاعه الحار عن نفسه كل ذلك نفيا قاطعا، بل إنه أشار إلى أنه قد صرف رسل ألفونسو الذين جاءوا إليه يعتذرون عما سبب له تعاقده معهم من اللغط وسوء الظن، فصرفهم منعا لأي التباس. [3]

على أن التردد الذي كان يطبع تصرفاته، وإصغائه إلى آراء المستشارين المتناقضة والتي كان يطبقها دون تمييز جعله يدخل في خلافات مع سكان مملكته من اليهود والبربر الزنايين وغيرهم، كما دخل في نزاعات مع بعض قواده ورجال دولته، وبادر هؤلاء إلى الدّس عليه عند يوسف بن تاشفين مما أوغر صدره عليه كثيرا، [4] ولم تُجدِ

(١) نفس المصدر، ص ١٢٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤) نفس المصدر، ص ١٣٠-١٤٤

شيئا محاولاته إرسال الرسل إلى يوسف بن تاشفين كما تدهورت أخيرا علاقاته بالمعتمد كثيرا عندما أراد أن يستفيد من نزاع المعتمد مع أقارب ابن رشيق الذين استقلوا بالمدينة بعد قبض المعتمد على ابن رشيق كما قلنا. (١) وقد اضطر عبدالله ابن زيرى لإرسال الرسل مرارا إلى يوسف بن تاشفين ليشرحوا له وجهة نظره. ولكن حتى هؤلاء الرسل رأوا أن دولة عبدالله بن زيرى قد دالت أو أوشكت على الزوال فدسوا عليه وهم المبعوثون من قبله عند يوسف بن تاشفين. ويقول أحد رسل عبدالله بن زيرى الذي ذهب مع أحد قضاة غرناطة إلى يوسف بن تاشفين سفيرا (أرسلنا للخدمة له في زعمه، ولم نصنع غير أني كتفته، والقاضى ضرب عنقه). (٢)

وجهز يوسف بن تاشفين جيشا وتوجه نحو سبتة ومن هناك عبر البحر إلى الجزيرة الخضراء وتوجه منها إلى قرطبة حيث اجتمع هناك بالمعتمد الذي شكى له ما فعله ابن زيرى مما أوغر صدره عليه أكثر. ولكن يوسف بن تاشفين أراد أن يهاجم النصارى قبل أن يصفى حسابه مع مملكة غرناطة. وكان يهدف من ذلك إلى أن يفهم ألفونسو أنه صاحب النفوذ في الأندلس ويفهمه ويحذره في نفس الوقت من مد يد العون لمملكة غرناطة، أو ربما كان يهدف إلى بث الذعر في نفوس النصارى حتى لا يبادر ألفونسو باستغلال تلك الفرصة وطعنه من الخلف. (٣)

والمهم أن المرابطين توجهوا نحو طليطلة وحاصروها وشنوا عليها هجمات مركزة، ووصلوا في هجومهم إلى أقصى حدود مملكة طليطلة سابقا. وعندما شعر المرابطون أنهم قد حققوا ما أرادوا، توجهوا نحو مملكة غرناطة حيث يقبع عبدالله ابن زيرى خائفا يترقب، فبعث إليه يوسف بن تاشفين طالبا منه القدوم

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٤-١٤٥

(٢) نفس المصدر، ص ١٤٥-١٤٦

والقاضى الذي يقصده ابن زيرى في المتن هو أبوالأصبغ عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي. وكان عالما جليلا.

انظر: حسين مؤنس: شيوخ العصر، ص ٨٥

(٣) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٠٣.

بسرعة. ولم يتردد يوسف بن تاشفين فبدأ يهاجم مدن وأراضي مملكة غرناطة فكانت تستسلم إليه بسرعة مذهلة. فالكل كان يطمع في أن يتبدل حاله نحو الأحسن، [1] حتى سكان غرناطة كلهم، أبدوا فرحهم وسرورهم حتى الخدم من النساء والخصيان (كلٌ طامع في إقبال الدنيا عليه، والخروج عن ثقاف القصر إلى راحة التسريح . . . إلخ). [2]

وأخيرا بعث يوسف بن تاشفين إلى عبدالله بن زيرى يؤمنه في نفسه دون أمواله، ولم يجد ابن زيرى بدا من التسليم، فسلم نفسه إلى أمير المرابطين رغم أنه قد قلّب الأمر على جميع الأوجه ووضع شتى الاحتمالات ومنها الاستعانة بالنصارى ولكنه لم يجد أمامه إلاّ أن يسلم نفسه له. [3] وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣هـ وقد نفى إلى المغرب واستقر في مدينة أغمات أخيرا. ورأى يوسف بن تاشفين أن يضع حدا للجاج تميم شقيق عبدالله وتشكياته المتكررة، فأطبق عليه واستصفى أمواله، وبعثه منفيا إلى المغرب الأقصى شأنه شأن أخيه. [4]

وهكذا فقد قضى يوسف بن تاشفين في جوازه الثالث على استقلال كل من مملكتي غرناطة ومالقة، وبقي عليه أن يصفي بقية حساباته مع ممالك الطوائف الأخرى.

قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة إشبيلية وعلى بقية ممالك الطوائف:

كانت علاقة المعتمد بيوسف بن تاشفين والمرابطين عموما حتى أثناء حصار يوسف لمملكة غرناطة حسنة على وجه العموم، ولكن خطأ المعتمد أنه كان يرى نفسه صاحب الفضل في ذلك التحول الإيجابي الذي جاء لصالح المسلمين في الأندلس، كما أنه اعتقد أنه لم يعد للمرابطين غنى عنه في تحقيق سياستهم وأهدافهم في الأندلس. وجاءت مسألة تسليم ابن رشيق له لتعطيه زخما يرسخ فيه

---

(١) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٤٧-١٥١

(٢) نفس المصدر، ص ١٥١

(٣) نفس المصدر، ص ١٥٢-١٥٤

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٢-١٦٣.

ذلك الاعتقاد. وقد يكون في هذا شيء من الصحة، ولكنه يبدو أنه قد أغرق كثيرا في ذلك الاعتقاد حتي لقد ظن أن يوسف بن تاشفين سوف يعهد إليه بمملكة غرناطة التي قضى على استقلالها ونفى ملكها إلى المغرب على التو. ويقول عبدالله بن زيرى إن يوسف بن تاشفين قد ألمح للمعتمد بذلك صراحة، وإنه تلقف هذا الوعد بالابتهاج والسرور.(١) ولكننا نرى المعتمد يشكك بينه وبين نفسه في ذلك الوعد.(٢) ومع ذلك فإنه مضى في تصوره لأهمية دوره إلى حد بعيد جعله هو وزملاءه ملوك الطوائف ينفضون أيديهم عن عبدالله بن زيرى وقت محنته بل ويزايدون عليه عند يوسف بن تاشفين باطلاعه على ما كتبه لهم عبدالله بن زيرى يحذرهم من أن الأمر سيطالهم هم من بعده.(٣)وكان المعتمد يتعجل سقوط غرناطة لتفضى إليه لقمة سائغة، ولكن يوسف بن تاشفين لم يكن بتلك السذاجة حتى يسلم المعتمد مملكة غرناطة. فهو قد كوَّن عن ملوك الطوائف والمعتمد بالذات تصوراً واضحاً جلياً وهو عدم أهلية هؤلاء في قيادة بلاد الأندلس، كما رسخ لديه تصور واضح وهو أن إنقاذ الأندلس من خطر الهجمات النصرانية الشرسة لن يتحقق إلا بإقصاء هؤلاء عن الأندلس. ولذا فعندما استنجز المعتمد يوسف وعده، قابله هذا بكل فتور ولم يصغ له. ووقتها فقط أدرك المعتمد حقيقة نفسه وحقيقة الوضع السياسي في الأندلس.

والواقع أن رأى يوسف في المعتمد لم يكن بأحسن من رأيه في ابن زيرى وغيره من ملوك الطوائف، فيوسف بن تاشفين قد لمس عيانا عند قفوله إلى بلاده بعد موقعة الزلاقة المدى الكبير الذي بلغه المعتمد في الانصراف إلى المترفات ووسائل المتعة والاهتمام الفائق بالتأنق بالقصور وتزيينها إلى غير ذلك من الأمور التي تستنزف موارد الدولة،(٤) كما أن الأمير سير بن أبي بكر الذي تركه يوسف في الأندلس لمساعدة ملوك الطوائف في رد عاديات النصارى ضجّ بالشكوى من حال

---

(١) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٦٤-١٦٥

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٥

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٦

(٤) المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٨-١١٠

ملوك الطوائف وخاطب يوسف بقوله (إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه). [(١)] ولكن يوسف بن تاشفين لم يظهر منه بعد ذلك ما يريب المعتمد ويجزعه، ولما شعر بأن المعتمد ربما يعتقد أنه قادر على استغلاله كمنخلب قط لخدمة مصالحه ومشاريعه أبدى نفوره منه عندما استنجزه وعده. وفي هذه اللحظة فقط بدأت علائق الرجلين ببعضهما تسوء وتفسد.

إذا فقد حدث هذا الاحتكاك والنفور الأول بين حليفي الأمس في بطحاء غرناطة بعد القضاء على استقلالها، وللتو نشط الوشاة للاستفادة من هذا الوضع، وكثرت بينهما السعايات والوقيعة. [(٢)] واقترح بعض المرابطين القبض على المعتمد وثقافه، ولكن يوسف بن تاشفين لم يشأ أن يفعل ذلك دونما ذنب ظاهر يبرر القبض عليه، ولذلك رفض مطلبهم. [(٣)]

وتهيأ المعتمد لمغادرة معسكر يوسف بن تاشفين وقد وضحت النهاية أمام ناظريه وعرف حقيقة ذاته وحقيقة الوضع الذي وصل إليه ملوك الطوائف كما ذكرنا. ولذلك اتخذ أهبة المغادرة على وجه السرعة، وقد تفادى مقابلة يوسف بن تاشفين عندما طلب إليه أن يقابله فاعتذر عن مقابلته وقفل مسرعا إلى بلاده والتقى في طريقه بالمتوكل بن الأفطس فحذره مما لمسه من المرابطين قائلا له (والله لا بد له أن يسقينا من الكأس الذي أسقى به عبدالله بن بلقين). [(٤)] ثم عاد إلى بلاده وبدأ بالفعل يتخذ إجراءات التحصن والتحوط تحسبا لما تحمله الأيام القادمة.

وأراد يوسف بن تاشفين قبل أن يتوجه إلى بلاده، مقابلة المعتمد بصفة رسمية للتفاوض في شأن الأحداث الراهنة، غير أن المعتمد أجاب يوسف إجابة لبقة وواقعية في نفس الوقت كان منها (إن ذلك كان وقت كنت ضيفا، وتريد الغزو

(١) المقرى: نفس المصدر، ج٦ ص ١٠٤

(٢) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٤٣.

(٣) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٦٨

(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٧-٥٨

فلزمتنى معونتك بنفسي وجميع أموالي، والآن إنما أنت جار لي مثل باديس وحفيده، وأنت أقدر مني على الشر بجنودك فلا يمكنني التغرير بنفسي، عسى أنك تريد أخذ بلدي، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس). (١)

وبهذه المواجهة المكشوفة التي جابه بها المعتمد يوسف بن تاشفين لم تعد هناك أي خطوط التقاء بين الفريقين: الأندلسيين والمرابطين، وحل العداء المكشوف والاستياء السافر الصريح محل المجاملات ودواعي الضيافة وغيرها. وبدأ المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ينظرون إلى المرابطين كفريق خصم وليس كإخوان منقذين، وفي نفس الوقت أراد يوسف بن تاشفين بعد أن اتضح له موقف المعتمد أن يحذره من أي خطوة طائشة يفكر فيها، وكذلك طلب منه أن يطبق أحكام الشرع ويلغي المظالم والمكوس. ويلتزم المرابطة ومدافعة النصارى (فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر). (٢)

وعلى أية حال فقد غادر يوسف بن تاشفين الأندلس متوجها إلى بلاده وقد اتضحت له معالم الصورة. والظاهر أنه كان يخشى أن يتخذ أي إجراء في حق ملوك الطوائف حتى لا يلام عليه. ولذلك فقد قبع في بلاده هناك طيلة الشهور التي انقضت على مغادرته للأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة في شهر رجب ٤٨٣هـ.

والظاهر أنه كان مترددا أيضا في اتخاذ أي إجراء لا يستند إلى الشريعة ولم يكن الفقهاء في حاجة إلى أن ينتظروا الإشارة منه، فقد كانوا متلهفين إزاحة ملوكهم وتسليم البلاد إلى المرابطين دفاعا عن العقيدة والوطن ولذلك فقد اجتمعوا على وجه السرعة وأصدروا فتوى شرعية صريحة تجيز ليوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف جزاء لهم على ما اقترفوه في حق الله والعباد والوطن وحلّلوا يوسف بن تاشفين من عهده لهم بعدم الإضرار بهم. وأفتوه بأن خلعهم ليس حقا من حقوقه باعتباره مفوض شرعي من المسلمين في الأندلس فحسب بل هو واجب ديني مسؤول عنه أمام الله. وقالوا له: (هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ولا تجوز إمارتهم لأنهم فساق

(١) عبدالله بن زيرى: نفس المصدر السابق، ص ١٦٩

(٢) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٦٩.

فجـرة، فاخلعهم عنا، فقال لهم: وكيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم!؟ فقالوا له: إن كانوا عاهدوك فها هم قد ناقضوك، وأرسلوا إلى ألفنش أن يكـونوا معه عليك، حتى يوقعوك بين يديه، ويعود أمرهم إليه، فبادرهم بخلعهم بجمعهم، ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى) . (١)

ومع هذا التفويض الواضح الصريح، فقد رأى يوسف بن تاشفين أن يحصل على تأييد علماء المشرق الإسلامي في خطوته تلك، فبعث برسل إلى المشرق لمقابلة الإمام الغزالي وغيره من علماء الإسلام هناك لينقلوا إليهم رغبته في التخلص من ملوك الطوائف ورغبته في الحصول منهم على سند شرعي . (٢) ويبدو أن تطورات الأحـداث في الأنـدلس قد دفعته إلى المبادرة بتنفيذ خطته في القضاء على ملوك الـطوائف دون الانتـظار إلى الحصـول على فتوى الإمام الغزالي وغيره من علماء الإسـلام بالمشرق، إذ إن من المعـروف أن رد الإمـام الغـزالي واعتراف الخليفة العباسي المقتدي بيوسف أميرا للمسلمين إنما جاءه بعد ذلك، وبعد أن قرر يوسف القضـاء على مملكـة إشبيلية وغـيرهـا من ممالك الطوائف في أعقاب قضائه على استقلال مملكتي غرناطة ومالقة . (٣)

---

(١) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧

(٢) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج ١، ص ٤١-٤٢ .

(٣) بعث يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله رسولين من قبله هما عبدالله بن محمد بن العربي المعافري الأشبيلي وولده القاضي أبوبكر، وذلك لأخذ التفويض الشرعي من الخليفة بخلع ملوك الطوائف، ولأخذ مرسومه الخلافي بتولي العدوتين واليا عليها من قبله، وقد وصل السفيران إلى بغداد وقابلا الخليفة واستحصلا منه على المرسوم الخلافي بذلك. وقد قابل السفيران في بغداد الإمام أبوحامد الغزالي حيث نقلا إليه رغبة يوسف في خلع ملوك الطوائف، ورغبته في الحصول على سند شرعي من علماء وفقهاء المشرق بعد أن استحصل على تأييد فقهاء المغرب. وقد أصدر الإمام الغزالي فتوى شرعية تبيح ليوسف خلعهم، كما حملها رسالة مؤيدة ليوسف بن تاشفين. وقد اتجه القاضي أبوبكر بن العربي بعد وفاة والده إلى مصر حيث تقابل مع العلامة الأندلسي الأصل، الإسكندري السكنى أبي بكر بن الطرطوشي صاحب كتاب سراج =

ولقد رأى يوسف بن تاشفين أن يترك لقواده المشهورين آنذاك مهمة إقصاء ملوك الطوائف، فاضطلع قائده العام الأمير سير بن أبي بكر بالدورالرئيسي في ذلك. ولقد تضاربت الأقوال في وصف ما جرى في ذلك الوقت، فبعض الروايات تشير إلى أن يوسف بن تاشفين أشار على الأمير سير بأن يخلع ملوك الطوائف عموما إلا المعتمد، فقد أمره بأن لا يتعرض له أبدا إلا عندما ينتهي من إقصاء بقية ملوك الطوائف في حالة رفضهم لما عرضه عليهم من الانخلاع عن ممالكهم والرحيل إلى العدوة، إذ كان يوسف قد أمره بذلك وأمره أيضا بمقاتلتهم إذا رفضوا ذلك، وعندما استطاع الأمير سير أن يقضي على استقلال ملوك الطوائف بعث ليوسف بن تاشفين يطلب منه رأيه تجاه المعتمد، فكتب إليه يأمره بأن يعرض عليه ما عرضه

=الملوك، فحصل منه على فتوى أُخرى تبيح ليوسف خلع ملوك الطوائف أيضا.

وأخيرا وبعد بضعة أعوام من خروج القاضي ابن العربي عن الأندلس عاد إلى موطنه حاملا رسالتي الغزالي والطرطوشي، ومرسوم الخليفة المقتدي ليوسف بن تاشفين.

ويجب أن نلاحظ هنا أن يوسف بن تاشفين بعث رسوليه إلى الخليفة المقتدى وليس المستظهر ابنه كما توهم البعض، وذلك لأن السيوطي صاحب كتاب تاريخ الخلفاء أشار إلى ذلك، بالإضافة إلى ابن الأثير في كتابه: الكامل. ويبدو خلافا لكل ما قيل أن هذه السفارة بدأت بعد القضاء على مملكتي غرناطة ومالقة عام ٤٨٣هـ، وبعد أن وقر في ذهن يوسف عدم صلاحية ملوك الطوائف، أما مسألة التلقب بإمرة أمير المسلمين فنحن نتفق مع حسين مؤنس في أنه لقب محلي أطلقه المرابطون على يوسف بعد أن رفض التلقب بأمير المؤمنين، كما نصح بذلك. ولذلك فقد تلقب بأمير المسلمين وناصر الدين، ولم يعترض الخليفة العباسي المقتدي وخاصة بعد بلاء يوسف الحسن في موقعة الزلاقة. وهذا خلافا لما اعتقده السيوطي وغيره من أن المقتدي هو الذي لقب يوسف بذلك اللقب، إذ يذكر حسين مؤنس في مقالته بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، أن الخليفة المستظهر بن المقتدي بعث لعلى بن يوسف بن تاشفين بخطاب أطلق عليه فيه لقب: مقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المرابطية. مما يعني أن لقب أمير المسلمين لقب محلي.

انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، مجلد٨، ص ١٤٣. ـ مجهول: الحلل الموشية، ص ١٩-٢٠. ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٤-٤٢٥. ـ حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، ـ المجلد الثاني، العدد ١، ٢، ص ٦٣-٦٤. ـ محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص ٤١-٤٢.

على زملائه، فإذا رفض قاتله شأنه شأنهم. ولكن المعتمد لم يرد على خطاب الأمير سير بن أبي بكر بشيء فنازله هذا وقاتله.[1] هذه رواية، أما الرواية الأخرى فتقول: إن يوسف بن تاشفين (لما انتهى إلى مراكش ولّى على الأندلس قائده الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني وفوض إليه جميع أمورها كلها، ولم يأمره في شأن ابن عباد بشيء، فسار الأمير سير بن أبي بكر نحو إشبيلية وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به فإنه سيخرج إليه ويتلقاه على بعد ويحمل إليه الضيافات فلم يفعل، وتحصن منه ولم يلتفت إليه فراسله سير بن أبي بكر أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعة أمير المسلمين، فامتنع بن عباد فعند ذلك تقدم سير إلى حصاره وقتاله).[2]

ويخيل إلينا أن هاتين الروايتين لايمكن الركون إليهما، فالمواجهة المكشوفة مع ملوك الطوائف بعد سقوط مملكة غرناطة كانت مع المعتمد بن عباد. وقد رأينا ابن زيرى يروي لنا جواب المعتمد ليوسف الذي سقناه، وابن زيرى شاهد عيان وأقرب للأحداث وتبدو روايته معقولة منطقية، ولذلك فنحن نستبعد أن يكون يوسف قد آثر ترك المعتمد حتى تسقط ممالك الطوائف كما تقول رواية المقرى، كما نستبعد أن يكون الأمير سير قد تصرف من تلقاء نفسه كما تومىء إليه رواية السلاوي. ولكن الرواية الأقرب للمنطق والوجهة العسكرية البحتة، هي رواية صاحب الحلل الموشية. إذ يذكر أنه عندما استقر رأى يوسف بن تاشفين على إقصاء ملوك الطوائف، اتجه نحو ثغر سبتة عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م كما ذكرنا، ومن هناك اتخذ الاستعدادات لمنازلة ملوك الطوائف، وجهز قطائع أو كتائب كل كتيبة عبارة عن جيش كامل وعين عليها أربعة من قواده عهد إلى كل واحد منهم بمهمة معينة في منطقة معينة أيضا. ويظهر من خلال هذه الخطة أن يوسف قد وضع خطة عسكرية استراتيجية تهدف إلى الإطباق على كل نواحي مملكة إشبيلية وبقية ممالك الطوائف في آن واحد. فعهد لابن عمه الأمير سير بن أبي بكر بالتوجه نحو إشبيلية، ثم إذا فرغ من أمرها توجه نحو بطليوس حيث ابن الأفطس، وعهد

---

(١) المقرى: المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٤-١٠٥

(٢) السلاوى الناصرى: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٣-٥٤

لقائده الثاني أبي عبدالله بن الحاج بالتوجه نحو قرطبة ومنازلة الفتح بن المعتمد فيها، وعهـد لقائده الثالث قرور أو جرور الحشمي بالتوجه نحو مدينة رندة التي كان يتـولاها يزيد الراضي بن المعتمد، وعهد أخيرا إلى قائده الرابع زكريا بن واسنو بالتوجه نحو ألمرية حيث المعتصم بن صمادح.[1]

وهكذا فقد تهيأت الجيوش المرابطية لممارسة دورها كل فيما يخصه، فاتجه الأمير سير بن أبي بكر نحو أراضي مملكة إشبيلية، فنازل بعض المواقع، وافتتح في طريقه جزيرة طريف التابعة لها.[2] وتوجهت كتيبة أخرى نحو مدينة جيان فحاصرتها ودخلتهـا صلحا كما في رواية صاحب القرطاس.[3] وهناك رواية لابن الخطيب تقول إن القوات المرابطية انهزمت أمام القوات النصرانية التي استنجد بها المعتمد عندما بدأت مضايقة المرابطين له.[4]

والواقع أن ما أشار إليه ابن الخطيب من مجيء النصارى لمساعدة المعتمد أمر لم يقم عليه الدليل، فلم يذكر أحد غيره ذلك. ولكن هذا لا ينفي إطلاقاً أن المعتمد فكـر في الاستعانة بالنصارى وبألفونسو على وجه التحديد. وهو ما كان يتوقعه يوسف بن تاشفين، ولذلك كان مترددا في الإجهاز على مملكة ابن عباد حتى تبين له علانية خطيئة اتصاله بالنصارى. والمعتمد نفسه ينكر ذلك، فعندما وجد نفسه محاصرا من قبل الجيوش المرابطية (وقامت عليها الرعايا بكل قطر، فأرسل إذ ذاك إلى الرومي يستغيث به فقعد عنه خيفة من التغرير، وهي حجة أمير المسلمين على بن عباد أن قال له: ظفرت بكتبك إلى الرومي، وإرسالك عنه!).[5] ولقد كانت إجابة المعتمد على خطاب يوسف بن تاشفين تدل دلالة قاطعة على أنه غير مستعد إطلاقاً إلى تسليم مملكته إلى المرابطين حتى لو أفضى به الأمر إلى مواجهة يوسف

---

(١) مجهول: الحلل الموشية: ص ٥٩-٦١

(٢) عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٠-٢٠١

(٣) علي بن أبي زرع ص ١٠٠

(٤) أعمال الأعلام، ص ١٦٣.

(٥) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٦٩

ابن تاشفين.

وعلى أية حال فقد أتاح المعتمد بجوابه ليوسف بن تاشفين المبرر لإقصائه وخلعه مستندا في ذلك على سند شرعي ملموس. وتقول رسالة المعتمد ليوسف بن تاشفين التي دافع فيها عن نفسه في طلب الاستعانة بالنصارى: (لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادي بطرا وأشرا، كنت ألام!، وأما بعد أن رأيت طلبي في الروح، اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوما واحدا).[1]

ومن كلام عبدالله بن زيرى نتبين أن ألفونسو قد تقاعس عن مدّ يد العون إلى المعتمد خوفا من التغرير به في أول الأمر، ولكنه عاد إلى تقديم نصرته بعد قليل كما سنرى بعد.

كانت جيان أول قاعدة عبادية تسقط في يد المرابطين، وقد توجهوا بعد ذلك نحو مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وضرب عليها القائد المكلف بافتتاحها محمد بن الحاج [2]حصارا شديدا طال لمدة شهور عدة، مما اضطر حاكمها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون إلى أن يبعث بآله وولده إلى حصن المدور الذي حصنه وشحنه بالأسلحة والعتاد.[3] ويقول ابن خاقان إن أهل قرطبة كانوا يتوقون إلى أن تقع مدينتهم في أيدي المرابطين ولذلك أخذوا يدعون داخل المدينة بشعارهم.

وعلى أية حال فإن الفتح لم يستطع البقاء طويلا في حصاره، فقد استطاع المرابطون التسلل ناحية السور ومن ثم أطبقت جيوشهم على المدينة في شهر صفر من عام ٤٨٤هـ/ مارس ١٠٩١م، وافتتحت المدينة عنوة وقتل الفتح بن المعتمد وقطع رأسه وحز، ثم طيف به على سن رمح.[4]

---

(١) نفس المصدر والصفحة

(٢) وفي رواية أخرى لعلي بن أبي زرع صاحب كتاب روض القرطاس تقول (إن الذي فتح قرطبة هو القائد: بطى بن إسماعيل).

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٢٢.

(٤) نفس المصدر والصفحة

واتجه المرابطون إثر ذلك إلى الاستيلاء على بقية معاقل المملكة الإشبيلية فاستولوا على كل من مدينة أبدة، وبياسة، وشقورة، ثم استولوا على حصن المدور وأخيرا قلعة رباح، مما يعنى أنهم قد استطاعوا إحكام سيطرتهم على معظم أراضي الوادي الكبير،(١) ولم يبق من معاقل مملكة إشبيلية سوى رندة وقرمونة وإشبيلية ومرتلة.(٢) على أنه لم يمض غير وقت يسير حتى سقطت قرمونة بدورها في ربيع الأول عام ٤٨٤هـ/ مايو ١٠٩١م. ثم جاء الأمير سير بن أبي بكر نحو إشبيلية فحاصرها بقوات ضخمة أوحت للمعتمد أنها قضية حياة أو موت، وبسقوطها تسقط مملكته كلها. ولذلك بعث مرة أخرى إلى ألفونسو السادس يستصرخه، وهنا تحرك ألفونسو السادس عندما شعر بخطورة ما يجرى في أسبانيا الإسلامية، وبات ينظر للخطر المرابطي على أنه ليس قاصرا على الممالك الإسلامية، بل يتعداها إلى شبه الجزيرة الأسبانية كلها. ولذا فقد بادر فورا إلى تجهيز حملة على وجه السرعة بقيادة قائده البرهانس اختلف في عددها، وكذلك اختلف في عدد الجيش المرابطي.(٣) والتقت الجيوش المرابطة والقشتالية بالقرب من إشبيلية وانتهى اللقاء بانتصار المرابطين انتصارا باهرا.(٤)

ويفهم من خلال الروايات المتعددة لأحداث حصار إشبيلية عدة أمور منها: أن حصار إشبيلية قد طال إلى نحو أربعة شهور، وأن المدينة قد استبسلت في الدفاع حتى لقد أثارت إعجاب واستغراب القائد المرابطي الأمير سير بن أبي بكر(٥) كما يفهم من سياق تلك الروايات أن ثورة شعبية داخلية قد نشبت في الأيام الأخيرة من الحصار بالتواطؤ مع المرابطين، وقد دعت بدعوتهم وهدفت إلى إثارة

---

(١) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٤٩-٣٥٠

(٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) نفس المرجع، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٤) نفس المرجع والصفحات

(٥) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٧٠ - محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٥١.

جو من البلبلة والقلاقل في المدينة تتيح للمرابطين الدخول إلى البلد في ذروة الانشغال بذلك. غير أن المعتمد الذي وقف على مخططهم هذا لم يشأ أن يعاقبهم بالقتل كما هو متوقع ولكنه آثر الصفح عنهم.[1] كما يفهم أيضا أن ثورة أخرى قد نشبت وكاد المعتمد يذهب ضحيتها قتيلا على يد أحد الفرسان المرابطين الذين استطاعوا بمساعدة أولئك الثوار أن يتسللوا إلى المدينة، غير أن المعتمد بذل جهدا واضحا في الدفاع عن نفسه وعن مدينته؛ إلا أن الأمير سير وضع خطة عسكرية تهدف إلى إحراق السفن الراسية في شاطيء الوادي الكبير. فقد وضع هذه الخطة لتصادف في الوقت نفسه الثورة الداخلية بوساطة أعوانه هناك وبالفعل ما كاد يتنفس المعتمد الصعداء في ذلك اليوم الذي نشبت فيه الثورة الثانية حتى كانت القوات المرابطية قد أنهت مهمتها في إحراق السفن في عصر ذلك اليوم نفسه، وهو الثاني والعشرين من شهر رجب ٤٨٤هـ/ سبتمبر ١٠٩١م.[2] وعم الفزع والرعب سكان المدينة وبذل المعتمد جهده في الدفاع واستمات في سبيل ذلك. وعندما يئس من المقاومة عنّ له أن ينتحر ويقتل نفسه بيده ولكنه عاد بعد ذلك (فصرفه تقاه عما كان نواه).[3] وسقطت المدينة أخيرا في يد المرابطين وقتل في أثناء ذلك عدد كبير من الجيش الإشبيلي وأفراد من الشعب. كما قتل ابن للمعتمد اسمه مالك، أما المعتمد فقد قبض عليه وقيد وكبل وانتهب الجنود القصور الفخمة وجميع ما قدروا عليه.[4]

---

(١) عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٠-٢٠٢

(٢) هذا هو التاريخ الصحيح كما جاء في رواية عبدالله بن زيرى المعاصرة، وكما ورد في الروايات النصرانية التي تؤرخ ذلك بتاريخ ٧ سبتمبر الموافق تماما للتاريخ الهجرى المذكور كما يقول محمد عبدالله عنان.

انظر: عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٧٠ - محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٥٢، ح١ من نفس الصفحة

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٢٢-٢٥.

(٤) يرجع في أخبار ثورة وسقوط إشبيلية إلى:

- عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ - ابن بسام: المصدر السابق، القسم =

وهكـذا كانت نهاية هذا الملك الذي كان يعتبر وقتها أقوى ملوك الطوائف، وتعتبر مملكته أكبر تلك الممالك وأقواها، فسقطت سراعا في مدة يسيرة. وهذا إنما يدل على وهن الأساس الـذي قامت عليه، وعلى ما أصابها من تصدع داخلي اجتماعي خطير جعـل السكـان يتـوقـون إلى استبدالها بعد أن ملّ الناس هذه الدولة،(١) وضجوا بالشكوى من تصرفات وسياسات ملوكها التي تستنزف الموارد والمحاصيل.

وقـد أشرنـا إلى أن فرقـة من الجيش المرابطي توجهت بقيادة قرور أو جرور الحشمي إلى رندة لمحاصرة يزيد الراضي بن المعتمد وحاصره فعلا. وامتنع هذا بالقلعة، وكانت رندة حصينة تماما بتحصيناتها الطبيعية والبشرية، ولذا فلم يكن في إمكان المرابطين الاستيلاء عليها بسرعة لأنها كانت قادرة على مواصلة المقاومة طويلا بفضل ما كان لها من حصانة. وقد حاصرها المرابطون في الوقت الذي كانوا يحاصرون فيه إشبيلية، وعندما سقط المعتمد أسيرا في يد المرابطين، امتنع يزيد الراضي فيها ولم يصغ لنداءات المرابطين له، وصمم على المقاومة حتى النهاية، غير أنـه استجـاب لنـداء أبيه له واستعطافه إياه. ويبدو أن المعتمد تعرض لضغط مرابطي شديد ليكتب إلى ابنه بالاستسلام، فاضطر الابن تحت إلحاح والده وبعد تأكيدات من المـرابطين بضمان حياته هو وأولاده وخاصته إلى النزول عن المدينة وتسليمها إلى القائد المرابطي، غير أن هذا القائد ما لبث أن غدر به فقتله.(٢)

=الرابع ـ المجلد الأول، ص ٤٢، وص ٤٥ـ٤٦. ـ عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٧٠ ـ ١٧١. ـ على بن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٠٠ـ١٠١. ـ ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٢٣ـ٢٥. المقرى: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٧٨ـ٣٧٩ (نقلا عن ابن اللبانة معاصر تلك الأحداث). ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٦٤ـ١٦٥، والإحاطة، ج٢، ص ١١١ـ١١٢. ـ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٥٠ـ٣٥٥.

(١) المقرى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٧٨.

(٢) انـظر عبـدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٧١. ـ عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٣ـ٢٠٤. ـ ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٢٢ـ٢٣.

ويحمل ابن زيرى [1] على عدوه قرور ويتهمه بالقيام بأعمال شنيعة في رندة. ولكن ما يهمنا هنا هو أن رندة قد سقطت في يد المرابطين، وأنهم لم يفوا بتعهداتهم نحو الراضي فقتلوه.

أمـا مدينة مرتلة أو مردلة التي تحصن بها الابن الثالث للمعتمد وهو الملقب بالمعتد، فقد حاصرته القوات المرابطية، فامتنع بها وتحصن. وكانت مرتلة منيعة حصينة على غرار حصانة رندة، ولكنه استجاب لنداء أبيه ووالدته اعتماد الرميكية، فنزل عن المدينة للمرابطين، فقبضوا عليه، وصادروا جميع أملاكه وأمواله. [2]

وبهذه النهاية زالت دولة بني عباد في عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م بعد حكم ناهز سبعين عاما، كانت فيه دولة بني عباد درّة الممالك الإسلامية في الأندلس آنذاك وأقواها وأبرزها رونقا وبهاءً، وحمل المعتمد بآله وأهله إلى المغرب الأقصى حيث استقر به المقام هناك في مدينة أغمات، يتجرع المرارة والأسى، ويجتر الذكريات السعيدة لملكه وهنائه.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنه قد جرت محاولة فاشلة لإعادة سلطان دولة بني عباد قام بها ابنه عبدالجبار الذي استقر بمدينة آركش مدة من الزمن وتحصن بها، غير أن هذه المحـاولـة باءت بالفشـل والخـذلان، وقتل عبدالجبار على يد المـرابطين وسحقت ثورته. وقد تركت ثورته هذه مضاعفاتها السيئة على أبيه في منفاه، فشدد المرابطون عليه الخناق، وخاف المرابطون من جراء ذلك أن تؤدي تلك الثورة إلى أحداث وردود فعل أخرى؛ فاشتطوا في معاملته وتقييده وتكبيله. [3]

ويبقى أخيرا في قصة مأساة المعتمد ما اتهم به ظلما وعدوانا، وما لحق بشخصه من فرية واختلاق، أعني بذلك قصة زايدة (ابنة المعتمد) التي عرضت قضيتها

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٧١

(٢) عبدالواحد المراكشي: نفس المصدر السابق، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) انظر ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٢٨-٢٩. المقرى: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤٩-٣٥٠.

كتب المؤرخين النصارى قديما.[1] ولقد عرضت قضية زايدة (ابنة المعتمد) كما يزعم أولئك المؤرخون وسط ستار من الشك والتضليل. وقد ظلت هذه القضية مثار جدل منذ القرن الثامن عشر الميلادي وحتى أوائل القرن العشرين[2] عندما أثبت البحث العلمي خطأ ذلك الاعتقاد، وأثبت أن زايدة ليست ابنة المعتمد، كما أثبت البحث العلمي أن المعتمد لم يقدم زايدة ولا غيرها إلى ألفونسو كما تزعم الروايات النصرانية المذكورة.

وخلاصة تلك القضية أن الروايات النصرانية تشير إلى أن المعتمد عندما رأى خطر المرابطين يحدق بمملكته اتصل بألفونسو وعرض عليه أن ينزل له عن قونقة، وويذة، وأقليش وأوكانيا، وكونسويجرا، وغيرها من الأماكن، كما أنه قدم له ـ وهنا مكان التشكيك والتضليل ـ ابنته زايدة لتكون زوجة له. كل ذلك مقابل أن يساعده في مواجهته للمرابطين. وبالفعل وافق ألفونسو على ذلك وتزوج زايدة وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو الذي قتل في موقعة أقليش[3] عام ٥٠١هـ/

---

(١) الواقع أن المؤلفات الأسبانية هي التي أشارت إلى هذه القضية. ولم تشر أية رواية إسلامية لهذه الأحداث إطلاقا اللهم إلا الروايتين اللتين اعتمد عليهما ليفي بروفنسال في تحقيقه لشخصية زايدة، وهي رواية ابن عذارى في كتابه البيان المغرب في أخبار سنة ٥٠١هـ (١١٠٨م)، وكذلك رواية الونشريشي صاحب كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب من فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، طبع فاس سنة ١٣١٤هـ. نقول: عدا هذين النصين في المصادر الإسلامية لم تشر إلى تلك الأحداث، إلا الروايات النصرانية: كمدونة الأسقف رودريج الطيلطلي المؤرخ الرسمي في عهد الملك فرديناند القديس والتي وضعها عام ١٢٤٣م وهي رواية بعيدة عن الأحداث تماما، وكذلك رواية للمؤرخ بلايو أوفيدو معاصر ألفونسو والتي رواها من بعده أسقف توى فى كتابه: Chronicon Mundi الذي يعود إلى عام ١٢٣٦م. حتى لقد نشأ في ظل تلك الروايات النصرانية ما يعرف بملحمة زايدة المسلمة:

انظر: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٥٥.

(٢) ليفي بروفنسال: نفس المرجع، ح ٢، ص ١٥٣.

(٣) تسمى معركة أقليش في كتب التاريخ المسيحية باسم: معركة القوامس السبعة لاشتراك سبعة من كبار قوامس قشتالة فيها.

انظر: ابن القطان، نظم الجمان، ح ١، ص ٧.

١١٠٨م، بين المرابطين والنصارى والتي انتهت بانتصار المرابطين.[١] ولقد أشارت تلك الروايات النصرانية أيضا إلى أن المرابطين عبروا إلى الأندلس لمحاربة المعتمد ومعاقبته لأنه زوّج ابنته لألفونسو.[٢]

وفي الحقيقة أن ليفي بروفنسال قد استوفى في كتابه «الإسلام في المغرب والأندلس» جميع ما ورد حول هذه القضية. ووصل إلى خلاصة منطقية وتاريخية قاطعة بأن المرأة التي أشارت إليها المراجع النصرانية قديما وحديثا ليست ابنة المعتمد، بل كنّته أي زوجة ابنه الفتح الملقب بالمأمون حاكم قرطبة الذي قتل كما قلنا على يد المرابطين. ولقد ذكرنا أن الفتح عندما رأى محاصرة المرابطين له بعث بزوجته وأبنائه إلى حصن المدّور، وتدعى هذه الزوجة زايدة فعلا. ومن هنا ربما اختلط الأمر على المراجع النصرانية، فجعلتها ابنة المعتمد. وعندما رأت زايدة المرابطين يطبقون على حصن المدّور بعد مقتل زوجها الفتح، توجهت فارة بنفسها وأولادها إلى قشتالة، فدخلت في حماية ألفونسو السادس، وهناك استطاع ألفونسو إغراءها وإقناعها بأن تكون خليلة له. وأثمر هذا اللقاء عن إنجاب زايدة مولودا ذكرا سمي بسانشو، وكان الابن الوحيد لألفونسو. وقد تنصرت زايدة، وعمدت باسم إيزابيلا، وفي رواية أخرى باسم ماريا. وقد توفيت زايدة عند ولادتها ابنها سانشو عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. ثم لحق بها ولدها سانشو ولمّا يتجاوز العاشرة من عمره في موقعة أقليش كما أشرنا منذ قليل.[٣]

وهكذا استطاع ليفى بروفنسال أن يثبت أن التي اتخذها ألفونسو عشيقة وخليلة هي زايدة كنّة المعتمد وليست ابنته. ونفى بالأدلة المنطقية التي لا تجيز وقوع ذلك عقلا من أمير مسلم كان في ذلك الوقت على خلاف مع فقهاء حضرته وفقهاء الأندلس عموما حدوث ذلك، كما أثبت بالأدلة التاريخية الإسلامية حقيقة شخصية زايدة،[٤] كما أن من المفيد أن نذكّر هنا بالمرافعة المنطقية والتاريخية التي وردت في

---

(١) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٥٢-١٥٤.

(٢) نفس المرجع، ص ١٥٦.

(٣) انظر ليفى بروفنسال: المرجع السابق، ص ١٥٤، وص ١٥٧، و ص ١٦٠.

(٤) انظر النص في المرجع السابق، ص ١٥٢-١٦٢. والحواشي

كتاب دول الطوائف لمحمد عبدالله عنان.[1]

غير أن هذه القضية رغم كونها قد بتّ فيها منذ العقد الثالث من القرن العشرين، إلا أن هناك من المؤرخين الأسبان المعاصرين من لم يقتنع بعد بحقيقة ذلك كالمؤرخ الأسباني رامون مننندث بيدال صاحب كتاب أسبانيا في عهد السيد،[2] كما وجد من المحدثين العرب من لم يقتنع بذلك أيضا.[3]

الأيام الأخيرة في حياة المعتمد بالله:

استولى المرابطون على إشبيلية، واستولوا من قبل على قرطبة وبقية معاقل المملكة العبادية، وقتل في أثناء تلك المواجهة المسلحة بين المرابطين والعباديين بعض أبناء المعتمد؛ فبكاهم أحر بكاء، وسيق هو وبقية عائلته إلى المغرب الأقصى، وعبر البحر نحو طنجة. ثم استقر به المطاف أخيرا في مدينة أغمات[4] حيث عاش في شظف من العيش مدة أربع سنوات تقريبا من عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وهو العام الذي خلع فيه كما قلنا حتى عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[5] الذى توفى فيه ولم يتعد السادسة والخمسين من عمره على الأرجح.[6]

---

(١) ص ٣٤٥-٣٤٨ والحواشي

(٢) انظر ليفي بروفنسال: نفس المرجع، ص ١٥٢-١٦٣ مع الحواشي في نفس الصفحات أيضا

(٣) انظر مثلا: حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٠٤، وح ١٠ من نفس الصفحة.

(٤) أغمات بليدة وراء مراكش (في المغرب الأقصى) بينهما مسير عشر ساعات، وهي الآن قرية صغيرة.

انظر: عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٥) اتفقت أقوال معظم المؤرخين أن وفاة المعتمد كانت في عام ٤٨٨هـ.

انظر مثلا: ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني - المجلد الأول، ص ٤٦. وكذلك ح ١ من نفس الصفحة. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مجلد ٢، ص ١١٩. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءا، ج ٥، ص ١٥٧.

(٦) ذلك لأن البعض قال إنه كان يبلغ عند وفاته الحادية والخمسين، وقال البعض الآخر الخامسة والخمسين، وقال عبدالواحد المراكشي الحادية والستين، وكان قد قال قبل ذلك الحادية والخمسين. غير أن الثابت أنه ولد عام ٤٣١هـ في حياة جده القاضي أبي القاسم.

انظر: عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٧، وكذلك ح ٣ من نفس الصفحة.

وبهذه النهاية المأساوية أفل نجم ذلك الملك الغرّيد المترف الأديب السياسي الذي أثار بأعماله وسياسته من الإشفاق والعطف عليه أكثر مما أثار من النقد والقدح له. أفل نجمه وغابت شمسه التي كانت تسطع في سماء الأندلس عطرا وشذى وألقا أدبيا رفيعا. وسيق إلى منفاه في مشهد حزين رقت له القلوب وسالت فيه العبرات. وأذكت مأساته هذه ومحنته التي اتخذت مسحة روائية كإنسان طريد منفى فقير بعد العزة القعساء والملك الفسيح والمجد الأثيل والذكر التالد. نقول أذكت مأساته ومحنته هذه عطف المؤرخين والأدباء والناس قديما وحديثا، واستدرّت لفترة طويلة من الزمن عطفهم وحنوهم عليه.(١)

والحقيقة أن ما آلت إليه نهاية المعتمد تحز في النفس وتؤثر في الحشا. فلقد عُومل للأسف بقسوة لا معنى لها من قبل يوسف بن تاشفين والمرابطين على السواء، معاملة لا تليق بملك مخلوع أذلّه الزمن. ولم يراع يوسف بن تاشفين معاملته بما تستوجبه الشريعة من الرحمة بكبير أو عزيز في القوم خاصمه الزمن وأذله. ويكفي أن نشير في وسط ذلك الكم الكبير من العاطفة الجياشة نحو المعتمد الذي تناول فيه أولئك المؤرخون والأدباء حياته في المنفى، يكفي أن نشير إلى عدة حقائق مؤلمة مرة، منها أن المعتمد عاش للأسف الشديد طوال مدة النفي تلك في فاقة وعوز شديدين، وضيق عليه المرابطون الخناق وكفوا عنه أسبابا من المعيشة لا تليق حتى بلغ (من حال المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظياته وأكبر بناته ألجئت إلى أن تستدعى غزلا من الناس. تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها، كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه إلا في ذلك اليوم).(٢) هل كنا نصدق ـ لو لم يشر المعتمد نفسه لذلك ـ (٣) أن يبلغ ضيق ذات اليد والحال بالمعتمد وبناته أن يعملن في

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص ٥٨-٥٩. على أدهم المرجع السابق، ص ٣٣٥-٣٣٦

(٢) عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٣) انظر ابن خاقان: القلائد، ص ٢٧-٢٨. عبدالواحد المراكشي: نفس المصدر السابق، ص ٢١٨

الغزل والنسيج ؟؟ . وهل كنا نصدق أن تبلغ به وبأبنائه الفاقة إلى أن يعمل أبناءه في الحدادة أو الصياغة؟؟ . [1] هذا ما حدث فعلا ورواه المعتمد في أشعار باكية حزينة .

والحقيقة المؤلمة الثانية في نهاية المعتمد الفاجعة أن المعتمد عومل بقسوة شديدة من قبل يوسف بن تاشفين الذي كان يكن له حتى وقت قريب كل أمارات الود والإعجاب . [2] ولكن هذا الود والإعجاب انقلب إلى كره عميق وقسوة بالغة ليست مستساغة إطلاقا . إذ يذكر المعتمد نفسه أن يوسف بن تاشفين لم يكتف بإذلاله بالعيشة الضنكة التي رتبها له وقبل ذلك نفيه واستيلائه على ملكه ؛ لم يكتف بذلك بل وكبله بالأغلال والقيود معظم أيامه تلك زيادة في إهانته وذله . [3] وهو موقف غير محمود من أمير المسلمين . ومما يزيد الاستياء أكثر أن يوسف بن تاشفين قد صدر في معاملته للمعتمد تلك عن تحيز وكره عنصري . وإلا فما الفرق بين المعتمد وعبدالله وتميم ابني زيرى البربريين؟؟ فقد عامل يوسف بن تاشفين عبدالله وشقيقه معاملة حسنة وفك إسارهما وأطلق لهما بعض أموالهما وأجرى عليهما رزقا كفاهما معرة السؤال والإلحاف . حتى أن عبدالله بن زيرى عاش عيشة هنية كما يقول هو نفسه وأنجب أولاداً وبناتٍ ومات وقد ترك لهم ثروة لا بأس بها . [4] أما المعتمد فقد عامله بغير ذلك كما رأينا وكذلك عامل أمراء بني الأفطس الذين قضى عليهم . مما جعل مسألة اتهامه بالتحيز والعنصرية مطروحة للتساؤل . بل وقد نقص إعجاب بعض المؤرخين بيوسف بن تاشفين لمعاملته الفظة للمعتمد ، حتى لقد حمل عليه

---

(١) انظر المقرى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦-٣٣٧ (نقلا عن ابن اللبانة) .

(٢) كما جاء في رسالة يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس أمير أفريقية المذكورة سابقا التي يمدح فيها المعتمد ويثني عليه .

انظر : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٤٦-٢٤٨ .

(٣) انظر ، ابن خاقان : القلائد ، ص ٣٣-٣٤ . رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ص ١٧٦ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ح١ ، ص ٣٨١ .

بعضهم في ذروة تعاطفه مع المعتمد بعبارات قاسية غير مستساغة.[1] كما استغل المؤرخ الهولندي دوزى[2] ذلك الموقف فاتهم يوسف بأنه كانت تنقصه فضيلة الشهامة إزاء المغلوبين.

على أنه يجب أن ننبه إلى أن دوزى كان يصدر في حكمه ذلك عن بغض يكاد يكون شخصيا، لأن إعجابه بالمعتمد بن عباد جعله يكره من خلعوه عن عرشه.[3]

والحقيقة الثالثة المؤلمة أنه حتى وإن كان للمعتمد أخطاء مميتة وقاتلة - وإنها في بعضها لكذلك، فإن الأمر يقتضي من الناحية الإنسانية البحتة حسن المعاملة والحفاظ على الكرامة والعزة من أن تداس وتمرغ. هذا فضلا عن الناحية الدينية التي تفرض كما قلنا على الغالب معاملة المغلوب بالحسنى وتفرض كذلك الرحمة والرأفة به. ثم إذا كان يوسف بن تاشفين قد أخذ على المعتمد استعانته بالنصارى وتأليبهم على المسلمين فيجب عليه حينئذ أن لا يفرق في المعاملة بين أمراء وملوك الطوائف الذين وقعوا في الخطأ ذاته، ومع ذلك وضع يوسف بن تاشفين يده في أيديهم. ونعنى بني هود في سرقسطة فقد صانعهم أمير المسلمين وهادنهم وهم الذين لم يستعينوا بألفونسو فقط، بل واستعانوا من قبل ومن بعد بممالك النصارى المجاورة كنبرة وأرغونة وبرشلونة، كما استعانوا بالسيد القمبيطور لتحقيق أغراض ذاتية ضيقة كما قلنا. ومع هذا فقد صانعهم يوسف بن تاشفين وهادنهم وأبقى على مملكتهم بل وبعث للمستعين بن هود يطمئنه ويهدىء من روعه.[4] وألح على ابنه وولي عهده على أن يصانع أمراء سرقسطة ويهادنهم حتى يكونوا فيصلا وحاجزا بينه

---

(١) نعنى بذلك ابن الأثير. انظر النص في كتاب: المعتمد بن عباد لعلي أدهم، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢) ملوك الطوائف، ص ٣٦٤

(٣) حسين مؤنس: بحث بعنوان: سبع وثائق جديدة، ص ٥٧.

(٤) كما تشير إلى ذلك الخطابات المتبادلة بين يوسف بن تاشفين والمستعين بن هود التي تطمئن المستعين، وتظهر رضاء يوسف عليه.
انظر، مجهول: الحلل الموشية، ص ٥٩-٦١

وبين النصارى.[1] وفي هذا ما يثير التساؤل. وإلا ألم تكن قوة المرابطين الفتية بقادرة على مواجهة ممالك النصارى والوقوف أمامها وجها لوجه مطمئنة هذه المرة على نفسها من أن تطعن من الخلف أي من ملوك الطوائف الذين انمحى أثرهم وذهب رسمهم؟؟.

والحقيقة الرابعة أنه لم يكن هناك مبرر لتلك القسوة حتى من الناحية الأمنية المحضة، فالمعتمد لم يكن له ثقل سياسي أو عسكري في الأندلس يخشى منه. وبمعنى آخر لم يكن المعتمد حاكم عموم الأندلس الذي تجمعت القلوب حوله، فالمعتمد لم يزد على أن يكون أحد ملوك تلك الممالك الكثيرة التي كانت تموج بها الأندلس وقتها. نعم هو أعظم ملوك الطوائف ودولته كذلك ولكنه في كل الأحوال لم يكن إلا حاكما إقليميا لمنطقة معينة من الأندلس لم تكن هي نفسها تُكن المودة والمحبة للمعتمد وآله. إذا فليس هناك ثقل سياسي أو عسكري يخشى منه يوسف ابن تاشفين فيضطر حذرا إلى معاملته بتلك القسوة وإفهام مؤيدي المعتمد بعقم جدوى التفكير بأي محاولة لإعادة سلطانه وسيطرته على أراضي مملكته الذاهبة. بل إن الرعية رغم ما أظهرته من تعاطف مع المعتمد عند خلعه وخروجه من عاصمته كانت تتوق إلى التخلص من العباديين ومن كل ملوك الطوائف جملة، وتتوق أيضا إلى الانضواء تحت السلطة الإسلامية العادلة الجديدة.[2] حتى ثورة ابنه عبدالجبار في آركش لم يكن لها أي مضمون سياسي واسع. صحيح أن عبدالجبار استطاع أن يجتذب إليه أعدادا كبيرة من المؤيدين والمنافحين، ولكنه لم يدع يوما من الأيام باسم أبيه، ولم تكن ثورته على عنفها لتؤلب الأندلسيين جميعا ضد المرابطين وتفرض على يوسف كارهـا أن يطلق سراح المعتمد ويعيده إلى عرشه مثلا. فهي مجرد وفورة غضب لم تلبث يسيرا حتى تلاشت بمقتل عبدالجبار. ومع هذا فقد عومل المعتمد بعد ثورة ابنه معاملة أقسى كثيرا من سابقتها.[3]

---

(١) انظر، محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٣٧٢.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص ٣١. عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٠٩

(٣) على أدهم: المرجع السابق، ص ٣٠٧.

وعلى أي الأحوال فقد ظللت هذه المعاملة القاسية المهينة للمعتمد تاريخ يوسف بن تاشفين المشرق وسجله الناصع بظلال قاتمة داكنة. وقد شقى المرابطون كما يقول عبدالقادر زمامة بقضية المعتمد، وكيل لهم بالحق والباطل ما نشاهده في آثار الأقلام الشرقية والغربية [١]. وغدت مسألة تلك المعاملة جزء لا يتجزأ من تاريخ يوسف تواجه كل من تعرض لتاريخ يوسف بن تاشفين بالكتابة والقراءة، أو تعرض للأحداث السياسية التي لازمت سقوط ممالك الطوائف.

وقد حمل بعض من المؤرخين والأدباء قديما وحديثا على يوسف بن تاشفين واتهموه بأوصاف نأبى أن نضمنها رسالتنا، ومن هؤلاء المؤرخين القدامى ابن الأثير[٢] الذي أساء إلى يوسف إساءة بالغة، ومن المستشرقين دوزى، [٣] أما من الأدباء المحدثين، فقد كتب الشاعر المصرى أحمد شوقي مسرحية شعرية عنوانها (غانية الأندلس) تتعرض لنكبة المعتمد ونفيه في عبارات يشوبها التهكم والحقد على المرابطين ويوسف بن تاشفين بالذات.

وقد انبرى بعض الأدباء والمفكرين المغاربة حديثا إلى الرد على أولئك الذين اتهموا يوسف بن تاشفين، فقد كتب مصطفى القصرى مقالا في مجلة: البحث العلمي المغربية عنوانه: الشعر في خدمة الحقيقة والتاريخ، وقد انصب في أساسه على الرد على أحمد شوقي الذي كتب مسرحية غانية الأندلس وعاب عليه أن يسخر الفن لخدمة الفن وحده بدلا من أن يسخره لخدمة الحقيقة والحياة. وكانت مناسبة هذا المقال هو أنه قد عرضت في مدينة مراكش عام ١٩٣٣م مسرحية غانية الأندلس على مسرحها الشعبي. فانبرى شاعر مراكش آنذاك محمد بن إبراهيم إلى الرد على أحمد شوقي، فكان من جملة ما نظم معترضا لمحنة المعتمد:

---

(١) عبدالقادر زمامة: مقال بعنوان المعتمد بن عباد في المغرب، مجلة تطوان، العدد الخامس، السنة ١٩٤٥م، ص ٣٠

(٢) انظر النص فى الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦.

(٣) انظر قبل، ٣٥٦

بني العرب أوطانا بني الشرق وحدة بنى الضاد، أبناء الحنيف بني المجد!
يعز علينا القصر يفقد مجده ويمسى ابن عباد به نحس السعد
يعز علينا أن نراه مصفدا يساق إلى أغمات يوسف في القيد
ولكن لنصر الدين دين محمد وإنقاذه من بؤرة الهلك والنكد
نضحي بعباد وآخر كابنه ومثله ممن لا يفيد ولا يجدي[1]

وقد أوحت هذه الأجواء لمصطفى القصري كتابة مقاله المذكور، وقد تناول مسألة معاملة يوسف للمعتمد بالتحليل والتعليل. وأورد نقاطا مهمة جيدة كتساؤله في معرض حديثه عن نية يوسف في خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد، فقد قال (ولما تحقق المعتمد من نوايا يوسف لم يقل مرة ثانية بأنه يفضل: رعي الجمال عند أمير المسلمين على رعي الخنازير عند ملوك النصارى، بل فضل رعي الخنازير واستنجد بألفونسو الذي ما كان أسرعه لتلبية طلبه)[2]، ومن هذه النقاط أيضا التي أخذها القصري على المعتمد ـ وهو على حق في هذا ـ ما تفاخر به المعتمد ذات مرة:

وأغدو إلى فعل المعاصى مهرولا وإن أطلب الطاعات فالقيد في رجلي[3]

ومع هذا فإن القصري لم يتخل عن مغربيته في معرض تحليله لهذه القضية، وكان عليه أن ينظر للأمر من كل جوانبه كما نزعم أننا قد فعلناه.

بقي أن نشير أخيرا إلى حياته اليائسة في المنفى، فقد رصدتها كتب الأدب قديما وحديثا بدرجة أوسع ورصدتها كتب التاريخ بدرجة أقل، كما أذكت حياته هذه شاعريته وأججتها، وقد نفي كما ذكرنا إلى أغمات وأقام فيها كما يقول على أدهم[4]

---

(١) مصطفى القصرى: مقال بعنوان الشعر في خدمة الحقيقة والتاريخ، مجلة البحث العلمي المغربية، المركز الجامعي للبحث العلمي، العدد الأول، السنة الأولى، أبريل ١٩٣٤، ص ١١٢-١٢٨.

(٢) انظر، مصطفى القصرى: المقال السابق، ص ١١٤

(٣) انظر، مصطفى القصرى: نفس المقال، ص ١٢٨

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩٢

(أسيرا قد ضيق عليه، كاسف البال كسير القلب، يسام سوء المعاملة ويتجرع مرّ الهوان وتزدحم على خواطره الهموم، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف، وليس إلى جانبه صاحب ولا خدين يفضى إليه بآلامه ومواجعه، ويطارحه الحديث الذي يرفه به عن نفسه، ويخفف من أساه ولوعته، ولكنه مع ذلك كان يتجلد ويتماسك، ويتذرع بالصبر).

ومما كان يؤنس وحشته ووحدته زيارة بعضٌ من شعراء دولته الأوفياء الذين أذهلتهم نهايته وأدهشتهم محنته، فقدموا عليه في ظل تلك الظروف الدقيقة الحرجة، ووفدوا عليه (وفادة وفاء لا وفادة استجداء). [1] فمدحوه وشدوا من روحه المعنوية وعزيمته، وتكررت زيارات بعض منهم له. كالشاعر أبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة الذي ألف كتابا في أيام بني عباد والبكاء على انتثار نظامهم وضمنه مقطوعات شعرية فى رثائهم ومدحهم وسماه «نظم السلوك في مواعظ الملوك»، كما ألف كتابا آخر غيره هو كتاب «سقيط الدر، ولقيط الزهر»، وكلها كتب مفقودة للأسف تعرضت لتاريخ بني عباد من نشأة دولتهم حتى نهايتها. وكانت زيارات هؤلاء الشعراء الأصفياء توقد ليله القاتم وتبعث فيه ضياء متألقا لا يلبث أن يخبو سريعا بعد مفارقتهم إياه.

وعندما أحس بنهايته وشعر بدنو الأجل نظم قصيدة باكية أمر بكتابتها على قبره ويقول مطلعها:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد[2]

ولن نمضى طويلا في تتبع أيامه الأخيرة فقد رصدتها كتب الأدب والتاريخ قديما وحديثا[3] كما قلنا، وكان فيها من المآسي والفاجعات ما لا تحتاج معه إلى خيال ناثر ومبالغة شاعر.

---

(١) ابن خلكان: المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥.

(٢) رضا الحبيب السويسى: المرجع السابق، ص ١٨٧

(٣) للاطلاع على مزيد من حياة المعتمد في المنفى تراجع الكتب التالية:

- ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني المجلد الأول، ص ٤٦-١٩٤. والقسم الرابع =

وتوفى المعتمد أخيرا في شهر شوال عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م.

وكانت جنازته متواضعة مهيبة. وكان من المفارقات كما يقول ابن بسام أو (من النادر الغريب أنه نودى في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء). [1] وقد ظل قبره لفترة من الزمن مزارا لعدد كبير من محبيه على مر العصور. [2]

= المجلد الأول، ص ٤٦-٦٧. ابن الأبار: المصدر السابق والجزء ص ٥٨-٧٠. المقرى: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٣-٢٣٨. ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ١١٢-١٢٠. رضا الحبيب السويسي: المرجع السابق، ص ١٤٧-١٩٤. صلاح خالص: المعتمد بن عباد الإشبيلي: ص ١٨٢-٢٥٠. على أدهم: المرجع السابق، ص ٢٨٥-٣٢٧. عبدالوهاب عزام: المرجع السابق، ص ٧٢-٨٤. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص ٥٣٣-٥٤٠.

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني - المجلد الأول، ص ٤٦.

(٢) المقرى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٧-٢٣٨، و ص ٣٥٦-٣٥٧.

القضاء على ممالك: ألمرية، وبطليوس، وسرقسطة، وبلنسية وغيرها من ممالك الطوائف

وأخيرا فلن نمضى طويلا في تتبع مجريات سقوط بقية ممالك الطوائف الأخرى، فلسنا معنيين أساساً بهذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تعن كتب المؤرخين القدامى في اسقصاء ذلك، فقد اكتفت في معظمها بتتبع سقوط مملكة إشبيلية بحكم عطفهم على المعتمد من جهة، وبحكم أهميتها القصوى دون هذه الممالك من جهة أخرى. ومع ذلك فإننا نشير فى اقتضاب بالغ إلى أن المرابطين استطاعوا القضاء على استقلال مملكة ألمرية في أعقاب سقوط إشبيلية مباشرة،[1] كما استطاعوا أن يسقطوا الإمارات الصغيرة في شرقي الأندلس ويضموها إلى نفوذهم في عامي ٤٨٤ و ٤٨٥هـ/ ١٠٩١-١٠٩٢م.[2] ثم سقطت مملكة بطليوس بيد المرابطين في عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م بعد أن حاول المتوكل بن الأفطس الاستعانة بألفونسو شأنه شأن المعتمد فلم يفده ذلك. ولم يستطع ألفونسو أن يقدم مساعدته له. وقد سقطت بطليوس بيد المرابطين وقبضوا على ملكها ثم ما لبثوا أن قتلوه هو وولده، وبسقوط بطليوس بيد المرابطين انضوى كل غرب الأندلس تحت سيادة المرابطين.[3]

ولم يبق من ممالك الطوائف في الأندلس التي لم تقع تحت سلطة المرابطين سوى مملكتي بلنسية وسرقسطة. أما سرقسطة فقد أراد المرابطون الإبقاء عليها كحاجز يفصل بينهم وبين النصارى كما أشرنا. وكان هذا من حظ أميرها الذي كان يهدد

(١) ابن الأبار: المصدر السابق، ص ٨٨-٩٠

(٢) انظر، محمد عبدالله عنان، ص ٣٦٦.

(٣) انظر، عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ١٧٢-١٧٤. محمد عبدالله عنان: نفس المرجع أعلاه، ص ٣٦٨-٣٧٠.

النصارى بالمرابطين، ويهدد المرابطين بالنصارى.[١] ولم تسقط مملكة سرقسطة بيد المرابطين إلا في عام ٥٠٣هـ/ ١١١٠م،[٢] وإن بقي بعض أبناء المستعين بن هود يتـولون بعض حصون مملكتهم المنيعة حتى عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م عندما أجبر النصارى هؤلاء على إخلاء ذلك المعقل، وهو مدينة روطة[٣] في الثغر الأعلى.

أما بلنسية فقد تعرضت وقتها لخطوب كثيرة ومحن شديدة أكثر من أي مملكة من ممالـك الـطوائف الأخـرى، وجعلهـا السيد القمبيطور حلبة لممارساته العدوانية وهجماته المركزة. وقد ثارت ثورة ضد القادر حاكمها وذهب ضحيتها أخيرا، ثم تولى إدارة شؤونها القاضي ابن جحاف أحد أعيان بيوتاتها وقاضيها آنذاك. غير أن السيد القمبيطور استـطاع في ذروة انشغـال يوسف بن تاشفين بملوك الطوائف الاستيلاء على بلنسية والقبض على القاضي ابن جحاف ثم أحرقه بعد ذلك في حادثة قل نظيرها في التاريخ البشري عموما، وأصبح هو حاكمها المطلق.[٤]

ولسنا هنا في صدد شرح الأحداث التي وقعت بعد ذلك، فما يهمنا هو الإشارة إلى أن يوسف بن تاشفين لم يستكن إلى الدعة تاركا بلنسية تقع تحت يدي السيد القمبيطور؛ فلم يكن حال يوسف بن تاشفين كذلك ولكن انشغاله بتصفية ممالك الطوائف حال دون تقديمه العون لها. ومع هذا فقد بعث بقواته لمساعدة القاضي ابن جحاف حاكمها الجديد. وابتدأت محاولات المرابطين لنجدة بلنسية في شكل كتائب وفرق قليلة العدد حتى توجه الجيش المرابطي برمته بعد أن انتهى من قضية إقصـاء ملوك الـطوائف واستطاع هذا الجيش بقيادة الأمير مزدلي الاستيلاء على

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٦١

(٢) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٢٩١-٢٩٣.

(٣) روطة Rueda في التقسيم الإدارى الأندلسي كانت تابعة لمدينة سرقسطة (الثغر الأعلى) وهي اليوم تابعة لمديرية وشقة Huesca .

انظر: ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ح ٢، ص ٢٤٦.

(٤) حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، ص ٥٦-٦١.

بلنسية من يد زوجـه السيد القمبيطور الذي كان قد توفى قبل ذلك. وكان تاريخ سقوط بلنسية في يد المرابطين عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م. [١]

وبهذا الاستيلاء على بلنسية دانت معظم الأندلس الإسلامية لدولة المرابطين الفتية وأصبحت العدوتان المغربية والأندلسية دولة واحدة عاصمتها مراكش.

وهكـذا سقـطت ممالـك الطوائف صريعة تصرفات ونزق ملوكها. وسقطت صريعة أهوائها الإقليمية الضيقة، ومطامعها التوسعية التي لا تهدف إلا إلى امتلاء جيوب ملوكها وأمرائها فقط. وقبل ذلك وبعده صريعة بعدها عن جادة الإسلام.

والواقع أن القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي يعتبر من القرون الفاصلة في تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية بقسميها الإسلامي والمسيحي. ولقد شهد أحداثا جساما، وترتب على كل حدث من هذه الأحداث نتائج خطيرة. فلقد شهد هذا القرن زوال الدولة الأموية التي بسطت سيطرتها المركزية على معظم أجزاء شبه الجزيرة الأيبيرية في معظم الأوقات وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن تصدعت وحدة الأندلس ولم تعد قط حتى في ظل المرابطين والموحدين إلى سابق وحدتها وتماسكها. وكانت النتيجة التالية لسقوط الدولة الأموية هي ظهور ممالك الطوائف التي دخلت في منازعات مع بعضها البعض، وشغلت أحداثها ومشكلاتها بلاد الأندلس منذ سقوط الدولة نهائيا عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م وحتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وشهد هذا القرن أيضا اشتداد ساعد الممالك النصرانية وظهور معظمها كإمارات مستقلة مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد منفردة في أحيان كثيرة. ومجتمعة في أحيان أخرى في الأقل. وكان من جراء قيام ممالك النصارى كدول مستقلة أن وضعت هذه الممالك سياسة الاستراداد نصب عينها

---

(١) يراجع في أخبار بلنسية واستيلاء السيد القمبيطور عليها.

ـ ليفى بروفنسـال: الإسلام في المغرب والأندلس، الفصل السادس، والفصل السابع. مع الحـواشي. حسـين مؤنس: البحـث السـابق: المجلة التاريخية المصرية، ص ٣٧ـ٨٤ مع الحواشي. محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ٢٣١ـ٢٥٢ مع الحواشي. شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج ٢، ص ٢٣٥ـ٢٣٦.

ودخلت في نزاع مع ممالـك الطوائف المتفككة المتنازعة وأدى هذا في النهاية إلى حدوث مضـاعفـات خطيرة لهذا التدخل الذي أدى بدوره في النهاية إلى تدخل المرابطين. وكان هذا تحولا عظيما في سير الحوادث أيضا، فقد أدى إلى أن تقع بلاد الأندلس لأول مرة تحت السيادة المغربية وأدت تبعيتها السياسية للمغرب هذه إلى أن تدخل طرفا في نزاع المرابطين مع خصومهم الموحدين في المغرب، ولذا فعندما مالت الكفة لصالح الموحدين في المغرب، دخلت الأندلس في تبعيتهم السياسية حتى سقوط دولتهم في المغرب. وفي خلال ذلك كانت القوى السياسية النصرانية تعمل جاهدة على استرجاع الأراضي والأصقاع شيئا فشيئا من يد المسلمين حتى انتهى بهم الأمر أخيرا إلى أن سقطت الأندلس الإسلامية في أيديهم نهائيا في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وإذا ذهبنـا نتقصى أخـطاء ملوك الـطوائف والأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم، فإننـا نشـير إلى أن قدر الأنـدلس بحكم جغـرافيتهـا وبحكم وضعها الاجتـماعي هو الـوحدة، والوحدة المركزية المستندة على قوة حكم مركزي، أما التفتت والتجزؤ فهو شيء شاذ، فالقاعدة هي الوحدة وما عداها هو الشاذ. أما عن أخطاء ملوك الطوائف التي أسهمت في التعجيل بسقوط دولهم فهي عديدة ولن نجد في هذا المقام أبلغ من عبارات مصطفى الشكعة في وصف ملوك الطوائف إذ يقول (لقد أسقطوا أنفسهم بأيديهم وليس بأيدي أعدائهم، لأن الذي يعطي عدوه وسائل الغلبة ويسلمه أدوات الانتصار بتصميمه على بث التفرقة وإنماء التباعد، وتـوسيع شقة الخصام، ومحاربة أخيه وابن عمه والاعتداء على بني قومه في عقر دارهم، والتوسع على حسابهم فتحا وأرضا عوضا عن أن يبسط يده للاتحاد ويفتح قلبـه للحب ويشـد أزر أخيه ويؤلف قلبـه، وينطلق الجميع صفا واحدا لحرب العدو. أقول إن الذي يصنع ذلك بإشعال نار الفرقة وإشاعة روح البغضاء، وإثارة الحرب بين الأهل، والانصراف عن مد جسور المودة والمحبة بينهم فضلا عن إيقاع الظلم والكبت بمواطنيه وفرض الجور والطغيان على محكوميه ومصادرة حرياتهم وسلب أمـوالهم وفرض الحرمان والفقر عليهم فرضا. نقول إن مثل هذا الحاكم يكون هو نفسه صانع الهزيمة بقومه، ويكون هو نفسه مقدم النصر هدية لأعدائه

وأعـداء قومـه، ولقـد فعـل بعض زعماء المسلمين ذلك في الأندلس، فضاعت الأندلس بمجدها، وباء المتقاعسون أو الطامعون من زعمائها بعار الهزيمة ولعنة التاريخ)[1].

كما لن نجد في وصف حالة البذخ واللهو التي كان عليها ملوك الطوائف أفضل من عبارات السياسي الأديب الفقيه ابن حزم فيما ينقله عنه محمد كرد علي عندما يصف انشغال هؤلاء في اللهو (وهمة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه)،[2] كما لا نجد أفضل من كلام ابن بسام فيما ينقله عنه حسن محمود في شرح واقع ملوك الطوائف (ولم يزل إدبارهم على ما ذكرت يستشرى، وعقارب بعضهم على بعض تدبّ وتسرى حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله في إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم، فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال واستمر ينثر نجومهم ويطمس رسومهم . .)[3].

وفي الحقيقة إن كل شيء كان يؤذن بالخطر في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ زمن طويل وحتى قبل سقوط طليطلة وما أدى ذلك إلى أحداث متعاقبة انتهت بسقوط ممالك الطوائف. ذلك لأننا لو عدنا قليلا إلى الوراء، لهالنا أن نعرف بأن حادثة سقوط طليطلة وما تبعها من أحداث جسام كانت ستحدث في عهد الملك فرديناند الأول والد ألفونسو السادس.

فلقد رأينا هذا الملك يشدد ضغطه على ممالك الطوائف ولا سيما الكبرى منها، ويلعب بورقة المساعدات والاستصراخ به للحصول على ما يريده. وبدأ يترجم في كثـير من أعـماله وغزواته ضد المسلمين لما رسمه من سياسة واضحة تهدف إلى استرداد أراضي الآباء والأجداد كما يزعم، وكانت حراجة الوقت ودقة الظروف في ذلك الوقت تنذر بالخطر الماثل المحدق، ولكن العناية الإلهية أخرت أو أجلت ذلك السقوط بوفاة فرديناند نفسه، فتنفس المسلمون الصعداء.

---

(١) الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص ٥٠٧-٥١٠

(٢) الإسلام والحضارة العربية، ط٢ ج١ ، ص ٢٦٦.

(٣) قيام دولة المرابطين، ص ٢٩٧.

وقد وقع فرديناند في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه سانشو العظيم من قبل وهو تقسيمه مملكته بين أبنائه كما ذكرنا سابقا. وقد استقر الأمر أخيرا بعد خطوب كثيرة لألفونسو السادس وغدا بعد ذلك الملك الأقوى والأكثر نفوذا في أسبانيا كلها بعد أن انضوت تحت حكمه معظم مملكة أبيه، وأصبح خطره يلاحق كل ملوك الطوائف. واختط لنفسه كما قلنا سياسة تقوم على تجويع أعدائه وامتصاص قواهم العسكرية والمالية حتى يسهل عليه بعدئذ الانقضاض عليهم وبذلك رأيناه يغدو بكل أسى الشخص الوحيد في الأندلس القادر على فرض رأيه، أو قل رغباته بمعنى أدق.

والواقع أن تلك الفترة من تاريخ أسبانيا كانت مضطربة شديدة الاضطراب، فكما أن أسبانيا الإسلامية كانت تعاني من الانقسام والتفتت والتجزؤ فكانت ممالك النصارى تعاني من الحروب الأهلية العائلية، ويعاني سكانها كثيرا من المصاعب والمتاعب التي جرتها عليهم هذه الحرب. فإذا كان ملوك الطوائف قد دخلوا في نزاعات مسلحة مع بعضهم البعض للفوز بأكبر قدر من الأراضي والأصقاع، فإن الممالك النصرانية دخلت هي الأخرى في أحداث أخطر وهي الحروب الأهلية المدمرة بين الأخ وأخيه.

ونحن إذا أردنا أن نتقصى السياسة التى سار عليها الفريقان المتنازعان، فلا يمكننا أن نتغاضي عن أخطائهما السياسية. فملوك الطوائف دخلوا في حروب واقتتال على حساب أراضي بعضهم البعض. وكان هذا خطأ استراتيجيا صرف أنظارهم عن الحقيقة الكبرى وهي أن الوجود الإسلامي أصبح في كل بقعة محاطا بالأعداء النصارى المتربصين بالمسلمين وللانقضاض على أراضيهم وانتزاعها منهم القطعة تلو القطعة.

وكان الخطأ الاستراتيجي الثاني الذي وقع فيه ملوك الطوائف هو الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض، إذ انعدم عندهم كل شعور بالإيمان والوطنية، وندر لديهم كل إحساس باستشعار الخطر الآتي من الشمال. واهتموا بالصغائر والترهات والرغبات الجامحة للتوسع على حساب بعضهم البعض. ونسوا في غمار ذلك أو تناسوا كما قلنا عدوهم اللدود المتربص بهم. وكانوا لا ينظرون إلى أبعد من

أنوفهم، فتفرقت كلمتهم وتمزق شملهم. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل سعوا بكل ابتذال إلى الاستعانة بالنصارى كما قلنا في سبيل الوصول إلى هدف شخصي ضيق محدود، وسمحوا لأنفسهم بموافقة النصارى على ما يطلبونه شريطة مد يد المساعدة لهم، واستساغوا التفريط في القلاع والحصون وتسليمها للنصارى في سبيل تلك الأهواء والأغراض الشخصية. فعلوا ذلك دون أن يرف لهم جفن حياء أو دون أن يعقد لهم حاجب خجل انتصارا للإسلام والعزة الوطنية. وهانوا على أنفسهم فسهل على النصارى إهانتهم وإذلالهم، وانتهى بهم الانحطاط إلى الترامي على أعتاب ملوك النصارى فاستحقوا قسوة ابن حزم الفقيه الأندلسي عليهم عندما قال فيما ينقله عنه محمد عبدالله عنان (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه).(١)

ونعتقد أن في رأي ابن حزم هذا وقسوته عليهم مالا حاجة بعده إلى الاسترسال في ذكر أخطائهم الدينية والوطنية والسياسية.

أما ممالك النصارى فكان من الممكن لها أن تحقق ما تريد لو لم يقع ملوكها في أخطاء سياسية تماثل بعض الأخطاء التي ارتكبها ملوك الطوائف المسلمين. فإن المترصد لأحداث تلك الفترة يلاحظ أن ممالك النصارى لم تكن بأحسن حالا من ممالك المسلمين، فقد اضطرتهم الخلافات بينهم إلى أن يطلبوا العون والمساعدة من المسلمين أعدائهم مما يعني أنهم لم يكونوا أصدق حسا في وطنيتهم من المسلمين. ومعنى هذا أيضا أنه لم تكن تُحرِّكهم الغيرة الدينية أو الوطنية فقط، بل كانت الأثرة والأهواء الشخصية تلعب دورا مؤثرا. وكأمثلة على ذلك أن غارسيا وراميرو أبناء

---

(١) دول الطوائف، ص ٤٢٢.

سانشو العظيم شقيقي فرديناند طلبا المساعدة والعون من المسلمين، ورأينا ألفونسو السادس كمثال آخر يلجأ إلى بلاط المأمون ابن ذي النون، ويلتجيء أخوه غارسيا إلى بلاط المعتمد بالله.

ونحن هنا نتفق تماما مع على أدهم في تحليله لأحداث تلك الفترة المضطربة من تاريخ أسبانيا كلها، إذ يقول ـ ونحن معه ـ: إن الظرف السياسي في الصراع الدائر بين أسبانيا الإسلامية وأسبانيا النصرانية كان متوقفاً على من يسبق من الفريقين المتخاصمين، الآخر إلى لَمّ الشعث وتوحيد الجهود، ورص الصفوف، وجمع القوى.(١)

ومع ذلك فإننا نعترف بأن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين. فقد كانوا يرون فيها مسألة حياة أو موت، وقضية كرامة وعزة كما هي قضية أرض وتراث شرعي لهم وقع غصبا في يد أجنبية وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد.(٢) ولذلك فقد جاءت تحالفاتهم التي اضطروا إليها اضطرارا تخدم بلغة هذا العصر الناحية التاكتيكية وليست الاستراتيجية. ولا يقلل من قيمة هذا الجهد ظهور الرغبات الشخصية والأهواء الذاتية في سلوكيات بعض من ملوكهم وأمرائهم. ولذا فعندما أتيحت لهم الفرصة لرصّ الصفوف وتوحيد القلوب بادروا مدفوعين بتلك الرغبات الجامحة إلى الانقضاض على المسلمين وانتزاع أراضيهم. ولقيت حماستهم الدينية أصداء واسعة من الترحيب في أوربا، فانبرى هؤلاء يقدمون لهم العون للإسهام في ذلك الواجب الديني كما حدث في أحداث بريشتر، وعندما ساعدت مجموعة من الأوربيين ألفونسو السادس في حصاره لطليطلة. وعند حدوث موقعة الزلاقة وما بعدها.

---

(١) المعتمد بن عباد، ص ١٩٣.

(٢) نفس المرجع والصفحة. وبالطبع فإن تلك هى وجهة نظرهم.

الباب الخامس

أهم مظاهر التطور الحضاري في إشبيلية في عهد بني عباد

- نظم الحكم.
- الحياة الاجتماعية.
- الحياة الاقتصادية.
- الحياة العلمية والأدبية.
- العمــــران.

نظم الحكم

أولا : النظم السياسية :

لم تكن النظم السياسية في مملكة إشبيلية تختلف كثيرا عن بقية النظم السياسية في ممالك الطوائف الأخرى، فقد كان يجمع تلك الممالك التي بلغ تعدادها أزيد من عشرين دولة نظم حكم متطابقة، وهي النظم التي كانت سائدة بصفة عامة في الدولة الأموية في الأندلس،(١) على أن مملكة بني عباد تميزت هي ومملكة قرطبة في مبدأ نشأتيهما بنظم حكم جديدة لم تألفها الدول الإسلامية ليس في الأندلس فحسب، بل وفي المشرق الإسلامي أيضا.

أ ـ نظام الحكم الرئاسي القائم على الشورى:

إن مما يشد الانتباه، أن نشهد قيام نظام متطور في مملكة إشبيلية وقرطبة. إذ قام فيهما خاصة نظام حكم رئاسي يقوم على الشورى، وهي خطوة سياسية حضارية رائدة نالت وقتها الكثير من الثناء والإعجاب وإن لم يكتب لها الاستمرار للأسف، كما لم يكتب لها أن تعم الممالك الإسلامية الأخرى في الأندلس.

ولقد أعطى هذا النوع المتطور غير المألوف من نظم الحكم وقتها نتائج بالغة الأهمية في تلك المملكتين الناشئتين، وإن كانت هذه النتائج أبرز وأوضح في مملكة قرطبة منها في مملكة إشبيلية. إذ أحسّ السكان تلك النتائج في حياتهم المعاشية اليومية كما تذكر كتب التاريخ نقلا عن ابن حيان المعاصر وغيره من تبدل نحو

---

(١) عن نظم الحكم في الأندلس في عهد الدولة الأموية، انظر هشام سليم عبدالرحمن أبورميلة: نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م (لم تطبع).

الأحسن والأصلح.(١) ولم يكن انفـراد رئيسي قرطبـة وإشبيلية بالسلطة العليا التنفيذية في ذلك النظام الرئاسي الشورى ليؤثر من بعيد أو قريب في الحياة المعيشية للسكان، مع ما في ذلك من انتكاسة لتلك الخطوة الحضارية الرائدة.

غير أن هذا النظام المتطور لم يكتب له الاستمرار كما أسلفنا. وإذا كان قد ظل ينظر إليه طويلا في مملكة قرطبة على أنه حكم رئاسي شوري متميز، إلا أنه لم يكتب له الاستمرار في إشبيلية نفسها. إذ إنه استمر قائما في قرطبة مذ خلعت طاعة بني أمية نهائيا في عام **٤٢٢هـ** وحتى وفاة الرئيس أبي الحزم ابن جهور عام **٤٣٥هـ**. وعندما توفى الرئيس أبوالحزم لم يسم خليفة له. وفي هذا ما يعني أنه لم يكن ينظر إلى الحكم وكأنه إرث شرعي، بيد أن الأهالي وقد رأوا ما تحقق لمملكتهم على يد رئيسهم الراحل من رخاء وبحبوحة، فضلا عما يتمتع به ابنه أبوالوليد محمد بن جهور من صفات الصلاح والرشاد، نادوا بتعيينه خلفا لأبيه.(٢) على أن ما تجدر الإشارة إليه أن هذه الظاهرة هي أول وآخر سابقة في حياة قرطبة، إذ غدا نظام الحكم بعدها وراثي عائلي شأن ممالك الطوائف الأخرى.

أما مملكة إشبيلية فلم يطل بها عمر ذلك النظام الشوري طويلا، إذ سرعان ما ضاق القاضي محمد بن إسماعيل كما أسلفنا ذرعا بأعضاء المجلس الرئاسي، فعمل من ثم على تقليص نفوذه شيئا فشيئا حتى اضمحل شأنه تماما، فانفرد القاضي بالأمر وحده. ومع هذا لم يتخل (عن رسم القضاء ولم يتسم بسمة الملك).(٣) على أنه كان من الواضح جدا رغم هذه القناعة الشكلية المحضة أن القاضي كان يسير قدما في تحويل الأمر إلى نظام حكم ملكي وراثي. وظهر هذا جليا عندما سمى ابنه إسماعيل حاجبا للخليفة هشام المزعوم، الأمر الذي يعنى أنه المؤهل من بعده

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول ـ المجلد الثاني، ص ١١٤ ـ ص ١١٧. ابن الأبـار: المصدر السابق والجزء، ص ٣١-٣٢. ـ ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٨٦-١٨٧. الضبي: المصدر السابق، ص ٣٥ (نقلا عن الحميدي في جذوة المقتبس).

(٢) انظر خالد الصوفي: المرجع السابق، ص ٧٢.

(٣) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ١٢.

لقيادة البلاد. وعندما قتل إسماعيل فى لقائه مع البربر كما مر بنا[1] سمى القاضي ابنه الآخر عبادا حاجبا للخليفة مكان أخيه. ولما توفى القاضى خلفه ابنه عباد على التو في تسلم أزمة الحكم بهدوء ودون الحاجة إلى التشاور والتباحث كما حدث في مملكة قرطبة، ولم يعد يتملك المعتضد وابنه المعتمد من بعده ذلك الاستحياء والتعفف من التلقب بالملك واتخاذ الألقاب السلطانية.

ب ـ نظام التفويض الخلافي:

أما نظام الحكم الثاني الذي ميز الحياة السياسية في إشبيلية عن مثيلاتها في ممالك الطوائف الأخرى، فهو مسألة إعادة الخلافة الأموية في ظل قضية ظهور الخليفة هشام المؤيد على النحو الذي رأيناه سابقا. فقد ادعى العباديون أنهم قائمون دونه، وأنهم المفوضون من قِبلِه في حكم بلاد الأندلس عموما؛ وليس في إشبيلية فحسب. ومن هنا فقد اتخذ أولياء العهود في هذه الدولة لقب حاجب الخليَفة.[2] وهو لقب كان له في قاموس الحكم آنذاك أهمية بالغة ويشبه منصب رئيس الوزراء الآن. وبهذه الصفة رأى العباديون فرض سلطانهم على ممالك الطوائف، إذ إنهم يستمدون هذا السلطان من سلطان الخلافة صاحبة السلطة الشرعية في الأندلس.

ولقد شغلت هذه المسألة بكل انعكاساتها المملكة العبادية ردحا من الزمن. وأخيرا أسدل الستار عليها نهائيا عندما زعم المعتضد أن الخليفة هشاما قد توفى، وأنه عهد إليه أن يكون أميرا على الأندلس كلها.[3]

ولعل الأثر الحضاري الذي نستخلصه من هذه القضية السياسية بكل ما لها وما عليها، هو أنه بصرف النظر عن أهمية الخلافة الشرعية في نفوس السكان، فإن مملكة إشبيلية كانت تطمح من ذلك كله إلى أن تصبغ على نظام حكمها الاستبدادي الصبغة الشرعية.

---

(١) انظر قبل، الباب الأول ص ١٠٩

(٢) انظر بعد، (النظم الإدارية) ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣ .

(٣) انظر قبل الباب الثاني، ص

خصائـص الحياة السياسية في إشبيليـة :

وفيما عدا هذين النظامين، فإن الحياة السياسية في إشبيلية في عصر بني عباد قد اتسمت بسمات خاصة لا غنى لنا عن الإشارة إليها، لتتضح لنا ـ في ظلها ـ صورة نظام الحكم بصفة عامة في هذه الدولة. فلو أردنا في الواقع أن نقوم نظام الحكم العبـادي في عدة كلمات لقلنا: بإنه نظام ملكي وراثي يضطلع فيه الملك بكل السلطات، ما عدا السلطة القضائية بطبيعة الحال.

أما الخاصية السياسية الأخرى التي ميزت الحياة السياسية في إشبيلية فهي كنه ما يعنيه اصطلاح الوزارة، ومن ثم صلاحيات الوزراء المطلقة أو المقيدة في الدولة العبادية. فالوزارة في إشبيلية بل وفي معظم ممالك الطوائف هي وزارة تنفيذ وليست وزارة تفويض. ومع ذلك فإننا نلاحظ أن وزارة التنفيذ هذه لم يكن لها ذات المعنى الذي كانت تعنيه في المشرق الإسلامي؛ فاستخدامنا لهذا الاصطلاح السياسي هو محض محاولة للفهم والتقريب، إذ إن لقب الوزير كان شائعا جدا في الأندلس، وكان يطلق على كل من يتولى إدارة دائرة حكومية، كما كان يطلق على كل من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف في الأندلس، وهو ما سنراه لاحقا عند حديثنا عن النظم الإدارية في دولة بني عباد.

أمـا الشخص الـذي كان يسـاعـد ملوك الـطوائف بشكل رئيسي على جميع الأصعدة فقد كان يطلق عيه ذو الوازرتين. أي وزارتي السيف والقلم.

أما في إشبيلية، فلم يكن لذي الوازرتين، فضلا عن الوزير أي أهمية بالغة في صناعة القرارات، ووضع الخطط، فلم يك الوزير إلا موظفا لدى الملك العبادي ينفذ قراراته ويتلقى تعليماته، فالخطة والقرار، وتقرير السياسة الواجب اتباعها عند كل ظرف سياسي ناشيء فقد كانت في يد الملك العبادي وحده، فلم يتمتع أحد من ذوي الـوزارات، أو الـوزراء بسلطات واسعة وصلاحيات عريضة في تلك المملكة. والظاهرة الوحيدة التي خالفت هذه القاعدة هي حالة الوزير محمد بن عمار الذي شفعت له صداقته الأثيرة للمعتمد، ودالته العظيمة عليه، أن يتمتع بصـلاحيات واسعـة. ومع هذا فقد ذهب ضحية تجاوزه لصلاحياته على النحو الذي أسلفناه.

وتكاد مملكة بني عباد تكون الوحيدة التي تميزت بهذه الخاصية السياسية. أما غيرها من ممالك الطوائف الأخرى، فقد كان للوزير في بعضها أهمية بالغة في تقرير وتوجيه سياسة الدولة، حتى لقد طغى نفوذ بعض الوزراء على نفوذ الملوك والأمراء أنفسهم كما حدث في مملكة قرطبة حيث طغى نفوذ الوزير ابن السقا على حاكم البلاد نفسه،(١) وكما حدث في مملكة ألمرية إبان حكم زهير العامرى، حيث طغى نفـوذ الوزير العربي أحمد بن عباس على نفوذ زهير نفسه.(٢) وكما وقع في مملكة غرناطة حيث استأثر بعض الوزراء فيها في عهد باديس بن حبوس بمعظم النفوذ والسلطات، بل قد تحولت الوزارة في عهد الوزير اليهودي ابن تغرالة إلى ما يشبه وزارة التفويض.(٣)

ونخلص من هذا كله إلى أن الوزارة افتقدت في مملكة بني عباد أي قيمة سياسية لها، وقبع الوزير في دائرته وخاصة في عهدي القاضي محمد بن عباد وولده المعتضد خائفا متوجسا من غضبهما عليه، أو تعرضه لنقمة نزوة من نزواتهما. ويصدق هذا أكثر ما يصدق على عهد المعتضد بالله.

وهناك خاصية سياسية أخرى تميزت بها الحياة السياسية في المملكة العبادية أكثر من بقية ممالك الطوائف في الأندلس آنذاك، هذه الظاهرة هي أن بنى عباد، كانوا يعملون على الإيقاع بخصومهم بالبطش والقوة آنا، وبالحيلة والخديعة آنا آخر. فقد كان القاضي وولده المعتضد يسعيان من خلال وسائل البطش والتنكيل إلى إفهـام خصـومهـما بأن الـدور سيطالهم تاليا، فيضطر هؤلاء إلى مغادرة مدنيهم والالتجاء إلى الدويلات الأخرى، أو يضطر بعضهم إلى مبارحة الأندلس كلها. ونذكر في هذا الصدد قصة الوزير أبي حفص عمر بن الحسن بن عبدالرحمن الهوزني الذي كان أحد علماء إشبيلية المرموقين، وكان صديقا أثيرا للمعتضد قبل إفضاء الأمر إليه، ولكن المعتضد توجس منه، وأحسّ هذا أن المعتضد قد تضايق منه،

(١) خالد الصوفي: المرجع السابق، ٧٥-٧٦.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ص ١٦٩-١٧٢.

(٣) عبدالله بن زيرى: المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٦، ٦٠-٦٣

فاستأذنه في السفر إلى خارج إشبيلية، فأذن له. وغادر بلاده واستقر بمرسية أخيرا.

وعندما هاجم النورمان بربشتر على النحو الذي رأيناه سابقا لم يستطع الهوزني السكوت على ذلك الإغضاء المتعمد في نصرة المسلمين الذي قابل به المعتضد الحادثة، فبعث له بخطاب يرجو منه اتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن الإسلام. وقد مرّ بنا تلك المراسلات بين الرجلين التي لم تسفر عن شيء. وقد عرفنا آنذاك موقف المعتضد وجوابه على رسالة الهوزني، ولكن ما لم نذكره آنذاك هو الشق الثاني من جواب المعتضد له الذي يشير عليه بالعودة إلى بلاده. وبالفعل عاد الهوزني إلى إشبيلية وأسند له المعتضد بعض الأعمال الجليلة، على أنه كان طوال فترة بقاء الهوزني في بلاطه يحيك له الحبائل حتى استطاع ذات يوم أن يقضى عليه ويقتله بنفسه.[1]

والقصة الثانية تدل دلالة واضحة على أن المعتضد لم يكن يطيق وجود الحاقدين عليه حتىٰ وإن لم يكونوا ذوي أهمية سياسية واجتماعية في إشبيلية. هذه القصة رواها عبدالواحد المراكشي[2] عند ذكره لقصص التحايل التي كان يتحايل بها المعتضد للقضاء على خصومه. وخلاصتها أنه اعتدى على أموال أحد رجال إشبيلية، وكان ضريرا، مما اضطره إلى الارتحال عن الأندلس كلها. والتوجه إلى مكة المكرمة. ومن هناك أخذ يدعو على المعتضد فبلغه ذلك فبعث له بدنانير غمسها في السم، ورفض الرجل أخذها في باديء الأمر، بل واستعجب لذلك، ولكنه تحت إلحاح رسول المعتضد تسلمها منه، فتمكن السم في جسمه؛ فمات من ليلته، ومن هذه القصص ما يروى من أنه بعث لرجل من عامة إشبيلية من الذين نفاهم عنها من قتله وحمل رأسه له.

كما أن هناك خاصية سياسية طبعت الحياة السياسية في إشبيلية بطابع خاص، وهي أن العباديين وخاصة في عهدي القاضي وولده المعتضد، حرصوا على أن

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٦٨-٦٩ - ابن بشكوال: الصلة، قسمان، القسم الأول، ص ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٣.

يبعدوا بقية العائلات الأرستقراطية الإشبيلية عن المشاركة في الحكم، ودفعوهم قهرا إلى اعتزال الحياة العامة. وكان ذلك يتم كثيرا بالترغيب والترهيب، حتى اضطرت بعض عناصر من هذه الطبقة إلى مبارحة الوطن والالتجاء إلى الدويلات الأخرى.

مثال ذلك ما حدث للفقيه والطبيب الإشبيلي محمد بن مروان بن زهر جد الأسرة الطبية الإشبيلية المشهورة الذي اضطرته مضايقات القاضي محمد بن إسماعيل إلى مغادرة وطنه، فلحق بشرقي الأندلس وأقام بها بقية عمره.[1] أما البعض الآخر فقد اضطرته مضايقات العباديين وخاصة المعتضد إلى الابتعاد عن الحياة السياسية والانغماس في حياة اللهو والطرب، مع الاهتمام بجمع الثروات من عقارات وأراض وبساتين.[2]

كما تميزت الحياة السياسية في إشبيلية شأن معظم ممالك الطوائف بانتهاج سياسة الأحلاف والمحاور التي شقيت بها معظم هذه الممالك. فعملت كل واحدة منها إلى الدخول في محالفات ثنائية وأحيانا ثلاثية ضد بعضها البعض كما مر بنا سابقا مما لا حاجة إلى إعادة تكراره ثانية.[3]

ويخيل إلينا أخيرا أن ملوك بني عباد كانوا لا يشذون في نظرتهم للحكم والسلطان عن غيرهم من ملوك الطوائف الآخرين، إذ كان بعض ملوك الطوائف يرى أنه جدير وحقيق بالدولة التي أقامها على أسنة الحراب والسيوف، أو ربما كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية قد اختارتهم لذلك. ويحضرنا في هذا المقام ما فاه به إسماعيل بن ذي النون مؤسس دولة بني ذي النون في طليطلة وهو ما يصوّر من وجهة نظره أحقيته وجدارته في الاستئثار بحكم مملكته. وقد بلغ في هذا القول حدا جعله يفتئت حتى على الصحابة الراشدين رضى الله عنهم. يقول ابن بسام (فقد كان

---

(١) ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني ـ المجلد الأول ص ١٨٧ـ١٨٨.

(٢) انظر صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص ٤٦، وص ١٥١ـ١٥٤. وص ١٦١ـ١٦٥.

(٣) انظر قبل الباب الأول، ص ٩٣ وما بعدها، والباب الثاني، ص ١٢٤ وما بعدها.

أصحابه حفظوا عنه كلمات في سبيل ذكر السلف الصالح زيادة إلى مساوئه، وذلك أنه نوظر في شأن التأمير لبني أمية، فقال والله لو نازعني سلطاني هذا الصديق لقاتلته، ولما سلمت له، فكيف أسلم سلطاني لمن يدعو إليه بنو أمية: ممن لا يوجب الله طاعتهم، عترة مروان، خبط باطل الذين لم يسبق لهم صحبة ولا أدخلهم السلف الصالح في شورى الإمامة)[١].

ثانيا ـ النظم الإدارية:

أما عن النظم الإدارية فلم يستطع ملوك الطوائف بصفة عامة ولا بنو عباد بصفة خاصة أن يضيفوا شيئا جديدا إليها أو أن يقوموا بتطوير ما هو قائم منها. فقد اكتفوا بما وصل إلى أيديهم من التنظيمات الإدارية التي ورثوها عن الدولة الأموية والدولة العامرية اقتناعا منهم ربما بأن هذه التنظيمات ـ وقد بلغت أوجها في عهد الدولة الأموية ـ كافية ووافية بمقتضيات الحكم في عهدهم، فضلا عن أن الاهتمام الأكبر في عصر ملوك الطوائف كان موجها إلى الاشتغال بالعلم والأدب، والأخذ بمظاهر العمران وفخامة الملك.

وهكذا فإن أردنا أن نعرف التنظيمات الإدارية وغيرها من التنظيمات الحضارية الأخرى التي سارت وفقها ممالك الطوائف يجب أن لا تغيب عن بالنا هذه الحقيقة، وهي أن هذه التنظيمات تعتبر استمرارا لما سبقتها في عصر الدولة الأموية أو بمعنى أنه إذا أردنا التحدث عن التنظيمات الإدارية في دولة بني عباد ـ وهي موضوع فقرتنا هذه ـ فإنما نتحدث عن التنظيمات الأموية بعينها مع الأخذ في الاعتبار بأنه قد جرى في عهد هذه الدولة بعض التحويل والتغيير الطفيف في تلك التنظيمات.

المناصب الإدارية العليا في الدولة:

الحجابة:

نال منصب الحجابة في الأندلس أهمية سياسية بالغة، وكان يعتبر وخاصة في خلال عهد الدولة الأموية، والدولة العامرية، وإبان الفتنة أهم منصب سياسي

---

(١) المصدر السابق، القسم الرابع ـ المجلد الأول ـ ص ١١١.

إداري تنفيذي بعد منصب الخليفة مباشرة.

ذلك لأن طبيعة وظيفة الحاجب في الأندلس في عهد الدولة الأموية اختلفت عن طبيعة وظيفة الحاجب في الدولة العباسية بعض الشيء. إذ عدا أن وظيفة الحاجب في الأندلس، حجب الأمير أو الخليفة عن الخاصة والعامة كما هو الشأن أيضا في الدولة العباسية، فإن من خصائص وظيفته أن يكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم في المسئوليات الوظيفية في الدولة.(١)

وكان الحاجب يختار عادة من بين تلك الجماعة التي كان يختصها بنو أمية لإعانتهم والتشاور معهم في مجريات الأمور الهامة في الدولة. فكان يختار من بين هذه الجماعة، ويسمى بعدئذ بالحاجب.(٢)

ولسنا معنيين هنا ببسط الحديث لتتبع وتطور وظيفة الحجابة، فما يهمنا الإشارة إليه هو أن الحاجب غدا في عهد الدولة الأموية وخاصة في عهدي الخليفة الحكم المستنصر وابنه الخليفة هشام المؤيد أهم شخصية سياسية بعد الخليفة مباشرة، بل إن أهميته كسفت مكانة الخليفة هشام المؤيد. وكان الحاجب يضطلع بمعظم السلطات في الدولة، وكانت مهمته تعنى (القيام بممارسة سلطات الخليفة نيابة عنه، فكان هو الرئيس المباشر للإدارة المركزية والعسكرية والمدنية والمسؤول عن ولايات الدولة، والأمن العام، وكان له حق مقابلة الخليفة يوميا وتقديم تقريره له).(٣)

كما يجب أن نشير أيضا إلى أنه أصبح من حق الحاجب ـ منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ـ نقش اسمه على ظهر السكة، بينما ينقش اسم الخليفة على وجهها،(٤) هذا وحسب مفهوم العصر كان الحاجب في عصر الخلافة الأموية بمثابة رئيس الوزراء، كما كان منصب الحاجب وراثيا في بعض الأحيان، مثل حالة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠٠.

(٢) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، في الأخبار والآثار الأندلسية، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١. (نقلا عن ابن سعيد صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب).

(٣) هشام سليم أبورميلة: رسالة عن نظم الحكم بالأندلس في عصر الخلافة، ص ١٢٨-١٢٩

(٤) انظر: Henri Lavoix: OP Cit P:134-135, 137,138-139

المنصور بن أبي عامر وولديه عبدالملك وعبدالرحمن.

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن أعظم الحجاب ذكرا وأبعدهم صيتا، هو الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر.[1]

وفي عصر ملوك الطوائف حافظ هذا المنصب على نفس أهميته التي كان عليها في تلك العهود دون أن يعني ذلك وجوده فعليا. فكان الملك منهم كما يقول ابن سعيد فيما ينقله عنه شكيب أرسلان (... لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية، وأنه كان نائبا عن خليفتهم سمي بالحاجب، ويرى[2] أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم).[3]

وعلى هذا فقد استشرف كثير من ملوك الطوائف إلى التلقب بلقب الحاجب. ومن هؤلاء الحاجب منذر بن يحيى التجيبي حاكم سرقسطة قبل سليمان بن هود[4] والحاجب محمد بن عبدالله البرزالي أمير قرمونة وغيرهما.[5]

أما بنو عباد أنفسهم فمن الطبيعي أن يحرصوا على التمسك بنظم الدولة الأموية السياسية والإدارية، وخاصة بعد أن تبنوا قضية الخليفة هشام المزعوم. ولقد رأينا ملوكهم يعهدون بحجابة باب الخليفة لأبنائهم الكبار أولياء عهودهم. فقد سمى القاضي أبوالقاسم بن إسماعيل ابنه إسماعيل حاجبا للخليفة هشام. ولما قتل إسماعيل بن القاضي محمد سنة ٤٣١هـ، ولى القاضي ابنه الثاني عباد (المعتضد فيما بعد) مكانه. وحرص المعتضد عندما آل إليه الأمر أن يسير على نفس السياسة فولى

---

(١) عن المفهوم الذي أضفاه المنصور بن أبي عامر وبنيه لمنصب الحجابة، والدور المؤثر الذي مارسوه من خلال ذلك في حياة الأندلس انظر: هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ١٣٣-١٤٩.

(٢) أي أحد ملوك الطوائف آنذاك.

(٣) الحلل السندسية، ج ١، ص ٢٥١.

(٤) أنظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الأول - المجلد الأول ص ١٥٣-١٥٤. محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، جزءان، ج ٢، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٥) انظر قبل الباب الأول، ص ٩١.

إبنه اسماعيل الحجابة، ثم لما قتل إسماعيل على يد أبيه انتدب المعتضد ابنه المعتمد ليحل محله. واستمر ذلك التقليد حتى بعد أن انقطعت دعوة الخليفة هشام أيضا. وقد حرص المعتمد بدوره على أن يطلق هذا اللقب على غير واحد من أبنائه على سبيل التشريف. (١)

عمـالة الأقـاليـم:

درج العباديون بعد موجة التوسع والسيطرة التي تهيأت لهم، وخاصة في عهدي المعتضد، والمعتمد، على أن يولوا أبناءهم عمالة أو ولاية الأقاليم المفتوحة. وقد مرّ بنا أن المعتضد ولى ابنه المعتمد حكم مدينة شِلب بعد سقوطها في يده، كما أن المعتمد نفسه عهد لكثير من أبنائه بولاية المدن والأقاليم في مملكته كسراج الدولة عباد الذى تولى حكم مدينة قرطبة بعد سقوطها بيد العباديين. وعندما قتل سراج الدولة على يد ابن عكاشة كما أسلفنا، عهد المعتمد لابنه الفتح الملقب بالمأمون بحكم المدينة حتى سقطت على يد المرابطين كما ذكرنا. وأسند لابنه الثالث يزيد الراضي حكم مدينة الجزيرة الخضراء، ثم رندة. كما أسند للابن الآخر المعتد حكم مدينة شلب، ثم آركش كما مرّ بنا. ومن المؤكد أنه كان لهذا التنظيم الإداري بعد ومغزى سياسي أكثر مما يعني مجرد التشريف.

الــوزارة:

أشرنا فيما سبق إلى أن ممالك الطوائف استمرت تطبق في دولها الأنظمة السياسية والإدارية التي كانت سائدة بصفة عامة في الدولة الأموية، ومن هذه الأنظمة: نظام الوزارة. ولذا فنحن مضطرون هنا إلى معرفة نظام الوزارة في الدولة الأموية ليسهل علينا فهم طبيعة هذا النظام وأهميته في الدولة العبادية موضوع الرسالة.

والواقع أن الوزارة في الأندلس مرت بأطوار متعددة، فالأمراء الأمويون الأول اختـاروا جماعـة من الذين استرشدوا فيهم الصلاح والخير وأسندوا إليهم مهمة إعانتهم في تصريف شؤون الدولة، ثم أسندوا لهذه الجماعة أعمالا ووظائف مختلفة

---

(١) انظر قبل الباب الأول، ص ٩٩، والباب الثاني، ص ١٥٥ والباب الثالث، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

يقوم كل واحد من هذه الجماعة بإدارة جهاز ما. ويقول ابن خلدون (وأما دولة بني أمية بالأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزير فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللترسيل وزيرا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا، وجعل لهم بيتاً يجلسون فيه على فرش منضدة، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأُفرِدَ للتردد بينهم وبين الخليفة واحدٌ منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب على سائر الخطط). (١)

وقد تطور نظام الوزارة في الدولة الأموية على مر الزمن إلى أن أصبح يشكل ما يعرف اليوم بمجلس الوزراء. (٢)وكان الأندلسيون يستعملون كلمة خطة بمعنى وزارة. (٣)

على أن هذا المنصب فقد دلالته العملية شيئا فشيئا مذ دالت دولة بني عامر، وما تبع ذلك من أحداث أدت إلى ظهور خلفاء أمويين ضعاف ثم الفتنة فقيام ممالك الطوائف. فأصبح لقب الوزارة يطلق على من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف بحيث (صار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم). (٤)

على هذه الصورة كانت الوزارة في ممالك الطوائف وإن لم تسعفنا المصادرالأندلسية وغيرها بذكر تفاصيل تنظيم الخطط أو الدوائر الحكومية التي كانت موجودة في ممالك الطوائف عامة وفي مملكة بني عباد خاصة، فكلما حملته إلينا من أسماء الوزراء في مملكة بني عباد لا يعدو أن يكون لقبا تشريفيا حصل عليه ذلك الشخص من خلال مصاحبته لملوك بني عباد واختصاصه بهم. وقد عرفت دولة بني

---

(١) المقدمة، ص ١٩٩.

(٢) عن الوزارة وتطور نظامها في عهد الإمارة فالخلافة الأموية انظر: هشام سليم أبورميلة، الرسالة السابقة، ص ١٤٩-١٥٢.

(٣) هشام سليم أبو رميلة: نفس الرسالة السابقة، ص ١٥٦.

(٤) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨١.

عباد كثيراً من الذين كان يطلق عليهم لقب وزير مثل: الوزير ابن اللبانة، وأبي الحسن بن أبي اليسع، وأبي بكر بن القصيرة وغيرهم. أما المنصب الوزاري الذي كان له مدلول إداري تنفيذي كبير فهو منصب ذي الوزارتين الذي يعني وزارتي السيف والقلم،(١) وكانت مهمة حامل هذا اللقب هي أن ينوب عن الملك كما يقول ابن سعيد(٢) في الشؤون المدنية والعسكرية معا.(٣) ومن الذين اضطلعوا بهذا المنصب الرفيع في عهد المعتضد بن عباد، الشاعر القرطبي الأشهر أبوالوليد أحمد بن زيدون الذي كان يطلق عليه دائما ذو الرياستين، وذو الوزارتين.(٤)

ومن الذين اضطلعوا بهذا المنصب في عهد المعتمد الشاعر المشهور محمد بن عمار الذي سما بهذا المنصب إلى مكانة سياسية بارزة قل نظيرها في ممالك الطوائف جميعها(٥) لدرجة أن المعتمد كان يفوضه في التحدث باسمه مع ملوك النصارى وإطلاق يده في عقد المعاهدات معهم.(٦)

خطة الكتابة:

تعتبر هذه الخطة أو الإدارة الحكومية من أجل مناصب الدولة الرفيعة في الدولة الأموية، ثم في ممالك الطوائف أيضا، وقد صنفت هذه الخطة إلى إدارتين أو ديوانين هما: كاتب الرسائل، وكاتب الزمام (كاتب الجهبذة أو كاتب الأشغال الخراجية).(٧)

أما كاتب الرسائل فقد كان له أهمية مرموقة أكثر من الأهمية التي حظي بها كاتب

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠٠

(٢) شكيب أرسلان: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥١. (نقلا عن ابن سعيد)

(٣) انظر هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ١٥٩-١٦٠

(٤) انظر عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٦٢. - صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجرى، ص ١٨١.

(٥) عن المكانة السياسية التي بلغها الوزير محمد بن عمار انظر: صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسي، ص ٧٠-١٠٣.

(٦) انظر قبل، الباب الثالث، ص ٢١١

(٧) محمد كرد على: المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٧.

الـزمـام، وجاءت هذه الأهمية من كون صاحبها كان مكلفا بتحرير المراسلات الخلافية، والقرارات السلطانية، وإنشاء الرسائل وبعثها للعمال والملوك والأمراء الأجانب. وقد شهدت خطة الكتابة تطورا متعاقبا في الأندلس منذ الفتح حتى قيام الخلافة. فقد كان الكاتب في عصر الولاة ثم الإمارة الأموية وحتى عهد الأمير عبـدالـرحمن الأوسط يضطلع بكتابة الرسائل الرسمية للدولة ويطلق عليه لقب كاتب الرسائل.[١]

أما في عهد عبدالرحمن الأوسط فقد تطورت خطة الكتابة بحيث أصبح كتاب الـرسائل بمثابة وزراء، فكانوا يحملون لقب وزير بالإضافة إلى لقب الكاتب، ويقال للكاتب: الكاتب الوزير.[٢] وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط أول من اتخذ كاتبا خاصا له، وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة.[٣]

والتـطور الآخـر الذي شهدته خطة الكتابة كان في عهد الخليفة عبدالرحمن النـاصر، ذلـك لأن تشعب مسؤوليات كاتب الـرسـائل وكثرتها جعلت الخليفة عبدالرحمن الناصر يبادر إلى توزيع مسؤولياتها بين أربعة من كبار الموظفين، يحمل كل واحد منهم لقب وزير ويختص فقط بالأمر الموكل إليه وحده.[٤]

أما الخطة الإدارية الأخرى بالنسبة للكتابة فهي إدارة كاتب الزمام أو الجهبذة أو الأشغال الخراجية. وكان مجال عمله الأساسي هو الإشراف على إدارة الأموال العامة وإحصاء الجند وتقدير أرزاقهم وأعطياتهم.[٥]

وبالنسبة لممالك الطوائف عامة ومملكة بني عباد خاصة لم تسعفنا كتب التاريخ والأدب بشيء ذي بال عن هاتين الخطتين، وإن كان الأمر يختلف بعض الشيء

---

(١) انظر هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ١٦٢.

(٢) انظر ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠١-٢٠٢

(٣) انظر هشام سليم أبورميلة: نفس الرسالة السابقة، ص ١٦٢

(٤) انظر هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ١٦٢. (نقلا عن ابن عذارى).

(٥) هشام أبورميلة: نفس الرسالة السابقة، (نقلا عن ابن خلدون)

بالنسبة لخطة كاتب الرسائل. إذ يبدو أن الأمر استمر على ما كان عليه في عهد الدولة الأموية، بل يمكننا أن نخمّن بأن مكانة كاتب الرسائل قد ازدادت أهميتها آنذاك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من العلماء والأدباء والكتاب.

ومن أشهر الكتاب في عهد المعتضد بالله ابن عبدالبر(١) واسمه عبدالله بن يوسف. أما في عهد المعتمد فقد كان أشهر كتابه هما أبوبكر بن القصيرة، وأبوبكر بن الجد.(٢)

خطة الشرطة:

ومن أهم المناصب في الأندلس في عهد الدولة الأموية، وفي عصر ملوك الطوائف خطة الشرطة.

وكان يطلق على من يليها لقب صاحب الشرطة، ومن صلاحياته النظر في الجرائم الجنائية وغيرها. ومن اختصاصاته أيضا حق إقامة الحدود على شاربي الخمور، ومرتكبي الزنا. وقد يعهد إليه إذ كان ذا مكانة عظيمة في الدولة بإيقاع القتل شرعا بدون استئذان من السلطان. كما كان يطلق عليه أيضا صاحب الليل. وتنقسم خطة الشرطة إلى ثلاثة أقسام: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى.(٣) وكانت هناك خطة أخرى تشبه خطة صاحب الشرطة، ويطلق على القائمين عليها، لقب الدرابين، وتشبه خطة العسس أو الأرباع في المشرق.(٤)

---

(١) هو ابن الحافظ الفقيه الأندلسي الشهير يوسف بن عبدالله المعروف بابن عبدالبر أيضا. صاحب التصانيف الواسعة التي أشهرها كتاب: الاستيعاب في الفقه.

انظر: ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ٢٤٥ـ٢٤٨. ابن خلكان: المصدر السابق، مجلد ٧، ص ٦٦.

(٢) انظر مجهول: الحلل الموشية، ص ٣٢ـ٣٦.

(٣) عن خطة الشرطة وتقسيماتها وصلاحيات صاحبها، انظر: هشام سليم أبو رميلة: الرسالة السابقة، ص ٢٨٧ـ٢٩٢.

(٤) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، ج ٢، ص ٢٦٧ـ٢٦٨.

وفي عهد بني عباد رأينا من خلال محنة المعتمد بالله في المنفى أنه كان هناك خطة من خطط الشرطة يطلق على متوليها لقب: عريف الشرطة. وأن مهمته الرئيسية كانت تنظيم خروج ودخول المعتمد من قصره وإليه.(١)

وهكذا فقد رأينا أنه كان لبني عباد بعض التنظيمات الإدارية الخاصة بهم التي ابتكروها، أو طوروها، كما شاهدناهم يستفيدون من بعض التنظيمات الإدارية الأخرى في تصريف شؤون دولتهم.

ثالثا: النظـام المالـي:

أولا: المــوارد:

لم تسعفنـا المصادر الأندلسية بشيء ذي بال عن هذا النظام الهام من أنظمة الحكم. ولعل السبب في ذلك يعود لعدم وجود أنظمة عبادية مالية بحتة أصلا. وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نخمن أن النظام المالي سار في هذه المملكة على نفس النظام الذي سارت عليه الدولة الأموية تقريبا.

أما الموارد المالية في دولة بني عباد فإننا نستطيع أن نؤكد أنها هي نفسها الموارد التي كانت مطبقة في بقية أنحاء الأندلس، لا بل في الممالك الإسلامية انطلاقا من كون هذه الدولة دولة إسلامية بطبيعة الحال، مع ملاحظة وجود الاختلاف بين دولة وأخرى بحكم ظروفها وأوضاعها الخاصة.

وعلى هذا فإن الموارد المالية في مملكة بني عباد لا بد أن تكون على النحو التالي:

أ ـ المـوارد الثابتـة:

١ ـ زكـاة العشور: وهي الزكاة المفروضة شرعا على الأراضي الزراعية، وقطعان المـاشية، وكـانت تتحصـل من المسلمين بطبيعة الحال بحكم كونها أحد أركان الإسلام الخمس.

٢ ـ الخـراج: ومن الموارد الثابتة لخزينة الدولة الخراج، وكان على صنفين:

الصنف الأول: هو ما كان المُـلاك يؤدونه عن أملاكهم. مسلمون وذميون على

---

(١) انظر قبل الباب الرابع، ص ٤٥٤.

السواء فيما كان يعرف بأرض الأخماس، والأرض المقطعة، وأرض الصلح. فكان المسلمون والذميون يدفعون خراج أرضهم حسبما نصت عليه الشريعة الإسلامية. (١)

أما الصنف الآخر: فهو الذي كان يعرف بالمكوس. وهذه تحصل من التجار وتفرض على السلع والبضائع القادمة إلى الدولة وخاصة عن طريق البحر. وكانت في دولة بني عباد تحصل على ضفة نهر الوادي الكبير الذي يشطر عاصمتها اشبيلية. وكان تحصيل المكوس على درجة من الأهمية للدولة العبادية إذ كانت عائداتها من أهم موارد الدولة بحكم اتساع الدولة العبادية وبحكم الحركة التجارية التي شهدتها. وكان للمكوس أنظمة وقوانين مرعية، ينفذها ويشرف عليها شخص يدعى بالمتقبل. (٢) وتماثل المكوس ما يعرف اليوم بـ (الرسوم الجمركية).

٣ـ الجزيـة: وهي مورد أساسي لخزينة الممالك الإسلامية بصفة عامة. وكانت مملكة إشبيلية تزخر بعدد كبير من الذميين (أي النصارى واليهود)، وهي جزية تتحصل من هؤلاء الذميين الذين لم يعتنقوا الإسلام، وعلى هذا فيجب على أُولي الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها في دار الإسلام، ويلتزم لهم ببذلها حقّان، أحدهم بالكف عنهم، والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين). (٣)

وتختلف الجزية المأخوذة من الذمي باختلاف وضعه المالي، ولا تؤخذ إلا من الرجال الأقوياء القادرين على القتال والحرب. ومما يذكر أن هذه الجزية كانت تتناقص دائما بسبب اعتناق هؤلاء الذميين للإسلام. (٤)

---

(١) انظر هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ٢٢٠ـ٢٣١.

(٢) للاطلاع على المزيد من هذه الفقرة، انظر: محمد بركات البيلي: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في، إشبيلية في عصر بني عباد (رسالة ماجستير): ص ٧١ـ٧٢.

(٣) هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة (نقلا عن الماوردى في الأحكام السلطانية)، ص ٢١٨.

(٤) انظر محمد بركات البيلي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص٦٨ـ٦٩.

ب ـ الموارد غير الثابتة :

وبالإضافة إلى الموارد المالية الثابتة فهناك موارد أخرى، كانت الممالك الإسلامية في الأندلس. تستوفيها من السكان. ومن هذه الموارد العائدات المالية التي كانت ترد عن طريق نظام المشاركة. ونظام المشاركة يعني أن يشارك الملاك الفلاحين في المحصول الناتج عن أراضيهم، أي أن يقدم الملاك أراضيهم للفلاحين يزرعونها لهم بالمشاركة، فلهؤلاء حصة من المحصول، ولأولئك حصة أخرى. وكان هذا النظام يعرف أيضا بالمقاسمة والمناصفة. (١)

وعرفت الأندلس موردا ماليا آخر يعرف بالحشد، وهو (ضريبة مالية كانت تفرض في الأندلس على أصحاب الضياع في الريف، وعلى الناس في المدن معونة للخليفة على شؤون الحرب، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج إلى الحرب، وكان عليهم أن يخرجوا إلى الحشد عندما يجيء أوان الصائفة، ثم استبدلت بضريبة مالية أو عينية لمن لا يريد الخروج، ثم أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحاشد أو الحشاد في كل منطقة). (٢)

وهناك مورد آخر يسمى ضريبة القطيع أو المشاهرة، وتعنى في مطلق الأحوال (فدية) على الرؤوس. (٣)

وهناك أيضا مغارم مفروضة على أموال السكان في الأندلس واشبيلية بطبيعة الحال، وكانت تفرض على الغنم والدواب وغير ذلك. وكذلك كانت هناك ضريبة تفرض على بعض المبيعات في الأسواق في بعض البلاد. (٤)

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، حاشية رقم ٤، ص ٣٦.

(٢) ابن الأبار: نفس المصدر والجزء، حاشية رقم ٢، ص ١٠. وانظر كذلك هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ٢٣٥.

(٣) انظر محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٨-١٩.

(٤) انظر هشام سليم أبورميلة: نفس الرسالة السابقة، ص ٢٣٣-٢٤٠. ـ محمد بركات البيلي: نفس الرسالة السابقة، ص ٧٠.

ثانيا: النفقـات:

تلك هي أهم موارد الـدولـة العبـادية، وهي تنقص وتتـزايد تبعـا للظروف والأحوال في الدولة. ومن الطبيعي أن تكون هناك نفقات عامة تصرف فيها الدولة الكثير من هذه العائدات المالية. ويأتي على رأس هذه النفقات العامة، رواتب الجنـد والموظفين. ولقد مرّ بنا سابقا أن بني عباد قد جندوا قوات نظامية وقوات أخرى من المرتزقة والعبيد،(١) ومن البدهي أن تدفع لهؤلاء أعطيات جزيلة لتنفذ مشروعاتها التوسعية دائما.(٢)

أما القناة الثانية التي تصرف فيها موارد الدولة، فهي الثغرة التي فتحها ملوك الطوائف على أنفسهم بالاستعانة بملوك النصارى وخاصة ألفونسو السادس، فقد كانت الضريبة التي يحصلها ألفونسو من الدولة العبادية وخاصة في عهد المعتمد ثقيلة باهظة، تستنزف قدرا هائلا من موراد الدولة.(٣)

وأما القناة الثالثة التي كانت تستنزف موارد الدولة، فهي النفقات الباهظة التي كان العباديون ينفقونها على بذخهم ومترفاتهم الخاصة، كبناء القصور، والدور، واقتنـاء فاخـر الأثاث والرياش، وسائر صنوف المتعة والأبهة والفخامة، وكذلك صِلاتهم وأعطياتهم للشعراء والأدباء وغيرهم.(٤)

رابعاً الجيـش والبحـريـة:

ـ الجيـش:

لا نملك في الـواقع تفاصيل واسعة عن الجيش العبادي سواء أكان ذلك في مسألة عدد أفراد قواته المسلحة، أم عن كوادره ورتبه... إلخ. وكل ما نملكه من تفـاصيل عنـه هو ما يتعلق بالعناصر البشرية المكونة له. وقد سبق لنا أن رأينا

---

(١) انظر قبل الباب الأول، ص٩٢.

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب العربي ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ سلسلة المكتبة الأندلسية رقم٣، ص٤٠ ـ محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ٧٤ـ٧٥.

(٣) إحسان عباس: المرجع السابق، ص ٣٩.

(٤) انظر إحسان عباس: نفس المرجع السابق، ص ٤١ـ٤٤.

القاضي محمد بن إسماعيل يكوّن على وجه السرعة جيشا تنوعت قواته من جنسيات مختلفة، كالعرب، والصقالبة، والبربر، والنصارى. . . إلخ. [1]

والأمر الثاني الذي عرفناه عن الجيش الإشبيلي أنه كان يستعين في بعض الأحيان بقوات مرتزقة من النصارى، والبربر وغيرهم. ويبدو أن ذلك كان أمرا شائعا في الأندلس آنذاك. [2].

والأمر الثالث أن العباديين حرصوا كثيرا على أن يعهدوا لأبنائهم في معظم الأحايين بقيادة الجيش، وكانت قيادة الجيش غالبا ما تكون لولي العهد الذي يجمع بين هذين المنصبين. وقد رأينا عند حديثنا عن دولة القاضي محمد بن إسماعيل أن ولده إسماعيل ووليِّ العهد كان في ذات الوقت القائد العام للجيش، الذي يضطلع دائما بمهمتي المواجهة والتوسع. وما ينطبق على إسماعيل بن القاضي محمد ينطبق على إسماعيل بن المعتضد. وقد رأينا هذا أيضا في معرض حديثنا عن انشقاقه وتمرده على والده المعتضد. وعندما قتل إسماعيل عين المعتضد ابنه الآخر محمدا وليا للعهد، وقائدا عاما للجيش، واضطلع شأن غيره من قادة الجيش بمهمتي المواجهة والتوسع أيضا. وحتى في دولة المعتمد، فقد عهد لأبنائه بقيادة الجيوش. وقد رأيناه يغضب على ابنه يزيد الراضي الذي أظهر تقاعسا ملموسا، فعهد لابنه الآخر المعتد بقيادة الجيش المتوجه لصد غارات النصارى عن مدينة لورقة. [3]

ونادرا ما كان يتولى قيادة الجيش أناس آخرون من غير أبناء العباديين أنفسهم. وقد عثرنا على حالتين فقط، قاد فيها أحد القادة من عامة الشعب الجيش العبادي. الحالة الأولى هي عندما شكلت القوات البربرية المتحالفة ضد القاضي محمد بن

---

(١) انظر قبل الباب الأول، ص ٩١ وما بعدها.

(٢) رأينا صورا عديدة لهذا كما حدث عندما استعان ملك سرقسطة وغيره بالسيد القمبيطور وغيره من الذين كانوا يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم.
انظر: حسين مؤنس: السيد القمبيطور، المجلة التاريخية المصرية.

(٣) انظر قبل الباب الأول، ص٩٦ـ٩٨ ، وص ١٠٧ ـ ١١٠ ، والباب الثاني، ص ١١٩ ، وص ١٣٤ ـ ١٤٠ ، والباب الثالث، ص ٢٤٤ .

إسماعيل جيشا توجه نحو أراضي إشبيلية. فعاث في مزارعها وأراضيها. فتصدى لهم قائد إحدى فرق الجيش العبادي، أيوب بن عامر اليحصبي وفرق شملهم.[1] والحادثة الثانية هي عندما ولى المعتضد قائده عبدالله بن سلام قيادة الجيش الذي عهد له بفتح الجزيرة الخضراء. وقد تم له ذلك فعلا.

البحرية:

أما بالنسبة للبحرية، فلم يكن يضاهي الدولة العبادية فيها سوى مملكة دانية التي أسس فيها مليكها مجاهد العامري أسطولا بحريا حربيا كبيرا استطاع به أن يفتح جزيرة سردانية وغيرها من الجزر الشرقية في البحر المتوسط،[2] ولذا فإن دولة بني عباد تعتبر الدولة الثانية من دول الطوائف التي اهتمت بالأسطول البحري سواء أكان ذلك في وقت السلم، أم في وقت الحرب. وقد أفادتنا بعض كتب التاريخ والأدب في ذكر بعض الإشارات عن ذلك الأسطول.

أما الأسطول البحري الحربي، فقد رأينا عدة إشارات له في كتب التاريخ مررنا بها في بعض الفصول السابقة. من هذه الإشارات ما رواه المؤرخون من أن مدينة الجزيرة الخضراء التي كانت تابعة لأمراء بني حمود قد حوصرت برا وبحرا إلى أن سقطت نهائيا في يد المعتضد عام ٤٤٦هـ.[3] ومن تلك الإشارات أيضا ما رويناه عن الحميري عن الأسطول الحربي الذي بعثه المعتمد لمساعدة يوسف بن تاشفين عند افتتاحه لمدينة سبتة.[4]

أما كتب الأدب[5] فقد حفظت لنا في أشعار الشعراء الذين مدحوا المعتمد بن عباد ما يلقى بعض الضوء على ذلك الأسطول ووصفت قطعه ومنشآته. وقد

---

(١) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١.

(٢) انظر محمد عبدالله عنان: دول الطوائف، ص ١٩٠-١٩٤.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣١.

(٤) الروض المعطار، ص ٨٧.

(٥) انظر محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٠٩ مع الحواشي.

أجمعت هذه الأشعار على أنه كان للعباديين أسطول حربي ساعدهم في الكثير من مشاريعهم التوسعية وغيرها.

أما الأسطول التجاري البحري، فقد كان له أيضا مهمة اقتصادية رئيسية في نقل صادرات وواردات الدولة العبادية.(١)

خامساً : النظام القضائي:

كانت خطة القضاء تعتبر أعظم الخطط الشرعية في الأندلس بطبيعة الحال. وكان الأندلسيون يطلقون على من يتولى القضاء في المدن الكبيرة والعواصم: اسم القاضي، أما في المدن الصغيرة وبقية القرى، فقد كان يطلق على من يتولى القضاء فيها: مسدد الخاصة. ويطلق على الشخص الذي يشغل منصب قاضي القضاة في الأندلس قاضي الجماعة.(٢)

ويلحق بخطة القضاء مجموعة من الخطط، مثل خطة المواريث، وخطة المظالم، وخطة الأحباس (الأوقاف)، وخطة السوق، وخطة الشورى.(٣) وخطة السوق يطلق عليها أيضا وهو الشائع خطة الحسبة أو الاحتساب. وتشبه مهمة هذه الخطة أو الإدارة، مهمة البلديات في العصر الحاضر كمراقبة الأسواق، وعمليات البيع والشراء، ومراقبة المكاييل والموازين.. إلخ. وكان لهذه الخطة أنظمة وقوانين مدونة يعمل بمقتضاها المسؤولون عن هذه الخطة.(٤)

أما خطة الشورى فقد كانت خطة أخرى لصيقة بخطة القضاء. ويقول حسين مؤنس (كان يقوم بأمر القضاء في الأندلس هيئتان: الفقهاء المشاورون، والقضاة، فأما المشاورون فكانوا جماعة من كبار الفقهاء والعلماء يختارهم الأمير أو الخليفة

---

(١) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ٨٧.

(٢) عن خطة القضاء انظر المادة الواسعة التي كتبها هشام سليم أبورميلة: الرسالة السابقة، ص ٢٦١-٢٧٢، وكذلك ص ٢٨٠-٢٨٦.

(٣) محمد عبدالله عنان: الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٤) محمد كرد على: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨.

ليستشيرهم في أمر القضاء والأحكام. ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معا في مجلس خاص كالوزراء، بل كانوا فرادى يختار الأمير من يراه صالحا للشورى، ثم يبعث إليه بما يريد ليفتي فيه، وقد يستقدمه إلى القصر.

وكان المشاورون أعلى من القضاة مرتبة، بل كانوا في مراتب الوزراء من حيث المكانة والجاه. وفي بعض العصور، تميز بعض المشاورين، حتى صار كالرئيس لهؤلاء المفتين، ويسمى لهذا برأس الفتياء، أو رأس المشيخة، وقد يسمى شيخ المرأسين، أو شيخ البلد. وكانت المشورة أو الفتيا أعلى المناصب التي يطمح إليها الفقيه، وإن لم تكن منصبا حكوميا محدد الوظيفة والراتب والسلطان. وكان المشاورون يبدون رأيهم في القضاة فلا يعين كبارهم إلا برأيهم. أما القضاة، فهم المعروفون، وأكبرهم قاضي قرطبة أو قاضي الجماعة، وكانوا في منزلة الفقهاء المشاورين، وقد يمتاز عليهم إذا أهلته مكانته لذلك .[١]

وقد تولى منصب قاضي الجماعة بقرطبة في عهد المعتمد مجموعة من القضاة منهم القاضي محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسي، ثم القاضي عبدالرحمن بن سوار بن أحمد بن سوار، ثم عبدالله بن أدهم وغيرهم.[٢] كما تولى خطة الشورى في إشبيلية، كما يُفهم من رواية ابن الأبار عبيدالله الرشيد بن المعتمد، وكان يساعده في المشاورة بعض الفقهاء منهم القاضي أحمد بن منظور القيسي.[٣]

---

(١) ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ح١، ص ٢٠٢.
وانظر كذلك حسين مؤنس: شيوخ العصر، ص ٢٧.

(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٣٠٤. والقسم الثاني، ص ٣٣٧، وص ٥٤٧.

(٣) المصدر السابق والجزء، ص ٦٨.

الحياة الاجتماعية

تعمدنا باديء ذي بدء أن نقسم الحياة الاجتماعية إلى قسمين: مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة، ومظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة. ذلك لأن المؤرخين والأدباء القدامى لم يعنوا بالنسبة للنواحي الاجتماعية بالذات في أحايين كثيرة إلا بالاهتمام بحياة الأمراء والحكام والوجهاء والخاصة بدرجة أساسية. أما عن مظاهر الحياة الاجتماعية لدى عامة الناس فلم تنل من اهتمامهم إلا اليسير وداخل نطاق المظاهر الأساسية للحياة الاجتماعية كالأعياد والمواسم والمتنزهات . . إلخ.
ومن هنا فقد رأينا أن نتحدث عن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة أولا حسبما استخلصناه من كتب التاريخ والأدب، ثم نثني بعد بالحياة الاجتماعية لدى الخاصة.

أـ أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة:

الأعياد والمواسم:

من الطبيعي أن يكون على رأس الأعياد في كل مجتمع إسلامي عيدي الأضحى والفطر. والمجتمع الإشبيلي شأنه شأن غيره من المجتمعات الإسلامية كان يحتفل باستطلاع هلال شوال، وكان العامة يجتمعون لرؤية الهلال حتى يفوز أحدهم بالسبق في رؤيته لتحديد يوم عيد الفطر.

أما بالنسبة لعيد الأضحى، فقد كان الاحتفاء به عظيما، وكان من عادات أهل إشبيلية والأندلسيين عامة شأنهم في ذلك شأن إخوانهم المسلمين أن يخرجوا إلى الصلاة في أبهى حللهم وأناقتهم، ثم يعودون إلى بيوتهم فيذبحون أضحياتهم، وكان المعدم منهم يكتفي بجمع رؤوس الخراف والقيام (بتشييطها) أي عرضها على النار حتى تنضج.(١)

(١) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة ص ١٥١.

وكانت الأعياد مواسم اقتصادية مزدهرة لبائعي الخراف والعطور وغيرهم. وكان العطارون يعرضون في حوانيتهم أرقى العطور وأغلاها وأجودها. [1]

ومن الأيام التي احتفل بها الإشبيليون دون مسوغ من الشرع: عيد النيروز، وهو حلول أول يوم من أيام فصل الربيع وهو عيد فارسي الأصل، كما احتفل الإشبيليون النصارى أيضا بأعيادهم الدينية وعلى رأسها عيد الفصح وغيره. [2]

الأزياء والملابس:

وكان للتقليد الاجتماعي الرفيع الذي أدخله المغنى المشرقي المشهور زرياب على الملابس الأندلسية دور مؤثر في حياة الأندلسيين، فقد شغفوا بذلك وطبقوه بسرعة، وساعدتهم طبيعة الأندلس الخلابة أيضا في أن ترق شمائلهم وترهف أحاسيسهم وانعكس ذلك على أزيائهم وعلى غيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية.

فقد أَلِف الأندلسيون والإشبيليون بطبيعة الحال لبس الملابس الخفيفة البيضاء المنسوجة من الكتان والقطن في فصل الصيف، كما أَلِفوا لبس الملابس الصوفية الثقيلة ذات الألوان الداكنة في فصل الشتاء. [3]

وكان عامة السكان في الأندلس يسيرون حاسري الرأس من غير غطاء، والوحيدون الذين كانوا يتعممون هم العلماء والفقهاء، أما الطيلسان فقد كان شائعا في الأندلس وكان الشيوخ يلفونه على رؤوسهم، وكان الخضاب أي صبغ الشعر واللحية بالحناء شائعا أيضا. [4]

أما المرأة الإشبيلية فقد كانت ترتدي ثوبا يسمى «الأتب» وهو عبارة عن ثوب يُلقى على عاتق المرأة من غير كم ولا جيب. وكانت الإشبيليات يرتدين اليعطاف وهو عبارة عن تاج صغير مرصع بالجواهر وبأعلاه ريش الطواويس، كما أكثرت

---

(١) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٥١.

(٢) الرسالة السابقة، ص ١٥٣.

(٣) الرسالة السابقة، ص ١٤٣.

(٤) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٤٤.

المرأة الإشبيلية من استخدام الحناء والعطور والكحل.[١]

وقد خالف الأندلسيون المشارقة في التقيد بملابس معينة في أفراحهم وأتراحهم. فقد كان الأندلسيون عموما يلبسون اللباس الأبيض في الحزن على عكس المشارقة الذين يلبسون الملابس السوداء عند الموت.[٢] وكل ذلك لا مسوِّغ له في الشرع كما هو معلوم.

المتنزهات:

تمتعت إشبيلية نفسها بالطبيعة الخلابة التي حفتها من كل الجوانب. وكان نهر إشبيلية أو الوادى الكبير الذي يشطر المدينة إلى شطرين أحد معالم التنزه والسياحة في المدينة، فقد كانت المراكب والسفن الصغيرة تقطعه ليلا ونهارا.[٣]

ومن أهم الضواحي الجميلة التي كان يرتادها أهل إشبيلية، ضاحية طريانة التي لا تبعد كثيرا عن العاصمة، ثم جزيرة تيطل ووادي الطلح.[٤] كما كان مرج الفضة ومتنزه السلطانية من أهم المتنزهات الإشبيلية التي كانت متنفسا للأهالي يمارسون فيها هواياتهم في السباق والطراد. وقد تميزت هذه المتنزهات بوجود الفساقي المائية الرائعة.[٥]

الحمامات:[٦]

كانت الحمامات في القرون الوسطى الإسلامية من أهم مظاهر الحياة الإجتماعية للمجتمع الإسلامي، وقد تميزت مدينة إشبيلية بوجود أعداد كبيرة من الحمامات فيها. وكان للنساء حمامات خاصة بهن.[٧]

---

(١) الرسالة السابقة والصفحة.

(٢) المقرى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٣، وص ٣٩٩.

(٣) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٥٤.

(٤) انظر المقرى: نفس المصدر السابق، ج ١، ص ٨٥.

(٥) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٥٤.

(٦) عن الحمامات الأسبانية الإسلامية انظر:

ليوبولدوتوريس بلباس: بحث بعنوان الأبنية الأسبانية الإسلامية، تعريب عليه إبراهيم العناني، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد الأول، ١٣٧٢/١٩٥٣م، ص ١٠٨-١١٣.

(٧) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ٤٨.

ويعتبر الذهاب للحمام فرصة عظيمة للرجال والنساء للتخلص من جهامة الحياة، وكانت الحمامات تزخر بوجود الخدم الذين يقومون بخدمة المستحمين، كالحلاقين والطيابين. وكذلك كان الحمام يزخر بالخدم الذين كانوا يليفون ظهور وأجساد الرجال ويطلق عليهم الحكاكين.[1]

ب ـ أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة:

لكي نستطيع أن نتعرف على الحياة الاجتماعية للخاصة أو الطبقة الأرستقراطية، ولكي نتعرف على أهم مظاهر التطور الاجتماعي في المجتمع الإشبيلي، لا بد لنا من العودة إلى التذكير بالتركيب الإجتماعي للمجتمع الأندلسي حتى يسهل علينا فهم تلك الحياة الإجتماعية الطبقية، وفهم أهم مظاهر تطورها.

فإشبيلية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف كانت تضم أخلاطا بشرية عرقية ودينية مختلفة، كالعرب والبربر والصقالبة، والمستعربين، والمولدين، واليهود.. إلخ. وكان المولدون يشكلون ثقلا سكانيا مهما في المجتمع الأندلسي.[2] ومن الطبيعي جدا أن يكون لكل فئة أو مجموعة من هذه المجموعات العرقية والدينية عاداتها وتقاليدها وأعرافها التي تحرص على أن لا تذوب وتتلاشى في وسط ذلك الخضم البشري المتعدد الأجناس.

على أن هذا يجب أن لا يسوقنا إلى المبالغة والتهويل كثيرا. فالمجتمع الأندلسي في الواقع ـ والمجتمع الإشبيلي جزء منه ـ كان قد بلغ في الفترة منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي، من التآلف والانسجام والتزاوج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي مرحلة أو تركيبا اجتماعيا بمعنى أدق يمكننا نعته بالمجتمع الأندلسي بكل خصائصه ومميزاته المعروفة في كتب التاريخ والأدب.[3]
وعندما نغفل أو نسقط من التوافق والتمازج السكاني لهذا المجتمع الأندلسي

---

(١) محمد بركات البيلي: نفس الرسالة، ص ٥٣.

(٢) لطفي عبدالبديع: الإسلام في أسبانيا، ص ٢٤-٢٦.

(٣) انظر التمهيد، ص ٥٠-٥٢.

الناحية السياسية، فإننا نؤكد على ظاهرة عامة مميزة في هذا المجتمع. هذه الظاهرة هي أن العناصرالمكونة لهذا المجتمع الأندلسي دخلت طوال تلك الفترة أي منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري موضوع بحثنا فى مطاحنات ومعارك حربية ضد بعضها البعض دفاعا عن كينونتها ووجودها ومصالحها. ولم تنس فئة من تلك الفئات السكانية من الناحية السياسية فقط حقيقة التركيب الاجتماعي لمجتمعها الذي تعيش فيه، فلم تتحرج عن الأخذ بأسباب المناحى الأخرى للحياة الاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية والعمرانية أيا كان مصدرها.

ويتوجب علينا ثانية التعرف على ميزة أخرى في طبيعة تركيب المجتمع الأندلسي ليسهل علينا فهم أهم مظاهر التطور الاجتماعي في حياة المجتمع الأرستقراطي الإشبيلي. فالمجتمع الأندلسي كما أسلفنا لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا، وإنما كان مجتمعا طبقيا ينقسم بكل عناصره العرقية والدينية إلى طبقات ثلاث هي الطبقة الأرستقراطية أو طبقة الخاصة، والطبقة الوسطى، والطبقة العامة. بمعنى أن كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تجمع في رحابها كل أو معظم تلك العناصر العرقية والدينية الموجودة في الأندلس.[1] وكان لكل طبقة من هذه الطبقات تطلعاتها وأوضاعها وهمومها الذاتية وفلسفتها ونظرتها الخاصة للحياة.

على أن ما نستطيع الخلوص إليه من ذكرنا لذلك الواقع الاجتماعي الطبقي، هو أن الحياة الإجتماعية والإقتصادية، والعلمية، والأدبية، فضلا عن الحياة السياسية، كانت مرتبطة أولا وأخيرا ببلاطات ملوك الطوائف، والطبقة الخاصة التي تدور في فلكها والتي تشارك أولئك الملوك في ذلك الدفع الحضاري.[2] وفضلا عن ذلك فإن هذا التطور الحضاري الذي شهدته بلاطات ملوك الطوائف في شتى مناحي الحياة، إنما تمّ بفضل العائدات المالية الضخمة التي تهيأت لهؤلاء الملوك

(١) انظر التمهيد، ص٥٠ ـ ٥٢.

(٢) عقد صلاح خالص في كتابه: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، فصلا مهما جدا أوضح فيه ما أشرنا إليه في المتن، من أن الحياة الأندلسية في شتى مناحيها قد ارتبطت بالطبقة الأرستقراطية، فهي الموجهة وهي المنفذة، وهي المضطلعة بكل الأدوار بحكم ما تهيأ لها.

والأمـراء، وبسبب التنافس الشديد بين ملوك الطوائف في هذا العصر في جعل بلاطاتهم مركزا من مراكز التقدم الحضاري طلبا للمجد والشهرة والصيت الذائع.

بقي أن نشير أخيرا إلى أن المجتمع الإشبيلي الأرستقراطي في عهد بني عباد وعلى الخصـوص في عهـدي المعتضـد والمعتمـد غلبت عليه حياة المجـون والخـلاعة والتهتك.(١) ويعد المعتمد بالذات أنموذجا حيا لهذا اللون من الحياة.

وقـد يعـزى شيوع تلك الجـوانب الانحـلالية داخـل المجتمـع الإشبيلي الأرستقراطي إلى البيئة الأسبانية السهلة المرحة.

على أن هذا يجب ألا يقودنا إلى قبول هذا القول على علاته. صحيح أن للبيئة تأثيرها في حياد الفرد والجماعة، غير أنها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسي الذي صرف طبقـة الخاصة إلى ذلك اللون من الحياة العابثة اللاهية، ذلك لأن حياة المجـون والانحـلال والتهتك لا يمكن أن تسود في مجتمع مسلم إلا إذا ضعف الوازع الديني في النفوس.

ونعتقد أنه ليس ثمة ما يدعو إلى رصد جوانب تلك الحياة اللاهية للمجتمع الإشبيلي الأرستقـراطي، ذلـك كونها لا تنطوي بطبيعة الحال على أي مضمون حضاري يتماشى مع ما أخذنا نفسنا عليه في هذا البحث.

---

(١) انظر في هذا الخصوص:

- ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ص ١١٥-١١٦، ص ١١٩.

- ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٣٦ - ٣٧.

- ابن الأبـار: المصـدر السـابق والجزء، ص٤٩-٦٠ ص٧٤-١٧٢ ابن خاقان: القلائد ص ٦-١١. المقـرى: المصـدر السـابق، ج ٢ ص ٢٠٧، ص ٢٨٠، ص ٣٩٥. - ابن دحية الكلبي: المـطرب في أشعـار أهـل المغرب، ص ٧-٨. - صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، ص ٩٠-١٠١ - والمعتمد بن عباد: ص ٦٠-٧٢- وص ٩٣-٩٦. ومحمد بن عمار الأندلسي: ص ٢٩٧-٣٠٠.

جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٦٨. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٥٢. - أحمد هيكل: الأدب الأندلسي، ص ٢٣٥. رضا الحبيب السويسي: ديوان المعتمد بن عباد، ص ١٠٣.

وما يجب الإشارة والتأكيد عليه في هذا الصدد هو أن ذلك الانحلال، وتلك المظاهر المجونية الخلاعية كانت عاملا من عوامل انهيار ممالك الطوائف أمام الزحف النصراني الذي أدى من ثم إلى تدخل المرابطين وقضائهم على ممالك الطوائف وعلى رأسها مملكة بني عباد.

الصيد والسباق:

فيما عدا تلك الاهتمامات المجونية لطبقة الخاصة التي عرضنا صفحا عن ذكرها، فإن هناك مظاهراهتمام أخرى ميزت الحياة الاجتماعية للخاصة. ولم تخل منها حياة الأسرة العبادية المالكة، وحياة الوزراء وطبقة الارستقراطية.

ويأتي في مقدمة هذه الاهتمامات الصيد. فكون إشبيلية مدينة نهرية وبرية جعل أهلها يخرجون للصيد في نهر الوادي الكبير وفي البر. ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنه من الطبيعي أن تختلف نظرة الأهالي للصيد باختلاف وضعهم الاجتماعي والمادي، فإذا كانت العامة تخرج للصيد ابتغاء للمعيشة وطلبا للرزق، فإن طبقة الخاصة تطلبه للتسلية. وكان الاهتمام بالصيد البري أكثر من الصيد النهري للمتعة التي تضفيها مطاردة الظباء والغزلان والأرانب وغير ذلك، وقد استعمل الإشبيليون في عملية الصيد الكلاب والبزاة كما هو الشائع في الصيد. وغالبا ما كانت تشهد رحلات الصيد هذه جلسات إخوانية قبل وأثناء وبعد تناول ذلك الصيد الشهي.(١)

واهتمت الخاصة بالسباق أيضا. وكان العباديون أنفسهم يشاركون في تلك السباقات. وأبرز من اهتم بالسباق المعتمد بطبيعة الحال. وكثيرا ما كان يتخلل هذه السباقات الفكاهات الأدبية والاستجازات الشعرية.(٢)

الغناء والموسيقى:

أما الغناء والموسيقى فقد اشتهر الإشبيليون بالمرح والدعابة والتهكم والتندر، وأثر ذلك في نفسياتهم وفي نظرتهم للأمور فبعدت حياتهم عن الجد والتجهم ومالت

---

(١) انظر محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٥٥.

(٢) انظر المقرى: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٢-١٤٣.

إلى الهـزل والـرقة.[1]

ولقد استشهد كثير من المؤرخين والأدباء قديما وحديثا للدلالة على الحياة المرحة اللاهية التي تميزت بها إشبيلية بمقولة الفيلسوف الأندلسي المشهور ابن رشد في مجلس للمنـاظـرة بشأن فضائل مدينتي إشبيلية وقرطبة، وكانت هذه المناظرة قد حصلت بينـه وبـين الـطبيب الإشبيلي أبي بكـر محمد بن زهر في مجلس الخليفة الموحدي المنصور. وقد طال الجدل بين الرجلين إلى أن ختمه الفيلسوف القرطبي بقوله (ما أدرى ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية).[2]

الألعاب الرياضية الذهنية:

ومن الألعاب الرياضية الذهنية التي مارستها الخاصة كالوزراء والوجهاء وغيرهم الشطرنج، وقد مر بنا سابقا الحيلة اللطيفة التي لجأ إليها الوزير محمد بن عمار لردّ غارات ألفونسو السادس، وكيف أنه قد استطاع الوصول إلى ذلك عندما تغلب على الملك النصراني في لعبة الشطرنج. كما مارست الخاصة أيضا اللعب بالنرد، كما عرف أهل إشبيلية لعبة اللطمة والمقرع، وغير ذلك.[3]

---

(١) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧-٣٨.

(٢) انظر المقرى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣) انظر محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٥٦.

الحياة الاقتصادية

أ- النشاط الاقتصادي:

بقي أن نشير أخيرا إلى أهم أوجه النشاط الاقتصادي في الدولة العبادية، وهي الزراعة والتجارة والصناعة. ونجد من الضروري هنا التأكيد على نقطة هامة في هذا الصدد، وهي أن معظم ما كتب عن هذه الفاعليات الاقتصادية الثلاث، إنما يركز على عمومياتها الإشبيلية الموروثة. وذلك لأن بني عباد لم يكن لهم جهد مذكور في سن أنظمة وقوانين، أو عمل مشاريع بارزة للارتقاء بهذه الفاعليات، ربما لانشغالهم بالتوسع والسيطرة، الذي أقحمهم في نزاع ومشكلات مع جيرانهم من ملوك الطوائف، أو ربما اعتقادا منهم بأن هذه الفاعليات كافية وافية لمسيرة الدولة الاقتصادية. ولهذا فإن هذه الفاعليات أو الأوجه الاقتصادية في دولة بني عباد تعتبر امتدادا للعصور الإسلامية السابقة، واستمرارا لأنظمة وقوانين موروثة مرعية.

أما الزراعة، فقد كانت أبرز أوجه النشاط الاقتصادي على الاطلاق، بفضل الطبيعة الزراعية للأندلس عموما، وبفضل الطبيعة الزراعية التي امتازت بها إشبيلية، من حيث خصوبة التربة، ووفرة المياه، وللقوانين والأنظمة التي وضعها الإشبيليون للارتقاء بالزراعة. كنظام الملكية العقارية، الذي يقوم على أساس تفتيت الملكية القروية الكبيرة إلى مجموعة متعددة من الملكيات الصغيرة،[1] وكنظام المشاركة الذي مر بنا ذكره. حيث يقاسم الفلاحون الملاك المحصول الزراعي، وكان هذا عاملا مهما في تحسين أوضاع أولئك المعوزين الذين لا يمتلكون الأرض، فكان الملاك الأغنياء يشاطرونهم الإنتاج الزراعي مقابل جهدهم العضلي.

---

(١) انظر محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ٨١.

وقد زرع بإشبيلية معظم الغلات الزراعية المعروفة، ولكن أهم الغلات الإشبيلية على الإطلاق الزيتون، والقطن،[1] والتين، ثم قصب السكر. وكان الفلاح الإشبيلي ذا خبرة ودراية عظيمة بالفلاحة وطرق الري، وكان لطرق الرى والسدود التي أنشأها المسلمون في الأندلس أثر كبير في تقدم الزراعة الأندلسية عموما. وقد عرف الإشبيليون أيضا طريقة تخصيص أنواع معينة من النباتات لكل نوع من أنواع التربة كما أدخلوا نباتات أخرى جديدة، وأدخلوا السواقي والقنوات وغيرها.[2]

ومما يدل على شدة اهتمام الإشبيليين بالزراعة، أن ألف بعضهم كتبا مهمة عن الفلاحة وشؤونها ومن هؤلاء، ابن بصال[3] الذي عاش في عصر العباديين، وألف عن الفلاحة كتابا مهما أسماه كتاب الفلاحة، وقد عاش في عصر المعتمد وأنشأ بستانا زرع فيه جميع ما جمعه أثناء رحلاته خارج الأندلس وقد سمى هذا البستان: بستان السلطان ثم تبعه بعد ذلك بفترة غير بعيدة، ابن العوام الإشبيلي الذي ألف كتابا عن الفلاحة أسماه كتاب الفلاحة أيضا.[4]

---

(١) انظر محمد بن عبدالمنعم الحميرى: المصدر السابق، ١٩-٢١.

(٢) محمد بركات البيلي، الرسالة السابقة، ص ٧٩، و ص ٨٤.

(٣) هو أبوعبدالله محمد بن إبراهيم بن بصال، أو ابن البصال الطليطلي عاش في إشبيلية في القرن الخامس الهجري، وقد كان يخدم المعتمد بن عباد - فيما يظن - في مجال الزراعة. وقد ألف كتابه: الفلاحة الذي يقع في ١٦ فصلا. وقد نشره وعلق عليه وترجمه كل من: خوسيه ماريا مياس بيكروسا الأستاذ بجامعة برشلونة، ومحمد عزيمان السكرتير العام لوزارة التربية والثقافة للمنطقة الخليفية بالمغرب، منشورات معهد مولاى الحسن - تطوان - ١٩٥٥م، وقد كتبت نبذة عن هذا الكتاب في مجلة معهد الدراسات الإسلامية منقولة من مقدمة مجلة تطوان التي قدمت لكتاب ابن بصال.

انظر ابن بصال: كتاب الفلاحة. نشرة وترجمة خوسيه ماريا مياس بيكروسا.

زاوية الكتب: نقد وعرض المجلد الخامس، العدد ١-٢، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م (عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على إنشاء الصحيفة) ص ٨.

(٤) محمد بركات البيلي: نفس الرسالة أعلاه، ص ٧٩-٨١.

الصــناعـة :

عرفت إشبيلية بحكم الطبيعة الرعوية والزراعية لها عدة صناعات قامت على الإنتاج الزراعي والحيواني كصناعة النسيج وصناعة عصر الزيتون وإخراج الزيت منه، وصناعة السجاد وصناعة طحن الغلال وغير ذلك.

على أن أهم الصناعات التي اشتهرت بها إشبيلية تتمثل في صناعة الزليج أي البلاطات الخزفية، وصناعة التحف العاجية التي تزخر بها متاحف أوروبا وصناعة النسيج الواقي من مياه الأمطار وهو ما يعرف اليوم بـ Water-prrof (١)

وبجانب هذه الصناعات، توجد صناعات أخرى، كصناعة آلات الحرب، كالسيوف والدروع وغير ذلك، وصناعة مواد البناء وما يتصل بها من صناعة المواد الخشبية، كالشراجيب،(٢) والنوافذ والأحواض الخشبية، وغيرها.(٣)

وقد اشتهرت إشبيلية بصناعة السفن بحكم كونها أول مدينة أندلسية تقام فيها دار لصناعة السفن، وذلك في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط. كما اشتهرت إشبيلية بصناعة الآلات الموسيقية كما قلنا سابقا، وكانت هذه الآلات تنقل منها إلى مدن الأندلس وإلى خارج الأندلس أيضاً . (٤)

التجــارة :

ومن الطبيعي أن يهتم الإشبيليون بتصريف إنتاجهم الزراعي والحيواني والذي يفيض عن حاجتهم، كما أنه من الطبيعي أن يحتاجوا إلى استيراد ما ينقصهم من الضروريات والكماليات التي تزخر بها المدن الأخرى، ولذلك فقد اهتموا بالاعتناء بشبكة الطرق البرية التي تربط مدينتهم ببقية مدن الأندلس. واهتموا أيضا بإنشاء الأسطول بحكم كون مدينتهم تطل على الوادي الكبير أو نهر إشبيلية كما يعرف أيضا، الذي يتصل بالمحيط الأطلسي. وقد مر بنا في حديثنا عن البحرية العبادية، أن العباديين أنشأوا أسطولين، حربي وتجاري.

---

(١) محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ١٢٢/ ١٩٨

(٢) لعلها الرواشين كما تعرف في الحجاز أو المشربيات كما تعرف في مصر.

(٣) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ٩١-١٠٤.

(٤) محمد بركات البيلي: نفس الرسالة، ص ٩٨-١٠٣.

وقد شهدت إشبيلية في عهد بني عباد حركة تجارية كبيرة بفضل هذه العوامل، وكانت لهم علاقات تجارية مع مدن الأندلس، ومع المغرب، وبلدان المشرق الإسلامي. (١)

ب ـ النقـود:

بقي أن نشـير إتمـاما للحالة الاقتصادية في الدولة إلى السكة العبادية، فلقد ضرب العباديون عملة خاصة بهم تحمل أسماءهم، ويبدو أن أباالقاسم بن عباد كان أول من ضرب عملة عبادية من ملوك بني عباد، ولكن يظهر أنه لم يضربها باسمه، بل ضربها باسم خليفته المزعوم هشام، وأضاف إليها لقب الحاجب عباد. وكان لهذا العمل ولا شك مغزى سياسي واضح. وقد وجدت عملة مؤرخة في سنوات ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩هـ، كتب عليها في الوجه الإمام المؤيد بالله هشام، إضافة إلى اسم الحاجب عباد في الجهة الأخرى من العملة. (٢) وقد ضرب المعتضد نقودا باسمه، مكتوبا على الوجه الأمامي منها عبارة: المعتضد بالله، وعلى الوجه الآخـر اسم أحـد أبنائه، كالحاجب إسماعيل، أو الحاجب محمد، أو الحاجب الظافر محمد كما جاء ذلك في كتاب LAVOIX (٣)

وكانت العملة تضرب حتى عام ٤٦٤هـ تحت عبارة (دار الضرب بالأندلس). أما في عام ٤٦٥هـ، فقد بدأت تضرب تحت عبارة (ضرب فى إشبيلية).

أما السكة في عهد المعتمد بالله، فقد ضرب بعضها فى إشبيلية، والبعض الآخر في قرطبة، وكذلك ضربت نقود أخرى في مدينة مرسية، وكانت تحمل عبارة المعتمد على الله(٤) في الـوجـه الأمـامي وفي الـوجه الآخر كتب اسم أحد أبناء المعتمد كالحاجب سراج الدولة، وغيره.

---

(١) محمد بركات البيلي: الرسالة السابقة، ص ١٠٣ـ١٠٧.

(٢) LAVOIX: OP Cit, P: 131-132

(٣) LAVOIX: OP CIT 131-132

(٤) اصطلح المؤرخون على تلقيب المعتمد بن المعتضد بالمعتمد بالله، بيد أن اللقب الرسمي له هو المعتمد على الله كما هو ثابت من الدنانير المضروبة.

انظر: Miles: Op. Cit, Vol 2, NO: 571

ويبدو أن العملة العبادية قد استمرت تضرب حتى عام ٤٨٣هـ،(١) وهو العام الذي وقعت فيه موقعة الزلاقة، ثم انقطع أي ذكر لها بعد ذلك. وربما يعود ذلك إلى أن ضغط الأحداث التي أعقبت موقعة الزلاقة قد عرقل سكها أو ربما ذهب بها تتابع الأحداث تلك فانعدم بعد ذلك العام أي ذكر لنقود عبادية.(٢)

---

(١) انظر: Miles: Op. Cit, Vol 2, No: 535

(٢) للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن العملة العبادية

Henri Lavoix : Op. Cit P: 133-143

Miles: Op. Cit, Vol2, P,143-153

الحياة العلمية والأدبية

الأثر الحضاري لقيام ممالك الطوائف:

ذكرنا فيما مضى أنه رغم التفتت والانحلال والتمزق السياسي الذي ساد الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلا أن هذا القرن شهد إشراقا حضاريا وثقافيا كبيرا. ولم تكن الثقافة الأندلسية كما يقول ليفي بروفنسال (في يوم من الأيام أكثر ازدهارا وخصبا منها خلال هذا القرن).(١)

وفي حقيقة الأمر فإن الازدهار العلمي والأدبي الذي ساد الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف كانت له إرهاصاته ومقدماته منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، ثم عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر. وهي الفترة الزمنية السابقة مباشرة لعصر ملوك الطوائف.

وقد سما هؤلاء بالأندلس سياسيا وعلميا وأدبيا وعمرانيا إلى درجات رفيعة من السمو والرفعة. وتجلت مظاهر ذلك السمو في المنشآت العمرانية كعمارة جامع قرطبة، وعمارة مدينتي الزهراء والزاهرة، كما تجلى ذلك التقدم في الجانب الأدبي أيضا، وشهد ذلك العصر بالإضافة إلى ذلك تقدما علميا ليس أدل عليه من أن ملوك أسبانيا النصرانية كانوا يؤمون بلاطات خلفاء بني أمية طلبا للعلاج والشفاء.(٢)

---

(١) حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، ص ١٩.

(٢) للاطلاع على النهضة العلمية والأدبية والثقافية في عصر الخلافة والدولة العامرية انظر: ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ص ١٩-٢٠ - مانويل جوميث مورينو: المرجع السابق، ص ٧١-٢٠٠. - أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: الفصل الرابع، ص ١٩٥ إلى نهاية الكتاب. جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص ١٩-٢٠ - عبدالرحمن على الحجى: أندلسيات، ص ١٩-٢٠

ولـذلك فإن القرن الخامس الهجري يعد متمما لتلك الاتجاهات الحضارية. وأسهم ملوك الـطوائف في إذكـاء ذلـك ودفعه حتى ليصدق القول بأن جوانب الحضارة والتمدن (قد اكتملت أو كادت حتى وصلت إلى مرحلة لابد لها من جنوح أو هبوط). (١)

وقـد أخـذ ملوك الطوائف على عاتقهم مهمة ذلك الدفع الحضاري والثقافي لأغراض شخصية محضة لإضفاء هالات المجد والصيت على بلاطاتهم في معظم الأحـايين، أو لإرضاء نزعات علمية وأدبية وتاريخية ذاتية كما كان شأن بلاطات إشبيلية وبـطليوس وسرقسـطة. وكـان تأثـير عواصم ممالك الطوائف على الفن والعمران عظيما، وذلك لأن كل عاصمة من هذه العواصم اندفعت جاهدة لتتفوق على العواصم الأخرى وتدل عليها بما حققته من تقدم عمراني وأدبي وعلمي رفيع. (٢)

ولقد استوقفت هذه المفارقة التاريخية أي ظاهرة الإشراق الحضاري والثقافي في قلب أزمنة الانحلال والتمزق السياسي الكثير من الأدباء والمؤرخين فلفتوا النظر إليها في دهشة واستغراب شديدين. (٣) وإن لم يفُتْهُمْ أن يستدركوا أن هذه المفارقة التاريخية كانت تصدق دائما في عصر الانحلال والتمزق. لأن تفتت أي نظام حكم مركـزي إلى ممالك وإمارات متناثرة يفضى دائما إلى ظهور تيارات من المنافسات والمشـاحنات، وتدفع هذه التيارات المتنافسة الممالك المتناحرة إلى تشجيع العلم والأدب، والحبـو على رجـالاتهـا وتكريمهما، لتدل بذلك على غيرها كما ذكرنا. ولتسبغ على شخصيات قادتها أكاليل المجد والفخار.

ونحن هنا في هذا المقام لا يعنينا دراسة الأدب والعلوم والثقافة، والتطور الذي رافق مسيرة الحضارة الأندلسية في عصر ملوك الطوائف، فليس ذلك في منهاجنا.

---

(١) إحسان عباس: المرجع السابق، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر محمد عبدالعزيز مرزوق: المرجع السابق، ص ٦٢-٦٣.

(٣) انـظر ليفي بروفنسـال: حضارة العرب في الأندلس وتاريخها، ترجمة عبدالهادى شعيرة، ومراجعة عبدالحميد العبادى، ص ١٣-١٤.

- محمد كرد على: غابر الأندلس وحاضرها، ص ٢١ وما بعدها.

وإنما ما يعنينا هو التأريخ لتلك الأوجه الحضارية لنخلص إلى نتيجة ذات مساس ببحثنا ألا وهي معرفة الحياة العلمية والأدبية في مملكة بني عباد موضوع بحثنا.

وممـا نستطيع الخلوص إليه من كل ما قيل حول التطور الحضاري في القرن الخامس الهجري، هو التأكيد على حقيقة مفادها أن بلاطات ملوك الطوائف قد أصبحت مراكز أدبية حام حولها العلماء والأدباء والشعراء يقدمون إلى الملوك نتاج عقولهم وقرائحهم، ومكنونات عواطفهم ومواهبهم، وينالون على ذلك الأعطيات الجـزيلة، حتى لقد دفع هذا التشجيع بعض الشعراء إلى رفع أسعار أشعارهم لدرجة جعلت أحدهم لكثرة المنافسات عليه يقسم أن لا يمدح أميرا من الأمراء بأقل من مائة دينار.(١)

كما أن مما نستطيع استخلاصه من أثر حضاري لقيام ممالك الطوائف، تلك الملاحظة التي دأب كثير من الأدباء والمؤرخين على ترديدها للاستدل بها على النهضة الأدبية في عصر ممالك الطوائف. هذه الملاحظة هي التي وردت على لسان المؤرخ المشرقي القزويني مفلدها أنه (من إحدي عجائب مدينة شلب، إنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأي معنى طلبته منه).(٢)

ومما نستطيع استخلاصه أيضا من أثر حضاري لقيام ممالك الطوائف، هو أن المعـرفة والتراث الأندلسي في عصر هذه الممالك قد شهدا تطورا مطردا في شتى المناحي. فزخر بوجود عدد كبير من الأعلام في شتى نواحي المعرفة، فكان هناك علماء في الهندسة، والفلك والرياضيات، والرصد، لحركات النجوم، وكان هناك علماء في الفلسفة والطب، والمنطق والصيدلة.. إلخ.

وفيما يتعلق بالعلوم النقلية كان هناك علماء في الفقه والتفسير والفرائض، والنحو والتاريخ والجغرافيا. ولسنا هنا بصدد ذكر أسماء الأعلام الذين أسهموا في هذه

---

(١) اميليو غارسيا غومس: الشعر الأندلس، ترجمة حسين مؤنس، ص ٤٦.

(٢) كامل كيلاني: نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٣٤٠-٣٤١.

المجالات الحضارية المختلفة لأن ذلك ليس من منهجنا أولا، ولأن كثيرا من كتب المحدثين قد كفتنا مؤونة ذلك من جهة أخرى.[1]

وفيما يتصل بالحياة الأدبية باعتبارها أهم مظهر حضاري في عصر ملوك الطوائف، فإن المقام يضيق بذكر أعلامها الأفذاذ. وكانت - أي الحياة الأدبية في الأندلس - في عهد ممالك الطوائف مجالا رحبا لمصنفات حديثة أوسعتها بحثا وتنقيبا.[2]

على أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نفسح لبعض الأعلام الأفذاذ في هذا المقام ذكرا، لأن أولئك الأعلام الأفذاذ الذين تنوعت اهتماماتهم وتباينت اتجاهاتهم ومشاربهم قد فرضوا أنفسهم على كل من اضطلع بدراسة أو تاريخ الحياة العلمية والأدبية والفكرية بوجه عام.

فمن هؤلاء العلماء الأفذاذ: ابن حزم الفقيه والمفكر الأندلسي المشهور، وفي هذا ما يكفي للتعريف به.[3] ومن هؤلاء أيضا الفقيه الأندلسي المشهور ابن عبدالبر الذي كان يقال له حافظ أهل الغرب.[4] ومن الأعلام الذين خلدت

---

(١) انظر مثلا:

- محمد كرد على: غابر الأندلس وحاضرها، ص ٥١-٩٣. - عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ط ٣، الفصل الثالث والفصل الرابع من الكتاب. - حسين مؤنس: شيوخ العصر، ص ٨١-٨٤.

(٢) انظر مثلا:

- إحسان عباس: المرجع السابق. - مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. - آنخل جنثالت بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. - أميليو غارسيا غومس: المرجع السابق وغير ذلك.

(٣) انظر ترجمته عند:

- ابن خلكان: المصدر السابق، مجلد ٢٨، ترجمة رقم ٤٤٨.

- ابن كثير: البداية والنهاية، ١٦ جزءا، ج ١٢، ص ٩١-٩٢.

- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٧٥.

(٤) انظر ترجمته عند:

- ابن خلكان: نفس المصدر السابق، مجلد ٧، ترجمة رقم ٨٣٧.

- ابن بشكوال: المصدر السابق، ص ٦٤.

أسماؤهم أيضا: الفقيه أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي.[1]

أما أبرز شخصيات ذلك العصر الأدبية، فهم ابن شهيد،[2] وابن زيدون،[3] وابن عمار،[4] وابن اللبانة[5] وغيرهم.

بقي أن نشير إلى أن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا ذوي علم وأدب ومعرفة، وكان لكل واحد منهم ميزة اختص بها دون جيرانه، (فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير،[6] وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة[7] أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم وبزّ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا، يلقى منهم كل رعاية).[8]

(إن ذلك القرن الحادي عشر الأندلسي لعالم عجيب متدفع الحركة: عصر كانت

---

(١) انظر ترجمته عند:

- ابن خلكان: نفس المصدر السابق، مجلد ٧، ترجمة رقم ٢٧٥.

- ابن شاكر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٢) انظر ترجمته عند:

- ابن خلكان: نفس المصدر السابق، مجلد ٧، ترجمة رقم ٤٨.

- أحمد هيكل: المرجع السابق، ص ٤١٠ - ٤١٩. - أميليو غارسيا غومس: نفس المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) عن ابن زيدون انظر:

- علي عبدالعظيم: ديوان ابن زيدون ورسائله.

(٤) عن ابن عمار انظر:

صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسي.

(٥) انظر بعد، ص ٤٢٣

(٦) انظر قبل الباب الرابع، ص ٢٦٣

(٧) هي سهلة بني رزين أو شنتمرية الشرق كما كانت تعرف في الجغرافيا الإسلامية أيضا.

(٨) أميليو غارسيا غومس: المرجع السابق، ص ٤٥.

الغاسلة فيه تنتقل من ضفة النهر إلى العرش،[1] وكان الملوك فيه ينزعون عن عروشهم ويسلمون إلى أنياب المنية، أو يلقى بهم في ظلمات المنفى! إن أشارته الغالبة عليه هي الأنهيار).[2]

الحياة العلمية والأدبية فى مملكة بنى عباد :

من أسف أن المؤرخين والأدباء القدامى رغم اهتمامهم الشديد ببنى عباد وبدولتهم لم يسعفونا بالمادة التاريخية اللازمة لمعرفة الحياة العلمية والأدبية على وجه التخصيص. فكل ما نشاهده من ذلك الحشد من الأسعار وأسماء عديدة لشعراء وأدباء وكتاب زخرت بهم دولة بنى عباد لايعدو نطاق أغراض الشعر والنثر التى كانت سائدة فى الأندلس فى هذه الفترة. كما لم تتح لنا سانحة العثور على أخبار عن المدارس والمعاهد والمكتبات التى أنشأها العباديون لخدمة العلم والمعرفة فى المملكة.

فكل مايمكننا الإشارة إليه ـ بالنسبة للحياة العلمية والأدبية فى إشبيلية فى عهد بنى عباد ـ هو ذلك الثبت الجم من الأسماء لأدباء وشعراء زخرت بهم بلاطات بنى عباد. ومهمتنا فى هذا الصدد تقتصر على رسم صورة واضحة المعالم للحياة الأدبية والعلمية فى إشبيلية فى هذه الفترة موضوع الدراسة:

العباديون فى دولة الأدب :

بادىء ذى بدء نجد أن الاتجاه الشعرى هو الغالب على ملوك بنى عباد، فقد كان ملوك هذه الدولة ابتداء من عهد القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، ومرورا بالمعتضد ابنه، وانتهاء بالمعتمد وأبنائه يقرضون الشعر وينظمونه على درجات متفاوتة فى علو الكعب وسمو الدرجة.

---

(١) المقصود بذلك اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عباد التى تعرف عليها لأول مرة على ضفة نهر الوادى، ثم اشتراها من سيدها وتزوجها، وأنجب منها كل أولاده المشهورين في كتب التاريخ والأدب.

(٢) أميليو غارسيا غومس: نفس المرجع السابق، ص ٤٥.

وقد حفظت للقاضى أبى القاسم عدة أبيات يصف فيها الطبيعة بعناصرها المختلفة كالأزهار والرياحين[1].

ويبدو أن القاضى كان مقلا جدا فى قول الشعر ونظمه، فعدا ماذكرنا عن تلك الأبيات التى نظمها فى وصف الطبيعة، لم يحفظ له شىء من الشعر سوى ما أثبته ابن بسام له من أبيات عارض فيها بعض شعراء بلاطه[2].

والظاهر أن مشاغل تأسيس الدولة من جهة، والاهتمامات السياسية للقاضى نفسه من جهة ثانية حالت دون اهتمامه بالأدب فى عهده بصفة عامة. وإن كان هذا لم يكن أمراً مطلقا دائما، فبلاط القاضى شهد أكثر من شاعر بلاطى متخصص، كما شهدت الحياة الأدبية والعلمية صوراً من المعارضة الشعرية التى كانت تستهوى دائماً ملوك تلك الفترة.

أما المعتضد فله شعر يضعه فى مراتب الشعراء المبرزين، وإن كانت له أشعار تجعل المرء يشكك كما يقول على أدهم[3] فى شاعريته..

على أنه فاق أباه فى نظم الشعر وقرضه، والإجازة عليه وتشجيعه. وقد طرق معظم أغراض الشعر، وأغرق كثيرا فى مدح نفسه والتفاخر بأعماله[4]، ويقول آنخل جنثالث بالنثيا عنه (وقد كان ذا مزاج متناقض غريب، يجمع بين الدهاء والقسوة، وكانت له ـ إلى ذلك ـ ذاكرة واعية، وقريحة شاعرية طيبة جعلت معاصريه يضعونه فى صفوف المبرزين من القراء، وأحاط المعتضد نفسه بهالة من

---

(١) انظر المقرى: المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٩، و ص٣٧٢-٣٧٣ (نقلا عن ابن اللبانة ـ والفتح بن خاقان فى مطمح الأنفس)..

(٢) انظر، الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٧٢-١٧٥

(٣) المرجع السابق، ص٧٢.

(٤) عن شعر المعتضد بالله انظر:

ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص٦٧ ـ ٨٠.

الشعراء جعلت همها مدحه، وأفرغ عليهم الأموال فبدا فى هيأة خلابة من العظمة)[١]

أما المعتمد فشهرته كشاعر أشهر منها كملك وكسياسى. ولم يبلغ الشعر من الانتشار والإشراق مثلما بلغه فى أيامه. وقد أفردت لشاعريته وأدبه صفحات جمة وفيرة فى كتب المؤرخين قديما وحديثا. ولم ينل ملك من ملوك بنى عباد فضلا عن ملوك الطوائف ماناله المعتمد من عناية واهتمام الدارسين للأدب.

وهو فى الواقع حقيق بذلك. فالجانب العاطفى من شخصيته أسمى كثيرا وأرق من الجانب السياسى. وهو جانب (لاينهض بحقه من غير شك)[٢] إذ إن هذا الجانب العاطفى أشد خلابة وأسراً كما يقول ليفى بروفنسال أيضا[٣].

والمعتمد من أكبر شعراء الأندلس لا فى عهد ممالك الطوائف فحسب، بل فى كافة العصور الإسلامية الأخرى فى الأندلس، لابل هو من شعراء العربية الأفذاذ على مستوى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى.

ويحار المرء فى اختيار العبارات التى يطرقها لوصف شاعرية المعتمد، ولكن يحسن بنا أن نشير إلى أقوال القدامى والمحدثين فى شاعرية هذا الملك الذى أسر بلاطه أولئك المؤرخين والأدباء. يقول ابن الخطيب فيما ينقله عنه عبد الوهاب عزام (والمعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده فى الجود، وأصلب نظرائه مكسر عود، فذ فى البلاغة، طرف فى الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب، جذل الألفاظ، كثير المعانى، حسن المآخذ، له من معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة، حسن الإشارة، جم التوليد، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرة ما اجتلب إليه من أعلامه الثناء، ونثر عليه من در الحمد، ووضع فى يديه من حر القريض)[٤]..

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى، ص٨٦ـ٨٧

(٢) ليفى بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها، ص١٤ـ١٦

(٣) نفس المرجع والصفحة..

(٤) المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، ص١٧ـ١٨

ترى هل يكفى هذا الحكم النقدى فى إيفاء المعتمد حقه ؟؟ نعتقد أنه لايكفى فمازال فى جعبتنا من أحكام الأدباء والمؤرخين الكثير مما يؤيد ماجاء فى المتن. غير أنه بحسبنا هنا أن نكتفى بذلك، لننتقل إلى العصر الحديث فننقل إعجاب المؤرخين المحدثين به. يقول آنخل جنثالت بالنثيا[1] (وكان الحال فى إشبيلية شبيها بما كان عليه فى ألمرية، إذ حظى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب فى ظل بنى عباد. ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء، ومن ثم لانستغرب أن يكون بلا طهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب. وقد وصلت .... وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال فى ذلك البلاط المصقول، حيث عجز شعراء مجيدون من طبقة على بن حصن وابن حمد يس الصقلى، وأبى بكر بن زيدون، وأبى بكر بن اللبانة، وغيرهم كثيرون عن إدراك ماوصل إليه ابن عمار، وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ من تحليق بعيد فى سماء الشعر، وقصروا كذلك فى ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رميك التاجر الإشبيلى قبله، فضلا عن مجاراة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من رائع القصيد. والحق أن المعتمد وفق فى أيام سعوده ومجده، إلى درجة من التجويد مكنت له أن يصل بشعره ـ فى أبواب الغزل، ووصف مجالس السرور، ووصف الحرب والنصر ـ إلى آفاق استدرت إعجاب البدو أنفسهم، فلما تنكرت له الأيام، وعانى أوصاب السجن والهوان، أخذت نفسه الفتانة تجود بدرر من الشعر لازالت تثير فى أنفسنا إلى اليوم الإجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم)..

أما أميليو غارسيا غومس[2] فيقول فى معرض تقييمه لعصر ملوك الطوائف (وإذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التى شملت الشعر خلال ذلك العصر فى صورة شخص واحد من أهله، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦١هـ/١٠٦٨م ـ ٤٨٤هـ/١٠٩١م) كان أبوه المعتضد (٤٣٤هـ/١٠٤٢م ـ ٤٦٢هـ/١٠٦٩م) ـ صاحب الأفاعيل الشنيعة ـ وأبناؤه

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى، ص٨٨ـ٩٠ .

(٢) المرجع السابق، ص١٥ ـ ١٦

جميعا، وخاصة «الراضى» الرقيق صاحب رندة، كلهم شعراء. ولكنه بزهم جميعا وفاق كل معاصريه فى ذلك المضمار لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه: أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الإعجاب، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامى كله، فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها، وتهددوا الباقى)[1].

بحسبنا هذه الأحكام لنستدل بها على علو درجة المعتمد الشاعرية وعلو كعبه الأدبى. وبالإضافة إلى ذلك كان المعتمد ناقدا محللاً عرف عنه ذلك واشتهر حتى كان الشعراء يتحرجون عند القاء قصائدهم بين يديه وحتى كانوا يتحامونه لعلو كعبه فى النقد الأدبى[2]. وبالإضافة إلى ذلك كان شديد الاهتمام بالعلم والمعرفة، شغوفا إلى فهم ما استشكل منها. وخير دليل على ذلك السؤال الذى وجهه المعتمد إلى الأعلم الشنتمرى المذكور سابقا يستفسر فيه عن النطق الصحيح لكلمة (المسهب)[3].

وقد بقيت هذه الذكرى العطرة للمعتمد حية مشرقة، تتناقلها الأجيال حتى الوقت الحاضر، ودفع هذا الإعجاب للشاعر، الكثير من القدامى والمحدثين إلى تتبع حياته وأدبه وثقافته الواسعة العريضة. كما استهوت حياته البائسة وأشعاره الشجية الرقيقة الباحثين قديما وحديثا[4]. وظلت أشعاره تجتذب أنظار الأدباء

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦ ـ ٤٧ .

(٢) انظر المقرى: المصدر السابق، جـ٥، ص١١٠ ـ ١١١، وص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

(٣) انظر المقرى: نفس المصدر والمجلد، ص٢١٦ ـ ٢١٨

(٤) من المؤلفات التى ألفت حول شخصية المعتمد الشعرية انظر:

عبد الملك المراكشى: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ص٦٤٤ .

على أدهم: المرجع السابق ـ عبد الوهاب عزام: المرج السابق ـ صلاح خالص: المرجع السابق وغيرهم.

أما بالنسبة للدوريات فهناك العديد منها التى تناولت شخصية المعتمد الأدبية نذكر منها على سبيل المثال: إبراهيم حركات: شعر المعتمد بالله فى المغرب، مجلة البحث العلمى، ١٩٦٥م ـ الصديق بن العربى: المعتمد فى المغرب، مجلة تطوان، العدد ١٠، ١٩٦٥م ـ عبد القادر زمامة: شعر المعتمد فى المنفى، مجلة البحث العلمى المغربى، الرباط، ١٩٦٤م.

والدارسين والنقاد وسائر غواة الأدب المحض والثقافة الحقة كما يقول على أدهم. وقد جمع شعره فى ديوان أطلق عليه اسمه[1].

هذا غيض من فيض هذا الشاعر وقليل من كثير ألقه وأمجاده الأدبية. ولم يكن أبناء المعتمد ليشذون عن النهوض بالشعر لا بل تذوقه وقرضه عن أبائهم. ولعل أبرزهم ظهورا فى هذا الميدان: يزيد الراضى صاحب الأشعار الرقيقة الجزلة[2].

أبرز شعراء الدولة العبادية :

ذكرنا أن الحركة الأدبية فى عهد القاضى أبى القاسم محمد أول ملوك الدولة العبادية لم تبلغ من التمكين والانتشار مايصدق القول معها بأن ثمة نهضة أدبية كانت تعيشها الدولة فى عهده، بيد أننا من خلال استطلاعنا لأحوال الدولة فى عهد القاضى لانعدمُ وجود حركة فكرية وأدبية محدودة. وكان على رأس شعراء الدولة أبو الحسن بن الأستجى، وابن القوطية، وأبو الأصبغ بن عيسى[3].

أما فى عهد المعتضد بالله فقد بلغت دولة الأدب فى عهده شأوا بعيدا بحكم عدة أسباب منها: اتساع رقعة الدولة واتساع خيراتها بالتالى، ومنها ميول المعتضد نفسه إلى الأدب والمعرفة، ثم التطور الطبيعى للأدب الذى شهدته بلاطات ملوك الطوائف آنذاك إلى حد قاربت فيه مدارج الكمال. وأخيرا إلى شيوع ظاهرة التنافس بين ملوك وأمراء الطوائف فى الاستئثار بالموهوبين من الشعراء والأدباء لبلاطاتهم وحدهم.

والمتمعن في الحركة الأدبية فى إشبيلية فى عهد المعتضد يلحظ ثبتا كبيرا من الأسماء لأدباء كان لهم وقتها صيتا وذكرا، أحاط المعتمد بهم بلاطه. وإن لم يتخل عن ممارسة سياسته فى الإيقاع بهم والتخلص منهم..

ونذكر فى اقتضاب بالغ بعضا من هؤلاء الشعراء والأدباء. فمنهم أبو الوليد

---

(١) انظر أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد: ديوان المعتمد بن عباد ـ رضا الحبيب السويسى: ديوان المعتمد بن عباد أيضا.

(٢) انظر ابن الأبار: المصدر السابق والجزء، ص٧٠ ـ ٧٦.

(٣) انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص١٧٠ ـ ١٧٥

حبيب بن عامر الذى ألف كتابه المسمى البديع فى فصل الربيع . وقد توفى شابا فى شرخ الصبا[1] . ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم[2]، ثم أبو بكر الخولانى[3]، ثم الشاعرِ المشهور ابن الأبار وهو غير ابن الأبار القضاعى صاحب الحلة السيراء، واسمه الكامل أبو جعفر أحمد بن الأبار وهو أحد شعراء الخلاعة والمجون فى دولة المعتضد بالله[4].

ومن مشاهير شعراء المعتضد أيضا الأديب أبى الحسن على بن حصن الإشبيلى. وكان شاعرا مفلقا، غير أن مكانته الأدبية كسفها ظهور الشاعر الأشهر ابن زيدون الذى التحق بالبلاط العبادى، فبدأت المنافسات بين الرجلين ويبدو أن ابن حصن كان يلى بالإضافة إلى كونه أحد أبرز شعراء البلاط منصبا حكوميا هاما. ولذلك بدأ يعرض بالوزير الشاعر ابن زيدون ويتهكم عليه. وكان المعتضد نفسه يزكى هذه العداوة بين الشاعرين حتى ارتكب ابن حصن خطأ فادحا ـ لانعلم كنهه ـ فقتله المعتضد وتخلص منه[5].

ومن شعراء دولة المعتضد بالله ابن جاخ البطليوسى. وقد تولى فى عهده رياسة الشعراء. وقد استفدنا حق الاستفادة من ترجمة حياته فى معرفة ناحية مهمة عن الشعر فى عهد المعتضد بالله، إذ يبدو أنه كانت هناك دار مخصصة للشعراء والأدباء أو قل ديوان للشعـر يجتمعون فيه وينالون أعطياتهم من الملك جزاء أشعارهم، بمعنى أنهم كانوا شعراء ملتزمين بخدمة السلطان برواتب معينة. كما عرفنا أن المعتضد كان يجتمع فى ذلك الديوان بالشعراء فى يوم معين من الأسبوع وهو يوم الاثنين، فيستمع إلى أمداحهم فيه[6].

---

(١) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٢) انظر ترجمته عند: ابن بسام: نفس المصدر والقسم والمجلد، ص١٠١ ـ ١٠٢

(٣) انظر ترجمته عند: الحميدى: المصدر السابق، ص٣٩٢ .

(٤) انظر ترجمته عند: صلاح خالص: إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، ص١٦١ ـ ١٦٤

(٥) انظر ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى ـ المجلد الأول، ص١٣٣

(٦) انظر المقرى: المصدر السابق، جـ٥، ص٢٧٤ ـ ٢٧٦

أما أشهر كتّاب النثر فى عهده فهو الكاتب المعروف ابن عبد البر، وهو الذى حرر ارتجالا خطاب المعتضد لملوك الطوائف الذى يشرح فيه أسباب فتكه بابنه إسماعيل كما ذكرنا. وكان كاتبا مفلقا، إلا أنه تعرض لنزوة غضب المعتضد فحاول الفتك به. وكاد أن يفعل ذلك لولا وصول والده العالم الفقيه المشهور ابن عبد البر الذى توسط له عند المعتضد فعفا عنه(١).

ومن هؤلاء الشعراء أيضا ابن شرف القيروانى الذى تحاشى الوصول إلى المعتضد بالله وكان يرسل له أمداحه من موطنه، ورفض كل إغراءات المعتضد له للقدوم إليه خوفا على حياته من هذا الملك الذى لم يكن يؤمن له جانب(٢).

أما أبرز شعراء الدولة فى عهد المعتضد طراً وأبعدهم ذكرا ليس فى بلاط المعتضد فحسب، ولا فى إشبيلية أيضا، وإنما فى الأندلس عامة، فهو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومى القرطبى الذى ترك موطنه قرطبة لاجئاً ببلاط المعتضد بالله. فأكرم وفادته هذا وبالغ فى تكريمه وتشجيعه. وبادله ابن زيدون حبا بحب، وكانت العلاقات بين الرجلين علاقة تفهم وإكبار. وقد عهد المعتضد لأبى الوليد بن زيدون بمنصب ذى الوزارتين. وقد صاغ فيه ابن زيدون أجمل القصائد. وظل ابن زيدون موفور الكرامة، عزيز الجانب - إلا فيما ندر - حتى وفاة المعتضد، وكان هذا شيئا غريبا، إذ لم يسلم أحد من شرور المعتضد وأحابيله(٣). كما ظلت علاقة ابن زيدون بالمعتمد فوق كل شبهة وشك، وبذلك حافظ على مكانته فى بلاطه.

ثم الشاعر محمد بن عمار الذى ذكرنا سابقا أنه اتصل بالمعتضد بادىء ذى بدء فمدحه ووصله. ثم توثقت علاقته بالمعتمد بعد ذلك، إلى أن كانت نهايته على

---

(١) انظر ابن خاقان: القلائد، ص٢٠٦ - وانظر كذلك ابن الأبار: إعتاب الكتّاب، ص١، ص٢٢٠-٢٢٢

(٢) انظر ترجمته عند: ابن بسام: نفس المصدر السابق، القسم الرابع، المجلد الأول، ص١٣٥ - ١٤١

(٣) عن ابن زيدون انظر: على عبد العظيم: ديوان ابن زيدون ورسائله. جمع فيه كل ماقيل عن الشاعر وعن علاقته بدولة بنى عباد ومناصبه.. الخ..

يديه كما سبق أن ذكرنا.

أما فى عهد المعتمد فقد كان شعراء البلاط العبادى أكثر من أن يحصيهم الفرد، فقد أصبح بلاطه كعبة القصاد من كل حدب وصوب.

ولن نمضى طويلا فى ذكر أسماء شعراء دولته. وحسبنا أن نشير إلى الأسماء اللامعة جدا فى سماء إشبيلية وفى حياتها الأدبية مثل الشاعر عبد الجليل بن وهبون.[1]، والشاعر الصقلى بن حمديس الذى كان من أبرز شعراء الدولة. وقد زار المعتمد فى منفاه، ورثاه كثيرا[2].

ثم الشاعر المشهور المعروف بابن اللبانة وهو محمد بن عيسى الدانى، وكان ذا شعر جيد، وكان المعتمد يميزه عن غيره ويعجب لما يأتى به من النادر الغريب، وكانت علاقته بالمعتمد أقرب إلى علاقات الأصدقاء منها إلى علاقات المخدومين. وقد أوقف جل حياته فى مدح العباديين والمعتمد بالذات، وعندما خلع المعتمد زاره فى منفاه بأغمات كثيرا، ورثاه أحر رثاء دل على شديد وفائه وكريم أصله[3].

---

(١) انظر عبد الواحد المراكشى: المصدر السابق، ص١٥٩

(٢) انظر المقرى: المصدر السابق، جـ٥، ص١٤١-١٤٣ إحسان عباس: ديوان ابن حمديس، ص٦-٧.

(٣) عن ابن اللبانة: انظر: ابن بسام: المصدر السابق، القسم الثانى، المجلد الأول، ص٥٠ - ابن خاقان: القلائد، ص٢٨٢ - عبد السلام الهراس: مقال بعنوان ابن اللبانة، مجلة تطوان، العدد الخامس، السنة ١٩٦٥م.

العمــران

لعـل من المؤسف أن نجد العمران هو أقل أوجه الحياة الحضارية فى الدولة العبادية ذكرا ونصيبا فى كتب الأدب والتاريخ والفنون. فما ورد فى هذه الكتب عن العمـران فى عهـد العبـاديين، إنـما هو عبـارة عن إشـارات مقتضبة موجزة عن الإنشاءات العمرانية التى تنسب لهم. وحتى القصور الملكية العبادية التى حرص المؤرخون على أن يذكروا لنا أسماءها لم تنل نصيبا من الوصف والتدقيق. ويشعر المرء بالاستغراب وهو يرى أن المؤرخين ـ على اهتمامهم الفائق بالدولة العبادية ـ لم يهتموا بذكر منشآتها العمرانية فى الوقت الذى استطعنا أن نعرف المقدار العظيم من التقدم العمرانى الذى بلغته بعض ممالك الطوائف الأخرى من خلال الوصف الـدقيق لبعض منشـآتهـا، كقصر المـأمون بن ذى النون ملك طليطة، وكقصر الجعفرية فى سرقسطة.

ومهما يكن، فإن الإشارات المقتضبة التى ورد ذكرها عن الناحية العمرانية فى دولة بنى عباد، توضح أنه كان لبنى عباد دور لا بأس به فى الإسهام فى الناحية العمرانية فى إشبيلية، وقد تركزت هذه الأعمال الإنشائية فى القصور، والمساجد بصفة خاصة، ثم فى بقية المرافق الأخرى للمدينة..

المساجــد :

بادىء ذى بدء يجب أن نشير إلى أنه قد أنشىء فى إشبيلية إبان الفتح مسجد جامع، ويسمى مسجد روبينة، وكان جزءا من كنيسة سانتا روفينا، وهو الذى قتل فيه والى الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير فى سنة ٩٧هـ/٧١٦م[1]. وفى

(١) عن هذا المسجد والمساجد الأندلسية الأخرى انظر: مانويل جوميث مورنيو، الفن الإسلامى فى أسبانيا ـ ليوبولدو توريس بلباس: بحث بعنوان الأبنية الأسبانية الإسلامية ـ مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية العدد الأول، المجلد الأول، السنة الأولى، ١٣٧٢/١٩٥٣م، ص٧ ـ ١٠

عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بنى قريبا من هذا المسجد، مسجد آخر، عرف بمسجد ابن عدبس، وقد أصبح المسجد الجامع الكبير في إشبيلية الذى تقام فيه الصلوات والجمع، وظل كذلك حتى عهد الدولة العبادية، وكانت البيوت تحيط به من جميع الجهات، ويقع بالقرب منه قصر الإمارة، وقد سمى بمسجد ابن عدبس، لأن الذى بناه هو عمر بن عدبس قاضى إشبيلية فى عام ٢١٤هـ/ ٨٢٩-٨٣٠م بناء على أمر الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) وقد استخدم فى بنائه أحجاراً مأخوذة من أنقاض السور الرومانى القديم الذى بدأ يتهاوى بفعل الزمن من الفتح الإسلامى وكان مسجد ابن عدبس آية فى روعة الهندسة والبناء. أما صومعته فقد كانت تحفة فنية نادرة أيضا، وبنيت كذلك من أحجار السور الرومانى المذكور[1].

وقد رممت هذه الصومعة فى عهد المعتمد بن عباد، ووجد الأثريون لوحة تذكارية تؤرخ لترميم المعتمد لهذه الصومعة مؤرخة فى سنة ٤٧٢هـ. وهذه اللوحة التاريخية التى عثر عليها عبارة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة (سلفادور) التى أقامها الأسبان على أنقاض جامع ابن عدبس بعد استيلائهم على إشبيلية من يد المسلمين فى عهد فرناندو القديس. وهذه اللوحة مكتوبة بخط كوفى ونصها:

(بسملة. . وصلى الله على محمد خاتم أنبيائه، وخيرة أصفيائه وعلى أهله الطيبين الأبرار، وسلم تسليما. أمر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييد أمره، ووصل إعزازه نصه أعلى هذا المنار، ولازال عزيزا بدعوة الإسلام عند انهدامه لكثير الزلازل الكائنة ليلة الأحد مستهل ربيع الأول من سنة اثنين وسبعين وأربعمائة (١٠٧٠م) فتم بحول الله وتأييده فى عقب الشهر المؤرخ. قبل الله فيه مشغاله، وبنى له بكل حجر فيه مقرا فى جنانه بمنه ولطفه). . كما

---

(١) انظر السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور فى الأندلس، كتيب فى سلسلة اقرأ، عدد ١٩٠ - أكتوبر ١٩٥٨م، ص٤٤ - ٤٦ - محمد بركات البيلى: الرسالة السابقة، ص٢١ - ٢٥ مع الحواشى.

توجد قطعة رخامية أخرى صغيرة مكتوب عليها (أبو القاسم محمد)[1].

وقد ظل هذا المسجد - المسجد الجامع الكبير فى إشبيلية - حتى عصر الموحدين، عندما ضاق بالمصلين، لتكاثف السكان ونمو المدينة، فبنى الموحدون مسجدهم المشهور بصومعته المعروفة بالجيرالدا فى سنة ٥٦٧هـ/١٠٧٢م. والذى تحول بعد ذلك إلى كنيسة عام ١٠٤٢م، وهى الكاتدرائية العظيمة الموجودة فى إشبيلية حتى اليوم[2].

وقد بنى العباديون عدة مساجد فى إشبيلية، مثل مسجد والدة المعتضد بالله الذى بنته فى عهد ابنها[3]، ثم مسجد الأميرة اعتماد زوجة المعتمد، وقد وجدت لوحة رخامية محفوظة فى كنيسة سان خوان دى لابالما مكتوبة بالخط الكوفى وتوجد الآن فى متحف إشبيلية الإقليمى. ونصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبى الحسين عبد الله بن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبى القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده، وأمره وإعزازه، بإقامة هذه الصومعة بمسجدها، صانه الله، طلبا لجزيل الأجر والثواب، فتمت بعون الله على يدى الوزير الكاتب الأمير أبى القاسم بن حجاج وفقه الله، وذلك فى شعبان من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة)[4] وبالإضافة إلى هذين المسجدين، فقد كان هناك عدد آخر من المساجد فى عهد بني عباد، مثل مسجد ابن خير، ومسجد العريف، وغيرها[5].

---

(١) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، ط٢، ١٣٨١-١٩٦١، ص٦٦-٦٧. السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور فى الأندلس، ص٤٦.

(٢) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع أعلاه، ص٤٦-٤٧ - السيد عبد العزيز سالم: نفس المرجع أعلاه، ص٤٦-٤٩.

(٣) عبد الملك المراكشى: الذيل والتكملة لكتابي الصلة والموصول، تحقيق إحسان عباس - قسمان - القسم الثانى، ص٥٣٨ - ٥٣٩.

(٤) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع أعلاه، ص٦٦-٦٧.

(٥) محمد بركات البيلى: الرسالة السابقة، ص٢٧-٢٩

سور إشبيلية فى عهد الدولة العبادية :

أشرنا آنفا إلى أن المسلمين استخدموا فى بناء مسجدهم الجامع المعروف بمسجد ابن عدبس أحجاراً من السور الرومانى القديم المتداعى. وكان هذا السور الرومانى القديم الذى جدد بنيانه فى زمن القوط قد تداعى وتهاوى بفعل الأحداث التى شهدتها إشبيلية منذ عهد القوط وحتى الفتح الإسلامى[١].

وأول سور بناه المسلمون هو ذلك السور الذى أنشأه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) بعد غزوة النورمان الأولى على الأندلس[٢]. ويعتقد السيد عبد العزيز سالم أنه استخدم فى بنائه هو الآخر أحجار السور الرومانى القديم[٣]. وقد تهدم هذا السور فى أعقاب قضاء عبد الرحمن الناصر على ثورة المولدين التى شهدتها إشبيلية طوال عهود الأمراء الأمويين الذين تعاقبوا على حكم الدولة الأموية بعد عبد الرحمن الأوسط وحتى عهد الناصر. وقد أمر الناصر قائده ابن السليم بهدم السور. فهدمه وألحق «أعاليه بأسافله» للحيلولة دون أى محاولة للشغب يقوم بها المولدون بعد ذلك. وقد بنى الناصر إثر ذاك قصر الحكم (وحصنه بسور صخرى وأبراج منيعة)[٤].

وإبان الفتنة التى شهدتها الأندلس فى أعقاب انحلال الدولة الأموية فى بداية القرن الخامس الهجرى بنى حول إشبيلية سور ترابى لحمايتها من الغزو الخارجى. ويعتقد السيد عبد العزيز سالم أن هذا السور قد بنى قبيل قيام دولة بنى عباد

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : مقال بعنوان : تحقيق أسماء قصور بنى عباد بإشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون، نشر فى مجلة الأوراق التى يصدرها المعهد الأسبانى العربى للثقافة، عددين، العدد الثانى، ١٩٧٩م، ص٣٤ .

(٢) انظر السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال أعلاه ونفس الصفحة.

ولعل من المهم هنا أن نذكر أن غزوة النورمان الثانية على الأندلس كانت فى سنة ٤٥١هـ كما ذكرنا سابقا.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال، ص٣٢ - ٣٣ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المقال، ص٣٣ .

مباشرة. وهو السور الذى ظل يحيط بالمدينة طوال عهد الدولة العبادية وحتى الفتح المرابطى[1].

وقد مر بنا من قبل أن المرابطين استطاعوا إحداث فجوة فى سور إشبيلية عند مهاجمتهم للمعتمد بن عباد الذى تحصن بالمدينة. وقد استطاع المرابطون اقتحام المدينة بسبب العيب الأساسى الذى كان عليه سور إشبيلية الذى بنى فى إبان الفتنة. إذ يقول السيد عبد العزيز سالم [2] وكان ارتفاع أسوار إشبيلية فى زمن الفتنة على مايبدو متوسطا، إذ كان من اليسير على الناس تسنمها والترامى من أعلاها.

وعندما سقطت الدولة العبادية على يد المرابطين عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م. ظل السور العبادى يحيط بإشبيلية حتى اضطر المرابطون تحت ضغط هجمات النصارى إلى بناء سور جديد فى عام ٥٢٦هـ. وقد جدد هذا السور على فترات متتالية من الزمن ورمم أكثر من مرة فى عهد الدولة الموحدية[3].

بقى أن نشير إلى أن سور إشبيلية المعروف بسور إشبيلية. كان له فى عهد بنى عباد عدة أبواب منها: باب الفرج، وهو الذى دخل منه المرابطون إلى إشبيلية فى عهد المعتمد وسقطت المدينة على أيديهم من ثم ويعرف اليوم بباب شريش (Jerez)، ثم باب جهور الذى عرف فيما بعد بباب اللحم Puerta de carne فى الجهة الشرقية من السور. ويقول السيد عبد العزيز سالم فى معرض ذكره لأبواب إشبيلية الأخرى: (.. ثم كان يليه باب قرمونة فى القطاع الشمالى الشرقى من السور. وكذلك وصل إلينا باسم باب حميدة، وكان ينفتح فى سور إشبيلية الغربى فى العصر الأموى، وكان هذا الباب يفضى إلى مقبرة الفخارين، كما وصلنا اسم باب آخر من أبواب سور إشبيلية زمن الفتنة هو باب الصباغين. وكان ينفتح فى السور من جهة القصر، ولعله كان يقع فى الركن الجنوبي الشرقي من المدينة مابين بابي

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: نفس المقال، ص٣٣ - ٣٤.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: نفس المقال، ص٣٤.

(٣) عن الجهود المرابطية والموحدية فى ترميم سور إشبيلية - انظر: السيد عبد العزيز سالم: المقال السابق، ص٣٥ - ٣٦.

الفرج وجهور. ونضيف إلى هذه الأبواب بابا يعرف بباب عنبر. ثم باب أبى القليص وكان من الأبواب الغربية ومنه كان يتم الخروج إلى الشرق)[١].

القصـــور :

أشرنا من قبل إلى أنه قد بنى فى بداية الفتح الإسلامى بجوار المسجد الجامع، قصر الحكم المعروف بدار الإمارة. وقد تم بناؤه على فترات متتابعة بدأت منذ الفتح الإسلامى لإشبيلية وقد وضع أساس هذا القصر عبد العزيز بن موسى بن نصير، ثم قام ولاة إشبيلية بعد ذلك وعلى فترات متباعدة بتجديده وتوسيعه، وقد عمل له سور صخرى وأبراج منيعة حتى عهد العباديين. .

وقد سكن العباديون فى بداية نشأة دولتهم فى هذا القصر. واتخذه القاضى بن عباد مقرا وسكنا له[٢]. والواقع أن هذا القصر المعروف باللغة الأسبانية الكازار مازال كما يقول محمد عبد العزيز مرزوق[٣] (فى حاجة ماسة إلى أبحاث عميقة من الناحية الأثرية والفنية، ومن الناحية التاريخية أيضا لإثبات ما إذا كان من إنشاء العرب أو الأسبان بعد خروج العرب من البلاد). .

فعبد الرحمن الحجى ومحمد عبد الله عنان يعتقدان أن هذا القصر هو ذاته قصر الإمارة الذى اتخذه الذين قاموا بتجديده وتوسعته، وأن المعتمد بن عباد عندما تولى الملك زاد فيه ووسعه وأنقه وفرشه بفاخر الأثاث والرياش، وسماه المبارك وهو الذى ورثه بعد ذلك الموحدون فالمسيحيون بعد ماسقطت إشبيلية فى أيديهم[٤].

أما محمد عبد العزيز مرزوق[٥] فيرجح أن هذا القصر المعروف بالكازار قد شيد

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: نفس المقال، ص٣٧ .

(٢) عبد الرحمن على الحجى: أندلسيات، نشر دار الإرشاد للطباعة والنشرة ط١، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م، ص١٦٥ - ١٦٦

(٣) الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس: نشر دار الثقافة، بيروت، لبنان، حاشية رقم «١»، ص٩٢ .

(٤) عبد الرحمن على الحجى: نفس المرجع أعلاه، ص١٦٥ -١٦٦ . محمد عبدالله عنان: الأثار الأندلسية الباقية، ص٥٨ .

(٥) الفنون الزخرفية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص٩٢ .

فى عهد ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله وأنه هو الذى شيده، وهو الذى ورثه الموحدون بعد ذلك وجددوه وزينوه وزخرفوه، ثم جاء المسيحيون فزادوا فيه وزخرفوه بالزخرفة الأندلسية المغربية فى عهد الملك بدر والقاسى.

أما السيد عبد العزيز سالم فيرجح أن قصر المبارك هذا أنشأه المعتمد بن عباد. ويرجح كذلك أنه قد أقامه لمحاكاة خلفاء بنى أمية بقرطبة(١).

ويقول السيد عبد العزيز سالم عن هذا القصر (وكان القصر المبارك يشتمل على مجالس منها قصر الثريا الذى كان يتوسط المبارك توسط الخال فى الوجه، وقصر الوحيد الذى قرأناه فى شعر ابن اللبانة. ونعتقد أن الوحيد مجلس من المجالس الرئيسية بالقصر المبارك. أما الروضة فكانت تشغل ركنا من بساتين القصر، وفيها دفن المعتمد بن عباد أباه المعتضد فى نفس التربة التى دفن فيها القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل. ويغلب على الظن أنها كانت تقع لصيق قصر الإمارة القديم. وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لأنفسهم روضة خارج باب جهور خصصت للسادة، وكان للقصر بركة نصب فى جانبها تمثال فيل يمج الماء من فيه، وقد وصف عبد الجليل وهبون هذا التمثال فقال:

ويقرع فيه مثل البصل بدع من الأفيال لايشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا تراه قلما يخشى هزالا

وكثيرا ما كان المعتمد يجلس على حافة البركة فى الأمسيات ويأمر بإيقاد الشموع ويمتع نظره برؤية المياه تنساب من الفيل إلى البركة وضوء الشموع الناهت يمتد شاحبا شحيحا فيما حوله(٢).

وقد تفنن الأدباء والشعراء فى وصف هذا المنظر، وفى وصف ذلك القصر. ومنهم ابن زيدون الذى شبه قصر الثريا الذى يتوسط قصر المبارك كخال يتوسط وجنة فيقول: (٣)

أما الثريا فالثريا نصبة وإفادة وأناقة وجمالا

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: المقال السابق، ص٣٨.

٢) السيد عبد العزيز سالم: نفس المقال، ص٣٩.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: نفس المقال، ص٣٠.

وتمثل القصر المبارك وجنة قد وسطت فيها الثريا خالا

وأياً ما كان الأمر فقد كان قصر المبارك أحد القصور العبادية الرائعة، وقد تألق المعتمد فى زخرفته وتأنيقه وفرشه، وهو الذى كان يتذكره دائما فى منفاه بأغمات.

ومن القصور الأخرى التى أنشأها المعتمد بن عباد القصر الزاهر (أو قصر التاج. ويقع بتاج الشرف من إشبيلية على الضفة اليمنى من الوادى الكبير[١]. ويعرف أيضا بحصن الزاهر - أو الحصن الزاهر. وكان كما يقول ابن خاقان من أجمل المواضع لدى المعتمد، ومن أحب قصوره إليه (لإطلاله على النهر وإشراقه على القصر وجماله فى العيون واشتماله بالشجر والزيتون)[٢].

ومن القصور الأخرى التى كان يرتادها المعتمد القصر الزاهى وهو غير القصر الزاهر وهو الذى كان يتشوق إليه حنينا فى منفاه بأغمات. وكان له قبة تعرف بسعد السعود غاية الروعة والإبداع[٣].

وبالإضافة إلى هذا القصر كان للمعتمد عدة قصور أخرى فى إشبيلية منها: المؤيد، والمكرم وغير ذلك. وقد وصف ابن بسام فيما ينقله عنه المقرى قصرا للمعتمد لم يذكر اسمه يقول عنه إنه كان رائعا وإنه قد أقيم فيه تمثال فيل من الفضة على حافة بركة وقد أوقد بجواره شمعتين. وكان الفيل يقذف بالماء، وقد تفنن الأدباء والشعراء فى وصف هذا المنظر، وفى وصف ذلك القصر[٤].

ومن القصور الأخرى التى أتحفتنا كتب الأدب بذكرها قصر الشراجيب فى مدينة شلب، وقد رأينا المعتمد ينظم عدة أبيات يتغنى فيها بالأيام التى قضاها هو ووزيره ابن عمار فى ذلك القصر، عندما ولاه أبوه حكم مدينة شلب بعد سقوطها فى يده[٥].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: المقال السابق، ص٤٠ .

(٢) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص٢٧

(٣) انظر المقرى: المصدر السابق، جـ٦، ص١١ وكذلك حاشية رقم ٢، ص١١ - السيد عبد العزيز سالم: المقال السابق، ص٤٠ .

(٤) المقرى: نفح الطيب جـ٥، ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٥) انظر محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية، ص٤٤ . رضا الحبيب السويسى: ديوان المعتمد بن عباد، ص١٥٩

أمـا المعتضـد فلم تسعفنا كتب التاريخ والأدب بذكر أوصاف القصور التى بناها، فضلا عن أسمائها، وكل ما عرفناه عنه فى هذا الصدد أنه كان مولعا ببناء القصور السامية الفخمة.

هذا كل مانعرفه عن جهود العباديين العمرانية على وجه التدقيق. أما بالنسبة للمنشـآت المـدنية فى الدولة، فلا نعرف عنها شيئا البته، وكل ما نعرفه في هذا الصدد ما أورده ابن سعيد عن مدينة طريانة إحدى المدن التابعة لمملكة إشبيلية، فقد قال: (هذه مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة إشبيلية، وهي مسورة من جهة الصحراء، وفيها الحمامات والأسواق الضخمة، وقد بنيت على تاج مطل على النهر، ومناظرها التى من جهة النهر، سن فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها ومن لاينهض إلى ذلك، فيبنى من جهـة الصحـراء، ولايترك يبنى من جهة النهر، فجاءت بديعة فتانة المنظر أكثر شراجيبهـا منقـوشة مذهبة تخطف الأبصار، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ماهو مشهور فى البلاد)[1].

(١) المغرب فى حلى المغرب، جـ١، ص٢٩٣.

خاتمــة

كان القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى من القرون الفاصلة فى تاريخ أسبانيا الإسلامية والنصرانية معا . . وقد شهد أحداثا جساما، وترتب على هذه الأحداث نتائج خطيرة. ففيه سقطت الدولة الأموية التى كانت قد بلغت الأوج قوة وازدهـارا، صريعـة أخـطاء سياسية آنية، وصريعـة ظروف اجتماعية وعنصرية وجغرافية وسياسية أيضا. وترتب على سقوطها أن تصدعت وإلى الأبد وحدة الأندلس. وقام على أثر سقوطها أنظمة محلية اتخذت من كل مدينة أو معقل من المعاقل مكانا أسست فيه دولة لها، مستغلة تفتت وحدة الدولة وانتثار عقدها. هذه الأنظمة هى التى عرفت تاريخيا بممالك الطوائف، وقد تأسست آنذاك من الفئات الاجتماعية المتناحرة: العرب والبربر والصقالبة، وبلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة.

وانتهجت هذه الـدويلات سياسـة خاطئة، وممارسات بعيدة عن مصلحة الدين والوطن والرعية وقضت أوقاتها فى حبك المؤامرات ضد بعضها البعض، حتى لقد كانت سياسة هذه الممالك الاقليمية الضيقة أحد عوامل زوال الوجود الإسلامى فى الأندلس.

وكان من جراء سقوط الدولة الأموية ومن ثم قيام ممالك الطوائف وما مارسته من سياسـة خاطئـة أن اشتـد ساعد المقاومة النصرانية. فعملت ـ وقد أتاح لها المسلمون ذلك ـ على إبعاد المسلمين من أرض الأندلس، وانتهجت كل مملكة من الممالك النصرانية سياسة تهدف إلى عودة سيادة الأسبان على أراضيهم فيما عرف تاريخيا بحركة الاسترداد النصرانية، حتى لقد صرح مبلور حركة الاسترداد ومنظمها آنذاك فرديناند الأول ملك قشتالة بهذا المطلب، وخاطب ملوك الطوائف بقوله: (إنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم، وقد سكنتموها ماقضى

لكم . وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا . . إلخ) .

وترتب على ظهور حركة الاسترداد المسيحى عدة نتائج منها : أن ممالك الطوائف قعدت بها خلافاتها الإقليمية ، ومصالحها الذاتية الضيقة عن أن تقاوم تلك الحركة . فظلت واقفة لاتحير شيئا أمام الضربات النصرانية التى توالت عليها ، إلى أن أدى بها تقاعسها وخلافاتها إلى سقوط طليطلة واسطة عقد الأندلس ، كما ذكرنا مرارا . فهبت هذه الممالك متأخرة طالبة النجدة من قوة العدوة المغربية الفتية آنذاك وهى المرابطين .

فكان التدخل المرابطى الذى ترتب عليه تمديد أجل البقاء الإسلامى فى الأندلس أربعة قرون أخرى . وترتب على ذلك بالإضافة إلى هذا أن غدت الأندلس بدءا من التدخل المرابطى وحتى زوال الوجود الإسلامى فى أسبانيا فى عهدى فردنياند وإيزابيلا تدور فى الفلك المغربى . وبات المغرب مناط أحلامها فى كل خطب وملمة .

وبالإضافة إلى ما استطعنا التوصل إليه فى عرضنا لأحداث ذلك القرن ، أى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى . توصلنا إلى نتائج تاريخية منطقية . وهى أن الأندلس بحكم أوضاعها الجغرافية والعنصرية كانت دائما فى حاجة ماسة إلى قوة مركزية حازمة ، تمد سلطانها على معظم أرض الأندلس مستندة على سواعد ملوك أقوياء ذوى همة وجأش غير عاديين . . وهذا يقودنا بالضرورة إلى القول بأن القاعدة فى أسبانيا التفكك . . وماعداها فهو الشاذ ولذلك فهى فى حاجة دائما إلى قوة مركزية حازمة شديدة تحكم قبضتها على ذلك البلد المتشعب الأجناس والأعراق ، الوعر المسالك والدروب .

وخلصنا كما خلص غيرنا أيضا إلى حقيقة مؤلمة وهى أن أدوات السقوط لأى دولة قديما وحديثا واحدة ، تتمثل فى الخيانة والانحلال ، والأثرة . والمصالح الذاتية الضيقة . وأن هذه الصفات التى ذكرناها هى السبب المباشر فى سقوط ممالك الطوائف . كما خلصنا إلى نتيجة مؤسفة ، وهى أنه على الرغم من أن التاريخ يعيد نفسه إلا أن ملوك الطوائف لم يأبهوا إلى تدارك أخطاء أسلافهم وأخطاء بعضهم ،

كما لم يعملوا على تحقيق الوحدة والتآلف فيما بينهم إزاء هذا الخطر النصراني الموجه إليهم جميعا كأن ماكان يحدث لإخوانهم من عنت وجور لايفضى إليهم أو كأنهم فى منأى عنه !! . .

وقد قادنا هذا إلى التذكير دائما بأن قدر المسلمين هو الوحدة والتآلف وجمع الشمل، ونبذ الفرقة والخلاف، بها وحدها ـ بعد المشيئة الإلهية ـ يتم لهم التمكين والنصرة والعزة، وبدونها لاتقوم لهم قائمة، ولايعز لهم جانب.

ذلك هو قدر المسلمين، وتلك هى مشيئة الله فيهم. وقد نسى الأندلسيون هذا أو تناسوه فباؤوا بالخسران، وسقطت بلادهم أخيراً بيد النصارى، وزال الوجود الإسلامى فى الأندلس وأصبحنا ننعتها بالفردوس المفقود . .

على أننا استطعنا وسط هذا الجو من التفكك والانحلال السياسي أن نركز على مفارقة تاريخية حضارية وهي أنه بالرغم من ذلك التفكك فقد شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أبرز صور الإشراق الحضاري والثقافي، حتى أصبح ـ مع ما في ذلك من الغرابة ـ نقطة مضيئة فى تاريخ الأندلس تغطي بألقها وإشعاعها صفحات من التاريخ السياسي قاتمة داكنة.

وفيما يتعلق بأسبانيا النصرانية، فقد استخلصنا عدة نتائج منها، أنها قد انتهجت سياسة الاسترداد المسيحي على مسمع ومرأى، بل وفي بعض الأحيان بمشاركة من المسلمين. بل إن أهم ما استخلصناه بالنسبة لممالك النصارى، هو أنها كانت محظوظة فما كانت لتحقق ما حققته لولا أن الأندلسيين أتاحوا بسياستهم الخاطئة لها الفرصة لتحقيق سياستها الهادفة إلى انتزاع أراضي الآباء والأجداد، كما كانوا يصرحون دائما.

ولاحظنا في عجب أن ملوك الممالك النصرانية لم يكونوا أصدق حساً في وطنيتهم من المسلمين. فلم يكن يحكم تصرفاتهم الغيرة الوطنية والمصلحة القومية فحسب، وإنما كانت الأثرة والأهواء الشخصية هي التى تحكم تصرفاتهم وأفعالهم غالبا، فهذه هي روح العصر في أسبانيا الإسلامية والنصرانية على السواء.

ومع ذلك فقد لاحظنا أن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين، فقد كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه قضية حق وتراث شرعي

لهم وقع قوة تحت يد أجنبية، وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد.

لاحـظنا ذلك من خلال تحليلنا لظروف قيام مملكة بني عباد، ولاحظناه من خلال سياسة هذه المملكة وغيرها من ممالك الطوائف.

وفيما يتعلق بمملكة بني عباد، فقد أعطيناها حقها من البحث والدراسة، ولم نقصر أو نتوان في مناقشة سلبياتها وإيجابياتها. وناقشنا فيما يبدو لنا أنه ضرب من التحليل المـوضـوعي التـاريخي مسألة ظهور الخليفة الأموي هشام الذي ادعى العباديون أنهم مفوضون في حكم الأندلس من قبله ووضعنا فيما يتراءى لنا ملوك الدولة العبادية وخاصة المعتمد بن عباد على المحك، وناقشناه في سياسته وأعماله، وأنحينـا بالـلائمة عليه في مواطن استحقها. وإن كان هذا لم يدفعنا إلى إغفال الإشارة إلى إيجابياته وحسناته.

وقد قادنا هذا إلى مناقشة مسألة الاستعانة بالمرابطين، وشرحنا في تحليل واسع هذه القضية وخلصنا إلى القول بأنه لو لم يبادر الأندلسيون عامة والمعتمد خاصة لاسيما بعد اشتداد حركة الاسترداد المسيحي باستدعاء المرابطين إلى الأندلس لكان المرابطون أقدموا على ذلك من تلقاء أنفسهم تحت ضغط ظروف وأسباب دينية وسياسية وأمنية.

ملحق رقم (١)[1]

خطاب ألفونسو السادس للمعتمد بن عباد

الذي يتهدده فيه ويتوعده ويطلب منه أداء الإتاوة له

من الأنبيطور ذي الملتين الملك المفضل الأدفنش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت في ربعه المنى، باهتزاز الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها وما حاق بأهلها حين حصارها، فاسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد بيننا نحفظ ذمامة، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار، يقطع الأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشي الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا على الرسالة إليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي تلقى به أمثالك، والعقل الذي تدبر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك، وبين يديك.

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٥-٢٦.

ملحق رقم (٢)[1]

رد المعتمد بن عباد على خطاب ألفونسو يعلن له فيه رفضه لمطالبه واستعداده هو وملوك الطوائف لمنازلته

من الملك المنصور بفضل الله، المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله، أبي عمر بن عباد إلى الطاغية الباغية اذفنش بن شانجة الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنه أول ما نبدأ به من دعواه، أنه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الاسم لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومحبى المملكة لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة قلت في أثنائها ليس، ولا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك،[2] برأى. لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار، وينعاهم المنام في القفار، يديرون رحى المنون بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخوَاتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلادا رتبه الاتفاق، وشفارا حدادا شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين يد صاعدة، أو وقفة متساعدة، إلا ذل

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٠ ـ ٣٢

(٢) العبارة في الأصل: استجعالك، فجعلتها استعجالك إقتضاءً للسياق.

تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرك على طلب مالا تدركه قوم كالحمق لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر(٢) ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم. وتدبير أمرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك، بما الموت دونه وبالله نستعين عليك، ولا نستبطأ في مسيرتنا إليك، والله ينصر دينه الكريم ولو كره الكافرون والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه.

---

(١) الآية الكريمة: ﴿لايقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾، وقد جاءت في الأصل (حذر)، سورة الحشر آية ١٤

ملحق رقم (٣)[1]

خطاب المعتمد إلى يوسف بن تاشفين يطلب منه معاونة إخوانه المسلمين في الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين، محيى دعوة الخلافة الإمام أمير المؤمنين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين (من) القائم بعظيم إكبارها، الشاكر لإجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، الآيد بحزمها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله وبطولها، محمد بن عباد سلام الله يخص الحضرة العلية، المعظمة السامية، ورحمة الله وبركاته وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غرة جمادي الأولى سنة ٤٧٩ وأنه أيد الله أمير المسلمين، ونصر به الدين، فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من صنيعتنا، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر فقل ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش وأناخ علينا بكلكله ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاؤوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكهـا الأكـبر وأمـيرهـا وزعيمهـا نزعت بهمتي إليكم، واستنصرت بالله وبكم، واستعنت بحـرمكم لتجـوزوا لجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعـة الإسلام، وتذبون عن دين محمد عليه الصلاة والسلام، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السامية، ورحمة الله وبركاته).

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ٣٢ ـ ٣٥ .

ومما كتب في استدعائه من إنشاء كتابه وينسب لأبي بكر بن الجد: إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين وزعيم المرابطين، أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين، نور الله به الآفاق، وجمل ببهائه الجيوش والرفاق، من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بن عباد سلام على حضرة تجدد إيمانها، واشتهر أمانها، أما بعد فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف، وأنعم على عباده بأمر جديد، قوم أولى بأس شديد، وتطول علينا بمعلوم جدك، ومشهور جدك، وقد جعلك رحمة يحيى غيثها ربوع الشريعة، وخلقك سلما إلى الخير وذريعة، وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كل هم، وهمت النكبات بوقوعه دهم، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين، واختلاف سببه لم تطرق له في الدعة عين، يقوى ونضعف، ويتفق ونختلف وننام مطمئنين من آفات الزمان، وتناسخ الأمان، وقد جاءنا إبراقه وإرعاده، ووعده وإيعاده، لنسلم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصلبان، ويستنيب بها الرهبان، ومما يطمعه[1] استمالته إيانا بالدعة، وإملاؤه في الرحب والسعة، استجرارا لما أبطنه، وإهجاما علينا وطنه، وقد وطد الله لك ملكا[2] شكر الله عليه جهادك، وقيامك بحقه واجتهادك، ولك من نصر الله الخير باعث يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا فقطوف دانية، وجنات عالية، وعيون آتية، وإن أردت الأخرى فجهاد لا يفتر، وجلاد يجز الغلاصم ويبتر هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم، وإجمال معروفكم، نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين: **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾**.[3] والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها، ونعمة الإسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين، وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته.

---

(١) العبارة في الأصل: ومما يطعمه، فجعلتها يطمعه اقتضاء للسياق

(٢) العبارة في الأصل: وقد وطد الله له، فجعلتها وطد الله لك اقتضاء للسياق.

(٣) التوبة، آية ١٤

ملحق رقم (٤)[1]

خطاب يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد يخبره بموافقته على طلبه لنصرته ونصرة المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، من أمير المسلمين، وناصر الدين، معيد دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله، المعتمد على الله، أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإنه وصل خطابكم المكرم فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان قلة حماية جيرانك فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى وأنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا فإن رأيت ذلك فاشهد به على نفسك وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٣٧-٣٨.

ملحق رقم (٥)[1]

خطاب ألفونسو السادس ليوسف بن تاشفين الذي يتحداه ويتهدده هو وملوك الطوائف

من أمير الملتين أذفنش فرنداه إلى الأمير يوسف بن تاشفين أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة المسلمية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار، وأهتك الأستار، وأقتل الشبان، وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على كل واحد منكم بعشرة منا وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم، وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعا، ولا تستطيعون امتناعا، وبلغنا عنك أنك في الاحتفال عن نية الإقبال، فلا أدرى أكان الجبن يبطيء بك، أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب تجوز إليك، وأناصرك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت إليك، ونعمة مثلت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العيا واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة.

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يكتب إليه على ظهر كتابه جواباً يا أدفنش ما تراه لا تسمعه إن شاء الله وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبى:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا   ولا رسل إلا الخميس العرعوم

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٩ـ٣٠.

المصادر والمراجع والدوريات

المصـادر:

ابن الأبار : (ت ٦٥٨هـ).

(١) الحلة السيراء، جزءان، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

(٢) أعتـاب الكتّـاب، حققـه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر، طبعة أولى، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

ابن الأثير: عزالدين أبوالحسن على بن محمد الشيباني الجزرى (ت ٦٣٠هـ).

(٣) الكامل في التاريخ، ٩ أجزاء، تحقيق نخبة من العلماء، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

ابن بسـام: (ت ٥٤٢هـ):

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

ـ القسم الأول: المجلد الثاني، نشر وتحقيق لجنة من جامعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م.

ـ القسم الثاني: المجلد الأول، تحقيق لطفي عبدالبديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٥م.

ـ القسم الثالث: المجلد الأول، نشر تحقيق لجنة من جامعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م.

ابن بشـكوال : (ت ٥٧٨هـ):

(٥) الصلة في تاريخ علماء الأندلس، قسمان، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

البكرى: (ت ٤٨٧هـ):

(٦) جغـرافية الأنـدلس وأوربـا، من كتـاب المسـالك، تحقيق عبدالرحمن على

الحجى، طبعة أولى، بيروت دار الإرشاد، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.

ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ):

(٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءا، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

الحميـدى : (ت ٤٨٨هـ):

(٨) جذوة المقتبس في ذكـر ولاة الأنـدلس، القـاهـرة، الـدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

الحميري: (ت أواخر القرن الثامن الهجري):

(٩) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتصحيح وتعليق ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م.

ابن حزم: (ت ٤٥٦هـ):

(١٠) طوق الحـمامـة في الألفة والآلاف، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، قدم له إبراهيم الإبياري، القاهرة، مطبعة الاستقامة.

(١١) نقط العروس في تواريخ الخلفاء، بقلم شوقي ضيف، فصلة من مجلة كلية الآداب، المجلد الثالث عشر، الجزء الثاني مطبعة جامعة فؤاد الأول، ديسمبر ١٩٥١م.

ابن حيـان : (ت٤٦٩هـ):

(١٢) المقتبس من أنباء أهل الأندلس.

- قطعة تتناول عصر الحكم الربضى وجزءا من عصر عبدالرحمن الأوسط، تحقيق ونشر وتعليق محمـود على مكى، القـاهـرة، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب ٢١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١.

- قطعة تتناول عصر الحكم المستنصر، تحقيق عبدالرحمن على الحجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥.

ابن خاقان : (ت ٥٢٨ أو ٥٢٩هـ):

(١٣) قلائد العقيان في محاسن الأعيان، نسخة مصورة عن طبعة باريس، قدم له

ووضع فهارسه محمد العنابي بدار الكتب الوطنية بتونس، منشورات المكتبة العتيقة، تونس، سلسلة من تراثنا الإسلامي رقم ١، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(١٤) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، طبعة أولى، القسطنطينية، مطبعة الجوائب، ١٣٠٢هـ.

ابن الخطيب: (ت ٧٧٦هـ):

(١٥) الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣ مجلدات، تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

(١٦) أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني (تاريخ المغرب في العصر الوسيط) القسم الثالث من المخطوطة، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٤م.

(١٧) القسم الثاني من أعمال الأعلام، نشر أ. ليفي بروفنسال تحت عنوان (تاريخ أسبانيا الإسلامية) بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦م.

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ):

(١٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٣ مجلدات، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨.

(١٩) مقدمة ابن خلدون، بيروت، ١٩٦٥م.

ابن خلكان: (ت ٦٨١هـ):

(٢٠) وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، جزءان، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٨٣هـ.

ابن دحية : (ت ٦٣٣هـ):

(٢١) المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الابياري وحامد عبدالمجيد، مراجعة طه حسين، بيروت، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن زيري: عبدالله بن بلقين بن زيرى (ت بعد ٤٨٣هـ):

(٢٢) مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيرى بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥م.

ابن سعيد المغربي: (ت ٦٨٥هـ):

(٢٣) المغرب في حلى المغرب. حقق شوقي ضيف في جزئين منفصلين، القسم الثاني تحت عنوان وشى الطرس في حلي جزيرة الأندلس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤م.

السلاوى الناصرى: (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٣٥-١٨٩٧م):

(٢٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ١٠ أجزاء، الدار البيضاء، مطبعة دار الكتب، ١٩٥٤م.

السيوطى: ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م):

(٢٥) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة الفجالة الجديدة، الطبعة الرابعة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

ابن الشباط التوزرى: (ت ٦٨١هـ):

(٢٦) صلة السمط وسمة المرط. تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الرابع عشر، مدريد ١٩٦٧م.

ابن شاكر الكتبي: (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢-١٣٦٣م):

(٢٧) فوات الوفيات، جزءان، القاهرة، بولاق ١٢٩٩هـ/١٩٠١م.

الضبى: (ت ٥٩٨هـ - ١٢٠٢م.)

(٢٨) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، ١٩٥٥م.

ابن عذارى: (ت ٦٩٥هـ):

(٢٩) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٣ أجزاء، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة.

على بن أبي زرع الفاسي (عاش في القرن الثامن الهجري):

(٣٠) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، ١٩٣٦م.

ابن غالب الأندلسي: (محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى، عاش في القرن السادس الهجرى):

(٣١) كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، وهو قطعة من الكتاب تتعلق

بجغـــرافية الأنـدلس، نشر وتحقيق لطفي عبـدالبـديع، فصلة من مجلة معهـد المخطوطات، القاهرة، ١٩٥٥م.

الفيروز آبادي: (ت ٨١٧هـ):

(٣٢) القاموس المحيط، ٤ أجزاء، بيروت، دار الجبل.

ابن القطان (أبوالحسن على بن محمد الكتامى الفاسي، (ت ٦٣٨هـ - ١٢٣٠م):

(٣٣) نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود على مكي، نشر كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، الرباط، الجزء السادس، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

القلقشندى: (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م):

(٣٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءا.

ابن كثير : (ت٧٧٤هـ):

(٣٥) البداية والنهاية في التاريخ، ١٦ جزءا، نشر مطبعة السعادة القاهرة.

ابن الكردبوس: (ت أواخر القرن السادس الهجري):

(٣٦) الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٦٥م - ١٩٦٦م.

مجهول: (عاش في القرن الثامن الهجري):

(٣٧) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، نشر ى. س علوش، الرباط، مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية، ١٩٣٦م.

مجهول :

(٣٨) ذيل مضـــاف إلى البيان المغـرب، يتعلق بأخبـار بعض ملوك الـطوائف بالأنـدلس والمغـرب، لمؤلف مجهـول الاسم مبتـور الأول والآخـر، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة.

مجهول : (عاش بعد سنة ٧١٢هـ سنة تأليف الكتاب):

(٣٩) نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتـاب مفاخر البربر، نشر ليفي بروفنسال، الرباط، مطبوعات معهد العلوم المغربية، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤م.

المراكشى : أبومحمد عبدالواحد بن على التميمىٰ (ت ٦٤٧هـ) :

(٤٠) المعجب في تاريخ أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة تحقيق التراث الإسلامي، الكتاب الثالث، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

المراكشى : محمد بن عبدالملك (ت ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م) :

(٤١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، قسمان، قاموس عام لرجال الأندلس ومن وصل إليها من المغاربة والمشارقة في آخر القرن السابع الهجري، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة.

المقرى : (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) :

(٤٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان بن الخطيب، تحقيق وتعليق محمد محيى الدين عبدالحميد، ١٠ أجزاء، مطبعة السعادة، طبعة أولى، القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م.

الميداني : (ت ٥١٨هـ) :

(٤٣) مجمع الأمثال، جزءان، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

النباهى : (كان حيا سنة ٧٩٣هـ) :

(٤٤) تاريخ قضاة الأندلس (سماه المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٣٧م.

المراجـــع :

إحسـان عباس :

١ـ تاريخ الأدب العربي ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ ، سلسلة المكتبة الأندلسية رقم ٣، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ .

٢ـ ديوان ابن حمديس، نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م .

أحمد إبراهيم الشعراوي :

٣ـ الأمويون أمراء الأندلس الأُول، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م .

أحمد هيـكل :

٤ـ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، مكتبة الشباب، طبعة ثانية، ١٩٦٣م .

أحمد مختار العبادي :

٥ـ في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية .

أ. ليفي بروفنسـال :

٦ـ الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى، مراجعة لطفي عبدالبديع، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م .

٧ـ حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت، مكتبة الحياة .

٨ـ سلسلة محاضرات عامـة في أدب الأنـدلس وتاريخها، ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة، وعبدالحميد العبادي، القاهرة، كلية الآداب، جامعة فاروق الأول، ١٩٥١م .

أميليو غرسيه غومس :

٩ـ الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م .

آنخل جنثالث بالنثيا :
١٠- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.
جودت الركابي:
١١- في الأدب الأندلسي، ط ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥م.

حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن:
١٢- النظم الإسلامية، ط ٤، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
حسن محمود:
١٣- قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م.
حسين مؤنس :
١٤- شيوخ العصر، المكتبة الثقافية، ١٤٦، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥م.

خالد الصوفي:
١٥- تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بني جهور)، دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٥٩م.
رجب محمد عبدالحليم:
١٦- دولة بني حمود في مالقة بالأندلس (رسالة ماجستير)، مقدمة لكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م. (لم تطبع).

رضا الحبيب السويسي:
١٧- ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، تونس، الدار التونسية، ١٩٧٥م.
رينهرت دوزي:
١٨- ملوك الطوائف وهو الجزء الذي ترجمة كامل الكيلاني من كتاب تاريخ مسلمي أسبانيا، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ/١٩٣٣م.
سعيد عبدالفتاح عاشور:
١٩- أوروبا في العصور الوسطى، جزءان، القاهرة، ١٩٦١م.

السيد عبدالعزيز سالم:

٢٠ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢م.

٢١ـ المساجد والقصور في الأندلس، سلسلة اقرأ، عدد ١٨٠، أكتوبر، ١٩٥٨م.

شكيب أرسلان:

٢٢ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ٣ أجزاء، بيروت، دار مكتبة الحياة.

صلاح خالص:

٢٣ـ محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية وتاريخية لألمع شخصية سياسية في تاريخ دولة بني عباد في إشبيلية، بغداد، مطبعة الهدى، ١٩٥٧م.

٢٤ـ المعتمد بن عباد الإشبيلي، دراسة أدبية وتاريخية لقطب الحركة الأدبية وأبرز سلاطين الأندلس في عصر ملوك الطوائف. بغداد، نشر شركة بغداد للطبع والنشر والتوزيع المحدودة، ١٩٥٨م.

٢٥ـ إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية وتاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، ٤١٤ـ٤٦١هـ، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥م.

عبادة كحيلة:

٢٦ـ المولدون في التاريخ الأندلسي منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر الإمارة (رسالة ماجستير) مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م. (لم تطبع).

على أدهم:

٢٧ـ المعتمد بن عباد، سلسلة أعلام العرب رقم ٢، القاهرة، مكتبة مصر.

على حبيبة:

٢٨ـ مع المسلمين في الأندلس، طبعة ثانية، جدة، دار الشروق للنشر والطباعة.

على عبدالعظيم:

٢٩ـ ديوان ابن زيدون ورسائله، القاهرة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٧م.

عبدالحق حموش:

٣٠ـ ابن تاشفين، الدار البيضاء، دار الكتاب.

عبدالرحمن على الحجى:

٣١ـ أندلسيات، الطبعة الأولى، بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

عبدالسلام الطود:

٣٢ـ بنو عباد بإشبيلية، مطبعة كريمادس، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

عبدالكريم التواتي:

٣٣ـ مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٦٧م.

عبدالمنعم ماجد:

٣٤ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م.

٣٥ـ العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦م.

عبدالوهاب عزام:

٣٦ـ المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩م.

عمر رضا كحالة:

٣٧ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٥ مجلدات، طبعة ثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

كامل كيلاني:

٣٨ـ نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، الطبعة الأولى، نشر المكتبة التجارية بأول شارع محمد على، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

ل. أ. سيديو:

٣٩ـ تاريخ العرب العام، امبراطورية العرب، حضارتهم، مدارسهم الفلسفية

والعلمية والأدبية، ترجمة محمد عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

لطفي عبدالبديع:

٤٠ـ الإسلام في أسبانيا، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

محمد بركات البيلي:

٤١ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إشبيلية في عصر بني عباد، (رسالة ماجستير) مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م (لم تطبع).

محمد عبدالله عنان:

٤٢ـ دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى عهد الناصر ـ العصر الأول، القسم الأول، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٣ـ دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، القسم الثاني، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٤٤ـ دولة الإسلام في الأندلس: الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٤٥ـ دولة الإسلام في الأندلس: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٤٦ـ دولة الإسلام في الأندلس: عصر المرابطين والموحدين، العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٤٧ـ الآثار الأندلسية الباقية، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٤٨ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٤٩ـ مواقف حاسمة: الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م.

محمد عبدالعزيز مرزوق:

٥٠ـ الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، دار الثقافة.

محمد كـرد على
٥١- الإسلام والحضارة العربية، جزءان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م.
٥٢- غابر الأندلس وحاضرها، القاهرة، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٣م.
مصطفى الشكعة:
٥٣- الأدب الأنـدلسي موضـوعـاتـه وفنونه، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٣م.
مانويل جوميث مورينو:
٥٤- الفن الإسلامي في أسبانيا، ترجمة لطفي عبدالبديع والسيد محمود عبدالعزيز سالم، مراجعة جمال محرز، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧م.
هشام سليم عبدالرحمن أبورميلة:
٥٥- نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة (رسالة ماجستير)، مقدمة إلى كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٥م. (لم تطبع).
يوسـف أشـباخ:
٥٦- تاريخ الأنـدلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة، مؤسسة الخانجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

57- J. B. BURY M.A., F.B.A., THE CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY., VOLUME VI, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY, PRESS. 1929
58- JAN READ: THE MOORS IN SPAIN AND PROTUGAL, LONDON. 1974
59- JOSEPH. F. O'CALLAGBAN : A HISTORY OF MEDIEVAL SPAIN., CORNELL UNIVERSITY. PRESS LONDON 1974.
60- LAVOIX, H : CATALOUGE DES MONNA IES MUSULMANES DELA BIBLIOTHEQUE NATIONALE, ESPAGNE ET AFRIQUE , PARIS. EMPRIMERIE NATIONALE, MDGGG, XCI.
61- MILES, C : COINAGE OF THE MULUK OF TAWAIF, 2 VOLS, NEY YORK, 1948

الدوريات:

إبراهيم حركات:

١ـ حياة المعتمد بن عباد في الأندلس كشاعر. مجلة البحث العلمي المغربي، ١٩٥٦.

أحمد مختار العبادي:

٢ـ دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية، العدد الخامس، السنة ١٩٦٠م.

٣ـ الصقالبة في أسبانيا، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث عشر، السنة ١٩٥٣م.

حسين مؤنس:

٤ـ السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول، سنة ١٩٥٠م.

٥ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مجلة معهد الدراسات الإسلامية المصري بمدريد، المجلد الثاني، العدد ١ ـ ٢، سنة ١٩٥٤م.

خليل إبراهيم صالح السامرائي:

٦ـ الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زانكو العلمية الإنسانيات، نيسان، ١٩٧٧م.

خوسيه ماريا مياس بيكروسا:

٧ـ ابن بصال، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، زاوية نقد وعرض، المجلد الخامس، العدد ١ـ٢، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

السيد عبدالعزيز سالم:

٨ـ مقال بعنوان: تحقيق أسماء قصور بني عباد بإشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون، مجلة أوراق، مجلة ثقافية يصدرها المعهد الأسباني العربي للثقافة، العدد الثاني، ١٩٧٩م.

الصديق بن العربي :

٩ـ شعر المعتمد فى منفاه ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٥م .

عبدالسـلام الهـراس :

١٠ـ ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، ١٩٥٥م .

عبدالقادر زمامـة :

١١ـ المعتمد بن عباد في المغرب ، مجلة البحث العلمي المغربي ، ١٩٦٥م .

ليبولدو توريس بلباس :

١٢ـ الأبنية الأسبـانية الإسـلامية ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، العدد الأول ، المجلد الأول ، السنة الأولى ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

محمود على مكـي :

١٣ـ وثـائق تاريخية جديدة في عصر المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية المصري بمدريد ، المجلد السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠م .

محمد الفاسي :

١٤ـ المؤرخان ابن أبي زرع وابن عبدالحليم ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٠م .

مصطفـى القـصرى :

١٥ـ الشعـر في خدمـة الحقيقة والتاريخ . مجلة البحث العلمي (المركز الجامعي للبحث العلمي) العدد الأول ، السنة الأولى ، أبريل ١٩٣٤م .

16- ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BEN ABOUD:
AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR DHU -L-MILLATAYN, IN BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDINBURGH.

17- MUHAMMAD BENABOUD YANAUS MACKAY:
THE AUTHENTICITY OF AL FONSO VI's LETTER TO YUSUF B. TASUFIN, IN AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC, I.

فهرست